



كلية الكوت الجامعة
مركز البحوث والدراسات والنشر



ISBN: 978-9922-685-27-4

اللغة والحضارة

دراسة في ضوء علم اللغة الحضاري

الاستاذ الدكتور

علي زوين

٢٠٢٣م

منشورات

مركز البحوث والدراسات والنشر
كلية الكوت الجامعة



٤١٠ / ٧

ز ٩٩٩ زوين ، علي.

اللغة والحضارة (دراسة في ضوء علم اللغة الحضاري) /

علي زوين. - ط ١. - بغداد: مطبعة الرفاه، ٢٠٢٣

٥٢٢ ص؛ ٢٤ سم.

١- اللغة العربية - دراسات - ٢- الحضارة - أ- العنوان.

٠.٩.٠

٢٠٢٣ / ٤٧٥

المكتبة الوطنية/الفهرسة اثناء النشر

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

٤٧٥ لسنة ٢٠٢٣ م

الرقم الدولي: ISBN: 978-9922-685-27-4

ملاحظة

مركز البحوث والدراسات والنشر في كلية الكوت الجامعة
غير مسؤول عن الافكار والرؤى التي يتضمنها الكتاب
والمسؤول عن ذلك الكاتب او الباحث فقط.

مقدمة :

يبحث هذا الكتاب الذي بذلت فيه جهداً حثيثاً ومتواصلاً الظاهرة اللغوية من خلال صلتها بالحضارة ، ولذلك تعددت المظانّ وتنوعت في استخراج حصيلة جامعة يجمعها الفهم الدلالي للكلمات والعبارات والنصوص من خلال فهم دلالاتها الحضارية والثقافية سلباً وإيجاباً. وبعد جمع ما أمكن جمعه من مواد الدراسة والتحقيق والتعليق والردّ والنقد والاستدراك والاستصواب اقتضت الطوائف المجتمعة تقسيم الكتاب على ستة مباحث بعد المدخل الذي يُعدّ الأساس في فهم ما أدعيه بعلم اللغة الحضاري ، تتناول الأول العوامل الثقافية ، والثاني الرمز والأسطورة ، والثالث صراع اللغات ، والرابع العوامل السياسيّة ، والخامس العوامل الدينيّة والاجتماعيّة، والسادس العوامل الإداريّة والاقتصاديّة، وعوامل متنوعة .

وتوصل البحث الى نتائج مهمة جديدة أو مستجدة رفدت النظرة العامة والرؤية المتأصلة للفهم الحضاري للغة عبر تأريخها الطويل وحاضرها ومستقبلها.

ومثل هذه الدراسات تعتمد على كثرة المصادر والمراجع وتنوعها ، لغوية كانت أو تاريخية أو حضارية وثقافية ، وقد أشرت الى المهم منها في خاتمة الكتاب.

وأما المنهج فهو منهج أدعيه لنفسه يجمع أصول ما يمكن تأليفه وتوليفه لاستنباط مدلول واحد هو (منهج علم اللغة الحضاري) موضعاً ذلك

بالتفصيل والأمثلة والشواهد والمقارنات بين اللغات في المدخل ومباحث الكتاب. ولعلي بذلك قد أفدت كثيراً مما كان يعنّ في نفسي ويجول في خاطري منذ سنين عدة راجياً من المولى العزيز القدير أن ينفع به من أراد نفعاً، وداعياً إياه أن يجعل ثوابه وجزاءه خير الثواب والجزاء في الدنيا والآخرة، إنه نعم المولى وقد آمنَ مَنْ آمنَ به...

المدخل

علم اللغة الحضاري : الأصول والمنهاج

وردت تعريفات عديدة بالحضارة عند المعنيين بالتأريخ والدراسات الحضارية وعلماء التاريخ والأنثروبولوجي الحضاري . وجماع هذه التعريفات اتخذت عنصرين أساسيين في مدلول الحضارة ، وهما : العنصر المادي للحضارة ، ويتمثل بالمدينة في مظاهرها المادية المختلفة ، والعنصر الثقافي ، وهو العنصر المعنوي للحضارة سواء كانت ظواهره مادية كالعلوم والمعارف العملية أو معنوية كالمعارف العقلية والفلسفية ، والعلوم ذات النمط النظري ، وأهمها علم الرياضيات؛ فالحضارة بهذين العنصرين يمكن تعريفها أو وصفها بأنها (تراث الإنسانية قديماً وحديثاً من حيث الترابط الكلي الذي لا يتجزأ) .

واختصر (توينبي) مفهوم الحضارة عنده بالأعمال الاجتماعية والأدبية إذ قال : " ... وأنا أقصد بالعصر الذي نعيش فيه : خمسة آلاف أو ستة آلاف الأخيرة من السنين التي وصل الإنسان خلالها الى ذلك المستوى المتواضع من الأعمال الاجتماعية والأدبية التي نطلق عليها أسم الحضارة بعد أن مضى عليه ما لا يقل عن ستمائة ألف سنة" (١).

ويتبين لنا من خلال هذا التعريف أن توينبي نظر الى العصر الذي نعيش فيه من حيث الترابط الزمني الامتدادي الذي لا يقل عن خمسة آلاف أو ستة آلاف سنة بعد أن اجتاز الإنسان ستمائة ألف سنة من زمن وجوده على الأرض . وهذا يعني أنه أرّخ للحضارة منذ أن عرف الإنسان الكتابة،

(١) الحضارة في الميزان : ٩١ .

وهو ما يصطلح عليه بـ (عصر ما بعد التأريخ) ، وأغفل حضارات ما قبل التأريخ على بساطتها المتناهية ، ثم وصف المستوى الذي بلغه الإنسان في المدة المذكورة آنفاً بالمستوى المتواضع، ويعني بذلك تدرج رقي الحضارات منذ نشأتها الى أن بلغت أعلى مستوياتها المنظورة في عصرنا هذا ، واقتصر في مفهومه عن الحضارة على عنصري الأعمال الاجتماعية والأدبية للإنسان، أي على العنصرين المادي والمعنوي في مدلول الحضارة. ويتسع بذلك معنى الأعمال الاجتماعية للإنسان ليشتمل على جميع نواحي الإنتاج المادي، في مقابل الانتاج المعنوي الذي وصفه بالأعمال الأدبية للإنسان.

ولكي نتضح لنا العلائق الوشيكة بين اللغة والحضارة لابد من تفسير بعض المفاهيم ذات الصلة باللغة والبحث اللغوي ، والمصطلحات المتعلقة بهما. ونبدأ بما تعارف عليه - اصطلاحاً - المعنيون بالدراسات اللغوية في علم اللغة الحديث وعلم الرموز العام ؛ فقد ظهر مصطلح (Semiology) ليدل على علم يشمل اللغة وغيرها ، وهو (علم الرموز) أو (العلامات) ؛ فالمصطلحان (Semiology) و (Semiotics) يدلان على علم الرموز والعلامات ^(١)، وهو " علم يبحث في الرموز اللغوية وغير اللغوية " ^(٢). وكلمة (Semiology) مشتقة من الأصل اليوناني (Semeion) بمعنى

(١) عدد من الباحثين : معجم علم اللغة الحديث : ٨٢ .

(٢) محمد علي الخولي : معجم علم اللغة النظري : ٢٥٢.

العلامة . وأطلقها دي سوسير في أدبياته اللغوية على اللغة (١٩١٣م) ، فهي عنده " نظام من العلامات (System of signs) يعبر عن أفكار المجتمع " ؛ فاللغة بهذا - الاعتبار - وسيلة للتواصل الاجتماعي ، ولكن علم العلامات يرى أن اللغة ليست الوسيلة الوحيدة للتواصل ، بل هناك سبل أخرى يملكها الإنسان، وهي (أنظمة علامات غير كلامية) كالإشارات الجسمانية ، ونظام الملابس ، ونظام الطعام ، والاشارات المرورية والملاحية في البحار ، وشملت أيضاً ما كان يستعمله الإنسان البدائي من علامات النار والدخان ...الخ، واللغة وإن كانت جزءاً من علم عام يسمى بـ (علم العلامات) ، ولكنها أكثر أنظمة العلامات تكاملاً كما ذهب الى ذلك دي سوسير ^(١) . وذهب باحثون آخرون الى جعل علم العلامات فرعاً من علم اللغة العام ، وليس العكس ، أمثال الأنثروبولوجي الأمريكي بيرد وستل (Bird Uhistell) ، والناقد الفرنسي (رولان بارت Roland Barthes). وتستعمل المدرسة اللغوية الأمريكية مصطلح (Semiotics) بالمعنى العام الذي يشمل علم العلامات . ويعود هذا المفهوم الى الفيلسوف الأمريكي تشارلز بيرس (C.S. Peirce) . وشاع استعمال المصطلحين لدى سوسير وبيرس معاً في الدراسات اللغوية الأوروبية والأمريكية ، مع الأخذ بنظر

(١) انظر سامي عياد حنا وآخرين : معجم اللسانيات الحديث : ١٢٨.

الاعتبار تأكيد دي سوسير (الوظيفة الاجتماعية للعلامة)، في حين أكد بيرس (الوظيفة المنطقية لها) ^(١).

وتكمن صلة اللغة من حيث كونها علامة بأنظمة العلامات الأخرى على رأي بعض اللغويين ، فهي لا تكتسب قيمتها إلا من خلال صلتها بالعلامات الأخرى ، شأنها في ذلك شأن نظرية (الحقول الدلالية) ، إذ إن الكلمة يحدد معناها من خلال علاقتها بما قبلها من الكلمات وبما بعدها في الحقل الدلالي الواحد . وقد شبه أحد الباحثين ذلك بقطعة الشطرنج " التي لا تعني شيئاً خارج رقعة الشطرنج، وإنما تتخذ قيمتها من خلال علاقتها بالقطع الأخرى " ^(٢).

وهذا المنظور للغة هو من باب المنظور الوصفي الظاهري لها ، ولكن هل يمكن الاطمئنان الى مثل هذا الوصف ؟ وإذا ما أخذنا بتحليل التركيب اللغوي فسنجد أن اللغة تختلف اختلافاً جوهرياً مع سائر العلامات ؛ فالعامل المشترك بينهما هو الايصال والتواصل ، وهو أمر لا يحدد لنا طبيعة اللغة فقط خلافاً للمدرسة السلوكية التي تتبنى مثل هذا التوصيف ، فالتواصل جزء من مفهوم عام لتحليل الحدث اللغوي ، ويبقى أن نجد مفاهيم أخرى لا تقل أهمية عن عامل التواصل ؛ فثمة مفاهيم أخرى كالتحليل العقلي والنفسي والاجتماعي ، لذلك لا يمكن الاطمئنان الى أن اللغة هي مجرد

(١) انظر معجم اللسانيات الحديثة : ١٢٨ .

(٢) معجم اللسانيات الحديثة : ١٢٦ .

عامل للإيصال والتواصل ، فهي منظومة معقدة متشعبة الجوانب لا يكفي فيها الأخذ بشيء وترك أشياء أخرى ، وثمة من يسأل كيف نفسر (حديث النفس) ، أي حديث المرء مع نفسه ؟ ومن هذا القبيل أيضاً العلاقات الحضارية للغة .

ولكي نجد فهماً واضحاً ، وتفسيراً يتسم بـ(الواقعية) للعلاقات الحضارية بين الأمم والشعوب لابد من توضيح مبدأ (المقارنة بين الحضارات) ، وهو مبدأ يعتمد على وصف الرقي الحضاري. وهنا يرى بعض الباحثين في الأنثروبولوجي الحضاري أن (النسبية الحضارية) أي المقارنة بين حضارتين أو أكثر من حيث القيمة والوزن والمستوى هي الفيصل في هذا الشأن ، لأن النسبية تعتمد على التوصيف من حيث سُلّم الرقي الحضاري، وهو مبدأ ذو صلة أيضاً بالزمان والمكان ، لأن القيمة الحضارية تعتمد على (التجارب التاريخية والوضع الحاضر) بما في ذلك سبل الحياة .

قال كلوكهون موضحاً النسبية الحضارية من حيث منظور الأنثروبولوجي الحضاري : "وتوجد الآن بعض الحقائق التي يبدو فيها مبدأ النسبية الحضارية معقولاً ؛ فمقارنة الحضارات تؤدي الى الاعتراف بسرعة ويسر بأنها تختلف في إعطائها أوزاناً لقيمتها، وهذا أمر مهم ، فالفهم الحقيقي للحضارة يقتضي بالضرورة النظر الى قيمتها على أساس فهم التجارب التاريخية والوضع الحالي للشعب الذي يعيش في تلك الحضارة ؛ فنحن لا

نستطيع أن نفهم فهماً عميقاً ، أو أن نشمن بدقة حكماً أخلاقياً لشعب ما من دون أن نأخذ بنظر الاعتبار طرق حياة ذلك الشعب كافة" (١).
ومن الباحثين في الدراسات الحضارية من يرى أن النسبية الحضارية مسوغ للقول بتنافر الحضارات (٢) وعدم قابليتها للمقارنة ، ولكن الحقائق العامة المشتركة بين الناس تدحض مثل هذا التوجه. وهي حقائق لا يمكن إنكارها كالطعام، والمأوى، وتربية الأطفال ، والموت ، والشؤون العاطفية كالحب والبغض والكراهية ... الخ، وحقيقة وضع الإنسان في هذا العالم ، وقيم الدين والانتماء العائلي والقَبلي والوطني والقومي ، والعادات والتقاليد الاجتماعية ، واللغات ، والعلاقات الاجتماعية ، كل ذلك من المسائل القابلة للمقارنة بين الحضارات .

ومبدأ (التوارث الحضاري) بمعنى الديمومة والاتصال من جيل الى آخر مبرر أساسي للمقارنة الحضارية ، فضلاً عن التواصل والانتقال عبر آلاف السنين ، لأن اللغة هي التي تربط المتكلمين بمثل ذلك ، إذ تستوعب المعارف والمعتقدات المتوارثة بين الأجيال، وتكشف لنا عن (تفكير أسلافنا) ومشاعرهم ؛ " فلغتنا تضعنا في سياق سلسلة ثقافية متصلة تربطنا بالماضي، وتظهر معانينا أيضاً لزملائنا من الناطقين بها في المستقبل" (٣)،

(١) الأنثروبولوجي الحضاري (ضمن مجموع آفاق المعرفة) : ٨٠.

(٢) الأنثروبولوجي الحضاري : ٨٠.

(٣) أوستلر : إمبراطوريات الكلمة : ٢٠.

وبناء على ذلك يمكن أن نصف اللغة بأنها (وعاء يستوعب الحضارة) .
وبما أن الحضارة متصلة بالتأريخ فإن النظر في تأريخ أمة ما يترك نفوذاً
كبيراً في (الحالة اللغوية) للدول الحديثة ، وهو يساعد على فهم (الحقائق
والاتجاهات) اللغوية باتصال الماضي بالحاضر والمستقبل .

والمنهج الذي يفرق بين (الحضارة) و (الثقافة) من حيث الاصطلاح
يرى في الثقافة المظهر الأدبي والعقلي والعلمي للحضارة ؛ فهي - أي
الثقافة - (الممارسة المتقدمة) للحضارة ، ولا يكون التعبير عنها إلا من
خلال اللغة المكتوبة. وأما المدرسة التي لا تفرق بين المصطلحين فالحضارة
عندها هي الثقافة عينها. وإذا أردنا النظر في هذا الموضوع فالأرجح أن
نفرق بين المصطلحين ، لأن الحضارة إذا بلغت المرحلة المتطورة من حيث
النضوج آتت أكلها على المستويات المختلفة ، فتكون الثقافة بذلك نتيجة
للحضارة ، بمعنى أن الحضارة هي التي تنتج الثقافة في مراحلها المتطورة؛
فاللغة هي العنصر الأساسي للتمايز الثقافي بين الأمم والشعوب والجماعات
، فهي تمثل لنا جزءاً مهماً من الوعي الثقافي الجمعي . قال ماريو باي
معبراً عن هذا التوجه : ... مهما يكن من شيء فلا شك في أن اللغة تشكل
جزءاً من الوعي الثقافي للجماعة،

وهي تعد واحدة من أقدم المظاهر لهذا الوعي ، وإن التمييز بين جماعة
وأخرى ليؤسس غالباً -على الأقل من الناحية الظاهرية- على اللغة^(١).

(١) أسس علم اللغة : ٢٠٧ .

وقال في موضع آخر من كتابه مبيناً الارتباط الوثيق للأمم والشعوب بين الثقافة وأنماط لغاتها: " إن ثقافة أي أمة أو جماعة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنمط لغتها ما دامت الأخيرة تعكس عادة نشاطات هذه الطائفة"^(١)؛ فنمط أي لغة للجماعة يعكس نشاطها الثقافي ، ويستنتج من ذلك أن نمط اللغة يؤثر في النشاط الثقافي . وعزز هذا المعنى العالم الأمريكي وورف (Whorf) صاحب مدرسة ما وراء اللغة (Meta linguistics) بقوله : "إن نمط اللغة المتكلمة يفرض تأثيره المباشر في هذه النشاطات"^(٢).

ويرى (ياكبسون) - ورأيه هذا يعزز أيضاً الصلة بين اللغة والحضارة- أن اللغة مكونة للثقافة ، وهي أساس للظواهر الثقافية وقاعدة لها و(وسيطها الكلي)، ولذلك لا ينبغي لنا فصل (اللسانيات) عن بقية عناصر الثقافة. وانتهى الى أن تعريف اللسانيات من خلال المكون الثقافي (أسهل من العكس)^(٣).

وتوسع كولكهون في الكلام البشري المنطوق فجعله (حضارة صرفة) ، ومثّل لذلك بأصغر وحدة من وحدات اللغة ، أي بالأصوات اللغوية ، وذهب

(١) أسس علم اللغة : ٢٠٦.

(٢) أسس علم اللغة : ٢٠٧.

(٣) انظر الاتجاهات الأساسية في علم اللغة : ٦٣.

الى أننا نخرج أصواتاً كثيرة التنوع ولكننا نستقر على إخراج أصوات معينة محددة (تتجها حضارتنا)^(١).

وُبُنِيَ كل لغة من حيث الأصوات والصرف والنحو والمفردات غالباً ما تسد حاجتها للتواصل بين الجماعة ، وتتضمن النمط الحضاري الخاص بها ، وتمثل أنموذجاً يُجَزَّى الواقع بحسب طرائقها ، أي بحسب نظرتها الى هذا الواقع . وينتج عن ذلك أن المتكلمين بتلك اللغة ملزمين في كثير من المواطن بهذه التجزئة، وهي تجزئة لغوية بتأثير حضاري معين يحدد مفاهيم الجماعة لواقعهم . وقد ذكر (سابير) هذا المعنى بقوله : " إن كل لغة تملك من الأصوات والبنى والمفردات اللغوية ما يكفيها لسد حاجاتها التواصلية والحضارية ، يضاف الى ذلك أنها تتضمن أنموذجاً أو تنظيمياً مثالياً ... وفي هذا النطاق تُجَزَّى الواقع على طريقته الخاصة وتلزم متكلميها بطريقتها التجزئية هذه " ^(٢).

إن من البديهية القول إن اللغات فيها (نواة صُلْبَة) تحافظ على بناها الصوتية والصرفية والقواعدية عبر الزمان مهما طال ، والأجيال مهما كثروا. ومن العسير تغيير هذه البنى بفعل عامل التطور ، وربما يحصل ذلك في البنى الصوتية أكثر من غيرها كالضاد العربية والصاد العبرية، وتبقى البنى الأخرى محافظة على تنظيمها وتشكيلها.

(١) انظر الأنثروبولوجي الحضاري : ٧٦.

(٢) ميشال زكريا : الألسنية (علم اللغة الحديث) : ٢٢١ .

ولما كان المعنى هو الأساس في الحدث اللغوي، تعرض الى تغيير كبير من حيث المدلول عبر الزمان، ولذلك ارتبطت الحضارة بالدلالة أكثر من ارتباطها بغيرها، وربما ترتبط قليلاً بالأصوات من حيث الاختيار لا من حيث التغيير؛ فالكاف السامية التي تنطق كالكاف الفارسية (g) مثلاً ظلت محافظة على نطقها في الأكديّة والآرامية والعبرية، لكنها تغيرت وتبدلت في العربية الى جيم (معطشة) اختارتها الفصحى، وجيم (كثيرة التعطيش) اختارتها بعض اللهجات العامية مثل لهجة أهل الشام، وقديماً كانت الجيم تنطق كالياء عند بعض القبائل العربية، ولذلك وردت القراءة القرآنية بنطقها ياء في قوله تعالى ((وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ -البقرة: ٣٥))، وامتد هذا النطق للجيم عند بعض القبائل في الجزيرة العربية؛ فلهجة أهل الكويت - مثلاً - تنطق الجيم في قولهم: (رَجَالٌ) ياءً = رِيَالٌ) .

ونستنتج مما تقدم أن الإلزام الذي أشار إليه سابير من الصعب تعميمه على اللغات كلها إلا في الجوانب الدلالية، ولذلك يحصل التغيير التواصلية الحضاري مع المراحل التاريخية للغات، ولا يبقى النموذج أو التنظيم الذي وصفه بـ (المثالي) على حاله، وتبعاً لذلك يتغير الواقع من خلال المنظور اللغوي، ولكن على مراحل متباعدة قد تستغرق قروناً، ويكون لكل مرحلة من مراحل التطور اللغوي واقع جديد، وإلزام جديد.

وللغويين حديث متشعب في مسألة (انتشار اللغات) وبقائها وديمومتها، ويرى أغلبهم أن مسألة بقاء اللغات لا علاقة لها بخصائها، وأن السبب في

انتشار لغة ما من عدمها هو سبب اجتماعي وليس لغوياً. وأفاد بعضهم أنه قد تكون لأنموذج اللغة (قيمة وجودية لبقائها)^(١).

ومثل هذه الآراء المختلفة تخضع بكل بساطة الى نقد صارم؛ فالقول بالتفريق بين خصائص اللغة وبقائها ، وخضوع ذلك لأسباب اجتماعية لا تمت بصلة ولو كانت نسبية بخصائص البنية اللغوية أمر مثار جدل واسع. ونحن نفترض دائماً صلة اللغة بالمجتمع ، وهذه مسألة لا مواربة فيها ، لأن اللغة مظهر من مظاهر الجماعة الناطقين بها. وأكثر من ذلك لا يمكننا تصور مجتمع ما وإن كان بدائياً موغلاً في القدم من غير لغة لتفاهم الأفراد والتواصل مع الجماعة فضلاً عن التعبير عن الانفعالات النفسية للأفراد. ولابد من أن يخضع ذلك لكيفية البنى اللغوية القادرة على تأمين ما ذكر آنفاً. ولا يمكن أن نتصور لغة ما إلا وقد مرت عبر الزمان بمراحل النمو والتطور حتى انتهت الى تشكيلها البنيوي المستقر نسبياً؛ فالتركيب اللغوي القادر على استيعاب حاجة الإنسان الاجتماعية على مستوى الجماعة، وحاجته النفسية الانفعالية أو المؤثرة، وحاجته الحضارية والثقافية، هو التركيب الذي لم تكتب له الديمومة والاستمرارية والبقاء. وكثيراً ما نجد جماعات لغوية أو شعوباً برمتها تركت لغاتها الى لغات أخرى قادرة على الاستيعاب، ولاسيما الجماعات والشعوب البدائية التي تتكلم بلغة في أطوارها الأولى من حيث التكامل، ولا يحصل ذلك إلا بعد استكمال البنى اللغوية

(١) انظر إمبراطوريات الكلمة : ٥٥ .

وقابلية دلالة الألفاظ المركزية والهامشية على احتواء المضامين الحضارية والثقافية .

إن الصلة بين اللغة والحضارة أمر أقره الباحثون منذ أوائل القرن العشرين، وذهب هؤلاء الى أن الدراسات اللغوية لا يمكن فصلها أو عزلها عن تأريخ الحضارة الإنسانية. ووجدت هذه الأطروحة مكانها المناسب في منهج عرف بـ (الكلمات والأشياء : Words and Things). وهو منهج ظهرت بوادره الأولى في صحيفة ألمانية سميت بالمصطلح نفسه ، أي بـ (الكلمات والأشياء) ، وأعلن أول رئيس لتحرير هذه الصحيفة الشعار الآتي : (لا يمكن الاستمرار في بحث تأريخ الكلمات منعزلاً عن تأريخ الحضارة)^(١)، وهذا يعني العلاقة التفاعلية بين اللغة والحضارة . وبدأ أنصار هذا المنهج في تغيير النظام التقليدي للقواميس اللغوية القائم على السؤال الآتي : ماذا تعني هذه الكلمة أو تلك ؟ الى السؤال على نحو عكسي فيقولون : ما الألفاظ التي تدل على هذا الشيء أو ذلك ؟

ولو أخذنا بدراسة تأريخ اللغات ولاسيما تأريخ اللغة العربية لوجدنا هذا النسق من المنهج قد اتبعه المعجميون العرب والمسلمون فيما يعرف بـ (كتب الألفاظ) وتطور التأليف فيها منذ عصر الجيل الأول من اللغويين في القرن الثاني الهجري الى ظهور المعجمات العربية الكبيرة في القرن الرابع الهجري وما يليه ، إذ ظهر اللغوي الأندلسي أبو الحسن علي بن

(١) أولمان : دور الكلمة في اللغة : ١٩٤.

اسماعيل المعروف بابن سيدة الأندلسي المتوفى في سنة (٤٥٨هـ)، ووضع معجمه الكبير المسمى بـ (المُخَصَّص)، وجمع فيه الكثير من الألفاظ ودلالاتها مقسمة على أبواب المعاني المختلفة.

وللغة (أيدٍ خفية) - إن جاز التعبير -، وهي القوى المستترة للكلمات من حيث تأثيرها النفسي في الناطقين بها، ويطلق على ذلك مصطلح (استبداد الكلمات). وأغلب اللغات في العالم وربما كلها ابتداءً من نشأة اللغة عند الإنسان تتصف في بعض ألفاظها بهذه الصفة (الغامضة)، ومرد ذلك إلى الاعتقاد الضمني الساذج "أن الأشياء المجردة - التي هي في الواقع من صنع الإنسان - لها وجود حقيقي، ذلك الاعتقاد الذي يتمثل بتلك الفكرة البغيضة المعبر عنها باستبداد" (١). قال أولمان موضحاً هذا التوجه الاستبدادي للكلمات: "إن الكلمات منطوقة ومكتوبة تتمتع بقوة خفية غامضة منذ أقدم أيام التاريخ. إنها - مثلاً - تستغل في كل أنواع الرقى وتعاويز السحر. وقد يهابها الناس فيعمدون إلى تحريم استعمالها، أو إلى تضيق مجال هذا الاستعمال" (٢).

وهذه الصفة لبعض الكلمات من الدلائل الواضحة للتأثير الحضاري في اللغة؛ فالإنسان منذ القدم ربط عالمه الواقعي المنظور بعالم آخر غير منظور، أي ربط عالم الطبيعة بعالم ما وراء الطبيعة والمشاهدة الحسية.

(١) دور الكلمة في اللغة : ٤٤ .

(٢) دور الكلمة في اللغة : ٤٤ .

وكثير من العقائد البدائية فسرت حوادث الكون والظواهر الطبيعية تفسيراً دينياً له صلة بالآلهة ومصير الإنسان في الأرض، واختلط ذلك بالسكر والكهانة والغيبيات ، فعمد الإنسان الى دفع الضرر عن نفسه واستجلاب النفع مستعيناً بقوى معنوية ، فأدت الكلمات في هذا المجال عملها ، وأظهرت عجز الإنسان في مجابهة الطبيعة من ناحية وتوسله بالكلمات من ناحية أخرى لتفادي ما ظنه واقعة ستلّم به، وتجنّب التلفظ بكلمات لأثرها السحري دفعاً لضررها ، واستعاض من بعضها بكلمات أخرى. ويعد العاملان النفسي والاجتماعي من أسباب ما عرف بـ (اللا مِساس) أو الحَظَر اللغوي كما سنوضحه في موضعه من هذا الكتاب.

ونلاحظ أن تسميات بعض الأشياء تختلف من لغة الى أخرى وإن دلت على الواقع الملموس والمحسوس ؛ فالتسميات المختلفة وما يراه الناس شيء واحد ، مثال ذلك اختلاف أسماء الألوان بين اللغات من حيث التصنيف الطيفي ^(١)؛ ففي اللغتين الانكليزية والألمانية نجد التصنيف على النحو الآتي: الأحمر، والبرتقالي، والأصفر، والأخضر ، والأزرق، والبنفسجي . ويقسم اللون الأزرق في اللغة الروسية على قسمين : كل واحد منهما له تسميته الخاصة التي تقابل الأزرق الفاتح والأزرق الداكن. وفي لغة أحد شعوب (ليبيريا) تجمع ألوان الطيف الشمسي في كلمتين ، إحداهما : ما يسميه الرسامون بالألوان الدافئة (Warm) أو الصارخة ، وهي : الأحمر

(١) انظر كوندرا توف: أصوات وإشارات : ٦٤ ، ٦٥.

والبرتقالي والأصفر ، والأخرى : ما يسمى بالألوان الباردة (Cold) أو الهادئة ، وهي : الأخضر والأزرق والبنفسجي . هذا التباين بين اللغات في تصنيف الطيف الشمسي يعود الى كيفية انعكاس الواقع في ذهن المتكلم عن طريق لغته .

إن (الفكر) هو الذي يربط اللغة بالعالم الخارجي ؛ فمعنى الكلمة الدالة على شيء حسي يرتبط باللفظ المعبر عنه ، والرابط هو الفكر ، وبمعنى آخر : الفكر هو الرابط بين الدال والمدلول ، ولا يقتصر ذلك على الأشياء الحسية بل يتعداها الى الأشياء المعنوية مع افتقار هذه الأشياء الى الوضوح التام لمعانيها وكثرة هوامشها الدلالية ، وبناء عليه تكون نسبة الوضوح في الأشياء الحسية أكثر منها في الأشياء المعنوية . والاعتقاد السائد بين طائفة كبيرة من العلماء واللغويين أن الفكر منفصل عن اللغة ولكنه ملتحم بها ، ويعود هذا الجدل بين مدرستين أو منهجين قديمين عند قدامى اللغويين : منهج لفظي يؤثر الألفاظ على المعاني ، ومدرسة أخرى خلافها تؤثر المعاني على الألفاظ ، ونرى ذلك مثلاً عند بعض فلاسفة اليونان ، وعند فريق من اللغويين والأدباء العرب كالجاحظ الذي كان يرى أن الألفاظ (مطروحة في الطرقات) لمن أراد ، والسبيل الأمثل هو النظر في المعاني ، وبها تتفاوت العقول ، وإليها تستند المفاضلة عند الكتاب والأدباء والشعراء .

وحقيقة الأمر - في ظني - أن اللغة والفكر مرتبطان ارتباطاً تكاملياً ، أي إن أحدهما يكمل الآخر ؛ فأنت تعبر عما تفكر به عن طريق الألفاظ، وأن الألفاظ تولد عند الإنسان الأفكار ، فحديث النفس أنموذج لهذا التكامل. ومن ذهب الى استقلال الفكر عن اللغة ، وصف الاستقلال بـ (النسبي)، ورأى أن التلاحم بينهما (عضوي متبادل) ، ومثل هذا الفريق عالم النفس الروسي (فايكوتيزكي: ١٨٩٦م-١٩٣٤م) ، والفيلسوف الأمريكي (جون ديوي : ١٨٥٩م -١٩٥٢م) . و خلاصة هذه النظرية وفحواها: "أن اللغة وإن كانت غير الفكر من حيث طبيعتها ووظيفتها ، ومن ناحية نشوئها التاريخي إلا أنها مع ذلك ملتزمة به التزاماً عضوياً غير قابل للعزل في مجرى تطور النوع الإنساني، وضمن حدود تطور الفرد من المهد الى اللحد. ومع أن هذا الالتحام أو الافصاح ليس بذئ جذور فلسجية فطرية في الأصل إلا أن جذوره تاريخية نشوئية على الصعيدين الفردي والنوعي على حدّ سواء؛ فاللغة والفكر جانبان مشتركان ملتحمان ومتكاملان - وإن كانا متميزين - في عملية واحدة أو كيان متماسك موحد" (١).

إن العلاقة بين الفكر واللغة علاقة سببية لأن الفكر يعبر عن البيئة المحيطة به من خلال صور ذهنية أو (انطباعات تحمل المعرفة في شتى فروعها)؛ فالصلة بين الفكر والبيئة الطبيعية والاجتماعية علاقة مباشرة ، وأما اللغة فترتبط بالبيئة عن طريق الفكر (ارتباطاً غير مباشر) فهي تعين الإنسان

(١) نوري جعفر : اللغة والفكر : ١٢٧.

على تجسيد فكرة ما وصوغها في قالب لغوي، والفكر (يعين اللغة على الدقة ويثريها بالمصطلحات)^(١).

وخاض الفلاسفة وعلماء النفس والأنثروبولوجيون وعلماء اللغة غمار الجدل في هذه المسألة المهمة ، أي تفسير الصلة بين اللغة والفكر ، وتمحور الجدل أو الحوار بينهم حول استفسار مهم مفاده: " فيما إذا كانت هناك مفاهيم عامة موجودة ومستقلة في اللغة ، وفيما إذا كانت اللغة تفرض إطاراً ذهنياً لتفكير لا يمكننا ملاحظته" ^(٢). ومعنى ذلك يمكن أن يطرح في السؤال الآتي : هل اللغة تحدد إطار فكرنا؟ وهل الفكر يحدد لنا معايير التعبير عنه بوساطة اللغة ؟ والجواب - فيما أظن - أن العلاقة بينهما ترابطية سببية كما أشير الى ذلك آنفاً .

وقريباً من هذا المعنى ما ذكره (مالينوفسكي) من " أن العامة من الناس لهم أسماء لتلك الأشياء التي تعترضهم من عالم يمكن تسميته بالعالم (اللاميز) ، ومن تجاربهم الكبيرة المشوشة كما يقال ، أو يمكننا القول إنهم يلتقطون بالكلمات تلك الأشياء التي لها علاقة بهم" ^(٣). وعبر عن هذا المضمون أيضاً أو قريباً منه الأنثروبولوجي الأمريكي (ادوارد سابير - ١٨٤٨ م - ١٩٣٩ م) في كتابه المعنون بـ (اللغة) إذ قال : " إن اللغة

(١) انظر اللغة والفكر : ١٢٧.

(2) Crystal, Linguistics , p.232.

(3) Palmer , Semantics, p.55 .

متشابكة مع أخاديد الفكر لدينا بشكل محكم ، وهما بمعنى آخر شيء واحد^(١)، ولكن سابير بالغ بعض الشيء في جعله اللغة والفكر شيئاً واحداً، ولكنه من جانب آخر عدّ اللغة (وظيفة حضارية مكتسبة غير غريزية)، خلافاً للمشي - مثلاً - فهو (وظيفة عضوية غريزية)^(٢)، أي أن البنية الحضارية للغة مكتسبة ، ولما كان الفكر أساساً للحضارة ، ولا يمكن التواصل بغيره استنتجنا من ذلك - على حدّ تعبير سابير - أن الفكر والحضارة عنده شيء واحد.

وكانت نظرة سابير الى اللغة على أنها تجسيد للروح القومي للمتكلمين بها، وأن هذا التجسيد يرتبط بشكل اللغة^(٣)، وذهب الى أبعد من ذلك حينما ربط اللغة بالعالم الموضوعي والواقعي والنشاط الاجتماعي ، وأن اللغة هي التي تشكل هذه العوالم ، أو بتعبير آخر أن المجتمعات البشرية تختلف في نظرتها الى مثل هذه الأمور تبعاً لاختلاف لغاتها، فهي تنظر من خلال لغاتها المختلفة وعلى أساس عاداتها اللغوية الى العالم المحيط بها. واستنتج من ذلك كله أن اللغة دليل رمزي على الحضارة^(٤). قال : " لا يحيا البشر في العالم الموضوعي وحده، وليسوا وحيدين في النشاط

(١) أعلام الفكر اللغوي : ٢٨/٢ .

(٢) أنظر أعلام الفكر اللغوي : ٢٢/٢ .

(٣) انظر أعلام الفكر اللغوي : ٢٧/٢ .

(٤) أعلام الفكر اللغوي : ٣٠/٢ .

الاجتماعي عندما يفهم بشكل معتاد، ولكنهم تحت رحمة لغة معينة أصبحت وسيلة التعبير في مجتمعهم ، وأن من الوهم التصور أن المرء يتكيف مع الواقع أساساً من غير استعمال اللغة ، و أن اللغة هي مجرد وسيلة عرضية لحل مشاكل معينة في التواصل أو التأمل. وحقيقة الأمر أن العالم (الواقعي) تم بناؤه - الى حد كبير - عن غير وعي على أساس العادات اللغوية لمجموعة من البشر ، ولا توجد لغتان إطلاقاً متشابهتان بما يكفي لينظر إليهما كونهما تمثلان الواقع الاجتماعي نفسه، إذ إن العوالم التي تعيش فيها المجتمعات المختلفة عوالم متباينة ، وليس مجرد العالم نفسه تلتصق به مسميات مختلفة؛ فنحن نرى ونسمع التجارب ونعيشها كما نفعل دائماً، لأن العادات اللغوية لمجتمعنا تفرض علينا خيارات معينة في التأويل، ومن وجهة النظر هذه قد نرى في اللغة (دليلاً رمزياً على الحضارة) ... " .

وعلى الرغم من اختلاف الناقدين والمنقدين لسابير على تفسيره المذكور آنفاً غير أن الحقيقة لا يمكن فصلها عن واقع ما تثار حوله؛ فنحن ننظر الى الأشياء من خلال تركيبتنا اللغوية؛ فاللغات السامية - مثلاً - بما فيها العربية تستعمل علامات للأشياء المؤنثة حقيقة ، فهي تفرق في الاستعمال اللغوي بين (الرجل) و (المرأة) ، وانتقل ذلك الى المؤنث المعنوي ، فلماذا تُذكر العربية - مثلاً - القمر وتؤنث الشمس؟ أو أكثر من ذلك لماذا تذكر الروح وتؤنث النفس؟ والكلمتان تدلان على معنى واحد، وينطبق على كثير من التصنيفات اللغوية الأخرى كتصنيف الألوان والأعمار وذوي الرحم

والقاربة، والأعمق من ذلك حينما تكون التشبيهات المادية سبيلاً واضحاً للوصول الى التشبيهات المجازية ، وكيف لنا أن نرصد مفاهيمنا اللغوية للقضايا المعنوية ، واختلاف مدلولاتها النسبية بين لغة وأخرى؟ وإذا كان معنى الصدق والكذب في لغة ما يختلف نسبياً عن معناهما في لغة أخرى، فهل ننظر الى المسألة من حيث السلوك البشري ؟ أو من حيث المفاهيم الدينية والأعراف الاجتماعية ؟ ... وهكذا دواليك ، وكثير من الأمثلة تتبعها أسئلة بعددها، وربما السؤال يوّلّد سؤالاً، ولكننا في نهاية المطاف نصل الى نتيجة أراها واضحة المعالم ، وهي أن لغتنا تكيف حضارتنا، وأن حضارتنا تكيف لغتنا؛ فمبدأ التأثير والتأثر مبدأ قائم لا مندوحة عنه ، فالمسألة ليست أحادية القطب بل ثنائية القطبين إذا صحّ التعبير .

ومن المفيد - ونحن بصدد سابير - أن نقف عند فرضيته مع تلميذه (وورف) التي عرفت بفرضية (وورف وسابير) (Worf - Sapir) ، وتسمى أيضاً بـ (فرضية النسبية اللغوية) ، وكان لها أثر كبير في الدراسات اللغوية الاجتماعية . ومفاد هذه الفرضية : " أن كل لغة من حيث أنها تمثّل رمزي للواقع المحسوس تتضمن تصوراً خاصاً للعالم يُنظّم ويُكيّف الفكر " (١) . ويستفاد من الفرضية معاييرها الثلاثة : اللغة رمز الى الواقع المحسوس - تشتمل على تصور للعالم - هذا التصور ينظم الفكر ؛ فاللغة إذن تنظم الفكر وليس العكس .

(١) الألسنية (علم اللغة الحديث) : ٢٢٢ .

وتتلخص هذه النظرية فيما يأتي (١):

١- "بما أن اللغة تتضمن تنظيمًا مثاليًا يُجْزَى على طريقته الخاصة خبرة متكلميها فهي تكوّن فكر متكلميها".

٢- "إن متكلمي اللغات المختلفة يتصورون العالم تصويراً مختلفاً ويلتزمون بالتفكير بالأشياء انطلاقاً من قضايا لغتهم"، ويفترض بناءً على ذلك وجود خلاقات "في تصور الإنسان للعالم تحملها في طياتها اللغات المختلفة التي تتميز بصورة أساسية فيما بينها".

٣- يستنتج مما تقدم أن "كل اختلاف في التنظيم اللغوي يقابله اختلاف في تصور الإنسان للعالم المحيط به".

٤- "يرتبط الأنموذج اللغوي بالأنماذج الثقافية المجتمعية"، ويرى سابير أن اللغة عامل أساسي في "إضفاء الطابع الاجتماعي، ذلك أن العلاقات الاجتماعية لا تقوم ولا تُدعم إلا عبر التوسل باللغة في عملية التواصل".

٥- للغة شأن كبير "في مجال التراكم الثقافي"، وانتقال الثقافة عبر الأجيال".

وأشار وورف صراحة إلى "أننا نحلل بدقة الطبيعة على طول خطوط وضعناها بلغتنا الأم" (٢). وذهب إلى أننا غير مدركين لما وراء لغتنا "كما كنا غير مدركين لوجود الهواء حتى نبدأ بالاختناق"، وإذا نظرنا إلى لغات

(١) الألسنية (علم اللغة الحديث) : ٢٢٣.

(2) Linguistics , p.232.

أخرى فإننا ندرك ان اللغة ليست أفكاراً صوتية فقط ولكنها هي التي تشكل الأفكار" . وذكر كوندرا توف أن العالم ينعكس بأشكال مختلفة في لغاتنا المختلفة خصوصاً في أسماء الأشياء والألوان والحوادث والصفات، مستدرِكاً أن هناك سبلاً أخرى غير هذا الانعكاس لتفسير الحقائق إذ قال : " العالم يعكس بأشكال مختلفة في اللغات المختلفة، وحتى بعض المفاهيم السرمدية العامة مثل المكان والزمان أصبحت لها تسميات متنوعة بتنوع اللغات. إن أكثرها وضوحاً هي الاختلاف في تسميات الأشياء والألوان والحوادث والصفات، فهذه جميعاً حقائق ترد في علم اللغة ولا يمكن دحضها، بيد أن الحقائق قد تفسر بأساليب مختلفة"^(١).

وكان الغرض من إشارة كوندرا توف هذه هو ربط تفكير الإنسان وسلوكه باللغة ، غير أنه سأل عن مدى صحة فرضية (وورف وسابير) ، أهي صحيحة ؟ وأصحح أن لكل لغة ميتافيزيقية خاصة بها؟ وقال على سبيل المثال : " لنفترض أن (نيوتن) تكلم وفكر بلغة الهوبي (هنود الهوبي في أمريكا) ، فهل ستكون صورة العالم مختلفة فيزيائياً ؟ ، وما (الدور) الذي تلعبه اللغة في إدراك واستيعاب العالم المحيط بنا واستيعابه؟ " ، ويجب عن هذه الأسئلة وأمثالها قائلاً : " إن أهمية المشكلة واضحة ، ويتضح أيضاً الموقف الفلسفي الذي يجب أن يتبناه المرء لحلها. بالنسبة الى المتقنين السوفيت [سابقاً من ذوي الفكر الماركسي] تفسر المشكلة في ضوء

(١) أصوات وإشارات : ٦٨.

المادية الديالكتيكية : إن العالم يسبق الإدراك ، والأشياء تسبق الأسماء المخصصة لها " (١). ولو أردنا أن نأخذ بالحسبان هذا المنظور الماركسي لوجدنا أن حقائق العالم بما فيه من الأشياء صحيح أنها تسبق الإدراك والأسماء ، وهو أمر مُسلم به قطعاً ، ولكن السؤال لا يكمن في ذلك ، بل في كيفية تعبير اللغات عن هذه الأشياء ، وهنا مربط الفرس كما يقال .

وسال كوندراتوف عن اللغة وتأثيرها في الفكر فقال : " هل تؤثر اللغة في التفكير ؟ : نعم ، إننا نؤثر ولكن لا على الجوهر بل على أساليب التفكير .

إن جوهر الفكرة هو انعكاس للحقيقة ، وإن هدف اللغة هو نقل المعرفة والمعلومات عن الحقيقة". وانتهى الى أن تتوع أساليب التفكير يجعل كل لغة قادرة " على إعطاء صورة حقيقية عن العالم الخارجي " (٢).

وربما كان (همبولت ١٧٦٧م - ١٨٣٥م) أول مُنظر في علم اللغة يفتح الباب لسابير و (وورف) وغيرهما من أتباع هذه المدرسة ، إذ رأى أن اللغات تعبير "عن عقلية الشعوب المختلفة " (٣).

ويمكن أن نصل من خلال ما تقدم ذكره الى أمور يجب التنبيه عليها:

١- إن منظور الشعوب للعالم الخارجي يتأثر ببنية لغاتها ؛ فاللغة في هذا الفرض وسيلة وليست نتيجة ، والسؤال الذي يطرح في هذا المجال :

(١) أصوات وإشارات : ٧١ .

(٢) أصوات وإشارات : ٧٢ .

(٣) أعلام الفكر اللغوي : ٢١/٢ .

كيف يكون اختلاف المنظور ؟ ، أهو مطلق أم نسبي ؟ ، أهو في كل العالم الخارجي المنظور والمحسوس أم في مجال دون آخر ؟ أتتفق اللغات - مثلاً - على حقائق أساسية كالاقتران الجنسي ، والولادة ، والطعام ، والشراب ، والصحة ، والمرض ، ومن ثم الحقيقة المطلقة وهي الموت ؟ هذه الأسئلة وغيرها ينبغي ، بل يجب للباحث أن يتوقف عندها ملياً ، وأن يفرّق دائماً بين الحقيقة من حيث وقوعها وبين التفسير المختلفة لوقوعها.

٢- إن الشواهد والأمثلة والنظائر المطردة في اللغات ، ولاسيما ذوات الغنى الحضاري تدل على حقيقة تأثرها بالحضارة ، سواء الجوانب المادية منها أو المعنوية والعقلية والعلمية والثقافية ؛ فمستحدثات العلوم التطبيقية - مثلاً - كالألات والأدوات والأجهزة المتنوعة وطرائق المواصلات وغيرها لا يمكن لأحد أن يدعي أن اللغة الفلانية حددت ماهيتها فأثرت فيها ، وإنما يمكن الادعاء أنها أثرت من حيث التسمية فقط ، وهي وصف خارجي للشيء المستحدث لا يمتّ إلى حقيقته بصلة ، إذ يمكن أن تكون التسمية من باب المجاز ، ولكن إذا افترضنا ذلك أيضاً ، فاللفظ اللغوي لم يسبق الشيء المستحدث يقيناً .

إن الدواعي هي التي استحدثت آلاف الألفاظ في مجالات مختلفة للحضارة الإنسانية، وقد تختلف لغة عن أخرى في التسمية ، ولكن الاختلاف وصفي وليس جوهرياً؛ فاللغة الفلانية - مثلاً - قد تستعمل لفظاً دالاً على الحركة

كالسيارة ، ولغة أخرى قد تستعمل لفظاً دالاً على الشكل أو اللون ، أو من باب التشبيه والمجاز ؛ فهذه الاختلافات كلها وصفية لا جوهرية ، ولذلك قيل : " إن قيمة الحضارة ومستوى تطورها الفكري يرتبطان بعلاقة طردية مع بنية اللغة في تلك اللغة " (١).

٣- إن مشكلة المصطلحات العلمية والفنية والثقافية تواجه فرضية (وورف وسابير) من حيث ظهور المصطلح ودلالاته واستعماله ومراحله واستقراره ؛ فكثير من المصطلحات العلمية ولاسيما في مجال العلوم الطبيعية والفلكية قد أخذ حيزاً من الزمان الى أن استقر في عرف المعنيين المختصين بها ، فكيف لنا تفسير تشكيل اللغة بهذه المصطلحات من خلال الناطقين بها ؟ إن المشكلة الأساسية في التسمية وليس في الدلالة ، ولكن حتى هذه التسمية يجب أن توصف بالوضوح والتحديد لكي يفهم عالم الفيزياء - مثلاً - في شرق الكرة الأرضية نظيره في الغرب في لغتين مختلفتين . إن واقع الاستعمال اللغوي للمصطلحات العلمية والثقافية المختلفة جاء نتيجة التأثير الحضاري في اللغة وليس العكس .

ولفرضية وورف وسابير رصد كبير من الصحة وقرائن ونظائر ودلالات في المجال الاجتماعي والديني ، نلاحظ - على سبيل المثال - في نظام الأسرة عند الأقوام الهندية الأوروبية ، وهو نظام كان معقداً مستقراً في مراحل

(١) أعلام الفكر اللغوي : ٢٧/٢ .

تأريخية ، ومع تغير الزمان افتقدنا هذا النظام في اللغات التي انحدرت من الأصول الهندية الأوروبية .

قال دي سوسير : " إن الألفاظ المألوفة التي تشير الى القرابة كثيرة ، وقد تناقلتها العصور بوضوح . وهي تساعدنا على القول بأن الأسرة عند الأقوام الهندية الأوروبية كانت نظاماً معقداً مستقراً، إذ باستطاعة لغاتهم التعبير عن معانٍ دقيقة لصلات القرى لا وجود لها في لغاتنا الآن " (١).

من سنن الحضارات تغييرها وتبديلها عبر الزمان وإن طال ، ومن شأن هذا التغير غير الملحوظ إيجاد نظام يظهر على نحو واضح في اللغات . قال كولكهون موضحاً هذا المعنى : " الحضارات تتبدل فعلاً ، على الرغم من أن هذا التبدل في بعض الأحيان بطيء غاية البطء ، ومتأخر الى أقصى حد. وغالباً ما يُظهر هذا التبدل نظاماً رتيباً ملحوظاً. وهذا حقيقي بشكل ظاهر في مجال اللغة ، ذلك الجانب الحضاري الذي يشاد بشكل لا شعوري ، ولا يعرف المجتمع بُناته أو مُكوّنيه " (٢). ومثل هذا التوصيف هو في حقيقته ربط للغة بالحضارة ؛ فالتبدل الحضاري أو التغير أو التطور ، سمه ما شئت من نتائجه تغير في الحضارة من حيث فهمها ومظاهرها ، وغالباً ما يتصل ذلك بالتغير الدلالي للألفاظ ، وقلمما يتصل بالبنى الصوتية ، وأما البنى الصرفية والقواعديه فتكاد تكون ثابتة.

(١) علم اللغة العام : ٢٤٧.

(٢) الأنثروبولوجي : ٦٨.

ومن قبيل التطور الحضاري انتقال الحضارة من الطور الشفوي الى الطور الكتابي المدوّن ، ومن الأمور المسلم بها أن حضارات الأمم ولاسيما الجوانب الثقافية تبدأ مقروءة تعتمد على الروايات الشفوية ، وبعد مراحل زمنية تنتقل الى الكتابة والتدوين ، ومن الأمثلة لذلك الشعر ؛ فالشعر العربي - مثلاً - كان يعتمد على الرواية ، وبعد ذلك ظهر التدوين للشعر، وأخطر من ذلك النص القرآني كان ينتقل من جيل الى آخر عن طريق الحفظ على الرغم من أن تدوين القرآن الكريم رافق نزوله ، وجمعه حصل في زمن الرسول (ص) . ونلاحظ هذا الأمر في اغلب الأدبيات الشرقية كالأدبيات الدينية الفارسية القديمة ، والأدبيات الهندية في التراث الثقافي والديني للهند ، والأدبيات الصينية في عصر كنفوشيوس وما قبله وما بعده. ويحدثنا التأريخ عن (الأوستا) الكتاب المقدس عند الزرادشتيين ؛ فبعد غزو الإسكندر وسقوط الدولة الإخمينية أُلّف هذا الغازي الحاقد المتخلف عن عمد وحقد دفين ثأراً لأبيه المقتول كثيراً من المظاهر الحضارية في بلاد فارس ، وخصوصاً في عاصمتها (تَخْت جَمْشِيد) ؛ فضاعت الأوستا، وبعد سنين كثيرة اجتمع شمل الإمبراطورية وتأسست الدولة الساسانية التي اتخذت اللغة البهلوية ، وهي اللغة الفارسية الوسيطة لغة دينية لها وأقرت بالزرادشتية ديناً رسمياً للدولة؛ فجمع علماء الدين الزرادشتيون شتات الأوستا عن طريق الحفظ والرواية الشفوية.

ومثل هذا الأمر حصل في تراث الاغريق ؛ فلم يكن للكتابة شأن كبير لديهم ، إذ كان شعر أشهر شعرائهم ينتقل من جيل الى آخر عن طريق الرواية الشفوية ، وكذلك الأمر في أدبيات أخرى . ولم يظهر التحول من الحضارة الشفوية الى الحضارة المكتوبة إلا في زمن أفلاطون^(١).

ومن جملة ما يترتب على الحضارة المدونة تدوين الوثائق التي تخص الأمم والشعوب ، فقد غني بهذا الجانب من البحث التاريخي ذي السمة اللغوية منذ القرن التاسع عشر في أوروبا ، ويعد (أدولف بكتبه) أول من اهتم به ، وهو من رواد المدرسة الكلتيّة ، وظهرت هذه العناية في كتابه المعنون بـ (أصول اللغات الهندية الأوروبية : ١٨٥٩م - ١٨٦٣م) . استقى (بكتبه) معلومات أساسية في كتابه هذا عن حضارة الآريين القديمة ، ويرى إمكانية الاستفادة من هذه المعلومات في (تشخيص) تفاصيل متنوعة تتعلق بالشعوب الهندية الأوروبية القديمة عن طريق لغاتها ، كالأشياء المادية مثل الآلات والادوات والأسلحة والحيوانات الأهلية والحياة الاجتماعية ، فيما لو كانوا بدواً أو رُحلاً أو أقواماً زراعيين ، وكذلك الكشف عن أنظمة الأسرة والحكم ، ودراسة النباتات والحيوانات في البلاد التي سكنوها ، وكان يرى أن مهد الآريين القدامى هو (باكتريانا) . وتجمع من ذلك كله علم جديد أوجده بدراسته هذه يسمى بـ (اليونتولوجي) أو علم الآثار اللغوي^(٢).

(١) انظر أعلام الفكر اللغوي : ٩٢/١ .

(٢) انظر علم اللغة العام : ٢٤٥ .

ومن فروع المعرفة ذات الصلة بالتأريخ ما يعرف بـ (علم الحضارات والعمران البشري) ^(١)، وهو يدرس الحضارات التي ظهرت في الأمم منذ فجر التأريخ دراسة مقارنة ، ويمكن أن يطلق على ذلك (علم الحضارات العام) ، ومن ثم يتفرع الى دراسة كل حضارة إنسانية منفردة، فيقال - مثلاً-: الحضارة العربية أو الإسلامية، والحضارة الأوربية، والحضارة الصينية، والحضارة الهندية، والحضارة الفارسية، والحضارة المصرية، والحضارة الإغريقية أو اليونانية... وهكذا .

ومن المعلوم لدى الباحثين أن (هيردوتس) الملقب بأبي التأريخ (في حدود ٤٨٠-٤٢٥ ق.م) هو أول من استعمل كلمة (Historia) ، ثم انتقلت الى أغلب اللغات الأوربية ^(٢)، وتكونت على إثر نشوء الدراسات الحضارية مدارس ومناهج مختلفة اختصت بآراء ونظريات في تحليل نشوء الحضارات العامة والخاصة.

ومن المعارف ذات الصلة أيضاً ما أطلق عليه (فلسفة التأريخ) ^(٣)، وهو علم استفاد من التراكم المعرفي للحضارات الغابرة بعد كشف التنقيبات الأثرية عن عدد كبير منها ، فاستطاع الباحثون في الحضارات والعمران

(١) انظر طه باقر : مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ١/١٢١.

(٢) انظر مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ١/١٢١.

(٣) انظر مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ١/١٢٥.

البشري بفضل هذا التراكم المعرفي أن يدرسوا سنن نشوء الحضارات ونموها وتطورها، ومن ثم عوامل انحلالها وأفولها وزوالها .

ويمكن أن نستفيد من المعارف المذكورة آنفاً توضيح سبل الصلة بين اللغة والحضارة ، فهي صلة كما يبدو لي (ترابطية) كالصلة بين اللغة والحقائق الخارجية ، بمعنى أن اللغة وعاء للحضارة مفسرة لها ، والحضارة نفسها وعاء للغة ومفسرة لها ؛ فالمعيار - ها هنا - ترابطي تفسيري ، وقد أشار (كلايد كلوكهون) الى جزء من هذا المعنى متأثراً بسابير ، إذ قال : " ومن الخير لنا أن نتذكر أن اللغة إن نظر إليها باعتبار علاقتها بالحقائق الحضارية التي تكوّن معها مجموع الحضارة ، أو بأي اعتبار آخر فهي في الوقت نفسه قَيْدٌ للحضارة ومفتاح لها ، وأن الانتقال من لغة الى أخرى - كما أشار الى ذلك أدوارد سابير - يوازي نفسياً الانتقال من مقياس هندسي الى آخر " (١).

ويرى (هدسن) العلاقة بين اللغة والثقافة علاقة الخصوص بالعموم ، وأظنه لا يخرج كثيراً عن مفهوم الترابطية والتفسيرية ، قال مبيناً وجهة نظره : " ... أما بالنسبة للعلاقة بين اللغة والثقافة فإن معظم اللغة مُضمّن في الثقافة، ولذلك فإننا لن نجانب الصواب عندما نقول : إن لغة المجتمع تمثل

(١) الأنثروبولوجي الحضاري : ٧٩ .

أحد جوانب ثقافته... وإن العلاقة بين اللغة والثقافة هي علاقة الجزء بالكل" (١).

وتعد اللغة أنموذجاً نظرياً للدراسة الحضارية ، وهي بذلك تمثل الأسلوب الحضاري . وكشفت الدراسات اللغوية الأنثروبولوجية سبلاً علمية واضحة المعالم وسعت من حدود هذه المعرفة ، ولعل الوحدات الصوتية (الفونيمات) خير ما يستدل بها على (وحدات حضارية) واضحة تفيد الدرس والمقارنة، وهي وحدات لا يمكن إغفالها - من حيث التحليل ومن ثم التركيب - ومقارنتها بوحدات من بعض العلوم الطبيعية . قال كلوكهون: " ... نحن لا نملك وحدات حضارية واضحة متميزة يمكن مقارنتها بالذرة في علم الفيزياء ، أو بالجينات في علم الحياة إلا في مجال اللغة . ومهما يكن من أمر فإن الحديث عن الفونيمات أصبح حديثاً فنياً حقاً ؛ فنستطيع أن نلاحظ في هذا المجال من السلوك الإنساني ، وهو إخراج الأصوات وتركيبها في فونيمات ومقاطع وكلمات ضبطاً حقيقياً ونظماً دقيقاً كما نجد إمكانية التنبؤ عن الحقائق" (٢).

ولبيان صلة علم اللغة بالعلوم الأخرى طرأ تحول كبير في البحث اللغوي الحديث ، وحث سابير المعنيين بالدراسات اللغوية على الاستفادة من الأنثروبولوجيا لحلّ المشكلات الاجتماعية والنفسية التي يحتاج إليها علم

(١) علم اللغة الاجتماعي : ١٤٧.

(٢) الأنثروبولوجي الحضاري : ٧٦ .

اللغة . وتوسع (ياكبسون) أكثر وأدخل في هذا المجال - فضلاً عن الأنثروبولوجيا - تأريخ الثقافة وعلم الاجتماع وعلم النفس والفيزياء والفلسفة، إذ قال : " من الصعب على لساني حديث أن يحدد نفسه بمادة بحثه التقليدية ، وما لم يكن هذا اللساني ضيق الأفق نوعاً ما فإنه لن يستطيع إلا أن يشترك جزئياً أو كلياً في الاهتمامات المتبادلة التي تربط اللسانيات بالأنثروبولوجيا ، وتأريخ الثقافة ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس، والفلسفة ، وعلى نحو أبعد الفيزياء والفلسفة" (١).

وفيما يخص علم اللغة الحضاري (Civilizational linguistics) الذي نحن بصددده في هذا الكتاب فإن العلوم المساعدة التي يجب الأخذ بها والاستفادة منها في القضايا ذات الصلة باللغة تنقسم على قسمين : علوم اللغة المساعدة ، والعلوم غير اللغوية ؛ فعلوم اللغة المساعدة تشتمل على ما يأتي :

- ١- علم اللغة الأنثروبولوجي : (anthropological linguistics)
- ٢- علم اللغة التاريخي : (historical linguistics)
- ٣- علم اللغة الإثنولوجي : (ethno linguistics)
- ٤- علم اللغة الاجتماعي: (Sociolinguistics- Sociological linguistics)
- ٥- علم تأريخ الكلمات (الاشتقاق) : (Etymology)

(١) الاتجاهات الأساسية في علم اللغة : ٤٤ .

- ٦- علم الدلالة : (Semantics)
 - ٧- علم اللغة الجغرافي : (Geographical linguistics)
 - ٨- علم اللغة السياسي : (Institutional linguistics)
 - ٩- علم اللغة المقارن : (Comparative linguistics)
 - ١٠- علم اللغة الوصفي : (Descriptive linguistics)
 - ١١- علم اللهجات : (Dialectology)
 - ١٢- علم ما وراء اللغة : (Meta linguistics)
- وتشتمل العلوم غير اللغوية المساعدة على ما يأتي :

- ١- علم الاجتماع
 - ٢- الأنثروبولوجي الحضاري
 - ٣- علم التاريخ الحضاري
 - ٤- الفلسفة
 - ٥- نظرية المعرفة
 - ٦- علم الأديان المقارن
- وبناءً على المذكور سابقاً يختلف التعريف بمصطلح (الأنثروبولوجيا) باختلاف المدارس التي تناولت هذا الموضوع بالبحث؛ فالمدرسة البريطانية - مثلاً- تضيق من مفهوم هذا العلم ، في حين تتسع المدرسة الأمريكية ، وعلى اختلاف المدارس فإن القاسم المشترك بينها هو (الإنسان) ، وأن البحث يتناول الأنثروبولوجيا الطبيعية ، والأنثروبولوجيا الثقافية أو

الاجتماعية. ومن التعريفات الواسعة والشاملة ما ذكره (بيلتو) إذ قال : " الأنثروبولوجيا هي دراسة (الإنسان وأعماله). إن ذلك التعريف الواسع وحده يمكن في الحقيقة أن يضم مجالات جميع الدراسات الميدانية المتنوعة ، والاهتمامات النظرية ، والمجالات التعليمية لأناس يطلقون على أنفسهم اسم (الأنثروبولوجيين). إننا نجد في مناهج دراسة الأنثروبولوجيا في الجامعات الرئيسة أن هذا الحقل من الدراسات ينقسم عادة على فرعين رئيسين: الأنثروبولوجيا الطبيعية، والأنثروبولوجيا الثقافية (الاجتماعية)"^(١) إن الدراسات في هذا المجال متداخلة من حيث حدود العناصر التي تشتمل عليها، ومن الصعب تمييز الحدود بين المعارف المختلفة ذات الصلة بالأنثروبولوجيا تمييزاً واضحاً. وقد أشار الى ذلك (بيلتو)، فقال : ... قد يتميز علماء الأنثروبولوجيا في الخطوط الرئيسة لدراساتهم عن علماء الاجتماع وعلماء النفس وعلماء الحيوان وعلماء الجغرافيا والتأريخ وغيرهم ، غير أن المدى الواسع لاهتمام الباحثين الأفراد يجعل من المستحيل رسم أي حدود واضحة بين هذه المبادئ المتعددة"^(٢).

إن التداخل في المفاهيم لا يتيح لنا فرصة معرفة هذا العلم الذي يطلق عليه (الأنثروبولوجيا) على نحو واضح محدد الأبعاد، بيد أننا يمكن أن نستنتج مما قيل في هذا الباب مفهومي للأنثروبولوجيا: مفهوم ضيق أي محدد ،

(١) دراسة الأنثروبولوجيا (المفهوم والتأريخ) : ٨.

(٢) دراسة الأنثروبولوجيا : ٢٩.

ومفهوم واسع . ولمنع التداخل في المفاهيم والحدود يرجح الأخذ بالمفهوم الضيق لكي تظهر مزايا الأنثروبولوجيا وتجعلها علماً مستقلاً على الرغم من تداخل العلوم في ميادينها، شأنها في ذلك شأن علم اللغة؛ فتكون (دراسة الإنسان) عبارة مناسبة، وتشتمل على دراسته من حيث الطبيعة، أي من حيث نشأته عبر مراحل التاريخ، وما يتصل بهذه النشأة من الشؤون المادية (أعماله - آثاره - تطوره من جيل إلى آخر - مدى استفادته من الآلات والأدوات - طبيعته الجسمانية... الخ)، ودراسته من حيث ثقافته وتطوره وأخذه بأسباب الحضارة والتمدن، وأفكاره الفلسفية، ونظرته إلى المجتمع، وترابطه الأسري والاجتماعي، ونفسيته، وسلوكه الاجتماعي، وتوجهاته الأخلاقية... الخ.

ويختلف مفهوم الحضارة في البحث الأنثروبولوجي عند بعض المعنيين عن المفهوم العام للكلمة، وينصرف في خصوص البحث إلى (التراث الاجتماعي) الذي يعني الأفكار والمعاني وقواعد السلوك في المجتمع. وهو تعريف بالحضارة يأخذ بالاعتبار الجانب المعنوي للإنسان. قال (بيلتو) موضعاً الخصوصية هذه: "الحضارة كلمة نستعملها لتبين (شيئاً أصفناه) يعلل الظروف الواسعة في سلوك يميز الإنسان عن جميع الحيوانات الأخرى. الحضارة تعني في الغالب (التراث الاجتماعي) لمجموعة من الناس"، والتراث الاجتماعي "هو خلاصة معقدة يمكننا تكوينها إذا كنا قادرين على تجميع الأفكار وأنماط المعنى، وقواعد سلوك جميع الأفراد في

مجتمع معين" ، ثم قال : " كل جيل جديد يعدّل ويغير أنظمة الأفكار والمعاني والقواعد بحيث لا يبقى التراث الاجتماعي ثابتاً أبداً غير متغير في أي مجتمع" ^(١)، ومنح (بيلتو) بذلك الصفة (الديناميكية) للحضارة ، وهو أمر مفروغ منه دون أدنى ريب. ويبقى تصويره للبحث الحضاري الأنثروبولوجي محاولة (لتضييق دائرة) الى المستوى الذي لا يسلم من النقد الموضوعي ، وأفضّل أن أرى الأنثروبولوجي الحضاري على وفق المعنى الاصطلاحي الذي رجحناه سابقاً

ويتفرع من الأنثروبولوجي الحضاري علم اختص بالجانب اللغوي البحث أطلق عليه (علم اللغة الأنثروبولوجي) لارتباط اللغة بثقافة المجتمعات الإنسانية، وعني هذا العلم في تعريفه الموسع المرجح " بدراسة اللغة وعلاقتها بالبيئة الثقافية التي تنشأ فيها، والدور المميز التي تقوم به (كوعاء للثقافة) وتجارب الجماعة اللغوية التي تظهر في المناسبات الاجتماعية والثقافية الخاصة كالاحتفالات وممارسة الشعائر الدينية والشعائر الخاصة بالزواج والميلاد والوفاة ، وعلاقة ذلك كله بمعتقدات المجتمع وأفكاره" ^(٢). واقتصر مفهوم هذا العلم عند بعض الباحثين على " دراسة لغات الجماعات اللغوية التي ليس لديها نظام كتابي أو إنتاج أدبي" ^(٣). وهذا التقيد يضيق

(١) دراسة الأنثروبولوجيا: ١٠١.

(٢) معجم اللسانيات الحديثة : ٦.

(٣) معجم علم اللغة النظري: ١٨.

من مجال العلم كثيراً، إذ يقتصر على شيء من مجموعة أشياء ، ولذلك يفضل المفهوم الأول على الثاني لأن مسوغ الترجيح والتفضيل يتصل بالمفهوم الذي ذكرناه لأصل الأنثروبولوجيا، والفرع يتبع الأصل كما تقول القاعدة المنطقية، يضاف الى ذلك الواقع العملي المستفاد من المعرفة اللسانية.

ولا بأس بأن نترث قليلاً مما له صلة بالموضوع عند أفكار (كلود ليفي شتراوس)^(١) المتعلقة بمفهوم البنيوية اللغوية الأنثروبولوجية:

دخلت البنيوية في المباحث الأنثروبولوجية متأخرة بسبب قيام الحرب العالمية الثانية بعد أن نشر شتراوس كتابه الموسوم بـ (البُنى الأولية للقرابة) سنة ١٩٤٩، إلا أن الكلام على هذا التيار الجديد وأثره اتسع في أواخر الخمسينيات بعد أن نشر المؤلف نفسه كتابه الآخر المعنون بـ (الأنثروبولوجيا البنيوية) سنة ١٩٥٨^(٢)، صدر شتراوس في مفهومه للبنيوية عن أفكار اللغوي ياكبسون (Jakobson ١٨٩٦ م - ١٩٨٢ م)، وخلاصة هذه الأفكار^(٣) هي البحث عن بُنى (لغوية تظل ثابتة) باختلاف اللغات، وبما أن اللغة نشاط رمزي للإنسان فإن البُنى الثابتة تعبر عن

(١) عالم فرنسي في الإثنولوجيا (علم الأعراق البشرية) . ولد سنة ١٩٠٨ م ، وكان زميلاً لـ (ياكبسون) .

(٢) انظر جعفر نجم نصر : الأنثروبولوجيا التاريخية : ٩٨ ، ٩٩ .

(٣) انظر الأنثروبولوجيا التاريخية : ١٠٣ ، ١٠٤ .

(مبادئ أساسية للعقل البشري تنعكس على مجالات نشاطه الأخرى) ،
وتكون نتيجة ذلك (المزج بين البحث اللغوي والأنثروبولوجي) وتفسير
الظواهر الاجتماعية عند البدائيين على أساس النموذج اللغوي الثابت ،
وتجاهل العوامل التاريخية ، وتأكيد (فكرة القبلية) التي تعني (وجود
صور وقوالب لا تخضع لتأثير الزمان ، ولا شأن لها بعوامل التطور) ،
وهو ما تبناه ياكبسون وأخذ به شتراوس في كتابيه المذكورين آنفاً.

وذكر ياكبسون نفسه أن الوصف الذي قدمه شتراوس عن البنيوية اللغوية
هو الأوضح، إذ قال مبيناً تداخل المعارف المختلفة (للوصول الى علم
متكامل للتواصل) : " لقد كان ليفي شتراوس هو الذي قدم الوصف الأوضح
لهذا الموضوع ، وهو الذي استهل المحاولة الواعدة لتفسير المجتمع بوصفه
كُلّاً فيما يتعلق بنظرية تواصل معينة ؛ فهو يجتهد من أجل علم متكامل
للتواصل يتضمن الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاقتصاد واللسانيات ، أو
دعونا نستبدل بالمفهوم الأخير (اللسانيات) مفهوماً أرحب منه : وهو
(السيمياء) ، وبوسع المرء أن يتبع أيضاً تصور شتراوس الثالوثي الذي
مفاده أن في كل مجتمع يعمل التواصل على ثلاثة مستويات مختلفة :
تبادل الرسائل ، وتبادل البضائع (أعني السلع والخدمات) ، ... وبصيغة
أعم تبادل الأزواج. لذلك فإن اللسانيات بالاشتراك مع فروع السيمياء الأخرى

وعلم الاقتصاد ، وأخيراً دراسات القرابة والزواج تقارب المشكلات نفسها على مستويات استراتيجية مختلفة، وتتعلق بالحقل نفسه فعلاً^(١). ومن العلوم اللغوية المساعدة علم اللغة الاجتماعي (Socio linguistics) ويطلق عليه أيضاً علم الاجتماع اللغوي (Sociology of Language)^(٢). وهو علم يتداخل مع علم الاجتماع باعتبار الصلة بين اللغة التي تعد ظاهرة اجتماعية وعلم الاجتماع العام، ويبحث في اللغة من حيث البيئة الاجتماعية وكيفية تأدية وظيفتها. وقد نشأ هذا الفرع من فروع البحث اللغوي منذ أواخر الخمسينيات من القرن العشرين بعد أن التفت بعض اللغويين الى دراسة الصلة بين اللغة ومحيطها الاجتماعي والثقافي ، وأثر المجتمع في مختلف الظواهر اللغوية. وصدرت هذه الأفكار عن مفهوم جديد في تفسير الظاهرة اللغوية. ويمكن إيجاز أهم القضايا التي يعنى بها علم اللغة الاجتماعي فيما يأتي^(٣):

- ١- دراسة الأبعاد المختلفة للمستويات اللغوية في المجتمع الواحد.
- ٢- تعدد اللغات واللهجات المستعملة في المجتمع الواحد، وتحديد المتكلمين بها وتصنيفهم على أساس جماعات عرقية أو دينية أو مهنية أو طبقية.

(١) الاتجاهات الأساسية في علم اللغة : ٦٠.

(٢) معجم علم اللغة النظري : ٢٦١.

(٣) انظر معجم اللسانيات الحديثة: ١٣١ ، ١٣٢.

٣- دراسة التباين الاجتماعي في المجتمع اللغوي ، وتسجيل (الفروق

اللغوية الموجودة بين طبقات المجتمع المختلفة).

٤- تحديد دلالات الألفاظ (من خلال سياقها الاجتماعي ومواقف قائلها

ومكانتهم في الطبقات الاجتماعية) .

٥- العناية بما يعرف بـ(حظر استعمال بعض الكلمات) أو (اللامساس

= taboo) لارتباط هذا الموقف اللغوي بالمجتمع وأعرافه وتقاليد

وأفكاره) ، وخضوع ذلك لقواعد تختلف باختلاف المجتمعات اللغوية.

ومن العلوم اللغوية ذات الصلة بالبحث الحضاري ما يصطلح عليه بـ(علم

اللغة الأثنولوجي) أو علم اللغة العرقي (ethno linguistics)^(١)، وتبين مادة

هذا العلم " العلاقات المتداخلة بين اللغة والحضارة والعالم المحيط بنا" ^(٢).

ومنها أيضاً علم اللغة التاريخي (historical linguistics) ، ويسمى أيضاً

بـ (التحليل اللغوي التاريخي (historical linguistics analysis) ^(٣). ويعنى

هذا الفرع من فروع المعرفة اللغوية بدراسة اللغات عبر مراحلها التاريخية

بعد دراسة كل مرحلة دراسة وصفية ؛ فهو علم (متحرك) خلافاً لعلم اللغة

الوصفي الذي يتناول بالبحث لغة ما في مكان وزمان معينين ، ولا بد بعد

الدراسة الوصفية لكل مرحلة أن ترصد التغيرات الطارئة على البنية اللغوية

(١) معجم علم اللغة النظري : ٨٨.

(٢) أصوات وإشارات : ٦٣.

(٣) معجم علم اللغة النظري : ١١٩ ، ومعجم اللسانيات الحديثة : ٥٩.

من حيث مستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية عبر مراحلها التاريخية؛ فالحركة والتتابع والتغير أو التطور هي من سمات علم اللغة التاريخي، ويتناول المنهج وفقاً لذلك مدى انتشار اللغة أو انحسارها أو انقسامها الى لهجات متعددة، وتطور إحدى اللهجات الى لغة مشتركة أو فصحي، و" وما تشهده هذه اللهجات من تغيرات تبعتها أو تقربها من أصلها الذي اشتقت منه"^(١).

ومن العلوم اللغوية ذات الصلة ما يعرف بـ (علم أصول الكلمات) أو (علم تأصيل الكلمات) ، وهو مفهوم (الاشتقاق) في الدراسات اللغوية الحديثة ، ويدرس تأريخ الكلمات من أصولها، وله علاقة وثيقة بعلمي اللغة التاريخي والمقارن ، إذ " يتتبع أصل الكلمة تاريخياً من حيث ظهورها ويبين ما طرأ عليها من تغيرات في اللفظ أو المعنى ، ويبين أصل الكلمة لا في اللغة الواحدة فحسب، بل في المجموعة اللغوية التي تنتمي إليها أيضاً " ^(٢).

ومن المستويات اللغوية التحليلية ذات الصلة بالبحث الحضاري المستوى الدلالي (Semantics) ، ويعرف بـ (علم الدلالة) أو (علم المعاني) . ويتناول هذا المستوى بالدرس العلاقة بين الرمز اللغوي ومعناه ، وتطور معاني الكلمات عبر مراحلها التاريخية، وتنوعها، والمجاز اللغوي، والعلاقة

(١) معجم اللسانيات الحديثة : ٥٩.

(٢) معجم علم اللغة النظري : ٨٨.

بين الكلمات على المستوى اللغوي العام ^(١)، ولاسيما العلاقة بين معاني الكلمات في حقولها الدلالية.

نشأ الفكر الفلسفي عند الإغريق وغيرهم من الأمم ذات الحضارة القديمة مقروناً في أول الأمر بالأساطير، ثم انتقل الى مرحلة الكليات في الفلسفة اليونانية قبل سقراط، أو ما يصطلح عليه عند الباحثين (بما قبل الفلسفة)، ويعنون بذلك الفلسفة المنهجية المدرسية؛ فنظر الفلاسفة في أصل النشأة كالماء والنار والتراب والهواء ، والتفاعل بينها ... الخ. وبعد ظهور سقراط أخذت الفلسفة مساراً آخر غير النظر في أصل نشأة الكون، فجرى الحديث عن العقل والإدراك والأخلاق عند الإنسان، والطبيعة وما وراء الطبيعة والمثل ومبادئ الجدل المنطقي... الخ من القضايا التي تتصل بالإنسان وما يحيط به، وتفسير الوجود والغاية منه.

وكان ذلك كله يجري على الألسن، ثم انتقل الى التدوين والكتابة، أي كانت الأداة لإيصال الأفكار والرؤى والفرضيات والنظريات بوساطة اللغة. ومن هنا نشأت الصلة الترابطية بين اللغة والفكر الفلسفي. ويذكر عن أحد اللغويين الغربيين أنه قال في بيان أهمية التواصل والترابط بين علم الدلالة والفلسفة : " إنك لا تستطيع أن تقول متى تبدأ الفلسفة وينتهي علم الدلالة، وما إذا كان يجب اعتبار الفلسفة داخل علم الدلالة ، أو علم الدلالة داخل

(١) انظر معجم علم اللغة النظري: ٢٥١.

الفلسفة " (١). ويعني هذا الكلام توجيهاً منهجياً لمفهوم التفسير العقلي للدلالة ، وهو ما تبنته مدرسة علم الدلالة.

ويذكر عن تطبيق منهج سقراط في تحصيل المعرفة أنه عني بالتصورات الواضحة (لمعاني الألفاظ الأخلاقية) ، وحرص على الوصول إليها وتحديدها، في حين لا يستدعي منهجه نفسه هذا التحديد (٢).

إن مدلول (المعرفة) عند سقراط - مثلاً- بالبعد الفلسفي يتمثل باختلاف المعنى بحسب استعماله وتطبيقه؛ فالصفات التي تطلق على الأشياء ينبغي لها أن تطابق وتتفق مع الأهداف منها، والملاءمة والتطابق لمن لا يعقل تعني الغرض من الصفة التي أطلقت عليه من حيث الاستعمال ، أما الذي يعقل ويدرك ، أي الإنسان فصفاته لا تطابق أغراضها (تطابقاً آلياً خارجياً) ، بمعنى أن يستعملها شخص ما ليظهر تطابقها مع أغراضها، ولذلك أدرك سقراط أن الخير لا يمكن إدراكه من غير المعرفة وصلتها بحياة الإنسان. وذكر (تايلر) هذا المعنى متمثلاً بشواهد بشرية وغير بشرية ليصل الى العامل المشترك بينها (لتصور الصفة) في الأمثلة ونظائرها ، قائلاً: "... وكلمة (فاضل) تختلف في المعنى وفقاً لناحية تطبيقها؛ فعندما نتكلم عن سكين فاضلة ، أو نار فاضلة، أو طعام فاضل، أو صورة فاضلة ، فتلك صفة مختلفة في كل حالة تجعل الشيء فاضلاً؛ فالعامل المشترك لتصور

(١) أحمد مختار عمر : علم الدلالة : ١٥.

(٢) انظر تايلر : الفلسفة اليونانية : ٩٧.

الفاضل في كل هذه الأحوال هو المطابقة أو الاتفاق مع الهدف... وكلمة (فاضل) تستعمل أيضاً للموجودات البشرية في علاقتها بوظائفهم المختلفة ؛ فنحن نتحدث عن (مزارع فاضل) ، و (جندي فاضل) ، و (أم فاضلة) ، ويظل المعنى هو نفسه ، أي (الملاءمة لغرض معين) ، ولكن ثمة اختلافاً بين فضيلة (الأشياء) ، وفضيلة (الناس) ؛ فالسكين الفاضلة لا تؤدي الغرض منها أو تعلن عن فضيلتها ما لم يتناولها أحد ويستعملها في قطع الأشياء ، والطعام الفاضل لا يؤدي الغرض منه ما لم يتناوله شخص ويأكله ؛ ولكن هذا يختلف بالنسبة الى الرجال والنساء فهم لا يستطيعون إظهار فضيلتهم بأن تستخدمهم قوى خارجيه استعمالاً آلياً ، بل هم مضطرون الى استخدام أنفسهم للأغراض التي خلقوا من أجلها ، ولا يستطيع أحد أن يستخدم نفسه بالطريقة الملائمة لغرض معين ما لم يعرف ما الغرض وما وسائل تحقيقه" (١).

ويرى أفلاطون منطلقاً من نظريته في (المثل) عدم وجود تعبير تام مطابق بين الفكر البشري واللغة التي تمثله وبين (الفكر الكلي) ، أي الوجود بأجمعه ، ولذلك يجب أن نستعين بأفضل السبل لإدراك ما يمكن إدراكه . ووجد السبيل في (الرموز) و (الاستعارات) و (التشبيهات). ورأى أفلاطون في مثله (الجمال) على أنه أوضح المثل وأكثرها قوة ، وأن الأشياء الجميلة توقظ في نفوسنا صور الجمال غير الأرضي التي تمثلها الأشياء الجميلة

(١) الفلسفة اليونانية : ٨١ .

في الأرض تمثيلاً جزئياً، وكذلك الحال في عالمنا كله الذي يعد (تمثيلاً ناقصاً) للعالم المثالي. ويستنتج من ذلك أن اللغة مضللة غالباً، " وليست على أي حال أكثر من مجرد ألفاظ أو رموز مادية سُخِّرَتْ لخدمة الأفكار التي تحاول الإفلات من الحدود المادية".

وربما أسرف أفلاطون في عالمه المثالي حتى جعل اللغة مُضلّلة، وأن الألفاظ رموز مادية مُسَخَّرَة لخدمة الأفكار، وإذا كان الحال على ما ذهب إليه أفلاطون فكيف له أن يشرح عالمه المثالي ويفسره للآخرين بمجرد ألفاظ؟ وكيف يمكن أن نفهم معاني الألفاظ غير المادية إذا كان الغرض خدمة الأفكار؟ وكيف تقلت هذه الألفاظ من حدودها المادية ؟ هذه الأمثلة وغيرها تستحق أجوبه واضحة، فهل دار في خلد أفلاطون أن الأفكار أعم من اللغة ؟ ، أو قل : إن عالم الأفكار أعم من عالم اللغة ؟ هذا ما يمكن أن نستنتجه من كلامه، ويترتب على ذلك أن نسأل : كيف نعبر عن عالم الأفكار بألفاظ مضللة؟ والنتيجة التي يمكن أن نتوخاها أن اللغة قاصرة عن التعبير الحقيقي المطلق عن عالم هو أوسع منها ، وليست مضلله. وهذا أمر يستحق أن يتوقف عنده كل من أمعن الفكر المجرد في إدراكه، ولذلك سار أفلاطون وأرسطو تبعاً لسقراط على منهج في المناظرات والمحاورات يفيد ضرورة تحديد معاني الكلمات والمصطلحات قدر الطاقة والإمكان،

وحذراً من (استعمال الكلمات والمصطلحات في غير مدلولها ومفهومها الصحيح)^(١) نسبياً.

وكان أرسطو قد أسس له مدرسة سميت بـ (المدرسة المشائية) على غرار الأكاديمية الأفلاطونية، واتخذت هذه المدرسة التي أصبحت فيما بعد منهجاً ومذهباً فلسفياً من الممشى أو المُتَنَزِّه المتصل بالملعب المعروف بـ (اللوقيون)^(٢) ومن مبادئ هذه المدرسة مبدأ (الكليات والجزئيات) ، وهو من جملة السبل الموصلة الى المعرفة ، ومفاده التعبير عن الشيء البسيط بمقارنته بما يماثله ، أي التعميم ، وقد عبّر عن ذلك أرسطو بـ (الكليات) ، ثم يعاد تجميعه بخصائصه العامة لتكوين صورة للشيء ؛ فالشيء بهذا الاعتبار (جزئي) ، خصائصه العامة (كلي) ، ولا تكتسب معرفة الشيء بتأثيره في الحواس ، وإنما تكتسب بمعرفة (الكليات) التي تكوّن الشيء بتجمعها وتركيبها. وفي نظر أرسطو لا تعد الكليات من حيث التجمع موجودة وجوداً مستقلاً ، (إنها مجردات كوّنّها العقل لكي يصل الى المعرفة، ومن دون عملية التجريد هذه تصبح المعرفة مستحيلة).

ولتوضيح ما ذكر آنفاً نحلّل قولنا - على سبيل المثال - : (هذه شجرة التفاح) كما يأتي:

(١) الفلسفة اليونانية : ١٢٧ .

(٢) الفلسفة اليونانية : ١٢٧ .

"هذا التعبير البسيط الواضح هو نتيجة قدر معتبر من التعميم؛ فالشيء الجزئي الذي يواجهنا قد قورن بأشياء أخرى تماثله، واختيرت بعض الخصائص العامة (يسمىها أرسطو بالكليات) وأعيد تجميعها لكي تكون صورة مركبة أعطي لها اسم (شجرة التفاح)؛ فشجرة التفاح اسم كلي ، ولفظ عام يمكن إطلاقه على أي عدد من أشجار التفاح الجزئية ، إنه مُركَّب من كليات أخرى : شكل شجرة التفاح ، واللون ، والحجم ، وطريقة النمو ؛ والقدرة على انتاج الفاكهة ، أي في الحقيقة من كل الخصائص التي تؤدي بنا الى تسميتها (شجرة التفاح) . ومعرفة ماذا تكون شجرة التفاح إنها لا تتكون من مجرد استقبال الحواس للتأثيرات التي تقدمها لنا الشجرة الجزئية ، إنها تُكتسب بمعرفة (الكليات) التي تتجمع معاً لتكون الكل المركب ، ومن الحالة التي تتشابه فيها الواحدة مع الأخرى (١).

وكان أرسطو متشدداً في معرفة الحقائق وبما يدل عليها من ألفاظ محددة بحسب مذهبه العقلي الفلسفي ، ولذلك قيل في وصفه : " كانت قدماء مثبتتين بقوة على الأرض ، وكان ذا حب عظيم للحقائق وعاطفة لإرجاع الحقائق الى النظام والترتيب، وأن يصبغها بطابع محدد من الألفاظ " (٢).

وعرفت جماعة من معلمي فن الكلام والحوار بـ (السوفسطائيين) ، ولهم أثر في اتجاهات الفلسفة اليونانية والمدارس الفكرية والثقافية في بداية القرن

(١) الفلسفة اليونانية : ١٢٩.

(٢) الفلسفة اليونانية : ١٢٦.

السادس قبل الميلاد. وهؤلاء عنوا باللغة أكثر من غيرهم لأن عملهم انصبّ على تعليم الشباب فن استعمال الكلمة في الجدل ، ودربوهم على البلاغة وصيغ النحو ومعاني الكلمات وعناصر الأسلوب في إنشاء الخطابة والحديث^(١). وبما أنهم لم يلتفتوا كثيراً إلى حقائق المعرفة واشتهر عنهم (التلاعب بالألفاظ) لإبطال حق وإحقاق باطل فقد كانت اللغة الوسيلة المثلى عندهم لتأمين أغراضهم.

ومن أمثلة تحديد معاني الألفاظ والمصطلحات في التأريخ الحضاري تحديد كلمة (مُستبدّ) ومدلولها الاصطلاحي عند بعض فلاسفة اليونان والسياسيين؛ فقد دلت عند فلاسفة الأخلاق على معنى يثير الازدراء والاحتقار، أي على معنى سالب، ولم تتميز به عن كلمة (الملك) سوى فكرة اغتصاب السلطة ، أي أن المستبد والملك بعنوان واحد سوى أخذ السلطة بالإكراه، ثم دلت في نهاية الأمر على " الحاكم الفرد الذي يعتمد العنف ويحتقر القانون، على نقيض من لا يستهدف سوى الخير العام والعدالة" ^(٢).

وحينما نصل إلى عصر (دانتي) في الحضارة الأوروبية نجد توجهاً خاصاً عند بعض المفكرين والفلاسفة المدرسين وعلماء اللاهوت والأدباء لتأويل

(١) انظر الفلسفة اليونانية : ٦٧ ، ٦٨.

(٢) إيمار (أندريه) ، و (أوبوايه) جانين : تأريخ الحضارات العام (الشرق واليونان القديمة) : ٢٩١/١.

النصوص ولاسيما النصوص الدينية. وكان لدانتي الأديب والمفكر الإيطالي المشهور (الكوميديا الإلهية) مبادئ لتأويل النصوص تشتمل على التأويل الظاهري ، والتأويل المجازي ، والتأويل الأخلاقي، والتأويل الخفي. وفيما يأتي بيان موجز لذلك : " فسر دانتي مبادئ التأويل بقوله :

إن الأشياء المكتوبة يجب أن تفهم وأن تفسر على أربعة أشكال رئيسة : الأول : هو التأويل الظاهري ، وهو الذي لا يذهب الى أبعد من النص الحرفي كما يراد بالضبط .

الثاني: التأويل المجازي ، وهو الذي يختبئ المعنى فيه وراء الأساطير، وترمز القصة الجميلة الى الفكرة المستترة .

الثالث : هو التأويل الأخلاقي، وهو الذي يجب على المحاضرين أن يلاحظوه في الكتاب المقدس من أجل خيرهم ومنفعة تلامذتهم.

الرابع : هو التأويل الخفي ، أي ما هو (فوق الحواس) . ويتم هذا حين نفسر الكتابات المقدسة تفسيراً روحياً، لأنها حين تفسر تفسيراً حرفياً فإنها دائماً تعني جزءاً من الأشياء العلوية ذات المجد الأبدي. مثال ما تقدم ما جاء في التوراة : (عندما أُخرجت إسرائيل من مِصْرَ وانعتق بيت يعقوب من شَعْبِ بَرَبْرِيٍّ أصبحت بلاد اليهودية قُدْسَه وإِسْرَائِيلُ قُوَّتَه)؛ فإذا أردنا ظاهر النص فقط يكون خروج بني إسرائيل من مصر في زمن موسى (ع) هو المقصود، وإذا أردنا المعنى الأخلاقي فإن انعتاق العقل من شقاء

الخطيئة وبؤسها هو المقصود، وإذا أردنا المعنى الخفي فإن خروج النفس المقدسة من عبودية الجسد الفاسد الى حرية المجد الأبدي هو المقصود"^(١). ويتبين من النص المذكور آنفاً أن المعاني الأربعة كانت بعوامل حضارية: لغوية ونفسية ودينية . إن العوامل الأساسية في تصور المعنى لا تقتصر على المفردات القاموسية التقليدية ، وإنما هناك شبكة مترابطة ومتلازمة من العوامل تجتمع كلها لتوضيح المعنى المقصود من الكلمة أو العبارة أو النص. وقد ربط (Leech) علم الدلالة بالتفكير والمنهج ، فقال: " علم الدلالة نقطة التقاء لأنواع من التفكير والمناهج ، مثل الفلسفة وعلم النفس وعلم اللغة ، وإن اختلفت اهتمامات كل نوع لاختلاف نقطة البداية"^(٢) ، ولذلك يشير - وهو محق- الى ما يتسم به المعنى من تركيب وتعقيد وتشعب السبل إذ يقول : " علم الدلالة كثيراً ما يبدو مُحيراً مُركّباً، وذلك لأن السبل إليه مختلفة وكثيرة ، والعلاقات بينها لا تبدو واضحة حتى بالنسبة للمؤلفين في الحقل "^(٣).

وتواجه علم الدلالة مشكلات تعترض إيصال المعنى كما ينبغي، ومنها مسألة في غاية الأهمية، وهي كيف يُعبّر عن الأفكار المجردة بكلمات أو

(١) راندال : تكوين العقل الحديث : ١٥٨/١.

(٢) علم الدلالة : ١٦ .

(٣) علم الدلالة : حاشية ص ١٦ .

عبارات، لأن الأفكار المجردة ليس لها واقع محسوس في الخارج، وهي تختلف باختلاف الأشخاص واللغات والرؤى الدينية والاجتماعية والثقافات. ويذكر في هذا الشأن شيشرون (Cicero - ١٠٦ ق.م / ٤٣ ق.م) أشهر خطيب روماني، فقد أوجد مفردات وعبارات مأخوذة من الفكر اليوناني تستطيع التعبير عن الأفكار المجردة، وأفاد بذلك أمرين، أحدهما: أنه صار وسيلة لانتقال الفكر اليوناني الى الرومان ومعرفتهم إياه، ومن ثم انتقاله عبر الرومان الى العصور التي تلتهم ^(١)، والآخر: أنه أسهم في محاولة تحديد بعض الألفاظ المجردة في الأدب الروماني على نحو نسبي.

ومن أنواع المعنى ما يعرف بالمعنى المنعكس (reflected in Meaning) عند (Leech)، ويعني به "المعنى الذي يثور في حالات تعدد المعنى الأساسي؛ فغالباً ما يترك المعنى الأكثر شيوعاً أو الأكثر إلغاً أثره (الإيحائي) في المعنى الآخر" ^(٢). وهذه المسألة لها صلة بما يعرف بـ (المعنى المركزي) و (المعنى الهامشي) للألفاظ؛ فالمعاني الهامشية أو ظلال المعنى تتسجم مع السياق والموقف، وتكون بعوامل نفسية فردية واجتماعية ودينية وغيرها من المسوغات، وغالباً ما يستقر معنى هامشي ويدخل في حيّز المعجم بعد مرور الزمان وألفة الجماعة اللغوية فيصبح كالمعنى المركزي، وربما يحل محله. ومفهوم (الدلالة) عند فيرث يرتبط

(١) انظر مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ٧٠٣/١.

(٢) علم الدلالة: ٤٠.

بالحدث اللغوي تضاف إليه عناصر من المحيط أو البيئة للحدث، وتتكون عنده "من مجموعة العلاقات والوظائف العائدة للعنصر اللغوي والمرتبطة بمضمون المحيط، فكل عنصر من العناصر اللغوية يحتوي على مجموعة العلاقات الملائمة لمحيطه"^(١).

ومن الصعوبات في تحليل الحدث اللغوي، وتحليل المعنى خصوصاً ربط اللغة بالعالم الخارجي، والوسيلة التي يتم بها الربط من خلال اللغة المستعملة، فهذا العالم مرتبط على نحو ما ومحدد بلغتنا. قال بالمر : "جزء من الصعوبة لربط اللغة بالعالم الخارجي يأتي من حقيقة الطريقة التي ترى العالم - الى حدّ ما- يعتمد على اللغة التي نستعملها. ولطالما نبوّب الأشياء التي نحصل عليها من تجربتنا بمساعدة اللغة، وفي هذه الحال تكون معرفة العالم ومعرفة اللغة عبارة عن أفعال لا يمكن فصلها، ولذلك بعد عالمنا - جزئياً- محدد بلغتنا"^(٢).

ومن المسائل المثيرة للجدل المعاني الجديدة وأسباب شيوعها. والملاحظ أن مسوغات اجتماعية ودينية ونفسية وثقافية ، وأخرى تتعلق بالحالة العامة للجماعات اللغوية ، وغيرها كثير هي التي تولد المعاني الجديدة. وهذا بحث يطول في علم الدلالة، ولكن المهم أن المعاني الجديدة حينما تتولد لا تمر في الاستعمال مرور الكرام بل تلاقي في أول أمرها صعوبة بالغة لكي

(١) الألسنية (علم اللغة الحديث) : ٢٨٣.

(٢) Semantics , p.55 .

تنتقل الى الاستعمال اللغوي الجماعي ، ويبقى السؤال: ما مصدر هذه الطاقة الفاعلة؟ وهل يمكن حصرها بالمجال الفكري؟ ، والجواب : إن مصادر الطاقة متعددة تشمل القوى الانفعالية لتوليدها. ورجح أولمان أن يكون المصدر المجال الفكري للكلمات. وقال موضحاً ذلك : " إن المعاني الجديدة التي تكسبها الكلمات تلاقي في أول الأمر مقاومة شديدة يبدونها المتكلمون باللغة المعنية . ولابد للمعاني الجديدة من بذل قدر كبير من الطاقة لتحل في محلها عند المتكلمين ^(١) "، ويسأل : ما مصدر هذه الطاقة؟ ويتبنى في جوابه ما يراه سبير بار (H. Sperber) من أن مصدر هذه الطاقة يستمد من القوى الانفعالية والعاطفية التي ترتبط بالمجال الفكري الذي تنتمي إليه هذه الكلمات " ، وتمثّل بشيوع ألفاظ وعبارات ومصطلحات حربية تستعمل في مجالات أخرى غير حربية أثناء الحرب العالمية لسيطرة " الشؤون الحربية على كل مجالات الحياة سيطرة تؤدي الى استعمال العبارات والمصطلحات الحربية وتطبيقها بحرية تامة على مختلف الموضوعات والمسائل الأخرى " ^(٢).

ويعد السياق الثقافي (Cultural context) من أنواع السياق المهمة في دلالة الألفاظ ، وهو يتحدد بالمحيطين الثقافي والاجتماعي اللذين تستعمل فيهما الكلمات ، مثل كلمة (عَقِيلَة) في العربية الحديثة ، فهي تستعمل عند

(١) دور الكلمة في اللغة : ١٥٧.

(٢) دور الكلمة في اللغة : ١٥٨.

الطبقة الاجتماعية العالية، وأما كلمة (زوجة) فتستعمل في الطبقة الاجتماعية العامة ، وكذلك اختلاف مدلول (الجذر) باختلاف سياقاتها الثقافية والاجتماعية ، فهي تدل على معنى في علم الرياضيات يختلف عما تدل عليه عند الفلاحين مثلاً^(١). وتتجاوز معاني الألفاظ في سياقاتها المختلفة مداها، فهي تدل على معنى أوسع . قال لاينز: " إن معظم الوحدات الكلامية اللغوية تعتمد في تفسيراتها على السياق الذي تستخدم فيه وإن أغلبها لها مدى من المعنى أوسع من مدى المعنى الذي يطرق الباب أول وهلة"^(٢).

ومن قبيل المعنى (المركزي) والمعنى (الهامشي) ما يصطلح عليه عند بعض اللغويين بالمعنى المركزي أو (الأساسي) أو (التصوري) ، يقابله المعنى (الإضافي) أو (العرضي) . والمقصود بالمعنى الإضافي للألفاظ " هو المعنى الذي يملكه اللفظ عن طريق ما يشير إليه الى جانب معناه التصوري الخالص"^(٣). وهذا المعنى عرضة للتغير يتغير المحيط الثقافي، أو عبر الزمان ، أو اختلاف الخبرة . ولا يتصف بالثبات والشمول كالمعنى المركزي إلا إذا تحول من الهامش الى المركز بعوامل لغوية أو غير لغوية

(١) انظر علم الدلالة : ٧١.

(٢) اللغة والمعنى والسياق : ١٤ . ترجمة عباس صادق الوهاب - دار الشؤون

الثقافية (سلسلة المائة كتاب) بغداد ١٩٨٧ م .

(٣) علم الدلالة : ٣٧.

، فكلمة الرجل - مثلاً - في مدلولها المركزي التصوري تتحدد بالعناصر الآتية : إنسان + ذكر + بالغ، وكذلك المرأة تتحدد بالإنسان + أنثى + بالغة . وأما المعنى الإضافي لكلمة المرأة وغيرها فيرتبط في أذهان الناس بما تعكسه من صفات تبعاً للثقافة والبيئة الاجتماعية؛ فالمرأة ترتبط - مثلاً - بالثرثرة ، وإجادة الطبخ ، ولُبس زيّ معين من الثياب ، وترتبط في العامل النفسي باستعمال البكاء (وسيلة) ، وكونها عاطفية ، وغير منطقية ، وغير مستقرة .

وترتبط الألفاظ الآتية - على سبيل المثال - بصفات :
الغَنَم بالانقياد ، والفأر بالجُبْن ، والحِمار بالبلادة ، والنَّحْلَة بالنشاط .
ويتصل هذا النوع من أنواع الدلالة بما يعرف بـ (المعنى الأسلوبي) ^(١)، وعناصره: اجتماعية وجغرافية ، وتصنيف الأسلوب المستعمل ، ونوع اللغة المستعملة ، ووسيلة اللغة ، يضاف الى ذلك مستوى الأداء اللغوي ؛ فالعنصر الاجتماعي يلاحظ الظرف الاجتماعي لمستعمل اللغة، والعنصر الجغرافي يقصد به (المنطقة التي ينتمي إليها المتحدث)، ومستوى التخصص. والعلاقة بين المتحدث والمتلقي عناصر إضافية غير لغوية، أي تلحظ مقتضى الحال من حيث مطابقة الكلام لمقتضاه، ويقصد بعنصر (الرتبة) اللغة المستعملة من حيث التصنيف الأسلوبي كأن تكون لغة أدبية أو رسمية أو عامية. وأما عنصر النوع فيعني نوع اللغة المستعملة كلغة

(١) انظر علم الدلالة : ٣٨ .

الشعر والنثر والقانون واللغة العلمية التخصصية ولغة الإعلان في التصنيف الإعلامي. وأما الوسيلة للاتصال فتعني لغة الحديث أي الكلام المعتاد بين المتحدث والمتلقي ، ولغة الخطبة ، ولغة الكتابة ...الخ.

وتعددت مدارس البحث الدلالي في مجمل (علم اللغة الحديث) بعضها أخذ بالمبدأ العقلي والمنطقي وبعضها الآخر أخذ بالمبدأ السلوكي ، وهكذا... الخ وما يعيننا في هذا الكتاب هو المبدأ الحضاري والاجتماعي، وهما مترابطان متلازمان. وأشهر مدرسة في هذا المجال هي المدرسة الاجتماعية الانكليزية، وراندها (فيرث) ، ولها من دون شك أصول في البحث اللغوي والبلاغي عند علماء اللغة والبلاغة في تراثنا كعبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني.

لقد تأثر فيرث في مفهومه لسياق الحال (Context of situation) بأفكار مالمينوفسكي (Malinowski) التي يمكن اختصارها في النقاط الآتية^(١):

١- ذهب مالمينوفسكي الى أن مفهوم السياق يجب أن يكسر القيود التي تطوقه في علم اللغة، وأن ينتقل الى تحليل الشروط العامة التي تخضع لها اللغة.

٢- إن دراسة أي لغة يتكلمها شعب ما يعيش ظروفًا تختلف عن ظروفنا، ويمتلك ثقافة تختلف عن ثقافتنا يجب إنجازها بربطها مع دراسة ثقافته وبيئته ، ولهذا المبدأ (الأهمية الحيوية في علم الدلالة التاريخي).

(١) انظر : Ulmann , Semantics , p.50 .

٣-أورد مالمينوفسكي بعض الأمثلة لتوضيح بعض المسائل ، منها: الكلمة اللاتينية (rex) ، فهي ليست مرادفة تماماً للكلمة الانكليزية (king) أو الفرنسية (roi). لأن الإمبراطورية الرومانية في بداية تأريخها أكسبت الكلمة مضموناً (شريراً) ، وأصبحت رمزاً الى الطغيان، وبعد طرد الإمبراطور (تراجانيوس) لم يعد الشعب الروماني يتحمل سماع هذه الكلمة.

ويشتمل (سياق الحال) أو (سياق الموقف) أو (الما جرى) عند أولمان على عنصر أساسي ثقافي، وقد عبّر عن ذلك بقوله : " إن اللغوي يجب أن يعير انتباهاً الى ما يسمى (سياق الحال) ... إنه يعني الموقف الحقيقي الذي يحدث فيه النطق، ولكنه يتوسع لفكرة أكثر من السياق تشتمل على الخلفية الثقافية الكاملة مقابل الكلام الذي يدور حول حدث معين في حالة معينة" ، ولكن مفهوم المعنى عند فيرث والمدرسة الاجتماعية الإنكليزية أوسع وأشمل من العنصر الثقافي، فهو يشتمل على مجموعتين من العناصر : مجموعة المستويات اللغوية ، ومجموعة خارج هذه المستويات، أي سياق الحال ، أهمها ما يأتي^(١):

١- (شخصية المتكلم والسامع وثقافتهما) .

٢- (شخصية من يشهد عملية الكلام من غيرهما ومشاركتهم بالكلام وعدم مشاركتهم) .

(١) انظر السعران : علم اللغة : ٣١١ .

٣- (الظواهر الاجتماعية ذات العلاقة بالسلوك اللغوي) .

٤- (ما يطرأ من انفعال واستجابة أثناء عملية الكلام) .

٥- (أثر الكلام في المشتركين اقتناعاً أو إغراءً أو ضحكاً... الخ)

ويتكون المعنى من ائتلاف عناصر المجموعتين المذكورتين آنفاً، وهذا لب المعنى عند فيرث ، فهو " كُلُّ مركب من مجموعة الوظائف " ^(١)، أي الوظائف الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية لسياق الحال. وللوصول الى المعنى - على سبيل المثال في أي نص لغوي يستدعي تحليل النص بحسب المستويات اللغوية (الأصوات والتشكيل الصوتي أو الفنولوجيا، والصرف ، والنحو ، والدلالة بما فيها المعجم) ، وبيان سياق الحال . ويمكن اختصار ذلك في المعادلة الآتية :

المعنى = المستويات اللغوية + سياق الحال

ويمكننا في ختام هذا المدخل التعريف بعلم اللغة الحضاري (Civilizational linguistics) تعريفاً مجملاً على أنه العلم الذي يتناول اللغة بالبحث وفق أسس ومعايير حضارية من حيث التلازم ومبدأ التأثير والتأثر .

(١) علم اللغة : ٣١٢.

المبحث الأول

العوامل الثقافية

إن العوامل اللغوية من أكثر العوامل أهمية في الارتباط بين اللغة والحضارة تأثيراً وتأثراً. ولو أتيح لباحث أن يتفحص جملة الحقائق المستفادة من الأمثلة والأشباه والنظائر في مختلف المجالات لتبين له فحوى الترابط هذا ، ولما كانت اللغة في إحدى أهم ممارساتها وسيلة للتواصل ظهرت للعيان محاولات الإنسان منذ فجر الحضارات لإيصال معرفته الى الآخرين. وشواهد الكتابات القديمة على منجزات الإنسان خير دليل على ذلك ؛ فالثقافة مرتبطة بممارسة الحضارة بوسائل المعرفة. قال ماريو باي في تعريفه بالثقافة : أما كلمة ثقافة في مدلولها التقليدي فترتبط بالممارسة للحضارة التي عادة ما تعبر عن نفسها عن طريق اللغة المكتوبة ، وتشمل أشياء مثل الأدب والشعر والفلسفة والعلم والحصيلة الفكرية والمستويات المرتفعة للحياة والاتصال وحفظ الصحة" (١). ولا يعني ذلك تجاهل الموروث الشفهي لبعض الحضارات القديمة كالإغريقية والفارسية والإسلامية والصينية وغيرها؛ فقد كان لتناقل المعرفة الشفهية ولاسيما النصوص الدينية المقدسة أثر لا يستهان به في إغناء التراكم الثقافي لدى الشعوب. وتراكم المعرفة مزية من مزايا اللغة، بمعنى أنها وسيلة لهذا التراكم؛ فالنظم الاجتماعية المتشابكة للإنسان والتطور الذي استحقه في المجالات العلمية

(١) أسس علم اللغة : ٢٠٦ .

المختلفة كالتطور الصناعي، والأفكار والمبادئ والقيم المواكبة للإنسان عبر القرون تستلزم بالضرورة وجود اللغة لوصفها والتعبير عنها ولإيصالها عبر الأجيال. وبهذا المعنى قال (لوتر): "إن اللغة تمنح الإنسان بالإضافة الى وراثته البيولوجية خطأ آخر للاستقرار يجعل الثقافة وتراكم المعرفة أمراً ممكناً ... إن التعقيد العظيم للتنظيم الاجتماعي للإنسان والتطور الصناعي الواسع يستلزمان وجود اللغة ؛ فالحق أن اللغة تحدد ميلاد الإنسان، وبهذا المعنى يمكننا تفسير الألفاظ الاستهلاكية لإنجيل القديس يوحنا بأنها تعني: (في البدء كانت اللغة) ^(١).

وثمة ترابط تفسيري بين اللغة والبيئة الثقافية والسلوك النفسي للإنسان والقيم الاجتماعية تجعل للثقافة عناصر مترابطة من حيث تكوينها الكلي الدال على نظرة الإنسان للعالم ، واللغة وسيلة ذلك كله.

وعبر سايبير عن هذا التوصيف في تعريفه الشامل بالثقافة قائلاً : " ليس بالإمكان فصل اللغة عن ثقافة البيئة التي تتكلمها ، ولا يمكن فصلها عن مظاهر السلوك الإنساني السيكولوجي والسوسيولوجي " . واستعمل كلمة (الثقافة) " بمعناها الشامل للدلالة على مجموعة التصورات والتمثيلات والمفاهيم والتقنيات التي تؤلف النظرة التي يكونها الشعب عن العالم المحيط به؛ فاللغة هي جزء أساسي من هذه الثقافة ، بل إحدى مكوناتها الأساسية

(١) علم اللغة (مجموع آفاق المعرفة) : ٢٩٥ . والعبرة كما وردت : (في البدء

كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله) يوحنا : ١/١ .

، فهي وسيلة التواصل الخاصة بالإنسان يُعبّر بها عن أفكاره ومشاعره ورغباته" ^(١). ولذلك ذهب مدرسة علم اللغة الاجتماعي الى ربط اللغة بالثقافة من حيث الخصائص، وأن (المعنى) ينبغي أن يستفاد من صلة اللغة بالفكر والثقافة. قال (هدسون) : " إن كثيراً من خصائص اللغة التي درسناها في الفصل السابق هي أيضاً من خصائص الثقافة بصفة عامة ، وإن أفضل سبيل الى دراسة المعنى أو الدلالة هو دراسته من ناحية علاقته بالثقافة والفكر) ^(٢).

إن التزاوج أو المشاركة بين اللغة والثقافة لا تعني بالضرورة إغفال العناصر الأخرى للتواصل اللغوي كالسلوك بما ينطوي عليه من رغبات وبما يتصف به من الفردية ، والتواصل في الشؤون الاجتماعية اليومية المعتادة ... الخ غير أن التواصل الثقافي للغة بالمعنى العام للثقافة الذي لا يعني فقط العلوم والمعارف وإنما يشتمل أيضاً على العلاقات الاجتماعية الجماعية التي تتدرج تحت ما يسمى (البنية الثقافية العامة) لمجتمع ما قديماً أو حديثاً على أنه يمثل عنصراً من عناصر حضارة ذلك المجتمع .

وما يسمى بـ (السياق الثقافي) هو توسيع للسياقات المختلفة المشتملة على التسلسل للحقائق؛ فمن تتابعها ومجموعها يتكون هذا السياق. قال (أولمان) موضحاً هذه الفكرة : " إن هذا التوسيع في السياقات - لغوية

(١) الألسنية (علم اللغة الحديث) : ٢٢٠.

(٢) علم اللغة الاجتماعي : ١٣٠ .

كانت أو غير لغوية - فتح آفاقاً جديدة لدراسة المعنى. وما نعينه هنا هو التسلسل السياقي لحقائقنا، سياق داخل سياق؛ وكل واحد له وظيفة من حيث كونه نظاماً لسياق أكبر. وكل النصوص تجد مكانها فيما يمكن تسميته بـ (السياق الثقافي) (١).

وفي كل ثقافة من ثقافات البشر علاقات لغوية تظهر مدى التطور الحضاري للإنسان في كل زمان ومكان. وعبر (هارمان) عن وجهة نظر في العلاقات اللغوية التي جعلها قائمة منذ (٤٠,٠٠٠) سنة مفادها: " أن هذه الظاهرة (أي العلاقات اللغوية) تميز التطور البشري على أحسن ما يرام . وعلى الرغم من عدم القدرة على البرهنة على العلاقات اللغوية الموجودة في كل ثقافة من الثقافات ، وكل حقبة من الحقب الزمنية المختلفة فإن هذه العلاقات تقوم بدور مهم بالنسبة الى جميع الثقافات المحلية في العالم، وعلى طول الفترات الزمنية التي مرت على وجودها" (٢).

ولست أدري ما الذي جعل (هارمان) يذكر تاريخاً للعلاقات اللغوية؟ أيعني بذلك العلاقات الثقافية للغة كما يستفاد من كلامه؟ فإذا كان هذا ما يعنيه لا يمكننا أن نغفل أو نتغافل عن أشباه الثقافات العامة للبشرية قبل التاريخ وقبل فجر الحضارات بالمعنى الاصطلاحي الشامل، لأن الأمم البدائية كان لها شيء من العادات والتقاليد والأفكار يمكن أن تمثل ضرباً من

(١) Semantics , p.51

(٢) تاريخ اللغات ومستقبلها : ٢٤٦.

ضروب الثقافة أو شبه الثقافة، ولكن ذلك كله متعلق بأشكال الإيصال والتواصل عن طريق الرسم والحفر في الكهوف، وما عثر عليه من الآثار الموغلة في القدم، ولكن الأهم من ذلك التتبيه على أن اكتشاف اللغة عند الإنسان البدائي هو الذي مهد للإيصال والتواصل.

ومسألة تأريخ نشأة اللغات من المباحث التي انطوت على آراء وأفكار ونظريات مختلفة لم يكتب لها النجاح في البحث العلمي ، ولذلك آثرت أكثر المجامع اللغوية في أوروبا ولاسيما المجمع الفرنسي إخراج هذا الموضوع من دائرة الدراسات اللغوية الى دائرة الدراسات الأنثروبولوجية الثقافية .

ويعد عامل اللغة ولاسيما المكتوبة منها أهم وسيلة للثقافة ^(١) كلما اتسعت الحضارات وانتقلت من حضارات متخلفة الى حضارات متطورة ومتقدمة. ودأبت حضارات الأمم الناضجة في نشر لغاتها ما اتسع لها الزمان والمكان؛ فالإغريق نشروا لغتهم لأنها جزء من حضارتهم ، والرومان فعلوا أكثر من ذلك إذ نشروا لغتهم بوصفها " جزءاً من برنامج كبير يدعو الى صَبْغ الشعوب بالصَّبْغة الرومانية" ^(٢).

والتغير الدلالي للألفاظ عامل من عوامل تأثير الثقافة في اللغة ، أو إجمالاً تأثير الحضارة عموماً فيها؛ فالمسميات الجديدة هي من قبيل هذا التغير، إذ يستفاد من بعض الألفاظ القديمة استعمالاً إطلاقاً على أشياء لم تكن

(١) أنظر أسس علم اللغة : ٢٠٧.

(٢) ماريو باي : لغات البشر : ٥٣ .

موجودة من قبل ، فالتغير في هذا المجال يتبع " التغيرات العارضة في العالم الخارجي ، لا تغيرات أو عوامل نفسية داخلية" (١).
وللعلاقات اللغوية أثرها في البنية اللغوية ، ولا سيما اللغات ذات العلاقات المتبادلة، ولا يقتصر الأمر على تبادل الكلمات ذات المضمون الثقافي بل يتعداه الى البنية اللغوية نفسها. ويلاحظ في تفوق إحدى اللغتين على الأخرى أن مسوغات التفوق أو أسبابه هي كثرة المتكلمين بها ، والعامل الحضاري والثقافي ، والتفوق العسكري أو السياسي ، وهذا مدخل من مداخل صراع اللغات، ولكنه ذو صلة بالتفوق الثقافي للغة المؤثرة . ولا تطرد قاعدة التفوق السياسي ، إذ قد يحصل العكس تماماً كما سنرى في المبحث المخصص لصراع اللغات.

ومن قبيل العوامل النفسية في اتخاذ اللغات وتبنيها الهجرة السلمية من مكان الى مكان آخر ، وهي في الغالب هجرات جماعية؛ فالمهاجرون من بنية لغوية الى أخرى يحتفظون في أول الأمر ببعض عناصر لغتهم، وبعد مرور الزمن ينصهرون في البيئة الجديدة ولغتها، وتحاول الطبقات المثقفة منهم أخذ زمن أطول للاندماج لأنها حريصة على ثقافتها الأصلية. وقد عزا بلومفيلد أسباب تغير البيئة اللغوية الى العامل النفسي كالخوف من السخرية ، والإحساس بالانحطاط ، وعامل المصلحة العملية الذاتية ، إذ قال متمثلاً بالمهاجرين الأوروبيين الى أمريكا: " إن هؤلاء المهاجرين لا

(١) السعران : علم اللغة : ٢٨٨.

يلبثون طويلاً حتى نراهم يصطنعون البيئة الجديدة مشوبة في أول الأمر ببعض أصوات لغتهم الأصلية وأساليبها ، ثم لا يكاد يمر عليهم جيل من الزمن حتى يسيطر أبناؤهم أو حفدتهم على اللغة الأمريكية. ذلك لأنها في نظر أغلب المهاجرين (اللغة العليا) ، ولأنها اللغة التي تقضي مصالحهم في البيئة الجديدة وتساعدتهم على الاندماج وتحسين أحوالهم اجتماعياً واقتصادياً. ويسارع خوفهم من الهُزء والسخرية بالتقدم في تعلم اللغة الجديدة وإتقانها، غير أن بعض الأسرار المثقفة التي اعتزت بتقاليدها الأصلية ، وبمظاهر الثقافة في بيئتها قبل الهجرة تظل زمناً أطول محتفظة بلغتها حريصة عليها" (١).

وإذا كانت العلاقات اللغوية تتصف بالأهمية في التطور الحضاري سواء كانت على المستوى الداخلي أو الخارجي فهل هي من العوامل الثابتة؟ الجواب : نعم ، ولكن ليس مطلقاً، فهي ثابتة نسبياً وعرضة للتغير أيضاً في فترات زمنية طويلة تبعاً لما يطرأ على العناصر الحضارية من تغير وتبديل والاستعاضة والاقتراض اللغوي ... الخ .

ومن الجدير بالذكر أن نلاحظ في العلاقات اللغوية صفة أخرى لا تقل أهمية عن ثباتها النسبي ، وهي استمراريته باستمرارية التطور الثقافي ، أي (حركتها) دون ثباتها، وصلة ذلك بحركة الحضارات . أشار هارمان الى ذلك قائلاً: " ... وبالإشارة الى استمرارية التطور الثقافي البشري تعد

(١) إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة : ١١٥ ، ١١٦ .

العلاقات اللغوية من العوامل الثابتة في هذا التطور. فقد كانت دينامية تطور الحضارات القديمة في العالمين القديم والجديد تعتمد في الكثير من الأماكن على نوعية العلاقات اللغوية المحلية والداخلية" (١).

ومن أمثلة التطور الثقافي والتفاعل اللغوي ما يلاحظ في بلدان جنوب شرق آسيا، فالثقافات واللغات في هذه البلدان لم تندمج اندماجاً كلياً بل حافظت على مزاياها وخصائصها ، ولم تصطدم - كما هو متوقع - بالعولمة الأوروبية بل واكبتها ، وكانت لها مع العولمة آثار متبادلة. قال هارمان عن العلاقات اللغوية والتبادل الثقافي في جنوب شرق آسيا : ؟ تقدم هذه المنطقة الكبيرة بطريقة مثالية كل ما له علاقة بالمضمون التاريخي للتطور الثقافي والتفاعل اللغوي . إن ثقافات ولغات منطقة جنوب شرق آسيا لم تتلاش في بوتقة الانصهار الاعتباضي ، بل إنها حافظت على سماتها وخصائصها وتراكيبها على الرغم من الضغوط التي أرستها عليها القوى الكولونيالية الأوروبية . إن العولمة والتنوع اللغوي والثقافي المحلي لا يتناقضان مع بعضهما البعض بل إنهما اتجاهاً لهما توجهات وآثار متبادلة" (٢).

إن العامل الحضاري أثر كبير في تغيير الأمم والشعوب عناصر حضارتها الدينية واللغوية ، وتغيير نظمها التي استقرت عليها طوال عهود وأجيال . وهنا تبدو العناصر الحضارية قابلة للتغيير والتبديل ، وتبعاً لذلك اللغة

(١) تاريخ اللغات ومستقبلها : ٢٤٦ .

(٢) تاريخ اللغات ومستقبلها : ٢٦٩ .

والعقيدة والنظم الاجتماعية ، والسلوك الفردي ، والرؤى الفردية والجماعية لما يحيط بالفرد والجماعة ، وفهم العالم الخارجي واستيعابه جراء التغيير في العناصر الحضارية . وليس هناك ثابت على الدوام؛ فالحركة متصلة والنبات نسبي. قال غوستاف لوبون : " ما أكثر ما ترى في التأريخ من أمم تغير عناصر حضارتها ، وتعتق أدياناً جديدة، وتتحد لغات جديدة ، وتتخذ نُظماً جديدة . وفي التأريخ أمم تترك معتقداتها المتأصلة لتعتنق النصرانية ، أو البوذية ، أو الإسلام.

وفي التأريخ أمم تُغيّر نظمها وفنونها أساسياً؛ وفي التأريخ يبدو أن فاتحاً أو رسولاً أو هُوساً يكفي لإتيان مثل هذه التحولات بسهولة" (١).

وصلة العلوم باللغة أمر مسلم به لا يحتاج الى برهان ، وثمة آلاف من الألفاظ والعبارات في لغات العالم المتحضرة دليل على ذلك ، ولكن المسألة المهمة أن الوقائع التي تصفها العلوم ليست ذات صلة باللغة ، بمعنى أن الأدلة المادية للتصورات العلمية تختلف باختلاف الناطقين بلغات مختلفة بما في ذلك النظرة الى الكون، ولا تكون التصورات متشابهة إلا إذا كانت اللغات متشابهة أو متقاربة. وينطبق هذا المبدأ على العلوم النظرية والعقلية أكثر من غيرها؛ فالتصورات لشارح فلسفة سقراط أو أفلاطون أو أرسطو – مثلاً- تختلف باختلاف التصورات المستوحاة من اللغات. ويقتصر الاختلاف في التصورات وما تعكسه على الخارج، وليس في جوهر المعرفة

(١) السنن النفسية لتطور الأمم : ٢٦.

، ويعني ذلك إيصال تصور الفرد وفقاً للغته، لا جوهر تصوره. ونرى لـ (وورف) مقارنة لذلك : " ... عندما نقول إن العلوم مرتبطة باللغة لا يعني ذلك بحسب وجهة نظر وورف أن الوقائع التي تصفها العلوم هي أيضاً مرتبطة باللغة ، بل تعني أن المراقبين جميعاً لا يقودهم الدليل المادي نفسه الى الصورة ذاتها عن الكون ما لم تكن خلفياتهم اللغوية متشابهة أو يمكن تغييرها بطريقة ما"^(١). وخلاصة ما ذهب إليه وورف (أن الدليل المادي نفسه لا يقود المعنيين الى الصورة ذاتها عن الكون) إلا في حالة واحدة ، وهي تشابه لغاتهم.

ومن العوامل اللغوية الثقافية عوامل توصف بـ (الدرجة الثانية) ، وهي تعرض لحضارات متفوقة أيضاً حين تعرض للجماعة (تيارات ثقافية دخيلة) تترك آثارها في الاستعمال اللغوي ما يؤدي الى ما يسمى بـ (اللغة الثانية للأمة موضع الدرس) .

والتغيير الناتج للغة مفردات وتراكيب لأسباب مختلفة لا يقتصر على الجماعة اللغوية أو البيئة الاجتماعية ، وإنما يبدأ - عادة - من الاستعمال الفردي للغة ؛ فالمفردات والتراكيب التي يستعملها الفرد نتيجة لنموه الثقافي، وطريقة (نطق الحروف) ، و (قول الجمل) ، و (تغيير المركز الاجتماعي للفرد) كأن يتبوأ مركزاً ثقافياً أعلى أو مركزاً سياسياً ، ذلك كله يؤدي الى تغيير (موازٍ للغة التي يستعملها) . وهل يبقى التغيير مقتصرًا على الفرد ولا

(١) أعلام الفكر اللغوي: ٩٢ / ٢.

يتعداه الى المجتمع؟ هذا سؤال ينبغي الإجابة عنه بما يختاره من مفردات ويستعمله من أساليب وجمل؛ فإن كان ضمن قواعد اللغة وبنيتها الصوتية والصرفية والدلالية أسهم في احتمال شيوعه بين طبقة من الناس ولو كانت صغيرة؛ فاللغة الموصوفة بالوسطى ، وهي بين الفصيحة والعامية ، ويطلق عليها أيضاً (لغة المثقفين) هي من هذا القبيل ، ولكن المسألة لا تقتصر على فرد واحد أو أفراد عدة لرفد اللغة الوسطى هذه ، وإنما تأتي من كثرة الأفراد لتختار الطبقة عن غير قصد ما تراه مناسباً لشيوعه بين أفرادها.

وعنصر التأثير والتأثر الحضاري في تحول اللغات من القضايا المشاهدة في كثير من الأمثلة عبر التاريخ. والمهم أن اللغات المنتحلة تتحول الى لهجات، ومن ثم الى لغات منفصلة بتأثير من متلقي اللغة الجديدة، ومن أمثلة ذلك تحول (الغوليين) القدامى من لغتهم الى اللغة اللاتينية ولكنهم حولوا ما أخذوه الى لهجة انبثقت منها اللغة الفرنسية.

قال لوبون : " إن الغوليين لم يلبثوا أن حولوا هذه اللغة على حسب احتياجاتهم ووفق منطق روحهم الخاص ، ومن هذه التحولات خرجت لغتنا الفرنسية الحاضرة في آخر الأمر" (١).

ومن الأمثلة المهمة التي شاعت في شرق البحر المتوسط مبكراً، وربما قبيل ميلاد السيد المسيح (ع) ما يعرف بـ (الغُوصِيَّة) ، وهي كلمة معربة من أصل يوناني بمعنى (المعرفة) . ويكتنف الغموض هذه الطائفة أو الفئة من

(١) السنن النفسية لتطور الأمم : ٩١ .

الناس الذين تبنوا أفكاراً كان لها أثرها في الأديان والعقائد ولاسيما المسيحية، وامتزجت فيها عقائد قديمة بعناصر فلسفية وصوفية. وفيما يأتي خلاصة لبيان مفهوم الكلمة ^(١):

١- مصطلح الغنوصية يعود الى أصل يوناني (Gnosis) ومنه اشتق

المصطلح الجديد الدال على مبدأ أو عقيدة (Gnosticism).

٢- تعني الكلمة في أصلها اليوناني (المعرفة) ، ويراد بها عند الغنوصيين المعرفة (الحَدْسِيَّة) لا (الاداركية) .

٣- الغنوصية ليست ديناً أو مذهباً من المذاهب الدينية ، بل هي حالة من التدين السريّ) ظهرت في شرق البحر المتوسط مبكراً قبيل ولادة السيد المسيح (ع) ، وشاعت في الشرق الأوسط ، ولاسيما بلاد فارس والبلدان العربية . ويمكن أن يعبر عن الحالة المذكورة آنفاً (من داخل معتقدات الأديان) ، وخصوصاً تلك التي لها أبعاد روحانية وصوفية.

٤- ويمكن أن توصف الغنوصية أيضاً بأنها (حركة فلسفية ودينية) في العصر الذي سادت فيه الثقافة الإغريقية ومزيجها الشرقي المعروف بـ (الهليستية).

(١) انظر فولتز: الروحانية في أرض النبلاء : ٧٤ ، ١٢٥ ، وثروت عكاشة : المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية : ١٧٦ .

٥- تعد العناصر الإغريقية والسامية والإيرانية من أهم الأسس في الفكر الغنوصي.

٦- يطلق على الغنوصية مصطلح (العارفين) اشتقاقاً من الأصل الإغريقي، وتدل في معناها الصوفي على (إعادة ولادتهم الروحانية بالدخول في عملية تعميد طقوسية) . وكلمة (عارف) وجمعها: (عارفان أو عُرَفا) في الفارسية الحديثة لها دلالة إسلامية صوفية، ومعناها المُتألّه الصوفي الذي يبغي الوصول الى المعرفة عن طريق الروح والرياضة الروحانية، وله طريق ذو مراتب في (السّير) و (السلوك) الروحانيين.

٧- تؤمن الغنوصية بأن الخلاص لا يتم عن طريق الإيمان وأعمال الخير ، وإنما يتم عن طريق (المعرفة) . ويفهم من ذلك أن المعرفة هي الأساس في بلوغ الإيمان وعمل الخير.

٨- تأثر الغنوصيون بالأفكار الثنوية الفارسية الأصل ، أي بوجود المتضادين : الخير والشر، ويؤمنون بأنهما العنصران الأساسيان للوجود.

٩- أنكرت الغنوصية في أوائل المسيحية الأسس اليهودية في النصرانية ، ولاسيما العهد القديم من الكتاب المقدس.

١٠- (المعرفة) و (الحكمة) : (Sophia) لهما مدلول واحد عند الغنوصيين ، ويؤمنون بأن الخلاص يتم عن طريقهما.

١١- قسمت الغنوصية الناس على ثلاث طبقات، وهي :

أ- الغنوصيون ، وخلصهم محتوم . ب- النصارى غير الغنوصيين

: يمكنهم بلوغ الخلاص بالمعرفة أو الحكمة .

ج- الهالكون : هم ما خلا المذكورين سابقاً.

١٢- تأثرت المانوية بالغنوصية ، ومن المرجح أن المانوية أخذت

من المسيحية والزرادشتية وألفت من هذا المزيج وغيره فكرها

وعقديتها التي شاعت برهة من الزمن في بلاد فارس ، ولكنها حوربت

على نحو عنيف في العصر الساساني.

ان الشعور القومي الذي تتسع أبعاده عند الجماعات المنتمية الى قومية

واحدة ، أو هكذا تؤمن بذلك أدى الى نشوء صراع عسكري وثقافي ولغوي

عند بعض الأمم والشعوب عبر العصور ، ولاسيما عصور النهضة القومية

كالنهضة الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين في

إيطاليا وألمانيا وفرنسا. ولم تكن هذه النهضة وليدة (الساعة) كما يقال ،

بل تجمعت منذ نشوء الثقافات القومية في القرن الثالث عشر ، وهيأت

لشعور قومي عام كانت نتيجته اهتمام الطبقة المثقفة بالأدب والعلوم.

وساعد على ذلك اختراع الطباعة وتيسير الكتب للناس . قال راندال: إن "

نشوء الثقافات القومية هذه كان بمجموعه العنصر الرئيس في تكوين الشعور

القومي؛ فقد شهد القرن الثالث عشر نشوء جمهور علماني كبير ذي اهتمام

بالأدب والعلم. وقد تمكن هذا الجمهور بفضل اختراع الطباعة من أن يتمتع بقراءة الكتب التي كانت تعتبر من الكماليات حينذاك" (١).
واختراع الطباعة كان إيذاناً لمرحلة جديدة في نشر الثقافة في أوربا ، ومنها الى أقطار الأرض غرباً وشرقاً . ويمكن أن نصف ذلك من غير مغالاة بـ(الثورة) الثقافية، لأنها مهدت لعصر التنوير في أوربا ، ومن ثم الى عصر النهضة العلمية . وهذا شأن جعل الصلة بين اللغة والثقافة أكثر عمقاً وأوسع انتشاراً وأخطر نتائج ترتيب على مجمل العلاقات الثقافية المختلفة والمتنوعة.

ومن العناصر الخارجية للغة التي سماها دي سوسير علم اللغة الخارجي عنصر الأجناس البشرية ، أو السلالات البشرية . وهو ذو صلة مؤثرة في اللغة من حيث ترابط اللغة بتاريخ الأمم والأقوام والأجناس والحضارات. قال دي سوسير مبيناً هذا المعنى : " ... جميع المسائل التي تقع على الخط الذي يفصل علم اللغة عن علم السلالات البشرية . جميع العلاقات التي تربط تاريخ لغة ما بتاريخ قوم من الأقوام، أو حضارة من الحضارات . والرابطة القوية بين اللغة ودراسة الأجناس البشرية تذكر الباحث بالروابط التي توصل بين الظواهر اللغوية الحقيقية؛ فثقافة أمة ما تؤثر تأثيراً ملموساً في لغتها. وتعد اللغة من المقومات المهمة للأمة" (٢).

(١) تكوين العقل الحديث : ٢٦٧/١ .

(٢) علم اللغة العام : ٣٩ .

والأدب من العناصر الثقافية المهمة للأمة، وصلته باللغة معروفة ، فهي أدواته ووسيلته، وتأثيره في اللغة أمر مفروغ منه ، يظهر ذلك - مثلاً- حينما نقارن أدب العصر الجاهلي بأدب العصر العباسي أو الأدب الأندلسي من حيث اختيار الألفاظ والمعاني، وميلها الى حياة المدينة والتحضر، وتجنب حوشي الألفاظ. وللأدب عصر ازدهار يرقى فيه الى المراتب العليا شكلاً ومضموناً، شعراً ونثراً ، ولكن مدلول (الأدب) في تأريخ اللغة العربية مرّ بمراحل من العموم الى الخصوص حتى انفرد بالشعر والنثر الفني والخطابة؛ فمدلوله في العصر الإسلامي الوسيط عام يشمل كل كتاب أو رسالة ألّفت بغض النظر عن مضمونها^(١)، ودل عند ياقوت الحموي فيما بعد على (الكاتب) ، وألف بهذا المدلول معجمه الضخم المسمى (معجم الأدباء) ، فالأدباء في عرف ياقوت هم الكتّاب ، ويعني بهم كتّاب الترسل والنثر الفني .

وأثر الأدب العربي في عموم الآداب الشرقية القديمة ، ولاسيما الأدب الفارسي لعوامل ثقافية ودينية لما امتاز به هذا الأدب شكلاً ومضموناً . وذهب بارتولد الى " أن الجمال الخارجي الذي يمتاز به الأدب العربي ظل دائماً متفوقاً على الأدب الفارسي الذي يُفضّل الفكر . وفي الجملة لم يؤثر الأدب العربي في الأقوام الأخرى ما أثر الأدب الفارسي فيها فيما بعد" ^(٢).

(١) شاخت وبوزورث : تراث الإسلام: ١٤٣/٢ .

(٢) تأريخ الحضارة الإسلامية : ٨٦ .

وما ذهب إليه بارتولد خلاف الحقيقة والواقع ؛ فالمطلع على الأدب الفارسي في حقبة الفارسية الحديثة ، أي منذ القرن الرابع الهجري يلاحظ تأثير الأدب العربي فيه أسلوباً ولغة ومضموناً وفكراً ومصطلحاً، والأمثلة لذلك كثيرة تمتد من بدايات ظهور الأدب الفارسي في العصرين الطاهري والصفاري، ومروراً بالعصر الساماني والبويهى والسلجوقي، الى العصور المتأخرة. وتأثر الأدب الفارسي بالأدب العربي كتأثر الفارسية بالعربية إذ اشتملت على نحو ٤٠% من الألفاظ العربية . ونستنتج من ذلك أن تأثير الأدب الفارسي في الأقوام الشرقية المحيطة به جاء نتيجة لتأثره بالأدب العربي ، يضاف الى ذلك ما ولّده من تأثير مستقل؛ فالأدب الفارسي بهذا المعنى كان الجسر الرابط للأدب العربي بالأداب الشرقية الأخرى ، المحيطة .

إن اللغة ليست بمعزل عن التأثيرات الخارجية ، وافترض لغة غير متأثرة بالعوامل الخارجية أمر يكاد يكون مستحيلاً، وهو فرض لا يوصل الى نتيجة ؛ فاللغات قديماً وحديثاً عرضة للتأثير والتأثر ، وما ينتج عنهما من تطور لغوي ولاسيما على صعيد المفردات ودلالاتها. قال فنديس : " تطور اللغة في معزل عن كل تأثير خارجي يعد أمراً مثالياً لا يكاد يتحقق في أية لغة ، بل على العكس من ذلك فإن الأثر الذي يقع على لغة ما من لغات مجاورة لها كثيراً ما يلعب دوراً مهماً في التطور اللغوي" (١).

(١) اللغة : ٣٤٨.

وتعين اللغة على اكتشاف أنماط الثقافات القديمة للإنسان ، والإحاطة العامة وربما الخاصة بالحياة الروحانية للجماعات البشرية القديمة ، ومحاولة فهم قدر الإمكان لما كان عليه الإنسان من حيث كيانه الشخصي وعاداته وتقاليده وعقائده وطرائق معيشته . وقد أشار كوندراتوف الى هذه المزية للغة قائلاً: " ... ما زالت هناك وسيلة تعيننا لا على إعادة تشييد أنماط إنتاجهم وثقافتهم فحسب (يعني بذلك الأجيال القديمة للإنسان) بل وكذلك على الوقوف على حياتهم الخاصة. وهذه الوسيلة ذات مفعول قوي جداً لأنها تمكننا من التسلل الى الحياة الروحية لأجدادنا، والوقوف على خفايا كيانهم . هذا الشيء الذي كانت استعادته تبدو غير ممكنة. إن هذه الوسيلة الرائعة لبعض الماضي هي اللغة " (١).

وانتشار اللغات في العالم قديماً وحديثاً يعود الى أسباب عديدة ، ومنها الأسباب الثقافية بتغلب أمة على أمة أخرى ثقافياً، فتتبنى الأمة المغلوبة لغتها وإرثها الحضاري ، أو تتأثر بلغتها وحضارتها على نحو كبير . إن هذه المسألة من المسلمات لدى الباحثين ، ويرى بعضهم أن انتشار اللغات يعتمد على (الإقناع) لا القهر، ومن هؤلاء أوستلر إذ قال في مقدمة كتابه مبيناً أوجه الإقناع: " إن هذا الكتاب يتعقب تأريخ تلك اللغات التي امتدت الى أوسع نطاق كجزء من التأريخ الإنساني الذي نعرفه الآن. وبطريقة ما ، ولأسباب متنوعة فإن المجتمعات الناطقة بتلك اللغات تمكنت من إقناع

(١) أصوات وإشارات : ٧٨.

آخرين بالانضمام إليها ، وهكذا توسعت . أما دوافع ذلك الإقناع فيمكن أن تكون شديدة التنوع ، فهي تشمل السيطرة العسكرية ، والآمال بالازدهار والإثراء، والتحول الى اعتناق الدين ، أو الدوام في المدارس الداخلية ، والخدمة في الجيش ، وأسباب كثيرة أخرى ، ولكن هذا الإقناع في الأساس هو الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تنتشر بها اللغة ، وهو ليس شيئاً صغيراً كما يعرف أي شخص حاول متعمداً أن يتعلم لغة أخرى " (١).

وانتشار اللغات له نتائج في اللغتين الأصلية والدخيلة من حيث العادات اللغوية وفق مبدأ التأثير والتأثر. واستجد البحث في هذا الميدان من ميادين علم اللغة منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وأخذ حيّزاً في الدراسات لأهميته العملية فضلاً عن أهميته السياسية والاجتماعية ، يضاف الى ذلك كله أنه سمة من سمات التأثير الحضاري اللغوي المتبادل .

ويشير تأريخ علم اللغة الى أن هذا الضرب من البحث اللغوي ظهر في القرن التاسع عشر مع اللغوي الإيطالي (ج. أ. أسكولي) ، ثم شاع في الأوساط اللغوية الأوروبية بمسمى نظرية (العادات اللغوية للجماعات الحضارية) . وفيما يأتي تنبيهات مختصرة على هذه المسألة (٢):

(١) إمبراطوريات الكلمة : ٢٩ .

(٢) انظر لغات البشر : ٩٥ ، ٩٦ .

١- تعد مشكلة الاتصال بين اللغات مشكلة مستجدة العهد في الدراسات اللغوية ، ظهرت في القرن التاسع عشر واتسعت وانتشرت في آواخره وبداية القرن العشرين بمسعى من اللغويين ، كان أشهرهم (أسكولي) المذكور آنفاً. وتداخلت هذه النظرية بأخرى أطلق عليها نظرية (تداخل العادات اللغوية لجماعات دخيلة على أهل اللغة) ، وتبنت الثانية بدلاً من الأولى جماعة من اللغويين.

٢- دلت عبارة (العادات اللغوية) على العادات القديمة والدخيلة للناطقين باللغة، والأثر الذي تتركه لغة في أخرى سواء اختفت إحداهما أم لم تختفِ.

٣- صار اللغويون أخيراً يتحدثون عن (الاتصال بين اللغات) بدلاً من استعمال عبارة (أثر العادات اللغوية القديمة). وترتب على ذلك اختلاف في المصطلح المستعمل لمثل هذه الدراسات تدريجياً كما يأتي:

أ. نظرية الجماعات الحضارية أو (العادات اللغوية للجماعات الحضارية)

ب. نظرية (تداخل العادات اللغوية لجماعات دخيلة على أهل اللغة)

ت. (الاتصال بين اللغات)

٤- أهم ميدان ظهرت فيه آثار (نظرية العادات اللغوية) هو ميدان الدراسات الرومانسية ، إذ اتخذت النظرية أساساً لتفسير اختلاف فروع هذه اللغة عن الأصل اللاتيني الواحد. ونجتزئ بمثالين لذلك: أ. ذكر أسكولي في كتابه (الأصوات اللاتينية) : " أن الصوت المتحرك (الصائت) : (u) الذي يظهر في المناطق التي كان سكانها قديماً يتحدثون بالغالية - فرنسا والمناطق الشمالية في إيطاليا وبعض أجزاء من سويسرا- يرجع الى عادات النطق (الكلتية) التي استمرت على الرغم من انتشار الحضارة الرومانية في هذه البقاع) .

ب. أشار (فريدريك دياز) قبل خمسين سنة مما ذكره أسكولي الى " أن تغير بداية الكلمات في اللغة الإسبانية من (f) الى (h) قد يرجع الى عدم رغبة الباسك الأيبيريين في نطق الصوت (f)".

٥- من مقولات أتباع هذه المدرسة أن انتشار لغة ما في مناطق أخرى كما حصل لللاتينية وانتشارها في بلاد الغال وآيبيريا وأغلب إيطاليا يؤدي الى أن " التطورات التي تحدث للغة الدخيلة تتأثر بالعادات اللغوية التي اكتسبها متحدثو اللغة الأصلية ، وتكون جماعة المتحدثين باللغة القديمة جماعة حضارية لها أثرها حتى بعد أن تختفي لغتها" .

٦-تظهر آثار العادات اللغوية في أمور ، أبرزها التغير لبعض عادات اللغة الدخيلة ، ولاسيما نطق الكلمات ، أي على مستوى الأداء الصوتي والصرفي .

٧-إن الوافدين على منطقة جديدة تتحدث بلغة أخرى مختلفة ستترك لغتهم آثارها على لغة أهل المنطقة وإن تخلوا عن لغتهم الأصلية وتبنوا لغة تلك المنطقة .

والمغالبة بين اللغات من أسباب انتشارها . وفي كثير من الأحيان تتغلب لغة على أخرى وتحل محلها وتكون لغة جميع السكان وإن قلّ عدد المتكلمين باللغة الغالبة. والغلبة بشروط ، أهمها :

أ. أن تكون حضارة اللغة الغالبة أرقى من حضارة اللغة المغلوبة، بما في ذلك آداب اللغة .

ب.أن تدوم قوة الغالب مدة كافية لإحلال لغته محل لغة السكان المغلوبين .

ت.أن تقيم على نحو دائم جالية يعتد بها من أفراد اللغة الغالبة في بلاد الشعب المغلوب وتمتزج بهم.

ث.أن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة ، أو من شعبتين لغويتين متقاربتين.

ومن الامثلة في تأريخ اللغات :

أ- غزو الرومان لأوروبا ، وتغلب اللاتينية على اللغات الأصلية لإيطاليا ، وإسبانيا ، وبلاد الغال (LaGaulle - فرنسا) ، والألب الوسطى ، علماً بأن الرومان كانوا أقلية بالنسبة الى سكانها الأصليين.

ب- غزو الآراميين للبلاد الناطقة بالأكدية والفينيقية والعبرية ، إذ تغلبت اللغة الآرامية على هذه اللغات مع أن الآراميين المغيرين كانوا أقلية.

ت- تغلب العربية على البلدان التي افتتحت في الفتح الإسلامي، في آسيا وإفريقية ، إذ تغلبت على اللغات السامية والفارسية والقبطية والبربرية.

وانتشار لغة ما على مستوى محدود أو مستوى واسع كالانكليزية مثلاً ، تليها الإسبانية والفرنسية والألمانية لا يضمن لها البقاء والديمومة. ونلاحظ ذلك • مثلاً- في اللغة الفرنسية التي كانت عمدة اللغات انتشاراً في أوروبا إبان القرن الرابع عشر وما تلاه قد انكمشت شيئاً فشيئاً ، وكذلك حصل للألمانية. وبرزت لغات أخرى على المستوى (التقني) العالمي للتطور العلمي في كياناتها الأصلية كالصينية والروسية .

وبناء على ما تقدم ذكره لا يمكن ضمان استمرار لغة ما وإن كانت تتصف بالعالمية لأسباب اجتماعية كنمو السكان ، واقتصادية كأنماط التجارة ، وثقافية حضارية كالنفوذ الثقافي ، " وعلى الرغم من السيطرة التقنية الحديثة

للانكليزية فلا شيء يضمن لها استمرار بروزها على المدى البعيد في النشر أو الإذاعة ... فالتكنولوجيا محايدة كالغابة " (١).

وتوثيق الصلات الثقافية بين الشعوب يترك آثاره على لغاتها وفق مبدأ التأثير والتأثر ، ولا تقتصر الآثار على المفردات فقط وإنما تتعداها في بعض الأحيان الى القواعد والأساليب (٢).

إن العوامل الثلاثة المهمة في انتشار اللغات مع ثقافات متكلمها أفرغت (حمولتها) الحضارية - إن صح التعبير - في مختلف جهات العالم القديم المتمدنة ، ولاسيما شرق البحر الأبيض المتوسط ، والشرقين الأوسط والأدنى ، وأجزاء من شمال إفريقية ، وشمالها خصوصاً ، يضاف الى ذلك أجزاء من آسيا. والعوامل الثلاثة هي إنشاء المدن ، والتبشير الديني النصراني، وتأليف الكتب وترجمتها.

أما إنشاء المدن فقد ظهرت مدن جديدة في الشرق الأدنى ومصر إبان الحضارة اليونانية . واتصفت هذه المدن من حيث السعة والأهمية الثقافية بما اتصفت به المدن الكبرى القديمة ، وربما زادت عليها سعة وعمراناً كمدينة الاسكندرية في مصر ، ومدينة إنطاكية في سوريا . وكانت مدينة سلوقية على شاطئ دجلة تلي مدينة روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية اتساعاً .

(١) إمبراطوريات الكلمة : ٢٣ .

(٢) انظر / وافي : علم اللغة : ٢٢٦ .

وأما التبشير الديني بعد ظهور المسيحية وانتشارها واعتناق الإمبراطورية الرومانية لها فقد ظهر في الشرق ، وشرع المبشرون من القساوسة وغيرهم في نشر النصرانية (بين طبقات الدنيا المقيمين في المدن الكبيرة التي أنشأها اليونان).

وواكب التبشير الديني انتشار الآداب النصرانية في اللغات الأخرى خارج الإمبراطورية الرومانية كاللوية والحشية في إفريقية ، والأرمنية والكُرجية في آسيا^(١).

وأما تأليف الكتب وترجمتها فقد وجدت (كتب جديدة مؤلفة أو مترجمة الى اللغات المحلية ولاسيما السريانية والقبطية) ، فضلاً عن الكتب الدينية المؤلفة باللغة اليونانية التي اتسمت في تلك الحقبة الزمنية بـ (العالمية) . ومن الطريف الإشارة الى كتب بقيت من القرن السادس الميلادي تدل (على أن اللغة العربية استعملت أيضاً لغة للكنيسة) ^(٢).

إن الاقتراض اللغوي سبيل من سبل انتشار اللغة ؛ فهو من باب زيادة المفردات في اللغة المقترضة (بكسر الراء) ، وتوسيع نفوذ اللغة المقترضة (بفتح الراء) . والأهم الأغلب في الاقتراض أو الاستعارة يقتصر على المفردات أي الألفاظ والعبارات ، ويكون الاقتراض لأسباب سياسية كتغلب أمة على أخرى قهراً أو لأسباب اجتماعية وثقافية كإعجاب أمة بثقافة أمة

(١) انظر تاريخ الحضارة الإسلامية : ٤٤ .

(٢) انظر تاريخ الحضارة الإسلامية : ٤٤ .

أخرى تتخذ من لغتها وليجة لإظهار هذا الإعجاب^(١) ، أو يكون الاقتراض ضرورة ثقافية تستدعيه ، ولا يحصل ذلك غالباً إلا بين أمتين إحداهما أكثر ثقافة من الأخرى ، فتستعير الأقل ثقافة ما تحتاج إليه وما لا تحتاج من الأكثر ثقافة^(٢).

وثمة عامل آخر من عوامل الاقتراض ، وهو (النزعة الى التفوق والامتياز) واختزل أولمان سبب الاقتراض بهذا العامل إذ قال : " إن الدافع الذي يكمن وراء الاقتراض اللغوي هو النزعة الى التفوق والامتياز . ومعنى هذا أنه قبل الإقدام على الاقتراض لابد من أن تكون الأمة التي يراد الاقتراض من لغتها محسوبة في عداد الأمم التي ينظر إليها بأنها جديرة بالتقليد في كل المجالات بوجه عام أو بحال معين على أقل تقدير . ويوضح هذه الحال خير توضيح وجود لغتين أو أكثر متفاوتتين في المنزلة في الدولة الواحدة"^(٣).

وقد يشتمل الاقتراض على الجملة من حيث السبك والأسلوب ، وهو أمر قليل الحدوث ، ومثل ذلك تأثر نظام الجملة العربية في العصر الحديث

(١) انظر إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ : ١٤٩ .

(٢) انظر : من أسرار اللغة : ١٢١ .

(٣) دور الكلمة في اللغة : ١٤٦ .

بأساليب بعض اللغات ولاسيما الأوروبية منها ، ويظهر ذلك في تأثر بعض الأدباء العرب المحدثين كالعقاد وطه حسين بالثقافة الأوروبية^(١). وتتفاوت اللغات من حيث عدد المفردات المستعارة؛ فالفارسية الحديثة - مثلاً- اقترضت الكثير من الألفاظ العربية وبعض العبارات ، واقترضت لغات آسيا الوسطى مفردات فارسية مختلفة ، وخصوصاً اللغة التركية وأخواتها. وأفاد أحد الباحثين أن ما يقرب " من نصف مفردات اللغة الانكليزية من أصل فرنسي"^(٢)، واقتراض الانكليزية هذا العدد الكثير من المفردات يعود الى عوامل حضارية وثقافية ودينية ، والتوسع الاستعماري لبريطانيا والاتصال بالكثير من حضارات الأمم وثقافات ولغاتها. وقد بين أولمان العوامل المذكورة آنفاً مع أمثلتها في قوله : " عندما تنقل الأفكار أو النظم أو الأشياء من بلد أجنبي الى آخر ، فلا أقل من أن يوجد في البلد الآخر ميل شديد الى اقتراض الوسائل التعبيرية التي تدل عليها كذلك . ولقد استوردت اللغة الإنكليزية الآلاف المؤلفة من الكلمات بهذه الطريقة ، وهذه الكلمات تمثل رواسب التأثير الثقافي الضخم الذي شكّل التاريخ البريطاني ؛ فالاستعمار الروماني ، والدور الذي لعبه (السلتيون) في حياتها ، وانتشار المسيحية ، والغزو الذي قام به قراصنة الشمال ، والفتح النورماندي، والفترة الطويلة للحكم اللاتيني والفرنسي ، وتأثير عهد النهضة

(١) انظر : من أسرار اللغة : ١١٣ .

(٢) كالفي : حرب اللغات والسياسات اللغوية : ٢١٢ .

، وعهد إحياء العلوم الإنسانية ، والتوسع الاستعماري ، والاتصال الحديث بمعظم اللغات والحضارات المختلفة في كل بقاع الأرض. هذه الأحداث كلها انعكست انعكاساً صادقاً في المادة اللغوية التي وردت في أعقابها^(١). ومن الأمثلة العلمية لتأثير الثقافة الإسلامية في أوروبا تسمية بعض المصطلحات العلمية ، منها تحويل كلمة (خوارزم) الى (لوغارتم) ، وجاء ذلك نتيجة لترجمة كتب أبي موسى الخوارزمي (نسبة الى بلدة خوارزم في آسيا الوسطى) في الحساب والجبر الى بعض اللغات الأوروبية. وظل هذا العالم الجليل (موضع الثقة في أوروبا حتى عصر النهضة)^(٢).

ومن الدلائل التي لم يشر إليها إلا قليلاً أو لم تحظ بالالتفات على رسوخ تبادل الألفاظ في اللغات الموغلة في القدم كلمة (Car)، وتعني الصخر أو الحجر؛ فقد وردت في العربية - على رأي بعض الباحثين - بلفظ (قَلْعَة)، وفي التركية بلفظ (كاله) ، وفي الليتوانية بلفظ (Gala) ، وتعني في اللغات المذكورة آنفاً: القلعة أو الحصن. وللكلمة اشتقاقات وصيغ في بعض اللغات الأوروبية . وقيل في توجيه هذا المعنى : إن "مثل هذه الكلمة وغيرها من المصطلحات اللغوية الأخرى شاعت بين بلدان كثيرة، وكلها دوائر أو بقايا لغة تقدمت بكثير اللغة الهندية الأوروبية التي درج استعمالها في هذه الرقعة الجغرافية الممتدة من القوقاز الى جبل طارق؛ فبحر البلطيق ، وهنا لابد

(١) دور الكلمة في اللغة : ١٤٣ .

(٢) تأريخ الحضارة الإسلامية : ٨٣ .

لنا من أن نسأل : هل تعارفت هذه الأقوام أو الشعوب في عهد العصر الحجري الجديد ، أو في عهد أسبق وأقدم فيما بينها بهذه اللغة؟ " (١).

إن السيادة للهجة دون أخرى تتبع سيادة لغة على أخرى ، ونرى في لغات حضارة وادي الرافدين القديمة أمثلة لذلك ، منها سيادة لهجة بابل واتخاذها اللهجة الرسمية والأدبية في أنحاء بلاد ما بين النهرين حقبة من الزمان. إن هذه اللهجة التي كان البابليون يطلقون عليها (أكادو) أصبحت اللغة الأدبية والرسمية ، واستمرت هذه الأرجحية بغض النظر عن مدى السيطرة السياسية لها أو لغيرها كاللغة الآشورية(٢).

والتفوق الحضاري والثقافي للغة أو لهجة أكثر تأثيراً وبقاءً وديمومة من السلطان السياسي؛ فاللغة ذات الثقافة الكبيرة تزيج في أغلب الأحوال اللغة التي أقلّ منها ثقافة ، كما أشرنا الى ذلك سابقاً ، ولكن المعادلة لا تمضي هكذا من دون استدراقات من هنا وهناك. ومن أمثلة المغالبة بين اللهجات في أوروبا في القرون الوسطى وما بعدها تغلب اللهجة (السكسونية) على اللهجات الألمانية الأخرى في القرن السادس عشر قبل قيام الدولة الألمانية الموحدة، وقبل أن تتغلب لهجة برلين على سائر اللهجات الألمانية. ومن أمثلة ذلك أيضاً غلبة اللهجة (التوسكانية) في إيطاليا على اللهجات

(١) تاريخ الحضارات العام : ٢٨/١ .

(٢) انظر إمبراطوريات الكلمة: ١٠٣ .

الإيطالية الأخرى منذ القرن الرابع عشر وقبل قيام الدولة الإيطالية الموحدة^(١).

وتبني اللهجات واللغات ذو صلة بمراحل التغير الطارئ عليها عبر الحقب الزمنية وما يطرأ عليها من تحول؛ فالانكليزية في القرن الخامس عشر تختلف عما كانت عليه قبل ذلك . قال (وليام كاكستن) : ١٤٢٢م - ١٤٩١م) ، وهو من أدباء الإنكليز في القرن الخامس عشر : " من المؤكد أن لغتنا التي نتكلمها الآن تختلف كثيراً عما كانت عليه لفظاً واستخداماً منذ ولدت ، لأننا نحن الإنكليز نولد تحت (تأثير القمر) الذي ينقلب دائماً وينقص تارة أخرى ، وتلك اللغة الإنكليزية التي تشيع في مقاطعة معينة تختلف بدرجة كبيرة عن تلك التي تستخدم في مقاطعة أخرى " ^(٢).

ومن المفروض وفق سنن التطور اللغوي أن تبني اللغات واللهجات يحصل نتيجة للتوائى الجمعى عليها ، بمعنى لا تحدث بسبب أفراد أو قلة من جماعة لغوية ، ولكن هذه القاعدة لا تطرد دائماً؛ فقد يحصل التبنى نتيجة لعدد من الأفراد كما حصل فى تبني لهجة لندن والمنطقة الجنوبية الشرقية من إنكلترة، وقيل عن كاكستن- مثلاً- أنه حينما يقرر " - أصاب أو أخطأ- تبني لهجة لندن والمنطقة الجنوبية الشرقية من انكلترة لتكون اللغة

(١) انظر، وافي : علم اللغة : ١٦٨ .

(٢) أعلام الفكر اللغوي : ١٣٧/١ .

الإنكليزية المستعملة في كتبه ، فإنه يتخذ خطوة حاسمة الى الأمام بتثبيت تلك اللهجة بعينها باعتبارها (اللغة الإنكليزية)^(١).

إن انتشاء اللغات ظهر مع فجر الحضارات القديمة ، وهي صفة ملازمة لها لأسباب اجتماعية وثقافية وسياسية وغيرها؛ ففي لغات بلاد وادي الرافدين برزت (السومرية) التي هي من أرومة غير سامية مجهولة عند الباحثين على نحو قطعي ، وأثّرت لغة وكتابة في لغات تلك النواحي وغيرها، وبقي تأثيرها ساري المفعول بعد أفول حضارتها، إذ استعملت لغة (تقليدية) في الأعمال الأدبية، وتوارث نصوصها (عبر الأجيال المتعاقبة من كُتّاب الخط المسماري) ، وتأثّرت بها - فضلاً عن اللغات الأكديّة - لغات أخرى تجاوزت منطقتها الجغرافية كالعيلامية والحثيّة والأورادنتية مدة طويلة تكاد تبلغ ألفي سنة^(٢).

وحلّت محل السومرية بعد حين من الدهر اللغة الأكديّة بفرعيها الآشورية والبابلية مع استمرار السومرية ، وخصوصاً في نظامها الكتابي بالخط المسماري الذي أصبح الخط الرسمي في أنحاء العراق القديم، وبلاد فارس، ومناطق من شرق البحر الأبيض المتوسط .

وأنتجت الأكديّة بعد استقرارها ما يمكن تسميته بـ (التقاليد اللغوية السامية)، من أهمها : الاعتماد على لغة أجنبية واتخاذها أنموذجاً (تقليدياً للأدب

(١) أعلام الفكر اللغوي : ١/٤٣

(٢) انظر إمبراطوريات الكلمة : ٨٨.

الكلاسيكي) ، وابتكار أول نظام للكتابة شمل الساميات وغيرها من اللغات المجاورة ، واتخاذ أول لغة مشتركة للعلاقات السياسية الدولية، وإرساء القواعد الأساسية لنظام المكتبات وحفظ الوثائق^(١).

وبلغ نفوذ الأكديّة في البلدان المحيطة بوادي الرافدين مبلغاً كبيراً؛ ففي الألف الثاني قبل الميلاد دُرست الأكديّة واستعملت في أغلب عواصم البلدان الكبيرة^(٢)، وامتد نفوذها عبر شرق البحر المتوسط الى شمال إفريقية ، وترك هذا التأثير ما يطلق عليه بـ (الثنائية) اللغوية ، أي استعمال لغتين في مكان ما لأغراض مختلفة كاستعمال العيلاميين الأكديّة في السهل الشمالي ، والعيلامية في الجبال امتداداً الى الجنوب . والعيلامية كما هو معروف مجاورة لموطن الأكديّة.

وثمة ثنائية لغوية في أوغاريت (في سورية القديمة) ، إذ كانت النصوص الأكديّة تشتمل على تعليقات تفسيرية باللغة الأوغاريتية. واتخذت الأكديّة لغة المراسلات الدولية ونصوص المعاهدات ، ولم يقتصر ذلك على سوريا القديمة بل امتدت المراسلات الى مصر القديمة، كمراسلات تل العمارنة ، وهي مجموعة من الرسائل (الدبلوماسية) تعود الى القرن الرابع عشر (ق.م) اشتملت على (٣٥٠) رسالة مع ملحقاتها ، ودونت كلها باللغة

(١) انظر إمبراطوريات الكلمة : ١٦٩ .

(٢) انظر إمبراطوريات الكلمة : ١٠٤ .

الأكدية ما عدا ثلاث رسائل منها، دونت اثنتان منها بالحيثية وواحدة بالهورية^(١).

واتسمت حضارة الآشوريين بصفة التلاقي الحضاري والثقافي للشعوب التي اتصل بها هؤلاء وأثروا في ثقافتها وتأثروا بها سواء عن طريق الغزو العسكري أم عن طريق السلم بالتبادل التجاري - مثلاً- والاختلاط الاجتماعي. وهم فضلاً عن كونهم ورثة الحضارة الأم (السورية والبابلية) ورثوا أيضاً حضارات أمم أخرى فصح أن يطلق عليهم : (ورثة العصور)^(٢).

وهيّا الآشوريون سبل قيام المملكة الواحدة والامبراطورية المتسعة ، وقد أخذوا هذا المسار من الفكرة الأكدية عموماً ، وتمسكوا بها ، وتسمى بها بعض ملوكهم؛ فمن الألقاب الأكدية التي احتفظ بها ملوك آشور : ملك جميع الأقطار (Shar kishat matati) ، وملك العالم (Shar kish shati) ، وكان أول من استعمله من ملوك الآشوريين الملك (شمسي - أدد الأول)^(٣). والظاهر أن مثل هذه الألقاب لم تستعمل كثيراً عند البابليين .

وتفيد الدراسات الحضارية واللغوية في الأكدية القديمة ما قبل الألف الثاني ق.م. ان الآشورية والبابلية تفرعتا من الأكدية الأم القديمة ، ويستدل علماء

(١) انظر إمبراطوريات الكلمة : ١٠٥ .

(٢) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ٥٨٥/١ .

(٣) انظر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ٥٢٤/١ .

(البابليات والآشوريات) على ذلك بالتأثير الثقافي الذي خلفه العهد الأكدي في بلاد آشور وما تركته اللهجة الأكديّة في لغتها ، إذ أصبحت اللغة الآشورية القديمة منذ الألف الثاني ق.م أقرب الى أصلها الأكدي القديم من اللغة البابلية في عصرها القديم الموازي للآشورية القديمة. واحتفظت أسماء الأعلام الآشورية بالصيغ الأكديّة القديمة ما جعل بعض العلماء والباحثين في الآشوريات يرجحون انتماء أكثر الآشوريين الى أصل أكدي^(١).

وكان للغة البابلية شأن كبير في انتشار حضارة ما بين النهرين في عموم الشرق الأدنى من حيث لغة الكتابة والأدب ومدارس التعليم ؛ فقد اتسعت هذه اللغة وتجاوزت حدودها الجغرافية واتخذت لغة للمراسلات الدولية الدبلوماسية بين ملوك الشرق الأدنى وحكامه ، وترجمت على إثر ذلك بعض النصوص الأدبية المشهورة مثل ملحمة كلكامش الى اللغتين الحثية والهورية ، وظهرت مدارس للكتابة تعلم اللغة البابلية والخط المسماري^(٢)، وبقيت اللغة البابلية في عصرها الحديث المسمى (العهد البابلي الأخير) على سماتها الثقافية ، واتجهت الى (إحياء التراث الماضي) من حيث الاستعمال اللغوي وأساليب التعبير في النصوص التاريخية والدينية ،

(١) أنظر : مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٥٢٣/١ .

(٢) انظر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٥٠٤/١ .

واحتفظت بصفتها (لغة التدوين) الرسمية استمراراً للأكدية، غير أنه بدأت فيها تأثيرات واضحة للآرامية منذ الألف الأول ق.م^(١).

وعرف (الفينيقيون) في شرق البحر الأبيض المتوسط ولاسيما سواحله بأنهم أمة اختارت التجارة سبيلاً لها للتوغل في حوض البحر وتجاوزته الى غربه، أي الى أوروبا. وانتشرت اللغة الفينيقية في حوض البحر الأبيض المتوسط ولاسيما جزره وحوافه الجنوبية في الألف الأول ق.م^(٢)، وكانوا جسراً رابطاً لانتقال ثقافة وادي الرافدين عبر البحر .

وأهم ما أخذه اليونانيون وغيرهم من الفينيقيين نظام الكتابة الأبجدية ، ومصطلح القواعد النحوية للغة الفينيقية . وانتشرت الأبجدية الفينيقية بوساطة الإغريق اليونانيين بين الرومانيين والإيبيريين والإروسكانيين ، ومن ثم أضحت هذه الأبجدية عالمية ، ولذلك حقّ للفينيقيين الادعاء بأنهم قدموا لأوروبا تعليمها الأساسي " ^(٣).

إن اللغة الآرامية ممثلة بحضارتها وثقافتها كانت من أهم اللغات وأكثرها انتشاراً في الشرق الأوسط على الرغم من الدول الآرامية التي ظهرت هنا وهناك في بلاد الرافدين وبلاد الشام لم يكتب لها النجاح في الديمومة والاستمرار، وكان أثرها السياسي ضئيلاً إذا ما قورنت بالأثرين اللغوي

(١) انظر : مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٦١٣/١ .

(٢) انظر : إمبراطوريات الكلمة : ٨٢ .

(٣) إمبراطوريات الكلمة : ٨١ ، ٨٢ .

والحضاري . قال موسكاتي: " الأهمية التاريخية للدول الآرامية طفيفة إذا قيسَت بالأهمية الثقافية الفريدة التي قدر للغة الآرامية أن تكتسبها على مرّ القرون" (١).

ولم يكتب للدويلات الآرامية استقلالها السياسي وأصبحت توابع للدول السامية وغيرها التي ظهرت على واجهة الأحداث في الشرق الأوسط ، واختلط كثير من الاراميين بغيرهم من الشعوب والأمم تاركين فيها أثرهم الحضاري ولاسيما لغتهم. قال موسكاتي معزراً هذا الرأي : " كانت نهاية استقلال الآراميين بداية لعصر توسع من نوع جديد؛ فالطاقة التي كبحت بسرعة بالغة في الميزان السياسي تحولت الى الميدان الحضاري. ومن عجائب التأريخ أن اللغة الآرامية التي لا يمثلها سوى نقوش قليلة من فترة الاستقلال السياسي امتدت الآن الى ما وراء حدود الشعب الآرامي" (٢).

ومثل هذا التوصيف يستدعي الإشارة الى تركيب الحضارة الآرامية بعد الاستقلال ، وثمة عناصر تداخلت فيها وألفت تركيبه متميزة للحضارة الآرامية. وكان الغزو الفارسي للعراق ومصر وأنحاء من الشرق الأوسط القديم ، وروافد الحضارة اليونانية بعد أفول سلطتها السياسية ، أديا على نحو خاص الى انتقال الحضارة من مجالها السامي الى حضارة مركبة من

(١) الحضارات السامية القديمة : ١٧٩ .

(٢) الحضارات السامية القديمة : ١٧٩ .

أصول أجنبية^(١)، ومثلت الآرامية هذا الاتجاه الجديد إذ كانت أدواتها الرئيسية ، يضاف الى ذلك الأدب المسيحي المدون بالآرامية عن طريق تفرعها المعروف باللغة السريانية.

ويعود تأريخ التأثير الارامي في الشرق الأوسط الى حقبة قديمة ، فقد نشأت بينهم وبين أقوام وادي الرافدين صلات لغوية وثقافية . وكانوا جزءاً مهماً من التركيب السكاني لهذه الأقوام ، وتبادلوا معهم التأثير والتأثر . ولم تنعم الصلات بالسلام دائماً ولكنها تحولت الى صراع مع قيام دول قوية كالإمبراطورية الآشورية^(٢).

وبعد حقبة من التاريخ تبوأ الآراميون ولغتهم أكبر مكان في تأريخ الشرق الأوسط ، وامتد أثرهم الحضاري الى أوروبا ، والى قلب الإمبراطورية الرومانية . وكانت اللغة هي الأداة الكبرى للنقل الحضارية سواء في بلاد فارس أم في فلسطين أم في روما القديمة . ولم يقتصر ذلك التأثير على الشؤون السياسية والإدارية بل تعداها الى شؤون دينية خطيرة تمس عقائد الوثنيين والديانتين اليهودية والنصرانية.

قال (سومر) ، وهو أحد الباحثين المختصين بالدراسات الآرامية شارحاً بإيجاز مجمل التأثير الحضاري للغة الآرامية: " إن كان نفوذ الآراميين السياسي قد تلاشى ؛ فإن أثرهم ما زال حياً، وخلفوا للأجيال اللاحقة لغتهم

(١) انظر الحضارات السامية القديمة : ١٨٣ .

(٢) انظر مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٥٤/١ .

وآلتهم ، لذا فإننا نتطرق في النهاية الى التكلم على اللغة الآرامية ، وعن حضارة الآراميين؛ فتصبح الآرامية اللغة الرسمية للإمبراطورية الفارسية، وستكون اللغة المتداولة عوض العبرية في فلسطين، وبها سيكتب اليهود تراجهمم (تَرْغُوم) ، والتِّلْمُود ، وبالآرامية سينا دي يسوع الناصري بإنجيله، وفي الإمبراطورية الرومانية كلها ستجد الآلهة الآرامية القديمة ... عُبَاداً غيورين؛ فالآراميون - إذن - قد تركوا أثراً جليلاً في تأريخ الحضارات البشرية الكبرى بلغتهم وطقوسهم أكثر مما خلفوه بمصيرهم السياسي القصير الأمد" (١).

وقال موسكاتي قريباً من هذا المعنى : " وكانت لغتهم (أي الآراميون) أداة لاستيعاب الثقافة ونقلها تجاوزت تأريخهم المحلي، وصارت عنصراً في حضارة البحر الأبيض المتوسط ... وقد عرف اليونان والرومان الشرق الأدنى من طريق الآراميين أساساً؛ فإن الآراميين هم الذين وجدوا مصادر حضارته وأجروها في مجرى واحد، فألقوا بين العناصر البابلية والفارسية والعبرية ونقلوها الى المسيحية، ومنها الى الغرب. وفي عصر متأخر نقل الآراميون من الغرب الى الشرق الثقافة اليونانية، ولاسيما الفلسفة التي انتقل العلم بها الى العرب من طريق الآرامية" (٢).

(١) الآراميون : ٢٥ .

(٢) الحضارات السامية القديمة : ١٨٧ .

ويقصد بملاحظته الأخيرة ما نقل من التراث اليوناني الفلسفي من طريق الترجمة السريانية لهذا التراث ، ومن ثم الترجمة العربية للنصوص السريانية. والمعروف أن اللغة السريانية انبثقت من اللغة الآرامية الأم، وتعد من أهم فروعها ولهجاتها، وتسمى المسيحيون الشرقيون بعد اعتناقهم الديانة المسيحية بـ(السُريان) بدلاً من (الآراميين) لشبهة العقائد الوثنية عند الآراميين قبل المسيحية ، فتجنبوا التسمية بهم لهذا السبب كما تفيد الدراسات التاريخية للغة السريانية.

والمهم في النصين المذكورين آنفاً أن نستنتج منهما بوضوح ومن دون مواربة أن الآرامية أصبحت من السبل المهمة – وربما من أهم السبل – لتلاقي الحضارتين الشرقية والغربية.

ولعل الأبجدية الآرامية المشتقة من الأبجدية الفينيقية (أم الأبجديات) سهلت سبل شيوخها في أغلب بلدان المنطقة وشعوبها تبعاً لذلك ؛ فالأرامية لم تكتب بالخط المسماري المعقد من حيث التعليم والاستعمال ، والقائم على النظام الصوتي المقطعي بعد تطوره من النظام الصوري ، ويعد النظام الصوتي المقطعي منتصف الطريق في التطور الأمثل للخطوط، أي بين النظام الصوري والنظام الأبجدي الرمزي، ولذلك شاعت الأبجدية الآرامية السهلة الاستعمال والتعلم والتعليم في بلاد فارس وما بين النهرين وامتداداً الى بلاد الشام ، وبلغت آثاره مصر وأجزاء من شمال إفريقية ، وعبرت شرق البحر الأبيض المتوسط الى غربه من طريق التجارة. واتخذ الفرس

الإخمينيون الآرامية لغة رسمية لإمبراطوريتهم، واتخذها من قبلهم الآشوريون لغة إدارية لهم للكتابة على البردي بدلاً من الكتابة بالمسمارية على الطين ، واستخدموا كذلك الكتبه الآراميين . وأدى نشاط الآراميين التجاري الى انتشار لغتهم في عموم حوض البحر الأبيض المتوسط ، وتوارت عن الأنظار واضمحت لغات قديمة في بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام ، وكادت العبرية تختفي في فلسطين ، ولذلك نلاحظ ان الآرامية استعملت في كتابة النصوص الدينية المقدسة؛ فسفر دانيال - مثلاً - وهو من أسفار العهد القديم دُون كله بالآرامية ولم ينقل الى العبرية إلا بعد زمن طويل ، وكان المسيح (ع) يعلم حواريه ويبشر بدينه بالآرامية لا بالعبرية ^(١)، وهو دليل واضح جداً لتغلب الآرامية على العبرية في مهدها.

وظلت الآرامية على وصفها هذا الى القرن السابع الميلادي وظهور الإسلام والفتح الإسلامي العربي لبلاد العراق والشام ، فأخذت الآرامية في الزوال وحلت محلها اللغة العربية لغة القرآن والإسلام، وأصبحت بعد ربح من الزمان لغة الثقافة في الإمبراطورية الإسلامية الممتدة من حدود فرنسا والبرتغال غرباً الى أسوار الصين شرقاً.

ومن الجدير بالذكر أن الآرامية بقيت في القرون الأولى قبل الميلاد اللغة الرسمية والتجارية في بلدان بابل وآشور وفارس ومصر وفلسطين ^(٢).

(١) انظر في ذلك كله تأريخ الحضارات العام : ٢٦٢/١ ، ٢٦٣ .

(٢) انظر مقدمة كتاب (الآراميين) لرفائيل أبي إسحاق : ص ١٥ .

وكانت الآرامية قبل شيوعها قد أثرت في لغات بلاد ما بين النهرين ولاسيما الأكديّة بفروعها الآشوري والبابلي ، واستعارت البابلية الحديثة منذ سنة (٦٠٠ ق.م) ألفاظاً آرامية ، وأما الآشورية في طورها الحديث (١٠٠٠) الى (٦٠٠) ق.م ، فقد استعارت أيضاً ألفاظاً من الآرامية ^(١)، ومما يدل على شيوع الآرامية في ذلك العصر محاورة جرت بين الملك سرجون (٧٢١ - ٧٠٥ ق.م) وكاتبه : قال الكاتب : أرجو من مولاي أن يسمح لي بكتابة وثيقة (بالآرامية) ، فردّ الملك قائلاً: لماذا لا تكتب بالأكديّة ؟ ^(٢)، وفي هذا الحوار دليل آخر على اتخاذ البابليين والآشوريين كُتّاباً آراميين للكتابة ، واحتفظوا بهم للمهمات مثل كتابة الرسائل بين الملوك ، وكتابة نصوص الوثائق والمعاهدات وغيرها من شؤون الدولة السياسية والإدارية ، وكان هؤلاء الكُتّاب موضع اعتماد ملوك آشور وبابل.

ولابد من بيان مجمل لأسباب انتشار الآرامية وتوسع استعمالها في البلدان المذكورة آنفاً انطلاقاً من بلاد الرافدين وبلاد الشام. وفيما يأتي ذكر لأهم الأسباب:

١- استعمال الأبجدية الآرامية في الكتابة ، وهي مشتقة في أصولها من الأبجدية الفينيقية، وسهولة استعمالها في الكتابة على صفائح البردي أو الجلود المدبوغة بدلاً من الخط المسماري الصعب المراس في الكتابة

(١) انظر موسكاتي : فقه اللغات السامية المقارن : ١٩ .

(٢) إمبراطوريات الكلمة : ١١٢ .

والقائم على المقطع الصوتي / الصرفي لا الأصوات الرمزية كما ذكرنا ذلك سابقاً . قال جورج رو : " ... ومع ذلك فقد قُدِّرَ لهؤلاء الآراميين (البرابرة) التميز بفرض لغتهم على الشرق الأدنى بكامله . ويعود الفضل بذلك جزئياً الى ثقل وزن عددهم من جهة ، ومن جهة أخرى الى أنهم أخذوا بالأبجدية الفينيقية مع تعديل طفيف بدلاً من الكتابة المسمارية الثقيلة المرهقة، وحملوا معهم في كل مكان نصوص العملية البسيطة للمستقبل" (١).

وإني لأتحفظ من وصف الآراميين في النص المذكور آنفاً بـ (البرابرة) ، نعم ، كانوا في البدء بدواً رحلاً شأنهم في ذلك شأن الأمم والشعوب السامية الأخرى ، ولكنهم مع مرور الزمان انتقلوا من طور البداوة الى طور المدنية ، وأسسوا مدناً وأقاموا كيانات وحضارات . وفي النص المذكور أيضاً ما يستدعي التحفظ منه ، وهو وصفهم بكثرة العدد وثقل وزنهم . والواضح أن الآراميين لم يكونوا أكثر عدداً من الشعوب السامية الأخرى كالأكديين والعرب والعبريين ، وخصوصاً في بلاد الرافدين ، وهم حتماً ليسوا أكثر عدداً من الفرس وشعوب شرق البحر الأبيض المتوسط ومصر وغيرها الذين بلغت حضارة الآراميين؛ فالمسألة تكمن حصراً في استبدالهم بالخط المسماري الأبجدية ، ولذلك قال جون سوير: " إن نجاح الآرامية يعود

(١) إمبراطوريات الكلمة : ١٠٧ .

بشكل أساسي لاشك فيه الى أنها كانت تكتب بخط أبجدية سهلة نسبياً" (١).

٢- النفي والتهجير القسري : عمل الآشوريون على نفي أعداد كبيرة من المغلوبين وتهجيرهم قسراً الى مناطق نائية من الإمبراطورية . وشمل النفي الناطقين بالآرامية ، وانتشر هؤلاء في المناطق البعيدة من الإمبراطورية . واتبع الآشوريون سياسة تجنيد المنفيين في الجيش .

ولم يقتصر النفي على الآراميين بل شمل العبريين اليهود ، والقضاء على مملكتهم (إسرائيل) واحتلال عاصمتها وسبي البابليين لليهود في عصر الملك نبوخذ نصر معروف مشهور في تأريخ اليهودية ، إذ تم احتلال أورشليم (القدس) عاصمة مملكة يهوذا التي أسسها داود وسليمان (ع) ، وهدموا هيكل سليمان ولم يبقوا منه باقية ، واقتادوا الآلاف من اليهود الى بابل بصحبتهم بعض أنبياء بني إسرائيل . وعرف هذا السبي بـ (السبي البابلي) .

وتعرض الفينيقيون أيضاً للنفي والتهجير على أيدي الآشوريين ، وكان الجامع الذي يجمع بين هؤلاء المهجرين أو أغلبهم هو التكلم باللغة الآرامية التي شاع استعمالها بهذا السبي والتغير السكاني لمناطق واسعة من بلاد الرافدين وبلاد الشام .

(١) إمبراطوريات الكلمة : ١٠٧ .

وأما بخصوص التجنيد الإلزامي في الجيش الآشوري فلم ترد إشارة الى تجنيد اليهود العبريين ، ويبدو أنه اقتصر على غيرهم . وكان الآراميون أو الناطقون باللغة الآرامية يمثلون الأغلبية من المهجرين المجندين .

وفيما يأتي أمثلة على وجه التقدير لبعض موجات التهجير والنفي في الإمبراطورية الآشورية :

أ. الملك (تغلات بيلسر الثالث) : نسب إليه سبع وثلاثون عملية نفي بلغ فيها عدد المنفيين نحو (٣٦٨٥٤٣) .

ب.نسبت الى (سرجون الثاني) ثمانٍ وثلاثون عملية نفي بلغ فيها عدد المنفيين نحو (٥٧٦٣٥) .

ج.نسبت الى (سنحاريب) عشرون عملية نفي بلغ فيها عدد المنفيين قسراً زهاء (٤٠٨١٥٠) . ونسب الى الآشوريين إجمالاً أنهم هجروا ما مجموعه أكثر من خمسة ملايين نسمة على مدة ثلاثة قرون (١) .

٣-استفاد الآشوريون على نحو غير مباشر من شيوع اللغة الآرامية بإيجاد (لغة مشتركة) أفادتهم في الشؤون السياسية والإدارية لإمبراطوريتهم التي توسعت كثيراً في شرق البحر الأبيض المتوسط .

٤-الآرامية الإمبراطورية : استعملت ثلاث إمبراطوريات اللغة الآرامية لغة رسمية لها في التدوين والسياسة والأعراف الدبلوماسية ونصوص

(١) انظر إمبراطوريات الكلمة : ١٠٩ .

المعاهدات الدولية . وهذه الإمبراطوريات الثلاث هي الآشورية والبابلية والفارسية التي أطلق عليها اصطلاحاً (آرامية الدولة) أي آرامية الدولة الإخمينية . واستمر هذا الاستعمال اللغوي من القرن السابع الى القرن الرابع قبل الميلاد ، واستدل على ذلك من النقوش في بلاد ما بين النهرين ؛ فقد عثر على نقوش آرامية وأسماء أعلام وألفاظ وتراكيب في النصوص الآشورية والبابلية الحديثتين ^(١).

وبلغ الأثر اللغوي للآرامية مصر ، وعثر على كتابات ونقوش على البردي والصدف من القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد تؤلف ما اصطلح عليه علماء الآثار والتأريخ واللغات بـ (الآرامية المصرية)

٥- كانت الإمبراطورية الفارسية أكثر تأثراً بالآرامية من غيرها، إذ اختارها الإخمينيون لغة في حكم المناطق الغربية لأنها كانت لغة التفاهم لأغلب الشعوب السامية في ذلك العصر ^(٢). واحتاجت الإمبراطورية الفارسية الى لغة (مشتركة) ، ف اتخذت الآرامية لغة رسمية للإمبراطورية مع اللغة الفارسية القديمة ، واللغة البابلية في بلاد بابل خاصة ، إذ استمرت لغة التدوين بعد أفول نجم البابليين السياسي ، ولكن معرفتها في بلاد بابل اقتصرت على (الكتبة

(١) انظر فقه اللغات السامية المقارن : ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) انظر الروحانية في أرض النبلاء : ٧٣ .

البابليين) و (رجال الدين) ، واستعملت على نحو خاص في تدوين النصوص الدينية والتأريخية ووثائق المعاملات التجارية والاقتصادية (١).

ومن الدلائل على ذلك مرسوم أصدره الملك الفارسي (دارا الأول) يقضي بأن تكون الآرامية لغة الإمبراطورية الرسمية بدلاً من الفارسية القديمة والليدية ، وكان لهذا المرسوم أثره الفاعل في انتشار الآرامية في جميع أرجاء الإمبراطورية عبر ساحل بحر إيجه والبلقان ومصر غرباً ، حتى (هندكوش) وضافات الإندوس شرقاً(٢).

ولمصر إبان حكم الفرس الإخمينيين خصوصية في هذا الشأن على مستوى شيوع اللغة الآرامية ، والوثائق التي دونت في تلك الحقبة . ومن المعروف أن الفرس الإخمينيين استولوا على مصر في سنة (٥٢٢ ق.م)، وأطاحوا بـ (بسماتيك) فرعون مصر وقتلوه ، وأقاموا فيها إدارة فارسية خاضعة لحكم (مَرْزُبَان) فارسي، واستمر حكمهم مصر نحو قرنين من الزمان. وشاعت في مصر على إثر ذلك اللغة الآرامية ، واتخذت في الشؤون الحكومية المختلفة ، ولم تقتصر على ذلك بل شملت أيضاً لغة الاتصال بين الناس . وأهم من ذلك كله أن مناخ مصر الجاف نسبياً في ذلك الزمان ساعد

(١) انظر مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٦٤٦/١ ، ٦٤٧ .

(٢) انظر : امبراطوريات الكلمة : ٨٤ .

على إبقاء عدد كبير من الوثائق في تلك الفترة مدونة على ورق البردي ،
أو على الجلود ، أو محفورة على الحجر والمعادن (١).

وربما كان الأثر الفريد من نوعه في تأريخ اللغات ما تركته الآرامية في
الفارسية القديمة من خلال ما اصطلح عليه بـ (الهزوارش) . وينبغي لنا
في هذه المسألة أن نتوقف عند الملاحظات الآتية (٢):

أ. (هَزَوَاش / hozvāreš = زُوراش - وفي البهلوية : أُزَوَاشِن /
uzvarišn : تعني الشرح والتفسير . وتطلق الكلمة - اصطلاحاً - على
الألفاظ المستعارة من الآرامية التي دُونت في النقوش والكتب والرسائل
البهلوية بالخط البهلوي ، ولكنها حين القراءة يُقْرَأ المقابل لها في البهلوية
من حيث المعنى . مثال ذلك : تكتب كلمة (malkā) التي تعني الملك
بالآرامية ، وتقرأ (šāh) المقابل المترجم لها بالبهلوية .

(١) انظر إمبراطوريات الكلمة : ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٢) انظر في تفصيل ما يأتي المصادر الآتية : معين : فرهنگ فارسی معین
٣٥٤٩ ، وخانلري : تاريخ زبان فارسي ٢١٩٩ ، ٣٠٠ ، ومحمد جواد مشكور :
فرهنگ تطبیقی ٣٤٥ ، ومحمد جواد مشكور : هزوارشهای بهلوی ص ب وما يليها
الى و ، و = Jeffery (A) The foregin vocabulary of the Qur'an ,
= (oriental insite, Baroda, 1938) p.156 وجفري : وازه های دخیل
در قرآن مجید (الترجمة الفارسية) ص ٢٣٥ ، و ٢٣٦ .

ب. تعد الهزوارش من جملة صعوبات الخط البهلوي الذي لا يعرف على وجه اليقين من أين أستمَد هذا الخط؟ ويمكن الاستنتاج من أحد نقوش تَخْت جَمَشَبَد (عاصمة الإمبراطورية الإخمينية) الذي كتب بالخط الآرامي واللغة الفارسية القديمة أن الخط الآرامي لم يستعمل لكتابة اللغات السامية فقط ، وإنما استعمل أيضاً لكتابة اللغة الفارسية في تلك المرحلة التاريخية. ويستفاد من بعض النقود التي وصلت إلينا والتي تعود الى أمراء فارس وبعض الملوك قبل العصر الساساني أن الاسم الفارسي كتب عليها بالرسم الآرامي . وربما دلّ ذلك على أن طريقة كتابه الهزوارش بدأت من تلك الفترة ، إذ إن الكُتَّاب الآراميين أنسوا كتابة الكلمة بالآرامية ولما كانوا يكتبون النصوص الفارسية دَوَّنوا الكلمة على نحو ما ألفوه في لغتهم.

ج. اشتملت النصوص البهلوية على كثير من ألفاظ الهزوارش ، وفي بعض المتون زادت هذه الألفاظ على الألفاظ البهلوية . واشتملت الكلمات الآرامية التي كتب بدلاً من الكلمات البهلوية على أقسام الكلمة من اسم وفعل وحرف. ومن أمثلة ذلك ^(١):

- حرف الإضافة أز (az) ، كتب : (مِنْ) .
- كلمة (اسم) كتبت باللفظ الآرامي (شِم) .
- كلمة شب (šab) بمعنى الليل ، كتبت : (لَيْلا) .

(١) الأمثلة ليست من البهلوية بل من الفارسية الحديثة لغرض التوضيح .

- كانت مادة الكلمة أو جذرها في الصيغ المختلفة للفعل تكتب باللفظ الآرامي ، وأما الأجزاء الصرفية للأفعال التي تختلف اختلافا جوهرياً من حيث البنية الصرفية بين الآرامية (السامية) والفارسية (الهندية الأوربية) فقد كانت تدون باللغة البهلوية ، مثال ذلك : كلمة نوشتن (neveštan) بمعنى الكتابه بالفارسيه تدون على النحو الآتي : (يكتبون) بالعربية ← وهي أصل الكلمة ← يضاف اليها اللاحقة الدالة على المصدر بالفارسية تَنْ (tan) ← فتكتب الكلمة بالهزوارش (يكتبونتن)، وهكذا في باقي الصيغ الصرفية .

د. ذهب بعض علماء الإيرانيات الى أن اللغة البهلوية كانت عبارة عن خليط من الكلمات الآرامية والبارسية (الفارسية القديمة) . ورجح بعض العلماء ، وربما ثبت في زعمهم أن تلك الألفاظ الآرامية في اللغة البهلوية ما هي إلا علامات خطية فقط ، واستدلوا على ذلك بعدم وجودها في الفارسية الدريّة (الحديثة) واللغات الإيرانية الحديثة الأخرى .

هـ. أما عدد كلمات (الهزوارش) فقد ذكر ابن النديم في كتابه (الفهرست^(١)) أنه ألف كلمة. قال: " ولهم هجاء يقال له (زوارشن)، ويكتبون بها الحروف موصول ومفصول ، وهو نحو ألف كلمة ليفصلوا بين المتشابهات" ويعني بذلك الألفاظ المتشابهة.

(١) ص ١٧ (طبع طهران بتحقيق تجدد) .

و. اختلف علماء اللغات والباحثون في اللغات الهندية الأوروبية ولاسيما
شعبة اللغات الإيرانية في معنى كلمة (هزوارش). وفيما يأتي
خلاصة لأهم الآراء :

- ذكر الدكتور (وست) في مقدمة الجزء الخامس من سلسلة
(الكتب المقدسة في المشرق) أن هذه الكلمة اسم معنى من
المصدر زواریدن (zuvāridan) الذي يعني التَّعب والقَدَم
والنَّفْسَخ.

- ذهب دارمستتر (Darmesteter) في كتابه (مطالعات إيرانية)
الى أن الكلمة مشتقة من الجذر زور (Zure) ، وفي الأوستا :
زبر (Zabar) ، وفي السنسكريتية : هور (Havar) بمعنى
الاعوجاج والالتواء، ومن ثم استنتج أن الكلمة (زُوارس) تعني
التغيير والتبديل . وهي طريقة في الكتابة تخفي المعنى الحقيقي
لللمة . ورأى أن الجذر العربي (زور) الذي اشتقت منه كلمة
(التزوير) في الكتابة والسندات أخذ من هذا الأصل البهلوي .
ومن المفيد الإشارة الى أن كلمة زور (Zawar) في السريانية تعني الانحراف
. وتعني الكذب والكلام الكذب والتزوير في الفارسية: (Zur) ، والبازند
(Pāzand) : Zur ، والبهلوية : (Zur) أيضاً . ويلاحظ أن الكلمة وردت
بلفظ واحد في الفارسية والبازند والبهلوية . وتعني أيضاً الكذب الصريح

والبلاغ الكاذب في كل من : الفارسية القديمة (Zūrakara) ، واللاوستا : (Zūrōjata) ^(١).

ومن المفيد أيضاً تنمة للفائدة الإشارة الى أن الكتاب المقدس عند الزرادشتين يسمى (آوستا) ، وشرحه يسمى زند (Zand) أو (زَند آوستا)، وحواشي الزند والتعليقات عليه تسمى بازند (Pāzand) .

ومن معاني مادة (زور) في العربية : الانحراف والكذب ، و " زَوَّرَ عليه كذا وكذا : نسب إليه شيئاً كذباً وزوراً ، ومنه : زَوَّرَ إمضاءه أو توقيعه : قَلَّده " ^(٢).

وفي قوله تعالى من (سورة الكهف : ١٧) : (تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ) أي تميل . " يقال : تَزَاوَرَ عنه ، وَاوَرَ عنه " ^(٣). وتَزَاوَرُ أصلها : تتزاور ، يقال (تزاوَرَ عنه ، يتزاور تزاوراً : مال وتتحَّى " ^(٤).

- ورجح جفري في توصيف كلمة زور (Zūr) ما يأتي :
أ. الكلمة مستعارة من أصل فارسي ، إذ وردت في البهلوية بمعنى الكذب والباطل والأسطورة ، ودلت في بعض التراكيب على معنى البلاغ الكاذب، والشهادة الكاذبة أو الباطلة . ووردت الكلمة أيضاً في البازند: (Zur) بمعنى

(١) انظر جفري : p.156 .

(٢) مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط : ٤٠٨ .

(٣) الراغب الأصبهاني : المفردات : ٣١٨ .

(٤) مجمع اللغة العربية : معجم ألفاظ القرآن الكريم : ٥٢٧/١ .

(الكذب)، ووردت بالفارسية القديمة في نقش (بيستون) تضمن العبارات الآتية : " لم أكن كاذباً ولا ظالماً" : العمود (٤) - الفقرتان (٦٣ ، ٦٤) ، وكذلك في العمود (٦) - الفقرة (٦٥) : " لم أظلم ولم أكذب" . ووردت الكلمة أيضاً في الأوستائية.

ب. انتقلت كلمة (زور) من الفارسية الوسيطة الى اللغة الأرمنية ، ودلت فيها على المفترى والكذاب أو المكذب.

ج- ونتيجة لما تقدم ذكره يحتمل أن تكون الكلمة هذه انتقلت مباشرة من الفارسية الوسيطة (البهلوية) الى اللغة العربية .

- ويرى (يونكر) في (قاموس البهلوية) أن كلمة (هزوارش) تعني البيان والتعبير والتفسير .

-ذهب بارثولومية (Bartholomew) الى أن كلمة (هزوارش) مركبة من أوز (uz) + وَّرد (vared) الأوستائيتين، ودلت في مضمونها على الإظهار والتبيين .

-توصل إشبكيل (Spiegel) الى النتائج الآتية :

أ. الهزوارش مرتبطة لفظاً ومضموناً باللغة البهلوية .

ب. دلت على نمط من الكتابة والكلام ، أو على لهجة خاصة .

ج. اختصت (الهزوارش) بالكلمات السامية الدخيلة في اللغة البهلوية من حيث إنها تكتب بلفظها السامي وتنطق بمقابلها الفارسي .

د. هذه الألفاظ السامية لم تقرأ كما كتبت ، واختلطت ألفاظ سامية بالكتابة البهلوية ، ولكنها حين التلفظ بها يقرأ المعادل الفارسي لها .
- غالباً ما دلت كلمة (هزوارش) في الأدب الزرادشتي المتأخر الذي يعبر عنه بـ (بازند) على اللغة البهلوية .
- استعملت في الكتب البهلوية كلمة اوزواشن = هزوارش) بمعنى الشرح والتبيين ومعرفة الشيء .

٦- ومن أسباب انتشار الآرامية أنها بلهجتها السريانية أصبحت في الشرق أساس الأدب النصراني؛ فالأنجيل المعترف بها دونت في أصولها باللغة اليونانية، ثم ترجمت ضمن ترجمة العهد الجديد الى السريانية ، وأضحى الأدب النصراني المبكر مكتوباً باللغة السريانية ، بما في ذلك الترانيم الكنسية والمواعظ والخطب. واستمرت السريانية أساساً للأدب الديني حتى القرن الثالث عشر الميلادي^(١).

كانت اللغة العربية ثالث أكبر اللغات السامية شيوعاً وانتشاراً بعد اللغات الأكديّة والآرامية ، ولكن ذلك لم يحدث إلا بعد ظهور الإسلام ، وقيام الدولة الإسلامية وتوسع الفتوح في عصر الراشدين .

والمعروف في تاريخ اللغة العربية أنها كانت شبه محصورة في الجزيرة العربية ، غير أن هذه العزلة كانت نسبية؛ فبفعل عوامل التجارة والأديان

(١) انظر إمبراطوريات الكلمة : ١٣٩ .

والعقائد الوافدة ظهرت شواهد وأمثلة على تخطي العربية حواجزها الجغرافية ، ولكنه كان تخطياً (على استحياء) .

وبعد ظهور الإسلام وتوحيد قلب الجزيرة العربية امتدت الفتوحات لتشمل العراق والشام واليمن ومصر وبلاد فارس حتى وصلت الى أواسط آسيا ، فنهضت العربية نهضتها الكبرى واكتسحت كثيراً من اللغات المحلية وغير المحلية وحلت محلها لغة دينية وثقافية بعد حين من الزمن .

وتشير الدراسات الى أن غلبة العربية لم تكن بعامل القهر وسلطان الحكومة بل كانت بالطوعية والاختيار ^(١)، إذ رغب كثير من شعوب المناطق المغلوبة بتعلم العربية ولاسيما الذين أسلموا منهم لأنها لغة القرآن الكريم ولغة الدين وقوامه من العبادات والمعاملات .

وقد يتبادر الى الذهن أن حكام العرب أو من ينوب عنهم فرضوا قسراً على الناس من غير المسلمين تعلم العربية ، ولكن المسألة على عكس ذلك ، إذ منع النصارى - مثلاً - من التكلم بالعربية أو تعليم أولادهم في مدارس المسلمين ^(٢) ، ولكن الحال لم يدم على هذا المنوال فقد رغب أغلب الناس من غير المسلمين في تعلم العربية والتحدث بها؛ فاتخذت الشعوب غير المسلمة اللغة العربية لغة لها بعد زمن من عصر الفتوح، وكان شأن العربية

(١) انظر تأريخ الحضارة الإسلامية : ٦٤ .

(٢) انظر تأريخ الحضارة الإسلامية : ٦٤ .

في المشرق وحتى في المغرب ومنه الى بلاد الأندلس في أوربا شأن اللاتينية في القرون الوسطى في أوربا لغة الدين والثقافة والعلم والأدب .

ومن الأمثلة لشيوع العربية ما حصل في بلاد الشام بعد الفتح الاسلامي؛ فقد كان نصارى الشام على صلة وثيقة باللغة اليونانية التي ضمنت لهم (تفوقهم الثقافي السابق) ، ولكن بعد أمد ليس ببعيد حلت العربية عندهم مكان الإغريقية في تعليمهم العالي ^(١)، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن التحول اللغوي من لغة الى لغة أخرى سواء في لغة الكتاب أم في لغة الكلام لا يحصل دفعة واحدة ، بل يحصل بالتدريج عبر التأريخ والأجيال ، " وتعتمد سرعة التحول على عوامل كثيرة ، منها مدى القرية بين اللغة القديمة واللغة الوافدة " ^(٢)، وعوامل أخرى تتصل بالبنية اللغوية بين اللغة الشائعة المستقرة واللغة الوافدة، والبيئة اللغوية التي يحصل فيها التحول. وتكون العلاقة بين ما ذكر آنفاً علاقة طردية بمعنى كلما كانت اللغة الوافدة قريبة من اللغة المستقرة من حيث العائلة اللغوية كان التحول أسرع ، وكذلك الحال مع البنية اللغوية الأقدم والبيئة اللغوية.

وبناء على ذلك يمكن أن نستنتج أن شيوع العربية في بيئة لغوية سامية كبلاد العراق والشام أكثر من شيوعها في بيئة لغوية هندية أوربية كبلاد فارس مثلاً .

(١) انظر تأريخ الحضارة الإسلامية : ٥٧ .

(٢) محمود فهمي حجازي : اللغة العربية عبر القرون : ٥٠ .

واتسع نطاق العربية وتأثيرها في اللغات المحلية في العصور الوسطى الإسلامية والعصور المتأخرة ، وقد بلغ تأثيرها جنوب شرق آسيا. ومن الشواهد الطريفة على تأثيرها في اللغة الأندونيسية ما عرف في الفن الموسيقي الأندونيسي برقصة (بداية)؛ فتسمية الرقصة بكلمة عربية دليل واضح على مدى تأثير البيئة الأندونيسية بالإسلام واللغة العربية . ورقصة بداية هذه كانت تقام ضمن حفلات الأعياد الاجتماعية ، وتشتمل على (حركات إيقاعية تعبيرية نبيلة، وعادة ما كانت تشترك في الرقص الجماعي (فتيات من أسر شريفة) ، ويؤدي الرقص مصحوباً " بالغناء والموسيقى الإيقاعية الرتيبة، وتقوم بالرقصة الأولى التي تدعى باللغة الأندونيسية (بداية) -وهو لفظ عربي - تسع فتيات في وقت واحد يمثلن حوريات بحر (جاوة) ، ثم تأتي رقصة أخرى تقوم بها أربع فتيات يمثلن بطلات قصة معروفة أثرت عن الفترة الإسلامية تدعى رقصة (ميناك)"^(١).

وللعامل الثقافي فضلاً عن العوامل الدينية والتجارية أثر بالغ في انتشار العربية أو تأثيرها - وإن كان نسبياً- في بلدان بعيدة عن البيئة العربية وما جاورها ، إذ امتد الى إفريقية كمصر والمغرب والجزائر وموريتانيا وتشاد والسودان . وشمل ذلك أيضاً مناطق خارج إفريقية كجزيرة مالطة ذات

(١) فيصل السامر : الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى: ٧١ .

الصلة باللغة (البونية) لغة قرطاجنة القديمة بعد الفتح العربي الإسلامي لها في سنة (٨٧٠ م)^(١).

إن السنسكريتية وهي اللغة الثقافية والدينية التي شاعت قديماً في شبه القارة الهندية تعد والمادية والفارسية القديمة والأوستائية وليدة شعبة اللغات الهندية الإيرانية (Indo-Iranian) ، أو الهندية الآرية (Indo - Arian) ، ويطلق عليها أيضاً (الآرية) باختلاف المدارس اللغوية ، وهي الشعبة الكبرى المنحدرة من أصول الهندية الأوروبية (Indo – European) الموغلة في القدم .

وكانت السنسكريتية لغة النخبة الثقافية الذين جعلوا (أنفسهم مستحقين السيطرة على الشعوب الأخرى التي اتصلوا بها) ، وزعموا أن لهم الوسائل التي تمكنهم من هذه السيطرة ، وهي أدواتهم اللغوية المتمثلة بقواعد النحو السنسكريتي وثقافتهم التي امتزجت بالقواعد النحوية وأصبحت تعبر عن نفسها من خلال هذه القواعد^(٢).

ولا ريب في أن قواعد النحو السنسكريتي من أقدم القواعد المُحكّمة في تأريخ اللغات؛ فقد وضعها (بانيني) قبل الميلاد وبقيت الأصل المعتمد في تعلم السنسكريتية وتعليمها عبر القرون والأجيال. وكانت نظرتهم الى أنفسهم نظرة متعالية ما دامت قواعدهم النحوية (ملكة علومهم) ، والبراعة في

(١) انظر : إمبراطوريات الكلمة : ١٥١ .

(٢) انظر : إمبراطوريات الكلمة : ٣٠٧ .

السنسكريتية سمعتهم " الرسمية المميزة للوجود المتحضر ولمكانة المرء في العالم كإنسان آري نبيل" ^(١).

كان الهدف الأساس من السنسكريتية هو الحفاظ على النصوص الدينية المقدسة^(٢)، وكانت قواعدها تعنى بتحليل النص اللغوي أكثر من عنايتها بالتطبيق العملي، وربما يعود السبب في ذلك الى مزج الثقافة باللغة وجعلهما وسيلة واحدة لفهم النصوص الدينية التي تمثل الوعاء الثقافي؛ فالكلمة السنسكريتية الدالة على قواعد النحو هي (فيا كارنا) ، وتعني التحليل الإعرابي خلافاً لكلمة (غراماتيك) اليونانية المبنية على (الكلمة) و (الكتابة)^(٣) أي الجوانب التطبيقية العملية للنحو الصرف .

ولم يقتصر تدوين النصوص على الفارسية القديمة لغة الملوك المسماة بـ (الهخامنشية) نسبة الى الملوك الهخامنشيين (= الإخمينيين) قبل داريوس الأول (دارا أو داريوش كما في الفارسية القديمة) . واستعمل الفرس قبل دارا الخط المسماري والفارسية القديمة واللغات الأكديّة ولغة بلاد سوسة^(٤) في تدوين نقوشهم الرسمية . وبعد سقوط الإمبراطورية الإخمينية على يدي الاسكندر المقدوني دخلت بلاد فارس مرحلة الفوضى والاضطراب

(١) إمبراطوريات الكلمة : ٣٠٧ .

(٢) انظر : إمبراطورية الكلمة : ٣٣٨ .

(٣) انظر : إمبراطوريات الكلمة : ٢٦٠ .

(٤) انظر : تأريخ الحضارات العام : ٢٢٠/١ .

والتفكك ، ثم آلت الى التوحد مرة أخرى ، وظهرت ممالك انتهت الى قيام الأكاسرة الساسانيين بإنشاء إمبراطورية مترامية الأطراف بقيت الى سقوطها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ومرت اللغات الإيرانية ، وهي شعبة أساسية منحدره من الهندية الإيرانية أو (الآرية) بثلاث مراحل رئيسة :

١- اللغات الإيرانية القديمة ، وتشتمل على (المادية) ، والفارسية القديمة ، والأوستائية.

٢- اللغات الإيرانية الوسيطة ، وتشتمل على البارتية أو البهلوية الأشكانية، والفارسية الوسيطة (البهلوية) ، والصُّغدية ، والختنية، والخورزمية.

٣- اللغات الإيرانية الحديثة ، وتشتمل على الفارسية الحديثة المسماة بـ (الدَّرية) ، والآسية ، ولغة البشتو ، والبلوجية ، والكردية.

وتعد الفارسية الحديثة من أهم اللغات واللهجات الإيرانية ، ونشأت في أصولها من الفارسية القديمة ، والفارسية الوسيطة (البهلوية) .

واتخذ الساسانيون اللغة البهلوية لغة رسمية لهم ، ودونت بها نقوشهم وسجلاتهم ، وكانت لغة التخاطب بين عامة الناس. وبعد جمع ما بقي من كتاب الأوستا عن طريق الرواية الشفوية وكتابته باللغة البهلوية أضحت البهلوية لغة دينية للزرادشتين، واستمرت متداولة حتى بعهد الفتح العربي الإسلامي، ثم أخذت تحل محلها الفارسية الحديثة شيئاً فشيئاً منذ القرن

الرابع الهجري وما تلاه الى أن اختفت البهلوية من التداول واقتصرت على النصوص والطقوس الدينية.

وأرجح بحسب ما أراه أن (الدَّرِيَّة) التي اتسمت بهذه الصفة نسبة الى دَرَبَان (darban) بمعنى حرس البلاط أو القصر ، ويقصد بها اللغة الرسمية للقصر الملكي كانت المرحلة الوسيطة بين البهلوية والفارسية الحديثة. وقبل مرور أكثر من ثلاثة قرون هجرية على الفتح العربي الإسلامي وسقوط الإمبراطورية الساسانية حلت مرحلة اختلطت فيها البهلوية بالفارسية الحديثة ، ثم انتهت بهذا الخليط بعد تعديلات صوتية وصرفية الى الفارسية الحديثة الصرفة التي ما تزال شائعة الاستعمال في إيران وأفغانستان وطاجيكستان، وتعد اللغة الرسمية فيها على الرغم من إدعاء الأفغان أن لغتهم أو لهجتهم هي التي تمثل الدَرِيَّة على أحسن وجه. وهذا الرأي ربما يحتاج الى بحث منفصل.

إن الفارسية الحديثة اشتملت على ما يقارب الـ (٤٠%) من الألفاظ العربية ، ولكنها أبقت على بناها اللغوية العامة من حيث الأصوات والتشكيل الصوتي والصرف والتركيب النحوي .

ويعزى هذا العدد الكبير من الألفاظ المستعارة من العربية الى عوامل، من أهمها عامل الفتح العسكري ، والعامل الديني والثقافي ، والهجرة الطوعية أو القسرية لبعض القبائل العربية إبان الحكم الأموي الى مناطق من بلاد فارس، إذ اتبع الأمويون سياسة التغيير الديموغرافي (السكاني الاجتماعي)

للشعوب التي خضعت إليهم . واتخذ الإيرانيون المسلمون الحروف العربية نظاماً لأبجديتهم ، شأنهم في ذلك شأن شعوب وسط آسيا وغيرها من الأقطار التي أسلمت وخضعت للحكم العربي الإسلامي . وأفردوا للحروف أو الأصوات التي انفردت بها الفارسية حروفاً عربية مع بعض التعديلات الطفيفة من حيث الرسم ، والأهم من ذلك أن الزرادشتيين اتخذوا الحروف العربية أيضاً^(١) في كتاباتهم ما خلا النصوص المقدسة والطقوس الدينية . وظهرت في بلاد فارس منذ القرن الرابع الهجري ، أي مع حلول الفارسية الحديثة محل البهلوية ميول الى ما يمكن أن يصطلح عليه بمبدأ (التنقية اللغوية) المستمدة من الروح القومي؛ فعلا شأن الفردوسي (٣٢٩ هـ - ٤١١ هـ) شاعر الشعر الملحمي الفارسي الكبير ، وألف ملحمة الشهيرة ب (شاهنامه) أي تواريخ الملوك ، ذكر فيها تواريخ إيران وأساطيرها على نحو قصة منظومة . وذاع صيتها في أوساط الأدباء ، وبلغت شهرتها آفاق المشرق الإسلامي في ذلك العصر .

ووصفت (شاهنامه) الفردوسي " كنزاً قومياً للشعب الإيراني كله " ^(٢)، وتأثر بها الأرمن والكرج والترك وغيرهم ، وعدت من كنوز الأدب العالمي كإلياذة هوميروس في الأدب اليوناني القديم ، و (الكوميديا الإلهية) لدانتي في الأدب الإيطالي. وجرياً على مبدأ (تفريس) الثقافة - إذا صح التعبير -

(١) انظر : تأريخ الحضارة الإسلامية : ١٠٤ .

(٢) تأريخ الحضارة الإسلامية : ١١٠ .

ألف ابن سينا المتوفى في مدينة همدان سنة (٤٢٨ هـ) لأمير أصفهان كتاباً في علوم الموسيقى والمنطق والفلسفة باللغة الفارسية^(١). وذكرت المصادر أن السامانيين وهم من الإيرانيين هياؤا لانتعاش الأدب الفارسي وإشاعة اللغة الفارسية ، ودام حكمهم من سنة (٢٦٢ هـ) الى سنة (٣٨٦ هـ). وانتقلت خراسان وجزء من بلاد تركستان من حكم الطاهريين الى حكم السامانيين الذين خلفوهم في الدويلات التابعة شكلاً للخلافة

(١) توهّم بارتولد في كتابه تأريخ الحضارة الإسلامية (ص : ١١٤) حينما قال : " ألف ابن سينا مع تلاميذه معجماً لمختلف العلوم باللغة الفارسية لأمير أصفهان ؛ فالكتاب ليس معجماً وإنما هو كتاب في الموسيقى وعلم الفلك والعلوم الفلسفية ألفه ابن سينا منفرداً ، ثم زاد عليه بعد وفاته أحد تلاميذه مما ترجمه من كتب الشيخ الرئيس بالعربية . وفيما يأتي بيان ذلك : عنوان الكتاب بالفارسية : (دا نشنامه علائي) أو (دانشنامه علائي) أو (حكمت علائي) ، كتاب ألفه ابن سينا بطلب من (علاء الدولة كالويه) ، ولذلك سمي الكتاب باسم علاء الدولة كما جرى عليه العرف في ذلك الزمان . أراد الشيخ أن يبحث فيه المنطق والطبيعات وعلم الهيئة (علم الفلك) والموسيقى وما بعد الطبيعة ، ولكنه اقتصر فيه على المنطق والطبيعات والإلهيات . وتعهّد من بعده تلميذه (أبو عبيد الجوزجاني) بترجمة علم الهيئة والهندسة والحساب والموسيقى من كتب الشيخ وأضافها الى كتاب الشيخ المذكور آنفاً . وللكتاب نسخ عديدة مخطوطة ، وهو مطبوع . انظر : فرهنگ فارسي معين : ٤٢١٠ .

العباسية، واتخذوا مدينة (بُخارى) عاصمة لهم ، واللغة الفارسية لغة رسمية في أغلب سني حكمهم .

وفي عصر السامانيين ظهر اتجاه في الترجمة من العربية الى الفارسية ؛ فترجم تفسير القرآن الكريم للطبري الى الفارسية ، وأُلف تفسير آخر بالفارسية (١).

ودخلت الفارسية في مصر بعد استيلاء الفرس عليها ، وبقيت بعض الألفاظ متداولة فيها سواء قبل الفتح الإسلامي أم بعده . والمعروف أن اللغة القبطية كانت اللغة الرسمية لمصر في عصر البطالسة الى أن فتحها العرب المسلمون ؛ فبدأت العربية تحل محل القبطية تدريجياً الى أن حصرتها في زاوية العبادات والطقوس القبطية النصرانية، وفي القرن السابع الميلادي وبتأثير من الحضارة الفارسية استعملت المصطلحات الفارسية في إدارة الدولة بدلاً من المصطلحات العربية(٢).

واتسع نطاق تأثير اللغة الفارسية الى آواسط آسيا والأناضول ، ونلاحظ في التركية الحديثة وهي امتداد للتركية العثمانية ، وفي التركمانية القديمة الوافدة من وسط آسيا ألفاظاً فارسية مختلطة باللغة الرسمية ، وبقي الحال على وضعه الى أن جاء أتاتورك في ثلاثينيات القرن العشرين وعمل على (

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية : ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية : ٩٣ .

تتريك) المفردات وتشذيبها من الفارسية وغيرها من اللغات ، ولكن مسعاه لم يلق النجاح التام كما ينبغي.

والثقافة الفارسية قديمة في آسيا الوسطى ؛ ففي القرن السابع الميلادي قبيل الفتوحات الإسلامية كتبت آداب المانوية التي انتشرت عقائدها في هذه الارزاء باللغات الإيرانية المستعملة في آسيا الوسطى ولاسيما الصغدية ، الى جانب اللغة التركية ، وفي هذا العصر أيضاً (ظهرت جاليات فارسية ونصرانية في الهند) ما أشاع على نحو ما آداب العقيدة المانوية والثقافة الفارسية (١).

وعمل حكام المغول المسلمون في (دلهي) على جعل اللغة الفارسية لغة رسمية رئيسة في الشؤون الإدارية للهند في القرن الثالث عشر الميلادي الى أن خضعت الهند للاستعمار الإنكليزي في القرن التاسع عشر الميلادي.

وحافظت الفارسية على تفوقها الثقافي ، إذ عرفت أينما حلت بأنها " لغة النفوذ الثقافي الرفيع " (٢).

وكان للفارسية أثر ملحوظ في الثقافة الصينية القديمة بعد انتشار الإسلام في آواسط آسيا ، ويذكر عن رحالة صيني قائد سفينة (أميرال) يدعى (جنغ - هي) أنه قام بسبع رحلات بحرية جاب خلالها المحيط الهندي

(١) انظر : تأريخ الحضارة الإسلامية : ٥١ .

(٢) إمبراطوريات الكلمة : ١٦٨ .

بين سنتي ١٤٠٥ م - ١٤٣٣ م) حتى وصل الى البحر الأحمر ومقديشو. وكانت عناية هذا الرحالة في شبه القارة الهندية منصبة على سريلانكا ، إذ ترك فيها نقشاً في سنة (١٤١١ م) بثلاث لغات ، وهي الصينية ، والتاميلية ، والفارسية ، يتضمن تحيات إمبراطور الصين (مينغ) واحترامه للديانة البوذية والاسلامية ، ولإله (نينافارا) ، وهو من آلهة البوذيين ، ولله تعالى . ويشير النص المنقوش على حجر مجلوب من الصين الى أن الإمبراطور أمر بتقديم نذور كثيرة لله ، ولإله البوذي من الفضة والذهب والحرير ... الخ (١).

والامتزاج الثقافي بين الفرس وغيرهم من الأمم والشعوب المتحضرة قديم؛ ففي القرن السادس الميلادي ترجمت (كَلِيلَة وَدَمْنَة) من الهندية الى الفارسية ، وألف (فارس بول) كتابه عن أرسطو باللغة السريانية ، وأهداه الى (خسرو = كسرى) أحد ملوك الفرس الساسانيين ، وتضمن الكتاب محاولة المؤلف لإثبات تفوق العلم على الدين ، " فالعلم في نظره بعيد الشبهة ومنتج للاتفاق والوئام بين الناس ، في حين يبحث الدين في أمور مجهولة ويوقع الشقاق بين الناس " (٢).

وكان للغة العيلامية شأن مذكور ، وخصوصاً في العصر الفارسي الإخميني، وتقيد الدراسات أن العيلامية كانت تستعمل في الأمور الإدارية

(١) انظر : إمبراطوريات الكلمة : ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية : ٥٠ .

في الإمبراطورية الإخمينية حتى سنة (٤٦٠ ق.م) ، إذ اكتشفت في ثلاثينيات القرن العشرين الميلادي آلاف الوثائق الادارية مكتوبة باللغة العيلامية في (برسيبوليس) عاصمة الإمبراطورية ^(١)، ثم حلت فيما بعد محلها الآرامية لغة رسمية إدارية ، غير أن العيلامية نفسها خضعت لنفوذ الأكديّة طوال تسعمائة سنة منذ سنة (٢٢٠٠ ق.م) ، إذ دونت فيها النصوص الرسمية بهذه اللغة .

وكانت عيلام الواقعة في شرق بلاد سومر وأكد تحت السيطرة السياسية المباشرة لإحدى القوى الغالبة في جهتها الغربية ، أي سومر وبابل وآشور ^(٢).

وفي شرق آسيا وجنوبها كان للهند والصين آثار حضارية ولغوية متبادلة انعكست على مجمل الأقطار الرئيسة في الشرق وجنوب الشرق كتايلند وفيتنام وماليزيا وإندونيسيا وكوريا واليابان، وتمثلت سمات التأثير المتبادل باللغة والدين والأدب والبعثات الأدبية والتجارة . وفيما يأتي بعض الأمثلة مجتزأة :

١- وصلت البوذية الى الصين في القرن الأول الميلادي عن طريق مبادرة هندية .

(١) انظر : إمبراطوريات الكلمة : ٩٨ .

(٢) انظر : إمبراطوريات الكلمة : ٩٦ .

٢- في القرن السابع الميلادي " شاع أسلوب تمويل مراكز واسعة النطاق لترجمة الأدب البوذي ، وكانت هناك سلسلة من بعثات الكهنة الصينيين المرسلين لدراسة الأدب وجمعه في الهند، منها ست وخمسون بعثة قبل القرن العاشر سافرت أربع وثلاثون منها بحراً.. واثنان وعشرون بَرّاً" (١).

٣- في القرن التاسع الميلادي في عهد سلالة (تانغ) وصلت الى الصين بعثات أجنبية كثيرة شملت بوذيين من الهند ومسيحيين نساطرة وزرادشتيين وماتيكائيين ومسلمين؛ فكان من شأن ذلك نشر أصوات اللغات السنسكريتية والآرامية والفارسية والعربية في المراكز الكبرى ليتم استخدامها في العبادة (٢).

٤- إن كوريا واليابان وفيتنام تستعمل كل منها لغة لا علاقة لها بالصينية؛ فاضطرت الى " مقاومة محاولات الغزوات الصينية المتقطعة، غير أنها لم تتعلم في بادئ الأمر القراءة والكتابة بلغاتها بل باللغة الصينية الفصحى التقليدية الكلاسيكية ، وقامت بتطوير أنظمة للغاتها الخاصة عن طريق تحويل استعمال الحروف الصينية أو استكمالها. وعلى عكس تعامل الصينية مع السنسكريتية ولغة (بالي) فإن كل واحدة من لغات هذه البلدان تبنت المفردات الصينية

(١) إمبراطوريات الكلمة : ٢٣٢ .

(٢) إمبراطوريات الكلمة : ٢٠٧ .

كما هي بغض النظر عن عدم انطباقها بشكل جيد مع الأنظمة الصوتية في لغتها الخاصة" (١).

وخلاصة القول : إن الصين كانت تمثل للبلدان المذكورة آنفاً " رأس ينبوع الحضارة المتقدمة، ونتيجة لذلك صارت لغاتها مليئة بمفردات مستعارة من الصينية مُحَوَّرة لتناسب طريقة لفظهم" (٢).

ومن جملة سمات الحضارة الإسلامية في القرن السابع الميلادي أثرها الثقافي ولاسيما الآداب الشرقية ، وعلى نحو خاص في الأدبين الأرمني والكُرْجي اللذين اتبعا العالم اليوناني لتمثيليهما الديانة المسيحية ، بيد أنهما خضعا للحضارة الإسلامية العربية والفارسية بحكم موقعهما في محاذاة العالم الإسلامي الذي امتد الى حدودهما وتجاوزهما الى تخوم الصين . قال بارتولد : " ... أما بلاد أرمينية والكُرْج فقد أُلْفَتَا في القرن السابع الميلادي هيئتين مختلفتين ، وحافظتا على علاقاتهما بالعالم اليوناني بالتأثير الديني ، ولكنهما لم تتجوا من تأثير الحضارة الإسلامية (العربية والفارسية) ؛ فإن كُلاً من الأدب الأرمني والأدب الكُرْجي يمتان بقرابة الى الأدب الفارسي" (٣).

(١) إمبراطوريات الكلمة : ٢٣٦ .

(٢) إمبراطوريات الكلمة : ٢٣٧ .

(٣) تأريخ الحضارة الإسلامية : ٦٠ .

والظاهر المستفاد من بعض الأخبار والإشارات أن الفارسية أصبحت صلة الوصل بين الحضارة العربية وحضارات أواسط آسيا وحواليها؛ ففي عصور متأخرة أي في القرن الرابع عشر الميلادي اتخذ المغول في بلاد فارس وسمرقند اللغة التركية بلهجتها (الجغتائية) نسبة الى (جغتاي) الابن الثاني لجنكيز خان لغة رسمية وثقافية في بلاط خانات المغول ، وفي بداية القرن السادس عشر الميلادي أي في سنة (١٥٠٥ م) افتتح أول ملوك المغول المدعو (باير) بلاد الهند متجهاً إليها من مقره ومستقره في أفغانستان، وكانت الجغتائية لغة الحديث والتخاطب بين رجاله ، ولكن الغريب أن باير كان يفضل أن يكتبها بالفارسية (١).

إن الصلة بين اللغة والحضارة تشمل جميع اللغات التي كان لها شأن في الرقي الحضاري والثقافي. وفي بعض الأمثلة من هنا وهناك في تأريخ اللغات لا نعدم الصلة في اللغات التي لا شأن لها ، أولها شأن قليل ، وربما لانعدم أيضاً أمثلة من لغات بدائية نشأت في فجر الحضارات.

وفي العالم الغربي عموماً تسنمت الإغريقية وبعدها اللاتينية رئاسة اللغات المتحضرة قبل أن تنتقل فروع الهندية الأوروبية من اللهجات المحلية الى لغات منفصلة بعد لأي من الزمن وجهد متواصل ، وظهرت لغات العالم المتمدن في عصرنا هذا ، ولاسيما الانكليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية.

(١) انظر : إمبراطوريات الكلمة : ١٦٥ .

كان اليونانيون أو الإغريق يطلقون على أنفسهم اسم (الهيلينيين) ، ومن التسمية شاعت (الحضارة الهلينية) أي اليونانية ، وبعد امتزاجها بالحضارات الشرقية القديمة عن طريق خلفاء الإسكندر المقدوني في الإسكندرية خصوصاً ، وغيرها من العواصم ذات الصلة سميت الثقافة اليونانية الممتزجة بالثقافات الشرقية باسم (الهيلينستية). والمهم في هذا الباب التنبيه على أن مصطلح (الهلينية) و (الهيلينيين) لم يكن في أول أمره معروفاً في خارج اليونان ، وربما يعود مرد هذا الاسم أو المصطلح الى (عامل البطولة القومي) لدى الإغريق القدامى الذين كانوا ينظرون الى البطولات الفردية نظرة إعجاب كبيرة ، ولذلك مجّدوا أبطالهم بهالة من الأساطير في ملاحمهم الشعرية ولاسيما الملحمة الشعرية الكبرى التي بقيت الى يومنا هذا ، وأعني بها (الإلياذة) لهوميروس أشهر شاعر وأديب يوناني قديم، وتداول تأثيرها في أغلب الآداب الأوروبية - إن لم نقل كلها - الى القرون الوسطى وعصر النهضة في عموم أوروبا بعد إحياء (الآداب الإنسانية) التي لا تخلو من الصفة الوثنية وانكفاء الفلسفة المدرسية والآداب النصرانية التقليدية.

لقد أُطلق على قوم (أخيل) بطل فاجعة سقوط طروادة أو على بعض قومه اسم الهيلينيين^(١) كما ذكر بعض الباحثين ، ولاعتزاز اليونانيين بالمآثر

(١) انظر : إمبراطوريات الكلمة : ٣٢٨ .

البطولية تُوسّع في دلالة الكلمة ، ومن ثم أطلقت بعد زمن على (العِرْق) اليوناني كله عن طريق الترابط والتعميم الدالّيين .

ونشأت الحضارة اليونانية على أسس ثقافية وفلسفية ودينية ، وغلب عليها الطابع الفلسفي منذ الإرهاصات الأولية للفكر الفلسفي قبل سقراط . وكان سقراط معنياً بتعليم الشباب أكثر من غيرهم لأنهم عماد الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية للناشئة، وهم من يعول عليهم للإصلاح ووضع البنى الفكرية للدولة . وجرى على ديدنه تلميذه أفلاطون بتعليم شباب أثينا في مدرسة أسسها لهذا الغرض وأطلق عليها اسم الأكاديمية (Academy)، وهي كلمة إغريقية مشتقة من اسم بستان يقع قريباً من مدينة أثينا ، ويعود الاسم الى بطل من مآثر الإغريق يدعى (أكاديموس)^(١).

وعني النحاة اليونانيون بلغتهم بوضعهم نظاماً للقواعد النحوية مبنياً على أسس فلسفية ولغوية ، وبقيت هذه الأسس معمولاً بها في قواعد اللغة المدرسية أجيالاً في أوروبا ، وبلغ تأثيرها في الشرق أيضاً ^(٢).

ومن الملامح المهمة في الثقافة الإغريقية العناية (بإضفاء طابع رسمي) على الاستعمال اللغوي من حيث اتباع نمطية تقليدية مقصودة في الأساليب اللغوية المختلفة في الكتابة والخطابة والتأليف والأشعار وغيرها من الأدبيات ، نلاحظ ذلك مثلاً في الأسلوب الملحمي عند هوميروس بتجميع

(١) انظر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ٦٣٧/٢ ، ٦٣٨ .

(٢) انظر: لوتز : علم اللغة (ضمن مجموع آفاق المعرفة) : ٣٠٤ .

أغاني البطولة ودمجها ، ونلاحظ ذلك أيضاً في حكايات الرحالة في مجالي الجغرافية والتاريخ ، والأشعار الغنائية ، أي (الكورس) الجماعي لبث الحماسة في التجمعات الشعبية العامة مثل الألعاب الرياضية ، والمسرحيات الدرامية التي تمثل الطقوس الدينية ... الخ^(١).

والوسائل التي دعت الى انتشار اللغة اليونانية متعددة ومتنوعة كتجارة المضاربة ، والاستعمار ، والإغراء الثقافي^(٢)، واختلفت هذه الوسائل وغيرها من حيث تحقيق الغرض منها وديمومتها طويلاً .

إن المدى الذي شاعت فيه اللغة اليونانية واسع غرباً وشرقاً ، من إسبانيا الى الهند ، ومن شرق الوطن اليوناني الى جنوب البلقان ، أي شمال العالم المتحضر القديم مدة لا تقل عن قرن من الزمان ، منذ نهاية القرن الأول قبل الميلاد .

واختصر أوستلر ذلك كله في قوله : " إن النقطة العليا في توسع الإغريقية جاءت لمدة قرن ، أو نحو ذلك ، قرب نهاية الألف الأول قبل الميلاد؛ ففي ذلك الوقت كان يمكن سماع هذه اللغة على شفاة التجار والدبلوماسيين والجنود، من إمبوري (أميورياس الحديثة) ، وهي مركز تجاري في الزاوية الشمالية الشرقية من إسبانيا الحديثة، الى باليوثراس (باليوترا - باتنا الحديثة) في الهند. وهذه مسافة طولها (٨٠٠٠) كم ، أي ما يقارب ربع

(١) انظر إمبراطوريات الكلمة : ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

(٢) انظر : إمبراطوريات الكلمة : ٣٢٥ .

محيط الكرة الأرضية، وضمن هذا المدى ، وعلى طول أكثر من ٨٠% من امتداده كان هناك شريط متواصل من الأرض تحت إدارة ناطقة بالإغريقية، وكله الى الشرق من الوطن اليوناني ، في جنوب البلقان، ويمتد الى ماهي اليوم (باكستان). وهذا الامتداد الكلي لليونان العظمى، للعالم (الهيلينستي) على مدى حوالي سبعمائة عام، من دون الاستفادة من أي تكنولوجيا سوى السفينة والحداء والعجلة والطريق والحِصان والكتابة^(١).

ومجمل ما تركته الحضارة اليونانية ولاسيما لغتها في العالم القديم ، وخصوصاً في عالم البحر الأبيض المتوسط أنها جلبت له المنطق العقلي، وفن الحوار، والفلسفة، والأدب المسرحي، ونظام الحكم الانتخابي؛ فتأثرت أوروبا كلها على نحو مباشر وغير مباشر بهذه المفاهيم والأطروحات عن طريق اللغة الإغريقية، والثقافة الإغريقية ولذلك نلاحظ أن فيضاً من الكلمات والعبارات والمصطلحات اليونانية دخلت في اللغات الأوروبية، وصبغت قواعد تلك اللغات ، ونظمت عند كتابتها (بحسب مبادئ إغريقية)^(٢).

وكان حوض البحر الأبيض المتوسط المركز الرئيس للحضارة اليونانية ولغتها؛ ففي القرنين الأخيرين قبل الميلاد سادت اللغة اليونانية في هذه

(١) إمبراطوريات الكلمة : ٣٢٦ .

(٢) انظر: إمبراطوريات الكلمة : ٣٢٥ .

المنطقة الواسعة المترامية الأطراف ^(١)، وأصبحت (أكثر اللغات فائدة) للتعامل الثقافي والسياسي والتجاري ، ووسيلة للاتصال. وامتاز شرق البحر الأبيض المتوسط خصوصاً بمركزية انتشار اللغة اليونانية إذ كانت متداولة في بضع إمبراطوريات وممالك، وتغلبت لهجة مدينة أثينا على سائر اللهجات اليونانية الأخرى، وهي المعروفة بـ (الإغريقية الفصحى) ، وأصبحت شائعة بين عامة الناس. وأما في اليونان نفسها فراحت تحل تدريجياً محل اللهجات العشرين الأخرى التي ازدهرت حتى القرن الرابع قبل الميلاد ^(٢).

وبعد ظهور المسيحية من مهدها في فلسطين وانتشارها في العالم القديم، ألّفت الأناجيل والنصوص الدينية الأخرى للعهد الجديد باللغة اليونانية التي صارت فيما بعد (أول لغة للكنيسة في الغرب) ^(٣).

وجاءت اللغة اللاتينية بعد اللغة اليونانية من حيث الانتشار والاستعمال في العالم القديم ، غير أن الشعوب المغلوبة التابعة للإمبراطورية الرومانية اتخذت اللغة اللاتينية على نحو أكثر اتساعاً من اللغة اليونانية، وربما يعود السبب الى توسع الرومان غرباً وشرقاً وفرض لغتهم قهراً ، وتطور النظم الإدارية عندهم الى مراحل متقدمة جداً ما جعل الشعوب التابعة لهم مجبرين

(١) انظر: إمبراطوريات الكلمة : ١٢٦.

(٢) انظر : إمبراطوريات الكلمة : ٣٢٦ .

(٣) انظر : إمبراطوريات الكلمة : ١٣٨.

على اتخاذ لغتهم وسيلة للتواصل والمعاملات الإدارية والتجارية، يضاف الى ذلك التعامل السياسي والدبلوماسي للممالك التابعة للإمبراطورية. ويبقى العامل الثقافي من أهم الأسباب في شيوع اللغة اللاتينية، لأن الرومان كانوا ورثة الحضارة اليونانية ، ونظرتهم الى الشعوب الأخرى التي وصفوها بـ (البربرية) أي التي لا حظ لها من الثقافة والمعرفة كنظرة اليونان الى غيرهم من الشعوب والأمم ، ولذلك تكاملت اللغتان في دفع التواصل الثقافي. واتخذت اللاتينية لغة العلوم والفنون في أوروبا بخاصة، واتصل ذلك بشرق البحر الأبيض المتوسط، وزاد أكثر بعد انقسام الإمبراطورية الرومانية على قسمين: غربية وعاصمتها (روما) ، وشرقية عاصمتها (القسطنطينية)، ولكن اللغة اللاتينية لم تتغلب على اللغة اليونانية في أماكن انتشارها على نحو واضح إلا بعد سقوط روما وقيام الإمبراطورية الرومانية المقدسة ذات الصفة الدينية المسيحية ؛ فخضعت دول أوروبا الى سلطة الكنيسة الكاثوليكية، وأصبحت اللاتينية لغة رسمية ودينية وثقافية منذ القرون الوسطى الى عصر النهضة، وبذلك بقيت اللغة اللاتينية "لغة أوروبا المتمدنة ما يزيد على خمسة عشر قرناً" (١).

وبعد سقوط (روما) سادت اللهجة الإيطالية التي تعود أصولها الى السهل اللاتيني في وسط إيطاليا على اللهجات الأخرى الرومانية، وكانت أساساً

(١) مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة: ٧٠٣/١.

للغة اللاتينية (المدرسية) "من الجزر البريطانية الى شمال إفريقيا، ومن المحيط الأطلسي الى البحر الأسود" (١).

ولانتشار اللغات صلة بالبعد القومي للأمم والشعوب، وكانت اللغة تبعاً لذلك من العوامل المهمة في قيام (الدولة القومية) الحديثة في أوربا، لأن مثل هذه الدولة تحتاج الى لغة موحدة أداة للسيادة والثقافة والعلاقات الدولية والتنظيمات الإدارية وما أشبه؛ فاللغة الواحدة الشاملة ضرورة من ضرورات الدولة القومية. ولما كانت اللغة اللاتينية لغة الكنيسة في أوربا القرون الوسطى (من المجر الى غرينلاند) " فقد ظهرت الى جانبها لغة أخرى تدريجياً تعادلها في الشمول والانتشار هي (اللاتينية العلمية) ، ولا يعني ذلك لغة مختلفة بل يعني استعمالاً مختلفاً للغة، وكانت هذه اللاتينية العلمية لغة (طبقة الفرسان)، وأداة للثقافة العامة؛ فنظمت بها (الأناشيد) وكتب القصص ... الخ، وكان النورمانديون وسيلة لإيصالها الى انكلترا وصقلية والقدس (٢). وبعد تطور اللهجات الأوربية الحديثة الى لغات أوربا المعروفة كان للغة الفرنسية (القَدَح المَعْلَى) من حيث النفوذ في عموم أوربا ولاسيما انكلترا ، واتخذت لغة رسمية في لندن ، ويذكر عن الملك هنري الخامس أنه أول ملك انكليزي استعمل الفرنسية في السجلات الرسمية بعد انتصاره على الفرنسيين في معركة (أيجن كورت) سنة (١٤١٥م) . وبعد إنشاء

(١) أعلام الفكر اللغوي: ١٥/١ .

(٢) انظر: تكوين العقل الحديث: ١٦٧ .

أول مطبعة في (ويستمنستر) سنة (١٤٧٦ م) بدأت اللغة الانكليزية تتحرر من منافسة الفرنسية.

ومن المعروف أن الفرنسية بقيت قروناً لغة الثقافة عند الطبقة العليا من المجتمع الأوربي، وامتد أثرها الى الشرق الإسلامي والعربي كتركيا ، وبلاد فارس في عهد ناصر الدين شاه القاجاري، ومصر في عهد محمد علي باشا وبعده.

إن المصطلح الفني أو اصطلاحات الفنون مظهر من أهم مظاهر العلاقة بين اللغة والحضارة. والمقصود بالفنون جماع العلوم والمعارف. وهذه المسألة نراها في اللغات ذات الحضارة الأصيلة؛ فكثير من تلك اللغات تشتمل على مصطلحات فنية من أصول اللغة أو عن طريق الاستعارة من لغات أخرى.

ونكتفي ببعض الشواهد والأمثلة لأهم سمة للعربية بعد الإسلام، وهي شيوع طائفة من الألفاظ ذات الأرومة الإسلامية من حيث الدلالة الاصطلاحية دخلت في العربية، وأغلبها ألفاظ قرآنية وردت في النص القرآني الشريف واتخذت مدلولاً مختصاً بها.

وهناك ألفاظ ومصطلحات من غير الألفاظ الإسلامية ذات أصول عربية وأجنبية احتاجت إليها الدولة في القرون الهجرية الأولى، وعلى وجه الخصوص منذ تعريب الدواوين في القرن الأول الهجري، إذ كان التعريب

عاملاً مهماً " في تدعيم مكانة اللغة العربية في الدولة الإسلامية.. ونقل العربية الى مستوى الاستخدام الكامل في جهاز الدولة الإسلامية" (١). وفيما يأتي بعض الأمثلة للاستدلال على ذلك كله :

- علم الكلام في عقائد الإمامية الزيدية : " هو بيان كيفية الاستدلال على تحصيل عقائد صحيحة جازمة بترتيب صحة الشرائع عليها، أو الاستدلال على عقائد وشرائع مخصوصة " (٢).

- الإسلام والإيمان في عقائد الإمامية الاثني عشرية : " قالوا : الإسلام أعم في الحُكم من الإيمان، وهما في الحقيقة واحد. وأما كونه أعم فلائِنَّ من أقرَّ بالشهادتين كان حُكمه حُكمَ المسلمين لقوله تعالى : ((قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)) ، وأما كون الإسلام في الحقيقة هو الإيمان فلقوله تعالى : ((إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)) (٣). ومن جملة تعريفاتهم بالإيمان : " قال بعض السلف : الإيمان إقرار باللسان ، وتصديق بالقلب ، وعمل بالجوارح " (٤).

وفي تعريف آخر لهم : الإسلام هو " الانقياد للأحكام الشرعية" والإيمان هو " معرفة الله ومعرفة النبي ومعرفة الأنمة عليهم السلام ، بشرائطها

(١) اللغة العربية عبر العصور : ٤٩.

(٢) الزيدي : كتاب الأساس لعقائد الأكياس : ٤٨.

(٣) الطوسي: قواعد العقائد : ١٤٢ .

(٤) قواعد العقائد : ١٤٤ .

وأركانها المعتبرة في أصول الدين" ^(١). وهذان التعريفان يعبران في أولهما عن الشريعة أي العمل بالفروع ، وفي ثانيهما عن العقيدة أي عن أصول الدين أو أصول الإيمان.

وفي رواية عن الامام علي بن موسى الرضا ، عن أبيه، عن جدّه جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه علي بن الحسين ، عن جده علي بن أبي طالب عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (الإيمان معرفة بالقلب ، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان) . ووصف بعض المُحدّثين هذا الحديث المروي عن الرضا (ع) بقوله : "هذا إسناد لو قُرئ في أُذن مجنونٍ لبرئ" ^(٢). قلت : هذا الحديث يعرف عند المُحدّثين بسلسلة الذهب .

- وأما أصول الإيمان فاختلفوا فيها ، إذ قالت المعتزلة : " أصول الإيمان خمسة : التوحيد ، والعدل ، والإقرار بالنبوة ، والوعد والوعيد، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " ^(٣) ، على تفصيل في بيان مدلولات الألفاظ المذكورة آنفاً.

(١) الآبي : الحدود والحقائق : ١٤ .

(٢) الشجري : كتاب الأمالي : ١٠/١ .

(٣) قواعد العقائد : ١٤٥ .

- وقالت الشيعة : " أصول الإيمان ثلاثة : التصديق بوحداية الله تعالى في ذاته والعدل في أفعاله ، والتصديق بنبوة الأنبياء ، والتصديق بإمامة الأئمة المعصومين من بعد الأنبياء " (١).
- والمشهور في علم العقائد عند الشيعة الأثني عشرية أن أصول الدين ، وهي أصول الإيمان خمسة : التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والإمامة ، والمعاد يوم القيامة ، على تفصيل أيضاً لمدلولات الألفاظ .
- وقال أهل السنة : الإيمان " هو التصديق بالله ، ويكون النبي (ص) صادقاً ، والتصديق بالأحكام التي يعلم يقيناً أنه - عليه السلام - حكم بها ، دون ما فيه الخلاف والاشتباه. والكفر يقابل الإيمان " (٢).
- الإمامة (عند غير الشيعة الإمامية): " موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا " (٣).
- الفقه : " العلم بأحكام الشرع " (٤).
- سُنَّة الرسول (ص) : " ... وأما سُنَّة الرسول (ص) فهي ثلاثة أضرب ، أحدها : القول ، والثاني : الفعل ، والثالث : الإقرار؛ فالقول: ما روي

(١) قواعد العقائد : ١٤٥ .

(٢) قواعد العقائد : ١٤٥ .

(٣) الماوردي : الأحكام السلطانية : ٥ .

(٤) الحدود والحقائق : ٢٤ .

- عنه (ص) أنه قال ، والفعل : ما روي عنه (ص) أنه فعل ، والإقرار : ما روي عنه (ص) أنه أقرّ عليه قومه ولم ينكره عليهم" (١).
- والسنة عند الشيعة الإمامية تتسع لقول المعصوم وفعله وإقراره، ولكنها
- لغير النبي (ص) - سنة تفسيرية وليست تشريعية .
- الحرّم : " ما أطاف بمكة من جوانبها" (٢).
- التوحيد في العقائد عند الإمامية : توحيد الله تعالى : توحيده من جميع الجهات ، توحيده في الذات، وأنه واحد في ذاته ووجوب وجوده، وتوحيده في الصفات، وأن صفاته عين ذاته ، وأنه لا شبيه له في صفاته الذاتية؛ " فهو في العلم والقُدرة لا نظير له ، وفي الخلق والرزق لا شريك له، وفي كل كمال لا ندّ له وتوحيده في العبادة ، فلا تجوز عبادة غيره بوجه من الوجوه ، وكذا إشراكه في العبادة في أي نوع من أنواع العبادة " (٣).
- النبوة عند الإمامية الاثني عشرية: " وظيفة إلهية، وسفارة ربانية يجعلها الله تعالى لمن ينتخبه ويختاره من عباده الصالحين وأوليائه الكاملين في إنسانيتهم؛ فيُرسلهم الى سائر الناس لغاية إرشادهم الى ما فيه منافعهم ومصالحهم في الدنيا والآخرة، ولغرض تنزيههم وتزكيتهم من

(١) الخوارزمي : مفاتيح العلوم : ٢١.

(٢) الأحكام السلطانية : ١٦٤.

(٣) المظفر : عقائد الإمامية : ٦٠ .

- مساوئ الأخلاق ومفاسد العادات، وتعليمهم الحكمة والمعرفة ، وبيان طرق السعادة والخير ، لتبلغ الإنسانية كمالها اللائق بها، فترتفع الى درجاتها الرفيعة في الدارين، دار الدنيا ودار الآخرة^(١).
- والنبّي عندهم : " إنسان مبعوث من الله تعالى الى عباده ليُكملهم بأن يُعرفهم لما يحتاجون إليه في طاعته، والاحتراز عن معصيته" ^(٢).
- والفرق بين النبيّ والرسول عندهم : " النبيّ : البَشَر المُرْسَل من قبل الله الى الخَلْق ، والرسول أعم من النبيّ لأنه يشمل البشر والمَلَك" ^(٣).
- العَدْل عند الاثني عشرية : من صفات الله الثبوتية الكمالية ، و" أنه عادل غير ظالم ، فلا يجوز في قضائه، ولا يحيف في حُكمه. يُثيب المطيعين ، وله أن يجازي العاصين ، ولا يكلف عباده ما لا يطيقون، ولا يعاقبهم زيادة على ما يستحقون ... ولا يترك الحسن عند عدم المزامحة (أي عند عدم مزامحة القبيح له ، وفي حال المزامحة يفعل الحسن) ، ولا يفعل القبيح لأنه تعالى قادر على فعل الحسن وترك القبيح، مع فرض علمه بحُسن الحسن وقبح القبيح ، وغناه عن ترك الحسن ، وعن فعل القبيح؛ فلا الحسن يتضرر بفعله حتى يحتاج الى

(١) عقائد الإمامية : ٦٠ .

(٢) قواعد العقائد : ٨٧.

(٣) الحدود والحقائق : ٢٨.

تركه، ولا القبيح يفتقر إليه حتى يفعله، وهو مع كل ذلك حكيم لابد من أن يكون فعله مطابقاً للحكمة، وعلى حساب النظام الأكمل" (١).

- النبوة والرسالة عند الشيعة الزيدية : النبوة " هي وحي الله الى أزكى البشر عقلاً وطهارة من ارتكاب القبيح وأعلاهم منصباً بشريعة" ... والرسالة - لغة - القول المبلّغ ، وشرعاً : كالنبوة ، إلا أنه يقال في موضع شرحه لتبليغ شريعة لم يسبقه بتبليغ جميعها أحد" (٢).

ويفهم من هذين التعريفين أن الرسول هو نبيّ صاحب شريعة ، وأصحاب الشرائع من الأنبياء المرسلين الى الناس كافة خمسة، وهم أولو العزم من الرسل : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين. وأما النبيّ فلا يشترط فيه أن يكون صاحب شريعة، والجامع بينهما النبوة التي هي الوحي السماوي والتبليغ.

-الإمامة في عقائد الزيدية : الإمامة - شرعاً- : " هي رئاسة عامة باستحقاق شرعي لرجل لا يكون فوق يده مخلوق" (٣) ، وبذلك يختلف مفهوم الإمامة بين الزيدية والاثني عشرية من الشيعة الإمامية ، وتعريف الإمامة عند الزيدية أقرب الى تعريفها عند أهل السنة والجماعة .

(١) عقائد الإمامية : ٦٤.

(٢) كتاب الأساس لعقائد الأكياس : ١٣٥.

(٣) كتاب الأساس لعقائد الأكياس : ٥٩.

الكُفْر : " تكذيب الرسول بشيء مما جاء به " ، والكافر " مَنْ حصل على هذه الصفة (١) ، أي تكذيب الرسول (ص) . والمشهور عند علماء الاثني عشرية أن الكافر من انتحل غير الإسلام ديناً ، وهذا قريب من المعنى الأول ، لأن تكذيب الرسول (ص) يترتب عليه تكذيب الله تعالى الذي أوجب انتحال الإسلام ديناً ليس غيره . وأن الشريعة الإسلامية نسخت ما قبلها من الشرائع السماوية ، وأن حلال محمد (ص) حلال الى يوم القيامة، وحرامه حرام الى يوم يبعثون .

-الفريضة : " كل واجب بُيِّنَ قَدْرُهُ لِمَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ " (٢).

-النَّصَّ : من مصطلحات علم أصول الفقه، وهو " كل خطاب يمكن أن يُعْلَمَ المراد من ظاهره " (٣).

-النَّظَرُ : " لفظة مشتركة بين معانٍ كثيرة ، والمراد به عند المتكلمين هو الفِكرُ ، والبحث عن الدلائل العقلية " (٤).

-الاجتهاد عند الإمامية الاثني عشرية : هو " النظر في الأدلة الشرعية لتحصيل معرفة الأحكام الفرعية التي جاء بها سيد المرسلين (ص) " (٥).

(١) الحدود والحقائق : ٢٦ .

(٢) الحدود والحقائق : ٢٤ .

(٣) الحدود والحقائق : ٢٨ .

(٤) الحدود والحقائق : ٢٨ .

(٥) عقائد الإمامية : ٥٦ .

ومن المصطلحات الإدارية والمالية :

- الديوان : هو " موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ، ومن يقوم بها من الجيوش والعُمال " (١).
- الفَيء ، والغنائم : " أموال الفَيء والغنائم ما وصلت من المشاركين أو كانوا سبب وصولها " (٢).

وتركت الترجمة بين اللغات دلالات واضحة على التداول الثقافي بين الحضارات . وتاريخ الترجمة قديم يمتد الى ظهور الحضارات القديمة في بلاد ما بين النهرين، وغالباً ما تتألف الترجمة لنص ما مع التدوين ، ولذلك كان التدوين من سمات ترسيخ اللغة فضلاً عن أنه من الوثائق التاريخية البالغة الأهمية ولاسيما التأريخ الحضاري. ومن أمثلة ذلك شريعة الملك السومري من سلالة (آيسن) لبت - عشتار (١٩٣٤ - ١٩٢٤ ق.م) الذي وضع شريعته قبل شريعة حمورابي نحو قرنين من السنين ، ودونها باللغة السومرية^(٣). وبعد زوال الهيمنة السياسية للسومريين بدأت لغتهم أيضاً بالانكفاء تدريجياً، وأخذت الأكديّة تحل محلها ، وظهرت حركة كبيرة للتدوين والتأليف والنقل والترجمة للعلوم والمعارف والآداب السومرية ، وتدوين أصول النصوص الأدبية واللغوية والدينية للتراث السومري إما باللغة

(١) الأحكام السلطانية : ١٩٩.

(٢) الأحكام السلطانية : ١٢٦.

(٣) انظر : مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٤٥٠/١ .

السومرية وإما بترجمة الكثير منها الى اللغة البابلية مثل ملحمة كلكامش (Gilgamesh) ، وأساطير الخليفة التي ألفت باللغة البابلية ولكنها تعود الى أصول سومرية^(١).

وبعد ظهور الحضارة الإسلامية واتساع انتشار اللغة العربية بلغت هذه الحضارة أوج ازدهارها في العصور العباسية ، ومنذ القرن الثاني الهجري ، وفي خلافة المنصور دأب المترجمون المحترفون من أصول سريانية نصرانية ، وفارسية إسلامية، وبعض العبرانيين اليهود في ترجمة الكتب العلمية الى العربية من نصوصها السريانية والبهلوية^(٢).

واستمرت حركة الترجمة في العالم الإسلامي الى القرون الهجرية المتأخرة؛ فقد ترجمت الإلياذة والأوديسة لهوميروس - على سبيل المثال - الى السريانية في القرن الثامن الميلادي على يدي سرياني نصراني، وترجمتا بعد قرون أي في القرن التاسع عشر الى العربية على يدي عربي نصراني^(٣).

ولم تقتصر ترجمات الكتب العلمية والثقافية الى السريانية والعربية فقط؛ فقد ترجم يهودي أندلسي يسمى (إبراهيم بن عزرا) كتاب (جداول الهيئة) للعالم

(١) انظر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٤٨٠/١ .

(٢) انظر : تأريخ الحضارة الإسلامية : ٨١ .

(٣) انظر: تأريخ الحضارة الإسلامية : ٦١ .

المسلم الكبير أبي ریحان البیروني (٣٦٣هـ - ٤٤٠هـ) الى اللغة العبرية في القرن السادس الهجري^(١).

والترجمات الى اللغة الفارسية في العصور الإسلامية كثيرة ، منها : خلاصة تأريخ الطبري التي كتبت باللغة الفارسية للأمير الساماني (منصور الأول)^(٢)، وهو تأليف أقرب الى الترجمة . وترجمت رسائل أخوان الصفا ، وهي إحدى وخمسون رسالة الى الفارسية لأحد وزراء تيمور^(٣). ولا نعدم ترجمات من الفارسية الى غير العربية ، إذ ترجمت كتب الهيئة الفارسية الى اليونانية في بيزنطة في القرن الثامن الهجري^(٤).

وأما الترجمات في أوربا فكثيرة ولاسيما كتب الفلسفة والعلوم والنصوص الدينية . وبعد حركة الإصلاح الديني وظهور المذهب البروتستانتي ظهرت في آفاق المعرفة الدينية سبل التيسير للعامة من الناس؛ فترجمت التوراة - مثلاً - الى اللغات العامية الشعبية " فتمكنت الشعوب الشمالية بفضل ذلك من قراءتها وتقديسها، وفتحت المدارس ، وانتشر تعلم القراءة، وأصبحت التوراة في جميع بلاد البروتستانت أساس آدابهم "^(٥). وأدت عوامل الثقافة

(١) انظر : تأريخ الحضارة الإسلامية : ١١٨ .

(٢) انظر: تأريخ الحضارة الإسلامية : ٨٥ .

(٣) انظر: تأريخ الحضارة الإسلامية : ٨٣ .

(٤) انظر: تأريخ الحضارة الإسلامية : ١٣٥ .

(٥) تكوين العقل الحديث : ٢٦٨/١ .

القومية وانتشار الكتب بعد اختراع الطباعة في أوروبا وترجمة التوراة الى اللغات أو اللهجات العامية الى توحيد اللهجات الأوروبية المختلفة بين مدينة وأخرى في (لغة واحدة) ، وتراجع الثقافة المسيحية اللاتينية وحلول اللغة الموحدة محلها، ولم تعد المعارف حكراً على اللاتينية . قال راندال موضحاً أبعاد القوى الثلاث المذكورة آنفاً: " ... لقد أدت هذه القوى الى نتيجتين : فهي من جهة قضت على الفوارق التي عرفتھا القرون الوسطى بين لهجة مدينة وأخرى تجاوزھا ، ومنعت التغير السريع الذي كان يتم باستمرار في لهجة يتحدث بها الناس من دون أن يكتبوها؛ فاللهجة التي كانت تختلف من قبل بين إمارة إقطاعية وأخرى - حتى أصبح اللجوء الى اللغة اللاتينية وسيلة للاتصال أمراً لا غنى عنه - والتي تطورت خلال السنوات الخمسين السابقة لاختراع الطباعة أكثر مما تغيرت خلال أربعمئة سنة بعد اختراعها، أصبحت الآن لغة واحدة ذات قواعد ثابتة في بلاد واسعة ، واستقرت فيها على أجيال. ومن جهة أخرى : تقطعت ثقافة العالم المسيحي اللاتينية ، لأن أبناء الأمة الواحدة أصبحت لهم الآن أداة موحدة للتعبير عن افكارهم وعواطفهم ، واكتسبوا مع الزمن أدباً شائعاً معروفاً بينهم ومُعَلِّقاً على جيرانهم " (١).

ودخلت في الصينية مصطلحات وألفاظ جديدة من السنسكريتية نتيجة للترجمة ، وربطت اللغة الصينية تلك المصطلحات والألفاظ بمفاهيمها في

(١) تكوين العقل الحديث : ٢٦٨/١ .

السنسكريتية ، واستعملت المفاهيم في تركيب بعض ألفاظها ، ومنها على سبيل المثال التعبير عن الماضي والحاضر والمستقبل، إذ تستعمل ألفاظ مكونة من عنصرين على النحو الآتي^(١):

- ١- (غو-كو) أي الماضي ٢- (كسيان - زاي) أي الحاضر ٣- (وي-لاي) أي المستقبل . ومعاني هذه الألفاظ على التوالي :
- ١- المرور / يذهب . ٢- الظاهر / كونه هناك . ٣- لم يأت/ بعد . وهذه المفاهيم مستمدة من السنسكريتية ، وهي على التوالي : ١- (آيتا) للماضي، بمعنى مَرَّ وانقضى . ٢- (باكوبانا) للحاضر ، بمعنى حاصل في الوقت الحاضر . ٣- (آناغاتا) للمستقبل ، بمعنى لم يأت بعد .

إن الصلة بين اللغة والكتابة صلة الروح بالجسد؛ فاللغة هي الروح، والكتابة هي الجسد ، ولغة الكلام والحديث لابد لها من التدوين، والتدوين لا يحصل إلا بالكتابة بغض النظر عن نوعها وكيفيةها سواء كانت صورية أو مقطعية أو هجائية. هذه الأمور من المسلمات ، والواضح الجلي أن اللغات القديمة التي عفا عنها الزمن ولم تكتب لها الاستمرارية عبر التاريخ كالمصرية القديمة ، والأكدية ، والفارسية القديمة ... الخ كانت عنوناً لاجتهاد علماء أوربا والغرب للكشف عنها ، وتبعاً لذلك خطوطها ، وأهمها: الهيروغليفية ، والمسمارية ؛ فعلماء الآثار مهدوا للعثور على نصوصها محفورة على

(١) انظر: إمبراطوريات الكلمة : ٢٣٢.

الأحجار أو مرقومة على الطين أو مكتوبة على الجلود وأوراق البردي أو غيرها من وسائل الكتابة .

وبدأت الكتابة في حضارة ما بين النهرين عند السومريين ، ولعلها أول كتابة أو من أوائل الكتابات في فجر الحضارات البشرية ، ومرت الكتابة السومرية في ثلاث مراحل ، الأولى : الكتابة الصوتية (أي التمثيل المنظور للناس والأشياء والأحداث والأفعال) ، والثانية : الكتابة الرمزية (أي الإشارات التقليدية) ، والثالثة : الكتابة نصف الصوتية أو نصف الفونيمية - إذا صح التعبير -) ، وهي مرحلة (كانت كتابتهم جمعاً غامضاً واعتباطياً من الفونيم والرمز) إذ لم يدركوا مرحلة الفونيم التام ^(١).

واستعمل السومريون - وخلفهم الأكديون (الآشوريون والبابليون) - الخط المصطلح عليه حديثاً عند علماء الآثار واللغات بـ (الخط المسماري) . قال موسكاتي : " ... وما لبث أن اتضح أن أرض الرافدين طبقت نظاماً واحداً للكتابة على لغتين مختلفتين تمام الاختلاف . لم تكن إحداها سامية وإنما كانت لغة السومريين ، وهم الشعب الذي كان يسكن البلاد في الألف الثالث قبل الميلاد ، وكانت الأخرى لغة البابليين والآشوريين " ^(٢).

وبعد اتخاذ الأكديين الخط المسماري في كتابة نصوصهم اضطروا الى إجراء تعديلات عليه ليلائم لغتهم السامية ، لأن الخط المسماري وجد في

(١) انظر: توينبي : تاريخ البشرية : ٧٨/١ .

(٢) الحضارات السامية القديمة : ٦٣ .

أصل وضعه السومري لكتابة لغة غير سامية ، ولذلك اختفت أصوات سامية الأصل لا وجود لها في اللغة السومرية ، ولا رموز لها مقابلة في الأكديّة كحروف الحلق والضاد والظاء ^(١)، ومن الطريف التنبيه على أن الأكديين استعانوا برموز وعلامات مقابلة للكلمات السومرية تقرأ بلغتهم ما دعا الى وضع معاجم لهذه الكلمات وعلاماتها المسمارية بما يرادفها من كلمات أكديّة في العهد البابلي القديم ، أي في الألف الثاني قبل الميلاد ^(٢).
والف البابليون نصوصاً مهمة بلغتهم اشتملت - فضلاً عن المعاجم اللغوية لشرح العلامات المسمارية ومرادفاتها البابلية - على مبادئ في نحو اللغة السومرية وما يقابلها من التراكيب اللغوية في اللغة البابلية ، وألفوا معجمات بأسماء النبات والحيوان وأسماء أشياء أخرى استدعت الحاجة الى شرحها وتوضيحها ^(٣).

وكانت الكتابة السومرية والأكديّة من سبل الثقافة العامة ، ولاسيما ثقافة الملوك والأمراء . ومن النصوص الثقافية الماثورة عن ملوك الآشوريين نص للملك الآشوري مؤسس المكتبة الطينية الكبيرة (آشور بانيبال) دَوّن فيه ما تعلمه من العلوم والفنون . قال : " حصلت على الفنون الخاصة بالآلهة ، واستقيت المعارف الخاصة بالكتب ، وحذقت آيات السماء والأرض

(١) انظر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ٣٨٩/١ .

(٢) انظر مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ٣٨٩/١ .

(٣) انظر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ٤٨٠/١ .

(نبوءات الفأل) ... ودرست ظواهر السماء ، واستطعت أن أحلّ قضايا عويصة في القسمة والضرب، واتقنت فنّ الكتابة السومرية ، والكتابة الأكديّة البالغة الصعوبة ... الخ " (١).

وتطورت الكتابة في وادي الرافدين وما حوالها من حيث أدواتها والمواد المكتوب عليها من النقش على الطين الى استعمال البردي (٢) والجلد المدبوغ . وكان للآراميين اليد الطولى في ذلك . ويستدل على هذا التطور بمدلول كلمة (كاتب) في الأكديّة، إذ ظهرت فيها كلمة جديدة هي: (سبيرو) ومعناها الكاتب بدلاً من الكلمة القديمة : (طوبسارو) التي تعني الناقد على الطين ، " وهي كلمة تعود تماماً الى الكلمة السومرية القديمة: (دوبسارو) (٣) . وانتشر نظام الكتابة السومري والأكدي بالخط المسماري في بلاد سومر وأكد في الألف الثاني قبل الميلاد ، حتى بلغ جيرانهم من العيلاميين على الرغم من أن العيلاميين كانت لهم كتابة مستقلة ، ولكن الأكديّة بفرعيها البابلي والآشوري أضحت لغة للعلاقات الدبلوماسية المشتركة للبلدان في هذه المنطقة وما جاورها" (٤).

(١) مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٥٨٧/١ .

(٢) البرديّ : " نبات كالقصب تُصنع منه الحُصُر . كان القدماء يتخذون من قشّره

ورقاً يكتبون عليه" . جبران مسعود : الرائد : ٣١٦ .

(٣) إمبراطوريات الكلمة : ١١٢ .

(٤) انظر : إمبراطوريات الكلمة : ٧ .

إن الحضارة الفرعونية المصرية القديمة قد ظهرت معاصرة لحضارة وادي الرافدين واختلف العلماء والباحثون في هذا المجال في أيهما أسبق ظهوراً؟ فذهبت جماعة الى أن الحضارة الفرعونية هي أسبق، في حين رأى باحثون آخرون عكس ذلك ، وانفردت طائفة من الباحثين الى أنهما ظهرتتا متعاصرتين، ولكن ثمة إشارات ودلائل عند عدد لا بأس به من كبار علماء التاريخ كتوينبي وغيره تفيد أسبقية حضارة وادي الرافدين ، ومن جملة ذلك ما أجمع عليه علماء المصريات - كما ذكر توينبي ^(١) - من (تتبع الأثر السومري في المدنية المصرية الفرعونية) ، واستدلوا على ذلك بثلاثة أمور ، الأول : ختم النصوص ولاسيما المهمة منها كالرسائل الرسمية والعهود والمواثيق بوسيلة أشبه بما كان يستعمله السومريون ، أي باتخاذ أسطوانة تحفر عليها صور ، ثم تمرر على ما يراد ختمه بعد صبغها بما يشبه الحبر. وكان السومريون وتبعهم فيما بعد الأكديون يستعملون الأسطوانة المحفور عليها بالخط المسماري ، ثم يطبعونها على ألواح الطين. والأمر الثاني : استعمال الآجر في البناء، إذ كان المعروف في الحضارة الفرعونية استعمال الحجر ، وآلاف الشواهد الأثرية تدل على ذلك . والأمر الثالث : تقليد بناء السفن السومرية .

(١) تاريخ البشرية : ٨٢/١ .

وربما كان الخط الهيروغليفي^(١) من أهم الشواهد على تأثر الحضارة الفرعونية بالحضارة السومرية . والخط الهيروغليفي خط مقدس عند الفراعنة ، ويعد من أقدم الخطوط المصرية ، وظل قيد الاستعمال زمناً طويلاً امتد من أقدم أطواره في سنة (٢٩٠٠ ق.م) الى ما يقرب من سنة (١٠٠ ق.م) ، واستعمل قليلاً بعد هذا التاريخ الى أن بطل استعماله وانقرض في القرن الثالث الميلادي^(٢).

وذكر توينبي أن أقوى دليل على التأثير السومري في الحضارة الفرعونية هو الكتابة التي ظهرت فجأة من غير سابقة تطور وتغيير كما حصل للكتابة السومرية من الصوتية الى الرمزية، ومن ثم الى خليط رمزي (فونيمي) كما سبقت الإشارة الى ذلك . قال : " ... تشير الدلائل على أن الأثر السومري المعاصر كان موجوداً في الوقت الذي كانت فيه الكتابة المصرية قد ظهرت فجأة ، على عكس ما عرفناه من تطور الكتابة السومرية التدريجي من السابقة الصورية ؛ فالتركيب السومري للكتابة المصرية إذا

(١) إن مصطلح هيروغليفي (Hieroglyphic) مأخوذ من كلمة يونانية مركبة من كلمتين : hieros = مقدس + glyphein = حَفَرَ أو نَقَشَ (انظر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ٤١/٢ (الحاشية) .

(٢) انظر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ١٤١/٢ ، ١٤٢ .

قرن بظهورها المفاجئ هو أقوى دليل منفرد يشير الى أن التأثير السومري كان أحد العوامل التي أدت الى ولادة المدنية المصرية الفرعونية " (١). وربط البابليون والاشوريون بين الأعداد والعلامات المسمارية ، وعبروا عن كل علامة بعدد الأعداد. وهذه من جملة المسائل الغامضة في تاريخهم، ولا يعرف على وجه التحقيق واليقين أو على وجه الاحتمال المرجح ما السبب في الربط العددي؟ فهل كان السبب هو الاختصار؟ وهل هو تضمين الأعداد معنى لغوياً غير دلالتها الحسابية ؟ وهل تتضمن الأعداد رموزاً دينية؟ وهل هي ضرب من التجسيم الذي اشتهرت به بابل وعمل عليه البابليون؟ ... هذه الأسئلة وغيرها مدعاة للبحث في هذه الظاهرة، ولاسيما دلالتها الباطنية المرتبطة بالأفلاك والنجوم، وصلتها بحياة الإنسان ومصيره، أو بالظواهر الطبيعية ، وربما صلتها بالآلهة.

نعلم جيداً صحة ارتباط الأبجدية السامية بالأعداد في المعارف الفلكية والتنجيمية عند المسلمين بما يسمى (حساب الجُمَّل) ، وهو حساب يضع لكل حرف عدداً من الأعداد العشرية والمئوية على الترتيب التصاعدي حتى يصل الى الألف، وغالباً ما يستعمل هذا النظام في الكشف عن البروج الفلكية لطالع الإنسان؛ فيؤخذ - على سبيل المثال - اسم الشخص واسم أمه لا أبيه، ويحسب بحساب الجُمَّل ثم يطرح من المجموع على التوالي العدد (١٢) ، أي يقسم المجموع على اثني عشر برجاً فلكياً وهي عدد

(١) تاريخ البشرية : ٨٢/١ ، ٨٣ .

البروج المصطلح عليها وما فضل من القسمة من العدد (١٢) وما دونه يكون برج ذلك الشخص ، ومن ثم يعرف طالع.

والسؤال المهم هو مدى ارتباط هذه المسألة بالأصول التاريخية القديمة ولاسيما البابلية . لقد رجح (كونتينو) أن هدف البابليين والآشوريين من الربط العددي للعلامات اللغوية هو " أن يكون كل اسم قابلاً للتعبير عنه بالأعداد " ^(١)، ويفهم من كلامه أن الربط كان لغاية الاختصار والحفظ والتأمين ، واستشهد على ذلك بنصين ، أحدهما يعود الى سرجون أثناء بناء قصره في (خرسباد) ، ويشتمل هذا النص على علاقة بينه وبين سور القصر الذي يمكن الدفاع عنه. والنص كما يأتي : " لقد بنيت السور وجعلت محيطه (١٦٢٨٣) ذراعاً، وهو العدد الدال على اسمي".

والنص الآخر يتضمن تعظيماً للإلهة (عشتار) ، ويعود تأريخه الى العهد السلوقي، واشتمل على أعداد لاسم صاحب اللوح المكتوب واسم والده كما يأتي: " ٢-٣٥-٢٤-٤٤ (ابن) ٢٥-١١-٢٠-٤٢) .

وانتهى كونتينو الى ان البابليين والآشوريين اعتقدوا أن للأعداد سلطاناً تبعاً لسلطان الأسماء ما أدى الى أن تكتسب صفة مقدسة، وعبر عن هذا المعنى بقوله : " يعد سلطان الأعداد نتيجة طبيعية لسلطان الاسم. وكانت الأعداد وسيلة من وسائل التعبير فتقتضي صفاتها الخاصة بها على الشيء الذي ترتبط به، وبسبب من خاصية الأعداد الملازمة لها، والتي تؤلف

(١) الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور : ٢٨٤.

مجموعة متنوعة غير منتهية ، وبسبب إمكانية الوصول الى نتيجة عددية واحدة بطرائق حسابية مختلفة ، نقول : بسبب ذلك كله كادت الأعداد تكتسب الصفة المقدسة التي أدت الى اعتبارها أحد أنواع اللغة القادرة على التعبير عن كل فكرة" ^(١)، وكأن اللغة لها صفة رياضية تتمثل بالأعداد .

والمرجح عند الباحثين أن نظام الأبجدية ، أي نظام الحروف (الوحدات الصوتية) يعود الى أصول كنعانية (= فينيقية) ^(٢)، ويُعدّ اختراع الأبجدية عند شعوب بلاد الشام (سوريا وفلسطين) من أهم منجزات الحضارة البشرية بعد أن مرّ تأريخ الكتابة بسلسلة من المراحل (الصورية ← العلامات ← الصرفية المقطعية ← الصوتية الرمزية) ، وانتقلت الأبجدية من بلاد الفينيقيين الى لغات العالم القديم الأساسية (اللغات السامية وما جاورها ، والإغريقية ، واللاتينية ... الخ) .

ويرى بعض الباحثين في تأريخ اللغات أن أساس الأبجدية الفينيقية - وهم كنعانيون استوطنوا الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط من بلاد الشام الكبرى - هو ما وجد من رموز في ناووس (إحيرام) ^(٣) ملك صيدا في

(١) الحياة اليومية في بلاد بابل وأشور : ٢٨٤ .

(٢) انظر: الحضارات السامية القديمة : ١٢٠ .

(٣) "الناووس والناؤوس : مقبرة النصارى ... ويطلق الناووس أيضاً على تابوت من حجر ونحوه تجعل فيه جُثّة الميت" محيط المحيط : ٩٢٣ . والمعنى الأخير هو المقصود.

منطقة (جُبَيْل) على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، إذ استعمل في الكتابة على غطاء قبره اثنان وعشرون رمزاً يقابل اثنين وعشرين حرفاً صحيحاً . ولا يرتقي قبر إحيرام الى ما بعد آخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وكان التطور المهم الذي أدى الى هذه النتيجة كما يراها هؤلاء الباحثون هو الكتابة (الأوغاريتية) المكتشفة في منطقة أوغاريت (رأس شمرا) في بلاد الشام؛ فقد اكتشفت هذه الكتابة التي ترتقي الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، واشتملت على ثلاثين رمزاً مسمارياً يمثل كل واحد من الرموز حرفاً صحيحاً^(١).

والنتيجة المستفادة من آراء جمهرة الباحثين وعلماء تأريخ اللغات أن الأبجدية الفينيقية أساس الأبجديات في لغات العالم الأساسية. وتوغلت الآرامية بخطها الميسر في بلاد الرافدين بين البابليين والآشوريين، وأخذت تتنازع الخط المسماري المعقد على مرور الزمن حتى حلت مع خطها محل اللغتين البابلية والآشورية في الاستعمال. وما يدل على بدء شيوعها العثور على عدد كبير من العقود والإيصالات والمثاقيل المنقوش عليها بالخط الآرامي^(٢).

ومن المشاكل التي واجهت أغلب اللغات السامية القديمة أنها كانت خالية من الشكل أي (الحركات) طويلة كانت أو قصيرة، مع وجود الأصوات

(١) انظر: تأريخ الحضارات العام : ٢٦١/١ .

(٢) انظر: الحضارات السامية القديمة : ٤٤ .

الصائنة التي تؤلف بنية صرفية مهمة فيها كاللغة العربية مثلاً . واستثنت من ذلك نصوص دينية يعول على نطق ألفاظها نطقاً صحيحاً كالتوراة والقرآن الكريم بعد عهد الرسول الأكرم (ص). وكانت الحركات في اللغات السامية تعتمد على استنباط القارئ لها^(١)، أي تعتمد على الملكة اللغوية . ويجب التنبيه على أن وضع الشكل (الحركات) ، والإعجام (النقط) في ألفاظ النص القرآني جاء متأخراً في القرن الأول الهجري، وتبعاً لذلك نصوص الحروف العربية ، ويعد هذا الأمر من أكثر الأمور أهمية في تأريخ الخط العربي وتطوره. وبقي الالتزام بكامل الشكل مع الإعجام سائراً في مخطوطات القرآن الكريم ، وبعد ذلك في مطبوعاته، تضاف الى ذلك نصوص دينية مهمة كالأحاديث النبوية الشريفة زيادة في ضبط الألفاظ. وأما النصوص العربية ما خلال المعجمات وكتب اللغة فلا تستعمل فيها الحركات استعمالاً كاملاً إلا في موارد بعض الألفاظ التي يشكل نطقها نطقاً صحيحاً على غير المطلع .

ومن الطريف الاطلاع على أن الخط السرياني قد ابتعد كثيراً عن مواطنه الأصلية حتى بلغ أقصى شرق آسيا، وهو دليل على أهمية الحضارة السريانية وانتشارها الواسع. ويذكر بهذا الصدد نقش من النقوش الصينية القديمة في بكين يعود الى عهد أسرة (مانشو) ، وهو نص كتب بلغات

(١) انظر: الحضارات السامية القديمة : ١٨٠ .

ثلاث ، وترى فيه المانشوية الصينية ، والمغولية مكتوبة (بالصورة السريانية لحروفنا الأبجدية وبالحروف الصينية)^(١).

ويبدو أن الصينيين وغيرهم في مناطق شرق آسيا وجنوبها وما حواليتها كاليابان وكوريا قد عانوا من صعوبة الكتابة بخطوطهم كما عانى منها أصحاب الخط المسماري في غرب آسيا. والعجيب لمن يمعن النظر في الخط الصيني أن يرى وجه التشابه والتشابه بينه وبين الخط المسماري. وهذا محور مهم جداً في تأريخ الكتابة فهل تلقف الصينيون أثراً بالغاً من أصحاب (المسماريات)؟!

وتفيد بعض الدراسات أن الإغريق لم يكتفوا باقتباس حروف الهجاء من الفينيقيين وإدخال الحروف التي لا نظير لها في الأصول الفينيقية بل أخذوا منهم أيضاً صناعة الورق ^(٢)، وهي صناعة تعزى قديماً الى الصينيين ، ومن الصين انتشرت في غرب آسيا وعبرت الى غرب البحر الأبيض المتوسط .

واقتبس الرومان حروفهم الهجائية في القرن الرابع قبل الميلاد من الخط الإغريقي، فتكون الأبجدية الفينيقية انتقلت إليهم عن طريق الإغريق^(٣).

(١) انظر: توينبي : الحضارة في الميزان : ٢١٤ .

(٢) انظر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٥٨١/٢ .

(٣) انظر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٦٦١/٢ .

ومن الجدير بالملاحظة في الأدبين اليوناني والروماني أن وظيفة الكلمة المكتوبة و (الكتاب) كانتا تدلان على خلاف ما يتبادر الى الذهن في أول وهلة؛ فقد كانت الكلمة المكتوبة عندهما تعني (المذكرة) ، أي ما يُذكر الإنسان في استحضار الكلمات التي يريدُها، وكذلك مفهوم الكتاب. ونقل المؤرخ البريطاني توينبي عن (غلبرت مري) قوله في كتابه المعنون بـ (دراسات يونانية - مقدمة لدراسة الأدب اليوناني ^(١)): " إن وظيفة الكلمة المكتوبة في العالم اليوناني / الروماني لم تكن تختلف عن المذكرة المكتوبة التي يطلب الى المتحدث في دار الإذاعة أن يضعها أمامه عند التحدث في المذيع؛ فكان الكتاب اليوناني / الروماني في الواقع كمذكرة المذيع اليوم أداة لمساعدة الذاكرة على استحضار الكلمات التي لا تحضره بدونها. ولم يكن كتاباً مُعدّاً للقراءة بالمعنى الذي نفهمه نحن من هذا اللفظ شبيهاً بالكتاب المعتاد المطبوع الذي تخرجه دور النشر في هذه الأيام " ^(٢).

وتعود نشأة الحروف السنسكريتية الى الشرق الأدنى ، وهو ما يستدل به على التأثير الحضاري لهذه المنطقة في الحضارة الهندية ^(٣).

وبتأثير من النص القرآني انتشرت الأبجدية العربية في البلدان التي شاع فيها اعتناق الإسلام؛ فحيثما وجد الإسلام والمسلمون وجدت الأبجدية

(١) طبع أكسفورد سنة ١٩٤٦م.

(٢) الحضارة في الميزان : ٦٤ .

(٣) انظر: تأريخ الحضارة الإسلامية : ٤٠ .

العربية ، وطبقت على لغات ليست من أصول سامية كالفارسية والتركية والكشميرية والبربرية والصومالية والهوسا والسواحيلية ولغة الملايو والإسبانية والصربية والكرواتية^(١).

وجاء الأخذ بالأبجدية العربية عند الأتراك متأخراً؛ فقط انتقلت إليهم عن طريق الفرس في القرن الحادي عشر الميلادي^(٢).

ومما له صلة بالأبجدية والخط أدوات الكتابة، وأهميتها في حفظ النصوص المهمة والعهود والمواثيق وديمومتها. وكان البرديّ هو الوسيلة القديمة لتدوين السجلات الإدارية والأدبية، وبخاصة في الحضارة المصرية القديمة ، لأن البرديّ يتحمل البقاء مدة زمنية طويلة في ظروف مناخية حارة وجافة، ولا يحتاج الى استنساخه من جديد .

وأما المواد الأخرى المستعملة فلا تتصف بالديمومة والبقاء كالحجر والعاج والطين والورق المجلوب أصلاً من الصين القديمة، وكان يعاد استنساخها مراراً للحفاظ على ما كتب عليها، كما يلاحظ في النصوص اليونانية واللاتينية والعبرية في أواخر العصور القديمة، وفي العصور الوسطى^(٣)، ولاشك في أن ذلك كان يعتمد على أهمية النص.

(١) انظر: إمبراطوريات الكلمة : ١٥١.

(٢) انظر: إمبراطوريات الكلمة : ١٦٥ .

(٣) انظر: إمبراطوريات الكلمة : ١٢٦.

وكانت الكتابة على الطين سمة بارزة من سمات حضارة وادي الرافدين، وهي حضارة يمكن وصفها بأنها حضارة (طينية)، على خلاف الحضارة المصرية التي استعملت ورق البردي والنقش على الحجر، ولكن النقش على الحجر عرف أيضاً في بلاد وادي الرافدين وأغلب الحضارات القديمة في شرق البحر الأبيض المتوسط وأواسط آسيا وشرقها.

ومن جملة مواد الكتابة الجلود، وأكتاف الحيوان ، ولأسيما أكتاف الإبل، وألواح الحجر. ويبقى للورق والبرديّ والحجر أهميته الخاصة الشائعة. ومن المسائل اللغوية الطريفة المرتبطة بورق البردي صلة كلمة الكتاب المقدس (Bibel) بالإغريقية وباسم مدينة (جُبَيْل) في لبنان الحديثة؛ فاسم الكتاب في الإغريقية هو (ببيليوس) ، وهي كلمة مأخوذة من اسم مدينة جبيل الفينيقية باليونانية : (ببيليوس) ، ولما كان ورق البردي عند الإغريق يجلب من هذه المدينة أطلقت فيما بعد كلمة (ببيليوس) على الكتاب المقدس، واختصت به بعد قيام الحضارة المسيحية؛ فكلمة (Bibel) الحديثة المستعملة في الانكليزية واللغات الأوربية الأخرى هي من أصل يوناني ^(١).

(١) انظر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ١٤٦/٢.

المبحث الثاني

الرمز والأسطورة

صلة الرمز بالأسطورة تكاد تكون صلة تكاملية ، بمعنى أن أحدهما يكمل الآخر للدلالة على الشيء المنشود من استعمال الرمز والأسطورة. وهما رديفان مرتبطان بالإيحاء، ولذلك توجه هذا المبحث الى الجمع بينهما . ويقتضي التقسيم المنهجي أن يقسم المبحث على قسمين ، الأول : يختص بالرمز ، والآخر: يختص بالأسطورة ، على أن يشار الى صلة أحدهما بالآخر في الموارد التي تستدعي ذلك.

القسم الأول : (الرمز)

تطلق على علم الرموز أو العلامات من حيث الاصطلاح كلمة (Semiology) ^(١)، وهي كلمة مشتقة في الأصل من الكلمة اليونانية (Semeion) ^(٢) بمعنى العلامة. والعلامات عند اللغوي السويسري (دو سويسير) تتسع لعلم أوسع أطلق عليه (علم العلامات) ، ويشتمل على اللغة ، وفي مفهومه (سنة ١٩١٣م) أن اللغة (نظام من العلامات System of

(١) محمد علي الخولي: معجم علم اللغة النظري : ١٢٨ ، وسامي حنا وآخرون: معجم اللسانيات الحديثة : ١٢٨ .

(٢) انظر في هذا المصطلح وما يليه من المصطلحات : معجم اللسانيات الحديثة: ١٢٨ .

(signs) يُعبّر عن أفكار المجتمع ، وهو بهذا التصور جعلها ضمن مجموعة أخرى من الأنظمة الاجتماعية المعبرة عن التواصل، والتي تشتمل على أنظمة غير كلامية (Non- verbal signs system) كالإشارات الجسمانية، ونظام الطعام والملابس ، والأعلام، والإشارات البحرية ، واستعمال النار والدخان عند بعض الأمم ولاسيما البدائية منها ... الخ .

والجامع لذلك كله (علم العلامات) أو الرموز . وتخضع الأنظمة المذكورة آنفاً ونظائرها للمواضعة الاجتماعية ، أي اتفاق الجماعة عليها و "تعمل متضافرة تارة ومستقلة تارة أخرى من خلال السياق الثقافي لكل مجتمع" .

وعلى خلاف النظرية السابقة رأى بعض المعنيين بهذا الشأن كالأنثروبولوجي الأمريكي بيرد يوستل (Bird Whistell) ، والناقد الفرنسي رولان بارت (Roland Barthes) أن علم العلامات يعد فرعاً تابعاً لعلم اللغة (اللسانيات) للتشابه الكبير بين أنظمة العلامات التي يعرفها مجتمع ما وأنظمة اللغات.

وذهبوا الى أبعد من ذلك في جعلهم أنظمة العلامات (لغات وإن اختلفت مادتها) ، أي تركيبها وتشكيلها . ويشار بهذا الصدد الى مصطلح آخر شائع في الدراسات اللغوية الأمريكية وهو (Semiotics) ، ويعود هذا المصطلح الى الفيلسوف الأمريكي تشارلز بيرس (C. S Peirce) إذ دعا الى نظرية عامة في العلامات أطلق عليها المصطلح المذكور آنفاً. وقد تزامن المصطلحان لدى سوسير وبيرس من حيث الاستعمال في أوروبا

وأمریکا. ويمكننا أن نجد جوهر الخلاف في مدلوليهما من حيث (تأكيد الوظيفة الاجتماعية) للعلامة عند دي سوسير وأتباعه، في حين يؤكد بيرس وأتباعه الوظيفة المنطقية لها. وفي مفهوم بيرس يطلق (علم الرموز) (Semiotics) على العلم الذي " يبحث في الرموز اللغوية وغير اللغوية" (١) .

وعادة ما يستعمل مصطلح الرمزية (Symbolism) عند بعض الدارسين للدلالة على اللغة لأنها "رموز لأشياء أو أشخاص أو أفكار أو أعمال" (٢) وعلى مدى اتساع (علم العلامات) ليشمل اللغة وأنظمة أخرى تواصلية يظهر لنا مصطلح مركب آخر هو (Non- verbal communication) أي التواصل غير اللغوي، ويعزز هذا المصطلح المذهب القائل بعمومية (علم العلامات) ليتجاوز اللغة الى أي ضرب من ضروب التواصل السلوكي عند الإنسان كالتعبير الصوتي المتمثل بنغمات الصوت وإيقاع النطق وسرعته، ودرجة الصوت من حيث الارتفاع والانخفاض والرقعة والغلظ، والهيئة الجسمية في التواصل ، والتجاوز أو التقارب بين المتكلمين (٣) ... الخ من القضايا التي لا علاقة لها مباشرة بـ (شكل اللغة) .

١ - معجم علم اللغة النظري : ٢٥٢.

٢ - معجم علم اللغة النظري : ٢٧٧.

٣ - انظر: معجم اللسانيات الحديثة : ٩٤.

وبعد هذا العرض الموجز لمفهوم العلامات والرموز وصلتها باللغة ينبغي الالتفات الى جملة من الملاحظات المهمة كما يأتي:

١- إن مهمة اللغة من حيث كونها مجموعة من الرموز اللفظية المتعارف عليها في مجتمع ما لا يمكن حصرها بالتواصل الاجتماعي فقط كما ذهب إليه دي سوسير ومدرسته الوصفية؛ فمهمة اللغة تتسع للتواصل العقلي والفكري والمنطقي والنفسي والحضاري بمقاييس الحضارة المعروفة، وغيرها من أنواع التواصل عند الإنسان فرداً وجماعة. وجماع هذا التواصل بأنواعه يمكن أن يختصر بـ(الظاهرة اللغوية) و (الأداء اللغوي) .

٢- إن اللغة ظاهرة فريدة منذ نشأة البشرية ، أو قل منذ نشأة الجيل الأخير منها؛ فنحن لا نعلم علم اليقين متى نشأت اللغة، وكيف نشأت ، ولكننا نعلم بما أتيح لنا من مصادر التاريخ المتنوعة كيف تطورت وتغيرت عبر أجيال منذ اختراع الكتابة وفجر الحضارات الإنسانية المدونة أي ما يصطلح عليه بـ (ما بعد التاريخ) لا ما قبله.

وهذه الظاهرة الفريدة هي قمة السلوك التواصلية عند الإنسان، وهي ظاهرة معقدة متشابكة الأطراف تتداخل فيها علوم متعددة كالفيزياء والتشريح وعلم الأعضاء البشرية والطاقة الذهنية والعقلية والملكة المنطقية والعوامل السلوكية النفسية... الخ صهرت كلها في بوتقة واحدة هي (اللغة) .

٣- وبناءً على ما تقدم ذكره لا يمكن الاطمئنان الى أن اللغة جزء من علم العلامات العام، أو أن علم العلامات العام هو جزء منها؛ فهي منفردة عن ذلك كله لا يمكن وصفها وصفاً دقيقاً إلا بكونها (لغة) . وبذلك تختلف من حيث التركيب والأداء عن باقي العلامات والإشارات المرئية والمسموعة.

ويختلف مفهوم الرمزية في الدراسات الأنثروبولوجية بحسب اختلاف المدارس والمذاهب ، ويبدو أن الاختلاف كبير من حيث (تطبيقها على بعض الجوانب الخاصة بالنشاط الرمزي)^(١) ، فهي تعني على نحو عام كل ثقافة باعتبار الصفة الثقافية لها؛ (فكل ثقافة تعد نظاماً رمزياً) ، وبهذا تبتعد الرمزية عن مجالها الخاص بالبحث الأنثروبولوجي.

وتدل صفة الرمزية في المدرسة الأنثروبولوجية الفرنسية على معنيين خاص وعام؛ فالمعنى الخاص ينصرف الى "الأعمال الثقافية التي تتميز بقيمة تعبيرية كالأساطير والشعائر والمعتقدات" ، والمعنى العام ينصرف الى "التطور التدريجي لتكوين حالة الثقافة التي تعني إضفاء معنى على الحياة" .^(٢)

ويمكن أن نستنتج مما تقدم ذكره المعنى المقصود بالرمز في هذا المبحث على أنه : (إشارة تعبيرية الى الشيء تتضمن معنى اجتماعياً وثقافياً) .

١ - انظر: بونت وإيزار وآخرين : معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا: ٥٠٤ .

٢ - معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا: ٥٠٣ .

وبحسب هذا المفهوم اختلفت الغايات من الرموز عند المفكرين والفلاسفة، ولكنها تجتمع عند غاية واحدة عامة هي التعبير غير المباشر عن معنى اجتماعي وثقافي وما يتفرع منهما؛ فالرموز مثلاً عند توما الأكويني - وهو من الفلاسفة المدرسين اللاهوتيين - له قيمة ذاتية في المسائل الإيمانية وغيرها من حيث تحديد فعل المؤمن بتحديد الحقيقة نفسها لا بما يتوقف على ما يعبر عنه بالرمز. قال : "في الرمز كما تبينه طريقة الكلام نسعة لبلوغ المسائل الإيمانية بالشكل الذي يتحدد فيه فعل المؤمن، إذ لا يتوقف فعل المؤمن عند المُعبر عنه، ولكن يتحدد بالحقيقة نفسها؛ فنحن لا نصوغ إيضاحات إلا لأجل إحداث معرفة بوقائع معينة، سواء في أمور الإيمان أو العلم على حدّ سواء" (١)

وعبر القديس أوغسطين عن الرمز بأنه استدلال للفكر على ظاهر الكلام المحسوس ، فقال : "الرمز هو مُعطى ، فضلاً عن الظاهر الذي يجلبه أمام حواسنا يجلب للفكر أمراً مغايراً كأثر الحافر الذي يُعلمنا بمرور الحيوان" (٢)

وذهب (غوتيه) الفيلسوف والمفكر والأديب الألماني المعروف الى معنى قريب مما ذهب إليه القديس أوغسطين؛ فالرمزية عنده عبارة عن ظاهرة تتحول الى فكرة، ومن ثم الى صورة لتبقى في داخلها الفكرة مستديمة. قال:

١ - مسلان : علم الأديان : ٢٤٨.

٢ - علم الأديان : ٢٤٧.

"الرمزية تحول الظاهرة الى فكرة، والتي تتحول بدورها الى صورة، على نحو تبقى معه الفكرة ناشطة دائماً داخل الصورة، ومنيعة وحيّة الى ما لا نهاية، وحتى إذا ما فسرت الفكرة بكل اللغات فهي تبقى متعذرة البيان" . (١)

لذلك ربطها بالمجاز لكي تتحول الظاهرة المرئية الى مفهوم مدرك ومحدد وموضح بالصورة؛ قال : المجاز " يحول الظاهرة المرئية الى مفهوم، والمفهوم الى صورة ، ولكن بشكل يبقى المفهوم دائماً محدداً بالصورة، خليقاً بأن يكون مدركاً كلياً ومحدداً وموضّحاً بشكل كلي بتلك الصورة".

وعبر (مسلان) عن القيمة الذاتية للرمز بقوله: " ... فهو يمتلك قيمة ذاتية لا نمط كلام، وهو واقعة حاصلة بفعل التماثل بين الشكل والمضمون، بين ما له تجلّ عينيّ وبين ما يشكل جوهر الكائنات والأشياء" . (٢)

والرمزية عند مسلان تجاوز للظاهر المادي الى المدلول المعنوي. قال :

"أقول بوعي : إن الرمزية هي المقدرة التي يمتلكها الإنسان لتجاوز الظاهر المادي للأشياء". (٣)

١ - علم الأديان : ٢٤٨ .

٢ - علم الأديان: ٢٤٨ .

٣ - علم الأديان : ٢٤٧ .

ومن مسلمات الرمز من حيث المدلول ارتباطه بالجماعة، أي بالبيئة الاجتماعية، وليس له "قيمة فعلية إلا إذا كان مفهوماً ومُدركاً من جانب جماعة بشرية بمجملها".^(١)

وللرمز قوة جاذبة تستولي على روح الإنسان وتجذبه الى حيث ما يريد، وكأنها قوة مرئية. قال كروز : " يجعل الرمز بشكل ما حتى الإلهي مرئياً... فهو يجلب إليه بقوة فائقة الإنسان الذي يعانيه ويستولي على روحه كأنه الأمر المدبر لشأن العالم".^(٢)

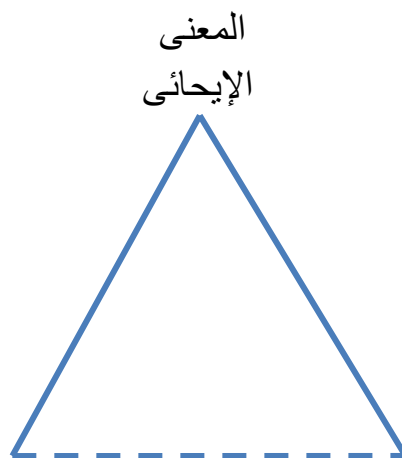
وتتصف بعض الرموز بثبات دلالاتها العرفية كاللون الأحمر. قال لاينز : "... أما العَلَمُ الأحمر فيمثل علامة عرفية للخطر، فهو رمز ثابت حضارياً".^(٣)

والمعنى الإيحائي للرمز سبيل دلالاته، ولذلك توصف صلة (الرمز) ب (الرموز إليه) بأنها صلة غير مباشرة تكونت عن طريق المعنى الإيحائي للرمز. وفي المخطط الآتي توضيح للمراد :

١ - علم الأيدان: ٢٤٦.

٢ - علم الأديان: ٢٤٧.

٣ - اللغة والمعنى والسياق: ١٤.



الرمز (=)
كلمة أو

المرموز إليه (في عالم الطبيعة والمادة أو
فى عالم العقل والذهن) أي المعنى المادي

ونستنتج من هذا المخطط أن علاقة الرمز بالمرموز إليه علاقة غير مباشرة ،
إذ تكون الصلة بينهما عن طريق المعنى الإيحائي للرمز .
إن صلة الرمز بالحضارة واضحة جلية لا تحتاج الى إثبات ما دام الرمز
يعبر عن فكرة، والفكرة نتاج المواضعة الاجتماعية أو الانبعاث النفسي.
وحرى بالقول إن الرمز تعبير إيحائي خفي لثقافات الأمم، وله قابلية
الاستيعاب الجمعي، وفي بعض الأمثلة يتجاوز بيئته الاجتماعية ليتصف
بالعالمية كما هو مشاهد وملحوظ في عصرنا هذا في أنظمة العلامات
والإشارات ذات البعد العالمي.
وفيما يأتي أمثلة مختارة للرموز وما ترمز إليه موزعة بحسب الموضوعات:

١- الرموز الدينية (*): كثرت الرموز الدينية في الديانات الوضعية ، وتكاد تكون الديانات هذه ذات صلة رمزية ملازمة لعقائدها. ومن نافلة القول أن تكون الحضارات القديمة ولاسيما الكبيرة منها كحضارة وادي الرافدين وبلاد الشام والحضارة المصرية الفرعونية وحضارات بلاد فارس والهند والصين واليونان والرومان ذات صلة رمزية في كثير من طقوسها التعبدية وعقائدها الدنيوية وما له صلة بما وراء الطبيعة. واغلب تلك الرموز عسية على الفهم ما لم ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعقيدة وفهم الجماعة لها في (إطارها) الزماني والمكاني وثبت في البحث الأنثروبولوجي والميثولوجي أن إنسان ما قبل التأريخ والحضارة كان يعيش ضمن وهم الرموز، وقد دل على ذلك ما تركه من آثار كالنقوش في الكهوف، وعبادة عظام الموتى وترتيبها على هيئة كتل أو ركان، وجعلها في مستودعات متراكمة أو في تجاويف، وزخرفتها والطقوس الجنائزية كعبادة الفكوك السفلى والجماجم المنعزلة، واستعمال الأصباغ والمتحجرات والصدف والتماثيل الصغيرة والعصي المثقوبة... الخ مما

* انظر في الرموز الدينية والسحر وصلته بالعقائد الدينية والطب : فرايزر (جيمس جورج) : الغصن الذهبي - دراسة في السحر والدين ، ترجمة نايف الخوص - دار الفرقد - دمشق (٢٠١٤م) ، ومونتاغيو (أشلي) : البدائية ، ترجمة محمد عصفور سلسلة عالم المعرفة - الكويت (١٩٨٢م) ، وأسامة عدنان يحيى : السحر والطب في الحضارات القديمة - دار آشور للنشر - بغداد (٢٠٢٠م).

عرف اصطلاحاً في البحث بـ (أديان ما قبل التأريخ)^(١) . ومن أمثلة الرموز في حضارة وادي الرافدين صلة الإلهة (عشتار) بالدورة الطبيعية لحياة النبات؛ فقد ارتبط خصب الأرض بهذه الإلهة، ولذلك عدت رمزاً الى (الأرض الأم) .^(٢)

وكان السومريون يعبدون إشكور (Ishkur)، وهو إله العاصفة والبرق والرعد، أي إله ثلاث ظاهرات طبيعية سماوية ، ويقابله الإله (أدد) عند الأكديين، وهذان الإلهان من الآلهة القديمة . وكان الأكديون يرمزون الى أدد في كتاباتهم بالرمز (IM) ويعني الريح، ويرمز أيضاً الى الآلهة الأجنبية التي تطلق في مواطن عبادتها على العاصفة والريح، مثل بُرياش (Buriash) عند الكاشيين، وتِشوب (Teshub) عند الحوريين، و(بعل) عند الكنعانيين، و (هؤد) عند الآراميين وأهل أوغاريت.^(٣)

وثمة آلهة عديدة لدى السومريين والأكديين لها رموز مختلفة؛ فالإله (أدد) يرمز أيضاً فضلاً عن الريح والعاصفة الى (الفِضة) لونه الفضي، ويرمز الماء المقدس (أغابو) الى شجرة الطرفاء، وهي عندهم ملكة التعاويذ،

١ - انظر في ذلك كتاب (أديان ما قبل التأريخ) تأليف أندريه لوروا - غوران ، وترجمة سعاد حرب - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.

٢ - الحضارات السامية القديمة : ٧٥.

٣ - انظر: الحضارات السامية القديمة : ٢٥٧ (حواشي د. بكر).

ويرمز (أنو) "الى إكليل النخلة، و(تموز) الى القصبه، و (ننورتا) الى شجرة الأرز... ، والذهب هو الشمس (للونها)، والنحاس هو (أيا) ، والرصاص هو (نينماه) ، والمجرّة هي الإله (أوراس)، والشعلة هي (غيبيل) .. " (١) ، وترمز العاصفة الى سلاح ذي رؤوس سبعة لشجرة الغار. ولالإله الشاب تموز خصوصية الجمع بين الطبيعة والإنسانية، إذ يموت ويولد من جديد سنة بعد أخرى كفصول النبات في حياته وذبوله ومولده من جديد ، ولذلك فإن هذا الإله يرتبط بالإلهة (عشتر = أم الأرض) ويرمز الى الخصب. (٢)

ولبعض الآلهة في بلاد وادي الرافدين وبلاد الشام أمثلة في السماء كالكواكب والنجوم؛ فالإله (مردوخ) يمثله في السماء كوكب المشتري الذي يسمى بالبابلية (نبيرو) ومعناه (المُعَبِّر) لأنه بمثابة معابر السماء والأرض، وورد ذكره في اللوح السابع من (ملحمة الخلق) على النحو الآتي: "لِيُمْسِكَ نَبِيرُو بِمَعَابِرِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وَعَلَى الَّذِينَ يَعْبُزُونَ عَنِ الْعُبُورِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَسْأَلُوهُ دَائِمًا. إِنَّ نَبِيرُو هُوَ الْكُوكَبُ الَّذِي يَسْطَعُ فِي السَّمَاوَاتِ". (٣)

١ - الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور : ٢٩٨ .

٢ - انظر: الحضارات السامية القديمة : ٧٦ .

٣ - سهيل قاشا : تأريخ الفكر في العراق القديم : ٥٢. و (ملحمة الخلق) أو (قصيدة الخلق) أسطورة سومرية مؤلفة من سبع لوحات أو سبعة أناشيد، أخذها البابليون

ومن أمثلة الرموز الى خِصْب الأرض ونباتها ما عثر عليه في مدينة بابلية قديمة تدعى (ماري)^(١) ؛ فقد عثر على تمثال في قصر ماري " يظهر لنا إلهة مرتدية ثوباً مزركشاً وتضع على هامتها (رأسها) تاجاً مستديراً يحيط بخه قَرْنان، وتمسك وعاءً على بطنها بيديها ينسكب الماء من ثقبه على الثوب. إنها إلهة الوعاء المتدفق رمز الرفاهية والخصب" ^(٢)

وللرقص دلالاته في الطقوس المصرية القديمة، وقد تأثر بذلك الصوفيون المسلمون في حلقات (الذَّكر) كما يزعم هنري ويلد (Henri Wild) إذ قال "يتعين على القفزات المتكررة أن تزداد وتتصاعد كما في الذَّكر الحديث.

وأضافوا إليها نصوص أخرى. وفيما يأتي تعريف بهذه الملحمة ووصف مختصر لها: هي أول أسطورة خلق بشرية (بحسب رأي المؤلف) تفسر ولادة الكون. والأسطورة سومرية تعود الى عام (٣٠٠٠ ق.م)، ثم لحقتها نصوص بابلية عام (٢٠٠٠ ق.م) ، ثم أخذت شكلها النهائي في القرن السابع قبل الميلاد. وهذه القصيدة هي من أهم كنوز الأدب البابلي ، ومع أن المعاصرين يسمونها (قصيدة الخلق) لأن فيها حكاية الخلق إلا أن قصة الخلق مرحلة عابرة في القصيدة. وتركز القصيدة أكثر ما تركز على الإله (مردوخ) ، وكيف صار أعظم من كل الآلهة" .
تأريخ الفكر في العراق القديم : ٩٥.

^١ - مدينة بابلية قديمة. انظر: الكتاب المعنون بـ (ماري وكارنا: مدينتان بابليتان قديمتان) تأليف ستيفاني دالي، وترجمة كاظم سعد الدين - منشورات بيت الحكمة - بغداد (٢٠٠٨م).

^٢ - تأريخ الحضارات العام : ١٩٤/١ .

وهذا ربما كان من آثار الرقص السحري القديم. وفي الحالين هدف الأداء هو التحطيم البطيء لفردية المؤدي ، وتوليد حالة وَجْد لديه تسمح للإلهية بأن تخترقه وتتجسد فيه" . (١)

ولا أرجح صدقية هذا الزعم لسببين، أحدهما: أن الرقص الصوفي منبعه من الفكر الصوفي عند المسلمين ولا علاقة له بالرقص السحري القديم الذي كان يقام في معابد الآلهة، والآخر: إن الغاية من هذا الرقص هي الاندماج الروحاني مع عبارات (الذَّكْر)، وهي عبارات إسلامية بحته يغلب عليها (اسم الجلالة) وأسماء الله الحسنى الأخرى وليس الاندماج في الذات الإلهية بحسب نظرية (الحلول) و(وحدة الوجود)، بل هي من قبيل (وحدة الشهود) باصطلاح المتصوفة. وهذا بحث يطول ليس مجاله فيما نحن فيه.

وتكثر الأساطير الدينية الهندية، وخصوصاً عند الهندوس والبوذيين والسَّيخ، وغيرهم من أتباع الديانات الوضعية؛ فيصور (البراهما) إله الهندوس - مثلاً- على هيئة "أربعة وجوه ، وأربع أذرع للدلالة على قدرته الفائقة" ، ويصور (غنيشا) إله العِلْم على هيئة "رأس فيل وأربع أذرع" ، ويصور (شيفا) الراقص "محاطاً بأذرع عديدة" . (٢)

وللخمر صفة دينية عند الزرادشتيين في العهد الساساني، فهي رمز الى الشمس التي تعد ثاني أكبر الدلالات الدينية في الديانة الزرادشتية بعد

١ - معجم الرموز : ٣٢.

٢ - معجم الرموز : ٧٤.

النار. الشمس في السماء، والنار في الأرض رمزان الى (آهورا مزدا) الإله الواحد. وربما انتقلت هذه الرمزية الى الأدب الفارسي في العهد الإسلامي ، فقد قال أحد الباحثين الشرقيين وهو (أ.س ملكيان شيرواني) : " منذ القدم يكرر الأدب الفارسي الطقس الذي يسكب فيه الخمر من أوعية ذات أشكال حيوانية في أبواب هلالية الشكل. وكان ينظر اغلى الخمر على أنه يمثل ضوء الشمس ، وينظر الى الأكواب الهلالية الشكل على أنها تمثل القمر، فعندما تملأ الأكواب بمادة الشمس فإنها التحام للشمس بالقمر" (١) ولا أظن أن هذا التوصيف والاستنتاج منه له حظ من الصحة المقبولة؛ فالقارئ المتفحص لأشعار شعراء الفرس كسعدي وحافظ يرى العنوان الصوفي العرفاني في استعمال ألفاظ ظاهرها (كفر) وباطنها (إيمان) كما يقال، فالخمر والسُّكْر والدنّ والحانة والكأس... الخ من الألفاظ المتعلقة بالخمر وأدواتها وتعاطيها لها دلالاتها الصوفية البحتة، فالسكر - مثلاً - قمة ما يصل إليه صاحب السلوك الى الوجد الربّاني، فالخمر -ها هنا- ليست إلا وسيلة مجازية رمزية للوصول الى (الوجد)، وهكذا نجد أمثلة كثيرة أفردت لها دراسات وجمعت في قواميس نكتفي بذكر عدد منها: - السُّكْر: "دَهَشٌ (= تَحْيِيرٌ) يلحق سرّ المُحِبِّ في مشاهدة جمال المحبوب فجأة". (٢)

١ - الروحانية في أرض النبلاء: ٥٨.

٢ - عبد المنعم حنفي: معجم مصطلحات الصوفية : ١٣.

- الرياضة : " رياضة أدب ، وهي الخروج عن طبع النفس، ورياضة طَلَبٍ، وهي صحة المراد له، وبالجمله هي عبارة عن تهذيب الأخلاق النفسية" (١)
- ذو العَقْل: "هو الذي يرى الخَلْق ظاهراً ، ويرى الحق باطناً ، فيكون الحق عنده مرآة الخلق لاحتجاب المرآة فالحق هو الله تعالى ، والخَلْق ما خلقه ، وكونه تعالى مرآة بالصور الظاهرة " (٢) ، للخلق بمعنى (وحدة الشهود) بأن يرى الحق رؤية قلب من خلال خلقه، وهو أعلى مراتب الشهود.
- الوجود: " خشوع الروح عند مطالعة سر الحق، وقيل : عجز الروح من احتمال غلبة الشوق عند وجود حلاوة الذِّكْر، وقيل : مصادفة الباطن من الله تعالى وارداً يورث فيه حزناً أو سروراً أو يغيره عن هيئته ويُغَيِّبه عن أوصافه بشهود الحق" . (٣)

- الصَّوْفِيّ: " هو الفاني بِنَفْسِهِ، الباقي بالله تعالى، المستخلص من الطبائع، المتصل بحقيقة الحقائق. قال الجُنُبْد: الصوفية هم القائمون مع الله تعالى بحيث لا يعلم قيامهم إلا الله. وقال بشر بن الحارث: الصوفي من صفا قلبه لله" . (٤)

١ - معجم مصطلحات الصوفية : ١١٦.

٢ - معجم المصطلحات الصوفية : ١٠٣ .

٣ - معجم مصطلحات الصوفية : ٢٦٤.

٤ - معجم مصطلحات الصوفية : ١٥٧.

وهذه الألفاظ ونظائرها رموز وإشارات الى قضايا متصلة بالعمق الروحاني للإنسان وطبيعة علاقته بالوجدانية مع خالقه تعالى.

ويقصد اليهود يوم السبت (Sabbat)، وهو اليوم السابع بحسب تقويمهم، ويوصف بأنه يوم البركة والراحة. وتذكر التعاليم التوراتية عدداً من الوصايا يجب الأخذ بها وهي الوصايا السبتية (السبعية) إذ تمنع بموجبها العمل في يوم السبت، وإيقاد النار، ومغادرة البيت، والطبخ، والخبز، لأنه يوم الرب والراحة.

والغاية من هذه الالتزامات الطقسية "الحفاظ على العنصر الروحي الكامن وراء معنى اليوم السابع، يوم الرب والراحة". (١)

والنصارى يقدسون الصليب، ويتخذون منه رمزاً الى المعاني الإنسانية التي تركها السيد المسيح (ع) عند صلبه كما يعتقدون؛ فالرمز ليس في الصليب ذاته لأن الرومان كانوا يصلبون عليه الذين حكم عليهم بالموت قبل ولادة المسيح بزمان طويل، وإنما في المغزى الذي تركه صلب المسيح. قال أولمان: "... كذلك يعد الصليب رمزاً طبيعياً الى المسيحية، ولكن هذا ليس راجعاً الى أي مغزى تشبيهي، أو هو لم يكن في الأصل كذلك، وإنما سببه المغزى الذي تركه صلب المسيح عن طريق إحياءاته التاريخية" (٢)

١ - معجم المصطلحات الدينية: ٨٤.

٢ - دور الكلمة في اللغة: ٢٧.

وأصحاب الأنجيل الأربعة المعترف بها لدن الكنيسة المسيحية لهم رموزهم على هيئة صور. وفيما يأتي خلاصة لأهم الرموز الكنسية المرتبطة بأصحاب الأنجيل:^(١)

- أ. اتخذت الكنيسة المسيحية منذ نشأتها الأولى التصوير وسيلة للرمز.
- ب. رمزت هذه الكنيسة الى أصحاب الأنجيل ، وهم (متى ويوحنا ومرقس ولوقا) بمخلوقات مجنحة.
- ج. رمزت الى متى بإنسان مُجَنَّح، والى مرقس بأسد مُجَنَّح ، والى لوقا بشور مُجَنَّح، والى يوحنا بَنَسْر .
- د. اعتمدت الكنيسة في اتخاذها الرموز على الإصحاح الأول في سفر حزقيال، وفيه يسرد رؤياخ لهذه المخلوقات الغريبة، وكذلك ما ورد في الإصحاح الرابع من رؤيا يوحنا اللاهوتي، ولذلك سميت هذا المخلوقات ب (مخلوقات الرؤى) التي نجدها في كثير من المخطوطات الدينية في العصور الوسطى ومنحوتات الكنائس.
- هـ. اختلفت هذه الرموز في عصر النهضة واقتصرت على أصحاب الأنجيل الأربعة فقط.
- و. يرمز الى (متى) وهو أول أصحاب الأنجيل في الفن التصويري بصورة مَلَك أو إنسان مجنح. ويعود السبب في بعض توجيهات الباحثين في

^١ - انظر: المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية : ٤٥٣ ، ٤٥٤.

تأريخ اللاهوت المسيحي الى أن مَتَّى وصف تجسيد المسيح أي حلوله في جسد بمعنى صورته الإنسانية الناسوتية كما ولدته أمه مريم (ع).
ز. ويرمز الى مرقص في صورته كلها بأسد مجنح، ويعود السبب الى أنه استهل إنجيله بالعبارات الآتية: " هَآنَذَا مَرَّسِلٌ مَلَاكِي (مَلَكِي) أَمَامَ وَجْهِكَ يُهَيِّئُ طَرِيقَكَ قُدَّامَكَ * صوت صارخ في البرية أعدوا طريق الرب واجعلوا سُبُلَهُ مستقيمة * ١ : ٢، ٣ ". وذهب آباء الكنيسة الى أن هذا يعني (صوت الأسد)، وإذا كان إنجيل مرقص يُمجّد المسيح كما يُمجّد الملوك دلّ على أن المقصود هو الأسد المنحدر من سبط يهوذا أي السيد المسيح؛ منحدر عن أمه من سلالة يهوذا أحد أولاد يعقوب (ع) وأحد أسباط بني إسرائيل.

ح. ويرمز الى القديس لوقا الإنجيلي بالثور المجنح، ويُصوّر أيضاً حاملاً الإنجيل وصورة مريم العذراء، إما مُصَوِّراً لها وإما حاملاً إياها ولذلك لُقِّبَ بـ (الإنجيلي).

وكان لوقا الحواريّ طبيباً ولذلك أطلق عليه لقب (الطبيب)، وكان فناناً في التصوير، وتذكر عنه معجزات كما نقلها القديسون من آباء الكنيسة، منها صوّر العذراء مريم وابنها المسيح، وكان مَنْ تُعْرَضُ عليه هذه الصورة يتحول الى النصرانية كما يزعمون.

ط. اتخذت مدينة البندقية (الأسد المُجَنِّح) شعاراً لها وهو يرمز الى الحواريّ (مرقص) تكريماً له. ويذكر في مرويّات النصارى أن رفاته نقلت من

مدينة الإسكندرية ودفنت في البندقية، وبذلك تحققت نبوءة المَلَك الذي بشره بأنه سيُدفن في المكان الذي تعرضت فيه السفينة التي كان يقلها الى عاصفة هوجاء.

ي. وأما يوحنا الحواري فقد بيّن في إنجيله أن المسيح سبق وجوده وجودَ الزمان، وقبل أن يولد من مريم، ولذلك بدأ إنجيله بقوله " في البَدْء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمةُ الله" ، بحسب تفسير بعض مفسري الأنجيل، أي ذكر المسيح قبل التجسيد، و"إذا كانت رؤياه للمسيح أقرب ما تكون الى الله فقد حلّق بالمسيح وجعل صورته تعلو صورة الجسد، وما هو بإنسان وإن تجسد في صورة إنسان، لذا كان رمزه النسر الذي هو أبعد الطير تحليقاً" ، على عهدة من زعم ذلك وفسره.

٢- رموز الحيوان:

تعدد الرمز الى الحيوانات سواء أكانت حقيقية أم خيالية أسطورية مركبة من الحيوان والبشر، أو من حيوانين أو أكثر.

وتكاد العمدة من حضارات العالم القديم، ولاسيما حضارات الشرق تستعمل الحيوان بأنواعه رمزاً الى فكرة ما ، وغلب ذلك على حضارة السومريين والأكديين والمصريين وحضارات بلاد فارس والهند والصين.

وتظهر لنا في حضارة وادي الرافدين نقوش بارزة على الحجر قريبة من الأبواب ولاسيما أبواب القصور تمثل الأبطال والحيوانات الحقيقية أو

الخيالية ولها مغزى رمزي، منها نقش (غلغيمش) "الذي ينتصر على الأسد ويشده الى ذراعه اليسرى في حين تحمل يده سلاحاً معكوفاً يعد أصلاً للحسام. وغلب على النقوش نقش (الثور المجنّح) ذي الرأس البشري "الذي ينتصب على ركائز الباب ، يدير نحو الزائر رأسه المهيّب على ما به من سيما البشاشة والأمن" . (١)

وابتنى (سرجون) الآشوري مدينة جديدة له تدعى (دور شروكين)، بدأ البناء فيها سنة (٧١٧ ق.م)، وجعلت على شكل مربع طول ضلعه نحو ميل واحد، وسوّرت "بسور ضخّم جعلت له سبعة أبواب ،كلٌّ منها سمي باسم إله آشوري على غرار بوابات نينوى، تزينها منحوتات من الثيران المجنّحة ذات الرؤوس البشرية، وكانت هذه بمثابة المَلَك الحارس (Lamassu) بالآشورية) . (٢)

ومن الحيوان الأسطوري التّين، وله رمز في تفسير الأحلام عند المسلمين، فهو يدل على "سلطان جائر مهاب ، أو نار مُحرّقة" . (٣)

١ - تأريخ الحضارات العام : ١٩٦/١ .

٢ - مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٥٦٦/١ .

٣ - النابلسي : تعطير الأنام : ١١٥/١ .

ويدل (العنقاء) ^(١) - وهو طائر اسطوري - عند المتصوفة على " الهباء الذي فتح الله فيه أجساد العالم، مع أنه لا عين له في الوجود إلا بالصورة التي فتحت فيه. وإنما سمي بالعنقاء لأنه يُسمع بذكره ويعقل، ولا وجود له في عينه ". ^(٢)

ومن الأمثلة الرمزية لأعضاء الإنسان: الأذن ، ولها الدلالات الرمزية الآتية عند بعض الشعوب : ^(٣)

أ. في الصين: الأذن الطويلة الكبيرة رمز الحكمة والخلود، أو نقيض ذلك رمز البلاغة في بعض تراثها.

ب. "للأذن دور رمزي في الدلالة على رهاقة السمع (سماع الأصوات الخفية الهامسة العاكسة أصواتاً أزلية ، سماع الضوء / الصوتي " .

ج. "في إفريقية ترمز الأذن الى البهيمية : (له أذنا حمارٍ)، وترمز أيضاً الى الجماع: (علاقة الكلام بالجماع، عند (الدوغو) و (البامبارا). وفي ما لي مَصَلٌ : (يدخل الكلام في الأذن مثل ما يدخل ماء الحياة في الرّحم).

١ - "عَنَقَاءُ مُغْرِبٍ ، أو العَنَقَاءُ الْمُغْرِبُ ، أو المُغْرِبَةُ: طائر خرافي وهمي يعرف له اسم ولا وجود له. جعلوه أحد المستحيلات" جبران مسعود: الرائد : ١٠٥٥ .

٢ - معجم مصطلحات الصوفية : ١٩٠ .

٣ - انظر معجم الرموز : ١٦ ، ١٧ .

د. "ثَقْبُ الأذن لوضع القُرْط عادة قديمة جداً ترمز الى الإيلاف والالتزام والتملك. رمز العبودية في العهد الجديد من الكتاب المقدس. في المشرق يثقب الدراويش أذناً ويضعون فيها قُرْطاً رمزاً الى رَهْبَانِيَتِهِمْ... وفي أوربا يثقب البحَّار أذنه ويضع فيها قُرْطاً رمزاً الى اقترانه بالبحر"

.

هـ. "ترمز الأذن الى الرِّضَاعَة، (الشرب الروحي للكلام : زَقَّه العِلْمُ في أذنيه)، وترمز الى اعتقاد الدين منذ الولادة (الشهاداتتان ، والأذان في الأذن اليمنى والإقامة في اليسرى عند المسلمين) .

- والأذن : رمز الاتصال والتواصل، والبلاغ والتبليغ (المرسل والمتلقي).

- الفم من أعضاء الإنسان ، وفي الأساطير المصرية: " يمارس المصريون شَعيرة فتح الفم بعد الموت إشارة الى جعل كل أعضاء الميت جاهزة لأداء الوظائف الجديدة" . (١)

- ومن رموز الحيوان: الكبش، و "هو في المنام رجل شريف منيع" (٢) ، وللحَمَل دلالات لدى الشعوب ، ومنها : (٣)

١ - معجم الرموز : ٣٩ .

٢ - تعطير الأنام : ٢٥٠/٢ .

٣ - انظر: معجم الرموز : ٥٨ .

أ. "يرمز الحَمَل ببياضه الناصع الى المولود الأول ، الربيع المتجدد؛ فهو يجسد انتصار الجديد، ويمثل غلبة الحياة على الموت، في كل مراحل تطور الحضارة المتوسطة ، حضارة الرعاة والبدو الرحّل والمزارعين المتمدنين" .

ب. "هذه الوظيفة المثالية القديمة جعلته الضحية الممتازة؛ فلا بد من التضحية بالحَمَل (الخروف ، الكبش ، كبش الفداء ، كبش المَحْرَقَة) لأجل خلاص صاحبه أو قومه"

ج. "في اليونان كان أتباع (ديو نيزوس) يقذفون الى الهاوية حَمَلًا لتهديئة غضب (بيلاوخوس) حارس الأبواب الجهنمية" .

د. "تجنباً لكل إلتباس في رموز الحمل قرر مجمع القسطنطينية المنعقد سنة (٦٩٢م) اعتماد الصليب رمزاً الى الفن المسيحي القُرْباني بدلاً من صورة الحمل المحاط بالشمس والقمر" . ومن رموز (البقرة) عُوْذَة البقرة الخشبية في الأساطير المصرية الفرعونية القديمة، وهذه العوْذَة تمثل " رأس بقرة مقدسة تحمل أسطوانة الشمس بين قرنين، وكانت تستعمل لبث الحرارة في الأجساد المَحْنُطَة (المومياءات) ... ومصدر هذه العادة هو الاعتقاد بأن (رَع) إله الشمس عندما غاب المرة الأولى قامت البقرة بإرسال كائنات نارية تسعفه حتى الصباح لكي لا يفقد حرارته" . (١)

١ - معجم الرموز : ٣٠ .

والبقرة في مصطلح الصوفية " كناية عن النفس إذا استعدت للرياضة ،
وبدت فيها صلاحية قمع الهوى... ويكنى عنها ب (الكَبْش) قبل ذلك ،
وب(البَدَنَة) بعد الأخذ في السلوك" . (١)

وترمز البقرة الى الخِصْب(٢) والثراء والتجدد ، والى صبية محبوبة باسمه ،
إلهة الفرح والرقص والموسيقى. تضيء الأمل على الأرض وسكانها.
وترمز البقرة في بلاد الرافدين الى الجَدَّة (البقرة الكبرى) ، وفي بلاد سومر
" يُزَيِّن القمر بقربي بقرة، فيما تمثّل البقرة هلالاً. وترمز الى الليل المُكَلَّل
بالنجوم يسوده الثور، وتكون البقرة السمينة الخِصْبَة بدر تمامه" . وترمز
البقرة في الهند الى (الأم) الولود "تضطلع بدور كوني وإلهي، من هنا كان
تقديس هذا الحيوان الأمومي (أم الحياة) ... " .

-ويرمز الجواد (الحصان) عند بعض الأمم الى ما يأتي: (٣)
أ. "هناك اعتقاد سائد لدى معظم الشعوب قوامه الجمع بين رمزية الجواد
ودياجير العالم السفلي" .

ب. الجواد في التحليل النفسي رمز الى (النفسية اللاواعية، أو النفس غير
البشرية) .

١ - معجم مصطلحات الصوفية: ٣٦. والبَدَنَة : " ناقة أو بقرة تُنَحَّر بمكة، سميت
بذلك لأنهم كانوا يسمنونها . والجمع: بُدُنٌ " الرازي : مختار الصحاح : ٣٨.

٢ - انظر : معجم الرموز : ٣٠.

٣ - انظر : معجم الرموز : ٤٦.

ج. "يقتل حصان الميت لكي تقود روحه روح صاحبه. هذا الحصان المقتول يسمى (جواد الساحر) " .

د. يرمز الإنسان الممسوخُ حصاناً الى الممسوس والمهووس، مثلما يرمز الى المُريد " .

هـ. "جياذ الموت: رمزية قديمة موجودة منذ الأزمنة القديمة الى القرون الوسطى في أوربا ومنتشرة في الفلكلور الأوربي كله، قوامها الإيمان بأن الحصان قوة جهنمية وتجسيد للموت" .

و. "قُربان الحصان يرمز الى النصر الملكي، ويُشبه قطع ذيل الحصان العادة الإفريقية بقطع ذيل البقر وتقديمه قربانا للحصول على موسم وفير"

ز. يرمز الجواد في سنّ البلوغ الى " تألق الرغبة، وشباب الإنسان، وما يتضمن من حماس وخضب وكرم" .

ح. يتحول الحصان الأرضي الى حصان شمسي: (بُراق: الحصان الأبيض " رمز الجمال الكامل (هيمنه الروح على الحواس) ، رمز الجلال والكمال" .

ويرمز الحمار الى الغفلة، وله دلالات ، منها : (١)

أ. يصور الحمار في الهند " كأنه المطيّة اللعينة، أو مَرَكَب نَرّيتا (Narrita) حارس أقاليم الموتى" .

١ - انظر: معجم الرموز : ٥٦ ، ٥٧ .

ب. يصور الحمار دليلاً على الشهوة والشَّبَق ، أي العنصر الغريزي في الإنسان الذي يعيش حياته كلها على صعيد الجسد والحواس لا غير " .

ج. ترمز عبارة (أُنْثَى حمارٍ) الى " معاقبة المنحرف عن جادة الصواب، الباحث عن غواية الحواس بدلاً من موسيقى الروح ورجاحة العقل " .

د. ترمز الأتان (أنثى الحمار) الى المرأة الشهوانية.

هـ. ذهبت بعض التقاليد - خلافاً لما ذكرنا- الى أن الحمار حيوان مقدس؛ فهو يضطلع بدور مهم في الطقوس الدينية. وتقدم الحمير قرابين للآلهة في المعابد.

و. يرمز الحمار الوحشي الى الناسكين في القفار، وترمز الأتان الى الإذعان والخشوع، فيما يرمز الجَحْش الى الذَّلّ والهوان. وترمز الأتان أيضاً في بعض الثقافات الى السلام والفقر والتواضع والصبر والشجاعة.

ومن الحيوانات (البرمائية) التَّمْساح؛ فهو يدل في تعبير الرؤيا "على شُرْطي لأنه شرّ ما في البحر، لا يأمنه عدوّ ولا صديق، وهو لَصٌّ خائن، ويدل أيضاً على التاجر الظالم الخائن" . (١)

١ - تعطير الأنام : ١ / ١١٤ .

ويدل الثور في المنام على " رئيس قوم وقَّيم بيت أو بلد أو قرية. والثور الواحد ولاية سنة واحدة ، وللسلطان والتاجر والسالع تجارة سنة" . (١)
ويرمز الديك الى دلالات عديدة ، وهو من الرموز الشائعة عند مختلف الأمم ، ومن رموزه: (٢)

- أ. يرمز الى النهار ، والعِزَّة، وهو شعار فرنسا.
- ب. كان ينقش قديماً على العملات الغالِيَّة (الفرنسية القديمة : Gallus = الديك). و (Gaulois) : الديك المنقوش على العملة.
- ج. "صياح الديك يطرد الأرواح الشريرة من البيوت، لذا كانت ترفع صورته على الأبواب" .
- د. الديك عند البوذيين في التُّبْت رمز مشؤوم " يوضع مع الخنزير والحية في مركز دولاب الحياة، ويدل على أحد السموم الثلاثة ، وعلى الرغبة (التعلق والظماً)".
- هـ. يرمز الديك في أوربا الى " انفجار رغبة مكبوتة" .
- و. "الديك والكلب والحصان : من الحيوانات القربانية التي تقدم للموتى في الطقوس الجنائزية عند الجرمان القدامى" .
- ز. "رمز المسيح مع الحَمَل والنَّسْر ، ولكنه يختلف عنهما برمزيتة الشمسية : النور والنشور" .

١ - تعطير الأنام : ١/١٢٠.

٢ - انظر : معجم الرموز : ٧٢.

ح. يتمتع الديك الأبيض عند المسلمين " بتكريم لا مثيل له... صياحه يدل على وجود مَلَك، ويعتقد أن الديك يُسَبِّح لله، ويدعو الناس الى تسبيحه".
ط. يرمز الديك والحياة في التأويل النفسي " الى الزمان ، الى طور من أطوار التطور الداخلي" . وللديك دلالات أخرى على مستوى الشعوب، ومن أهمها ما يأتي:

- رمز العِزَّة ، وشعار فرنسا.
- الديك رمز شمسي، يعلن بصياحه الفجر وبدء النهار.
- في فيتنام " ترمز رِجْل الديك الى العالم الأصغر، وتستعمل بعد غليها في التنبؤ والكهانة" .
- رمز اليقظة : "إنه المحارب اليقظان الساهر على الآفاق والحياة، وهو رمز حراسة الحياة والمرشد الى الخفاء والأسرار" .
- والكلب من الحيوانات ذات الصفة الرمزية والأسطورية لدى بعض المجتمعات الإنسانية. ومن الأمثلة والشواهد ما يأتي : (١)
- أ. "تجمع الأساطير على التقريب بين رمزية الكلب والموت والجحيم والعالم السفلي والممالك الخفية" .

ب. "يرتبط رمز الكلب بثلوث العناصر: التراب والماء والقمر. هذا الثلوث له دلالة أنثوية، جنسية، نباتية ، تنبؤية، دلالة أساسية بالنسبة الى (اللاوعي) والوعي الباطن معاً" .

١ - انظر : معجم الرموز : ١٤٥.

ج. "الوظيفة الأسطورية الأولى للكلب هي وظيفة دليل الإنسان في ليل الموت، بعد ما كان رفيقه في نهار الحياة؛ فالكلب الحارس الأمين في المنزل، أو مع القطيع، يغدو حارساً أسطورياً لممالك الموت، ويقبع عند أبوابها المقدسة".

د. كان المكسيكيون القدامى يعتنون بتربية كلاب مختصة بمواكبة الموتى وإرشادهم في العالم الآخر، وكانوا يدفنون مع الجثة كلباً بلون الأسود، أي بلون الشمس".

هـ. "ما يزال الغواتيماليون يرفعون في أيامنا هذه أربعة أشكال كلبية عند زوايا المقبرة الأربع، وكان البرج الثالث عشر في أبراجهم الفلكية هو برج الكلب".

ويدل الشعبان في تعبير الرؤيا عند المسلمين " على العداوة من الأثل والأزواج والأولاد ، وربما كان جاراً حسوداً شَريراً. وشعبان الماء عون للظالم، أو إعلام للحاكم. ومن رأى أنه ملك شعباناً فإنه يصيب سلطاناً عظيماً" (١) ومن الطيور الحمامة ، ولها رمزيتها المحمودة، إذ ترمز البيضاء منها (الورقاء) الى " الطهارة واللطافة وعندما تحمل فُصن زيتون ترمز الى السلام والانسجام والأمل والسعادة المستعارة". وترمز الحمامة في الغالب الى " أفضل ما في الإنسان من خلود وبقاء حيوي :

١ - تعطير الأنام : ١٢٤/١ .

(النَّفس) ، وبهذه الصفة نجد رسمها على أوانٍ مأتمية وهي تشرب منها وترمز بذلك الى ينبوع الذاكرة" (١) . وتمثل الحمامة كمال الحب للحبيب . ويدل الطاوس في المنام " على امرأة أعجمية ذات مال وجمال مشؤومة ، وجمالها : لونها ، وريشها مالها ... والطاوس يدل لمن ملكه على التيه والعُجب بالحُسن والجمال" (٢) . ويعد النسر من أشهر الطير رمزية، وملك الطيور كالأسد ملك الحيوانات بالتعبير المجازي، وله دلالات ورموز عديدة ومتنوعة في مختلف الحضارات والثقافات عند الأمم والشعوب ، ومنها (٣):

- أ. "رمز الأعالى والنار الشمالية (الشمس) التي ينفرد النسر بالاقتراب منها من دون أن تحترق عيناه. النسر رمز كُلِّي لا تكاد تخلو من ذكره حكاية أو صورة أسطورية أو تاريخية في كل الحضارات " .
- ب. "يرمز النسر الى صفات الآلهة القديمة والأبطال".
- ج. " اتخذت صفات النسر في الصحاري الأمريكية ، وسيبيريا واليابان والصين وإفريقية وعند السحرة والكهنة والعَرافون والملوك وقادة الحروب وسيلة للحصول على قواه الفائقة" .
- د. "النسر رمز للأب ولكل أشكال القرابة القديمة والجماعية".

١ - معجم الرموز : ٥٧.

٢ - تعطير الأنام : ٨٤/٢ ، ٨٥.

٣ - انظر: معجم الرموز : ١٧٣ .

هـ. "يرمز النسر المُحْدَق بالشمس الى الإدراك المباشر لنور العقل ، ويرمز الى التأمل ، وإمكان صعود الإنسان من ملكوت التكاثر الى مملكة التجدد الروحي".

و. النسر شمسي في بعض الأساطير الآسيوية، " وهو بديل منها ، ولابد للراقص في مواجهة الشمس من التسليح بريشة نَسْر ، أو بريشة من عظامه حتى ينجح في تجربته " .

ز. "جناحا النسر المنبسطان هما رمز الى خطوط البرق المنكسرة ، وفي أصل الثقافات الهندية يرمز أحد جناحيه الى الشمال (البَرْد وقُطْب الذكورة) ، ويرمز الآخر الى الجنوب (الحارّ والأحمر والرَّطْب : قُطْب الأنوثة) " .

٣- رموز النبات :

الشجرة من أكثر الرموز دلالة وشیوعاً في أغلب الثقافات الاجتماعية والدينية؛ وتكمن رمزيّتها الأساسية العامة في فكرة الكون الحيّ الدائم التجدد والتكوّن. ومن دلالاتها ما يأتي : (١)

١. "لا تكون الشجرة دوماً موضع عبادة؛ فهي ترمز الى وجود أرفع يتعدى الشجرة ذاتها ويمكن أن يصبح هذا الوجود الرمزي موضع عبادة " .
٢. "الشجرة رمز الحياة المتطورة المتغيرة دائماً وأبداً ، الصاعدة نحو السماء".

١ - انظر: معجم الرموز : ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ .

٣. "الشجرة صلة وصل بين ثلاثة مستويات من الكون: باطن الأرض حيث تضرب جذورها في الأعماق، أديم الأرض حيث يرتفع جذعها وفروعها الأولى ، الأعالي حيث أغصانها السامقة وذروتها".
٤. تجتمع في الشجرة العناصر الأربعة : " الماء : يجري في عصاريتها والتراب : يندمج في بدننها والهواء : يغذي أوراقها ، والنار : تخرج من احتكاك أغصانها أو خشبها".
٥. "ترمز شجرة العالم الى اتصال الأرض بالسماء ، وبهذا المعنى تتسم بسمة المركز بحيث تكون شجرة العالم مرادفة لمحور العالم : الشجرة دعامة راسخة للعالم ، صلة وصل بين الأشياء كلها حمالة المعمورة بأسرها".
٦. "شجرة الكون تُحيل الى جوهر جليل ، ومثالها : السّنديانة والزيتونه في التراث الإسلامي، والأرزّة في المأثور الوطني اللبناني ... الخ ، وهي ملعب الآلهة والأرواح والنفوس في المعتقدات السحرية والدينية القديمة : شجرة كلن مو (Klenmou) مثلاً في التراث الصيني القديم ؛ فإليها تهبط الشمس والقمر على شاكلة عصافير".
٧. ترمز الشجرة المغذية من التربة والماء، والمرتفعة الى ما وراء السماء في الفكر الإسماعيلي الباطني الى " الحقيقة ، أي النعمة الطوباوية التي يأنس بها الصوفي حين يتعدى ثنائية المظاهر، ويتصل بالحقيقة العظمى بالوحدة الأصلية : (الله - الكائن) .

٨. "تغذي شجرة الحياة من الندى السماوي، وتمدنها ثمارها المُحرّمة على غير الأطهار بشيء من الخلود، مثالها ثمار شجرة عَدْن^(١)، البالغ عددها اثنتي عشرة ثمرة (رمز التجدد الدوري) ، وثمار القدس السماوية ، والتفاح الذهبي. و(شجرة الحياة) في التراث الفارسي شائعة، ويجري تصويرها بين حيوانين متصارعين". وشجره (بوذا) هي شجرة العالم والحياة.

٩. ترمز (شجرة الحياة) الى الخُصْب، و"في البلدان الممتدة من البحر المتوسط الى الهند تقوم نساء عاقرات بزيارة أشجار جميله قرب نَبْع يعتقدون على أغصانها مناديل حمراء لدفع المقدر والمكتوب".

١٠. تغدو الشجرة "مُشجراً يرمز الى تأريخ عائلة أو مدينة أو شعب أو سلطان أو ملك".

١١. "يمكن أن تتقلب شجرة الحياة الى شجرة موت، كما ورد في سفر دانيال وتأويله رؤيا نَبُوخَذْ نَصَّر".

وشجرة الأرز لها دلالات ورموز منذ القدم ، ومواطن الأرز ومنبته في شرق البحر الأبيض المتوسط معروفة تأريخياً وأشهر الأرز أرز لبنان، وهو شعار دولته الحديثه. وفيما يأتي بعض ما يرمز إليه : (٢)

١ - من أشجار جنة عَدْن، وجنة: " الموضع الذي يذكر بعض الروايات أن الله وضع فيه آدم" الرائد: ٥٢٩.

٢ - انظر: معجم الرموز : ١٧.

أ. "راية المجد والعظمة، ورمز الشرف والمَنعة والخلود، وآية ما لا يطاله الفساد والدثور. ورد ذكره في العهد القديم (نشيد الأناشيد ١١:١٧) . لا يفنى الأرز، ومن يصنع بيته من الأرز يصن نفسه من الفساد" .

ب. "رمز الخلود، والأبدية والأزلية. صنع منه المصريون القدامى مراكبهم وتوابيتهم وتماثيلهم. وفي عهد سليمان(ع) صنع من الأرز محراب الهيكل في القدس (أورشليم)، ومن خشبه صنع اليونان والرومان تماثيل، واتخذوا من صمغه مادة عطرية" .

ج. "لتخليد الآلهة والأجداد جرى نقش صورهم في خشب الأرز المقدس. صمغه العطري يعادل الذهب، ويدل على الرفعة، وجرى تمثيل المسيح -أحياناً - في قلب أرزة (أرز الرب) " . وورد في ملحمة (غلامش) ذكر لشجرة أسطورية تسمى (نبتة الصبا) أو (الشيخ الذي يعود شاباً) ^(١) ، وهي نبتة الخلود التي دأب غلامش في البحث عنها بعد موت (إنكيدو) وحزنه عليه.

^١ - تأريخ الحضارات العام : ١٦٣/١.

د. (سِدْرَةُ الْمُنتَهَى)^(١) من الألفاظ القرآنية. ورد ذكرها في قوله تعالى : (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى . إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى . النجم: ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦).

قيل إنها " شجرة في أقصى الجنة " ، وفي تفسيرها كلام عند المفسرين . ولها رمزية في الفكر الصوفي ، إذ إنها تدل على " نهاية المكانة التي يبلغها المخلوق في سيره الى الله تعالى " ، وما بعدها مختص بالله تعالى ولا يمكن بلوغه. وقيل : " شجرة الدِّرة هي الإيمان " ^(٢) . وتدل السدرة في تعبير الرؤيا عند المسلمين على " امرأة كريمة مستورة. وشجرة السدر رجل كريم حَسِيب فاضل مُخْصِب بحسب السورة وكرم ثمارها. ومن رآها فإنه يرتفع أمره ويصيب ورعاً وعلماً" . ^(٣)

١ - السِّدْر : شجر التَّبَق. واحدته :سِدْرَة، وتجمع الدَّر على سِدَر "ثم يجمع على سِدَرَات ، فهو جمع الجمع. وتجمع السِّدْرَة أيضاً على سِدَرَات بالسكون حملاً على لفظ الواحد" الفيومي : المصباح المنير : ٢٧١. وسِدْرَةُ الْمُنتَهَى : "شجرة في أقصى الجنة" إبراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط : ٤٢٥.

٢ - معجم مصطلحات الصوفية : ١٢٩.

٣ - تعطير الأنام : ٤٠٦/١.

والعَنْب من ثمار الأشجار، و" هو في المنام رزق حسن. والعنب رزق دائم واسع مُدَّخِر. وفي وقته غضارة الدنيا ، وفي غير وقته خير يناله قبل الوقت" . (١)

والسَّمْسِم من الثمار، وهو في المنام " رزق ومال حلال، وكذلك عُصَارَتِهِ وطحينه مال في عَزِّ وقوة ، وكذلك سائر الحبوب" . (٢)

٤- رموز الألوان:

يرمز اللون الأبيض باختلاف الثقافات الى ما يأتي : (٣)
أ. "يكون الأبيض بدءاً ، ويكون منتهى للحياة النهارية، وللعالم المتجلي ، الأمر الذي يمنحه قيمة مثالية فوق الألوان " .

ب. "الأبيض هو لون الطَّيِّب ، أي الذي تتبدل ظروفه وشروطه بتبدل المرشَّحين لوظائف عامة وهم يرتدون ملابس بيضاء" .

ج. "الأبيض لون فاصل ، حَدٌّ بين حَظَّين يتناهيان في أفق، إنه لون العبور ، رمز الانتقال :

- البياض الغربي هو لون الموت الأبيض الذي يمتص الكائن ويدخله في العالم القمري، البارد الأنثوي، عالم الغياب والخلاء الليلي.

١ - تعطير الأنام : ١٢٨/٢ .

٢ - تعطير الأنام : ٤٠٦/١ .

٣ - انظر: معجم الرموز : ٩ ، ١٠ .

- البياض الشرقي هو لون العودة ، بياض الفجر حيث تكون القبة السماوية خالية من الألوان، لكنها غنية بالطاقة التي ينشحن بها العالمان الصغير والكبير" .

د. "تصدر كل رمزية اللون الأبيض واستعمالاته الشعائرية عن هذه النظرة الى الطبيعة التي أقامت عليها كل الحضارات الإنسانية منظوماتها الفلسفية أو الدينية" .

هـ. الأبيض عند أهل التصوف والعرفان يرمز " الى السرّ، النور الداخلي الذي يتشكل منه فكر الصوفي أو العرفاني، الى ذلك يتصل الأبيض بالأحمر رمزيًا:

- الأبيض هو لون الحكمة الجوهرية النابعة من أصول الإنسان والموجهة لمصير الإنسان.

- الأحمر هو لون الإنسان المتصل بدياجير العالم والمسجون في شوائبه وظلماته" .

و. يتحد الأبيض والذهبي (الأصفر) في عَلم الفاتيكان " ليرمز الى ملكوت الله على الأرض" . واللون الأحمر رمز كلي عالمي الى مبدأ الحياة : " القوة، والقدرة، والسطوع. هو لون النار والدم" . وأما الأحمر الداكن " فهو ليلي أنثوي سرّي ، يمثل سرّ الحياة، ولا يفصح عنه مثل الأحمر

الواضح". ويرمز اللون الأحمر في الأعلام والرايات والألوية والبيارق

" إلى الشجاعة ، والحرية، والبطولة، والتعبئة، والإثارة". (١)

والصَّبْغَ باللون الأحمر قديم قدم الإنسانية؛ فقد دلت البحوث الأثرية على استعمال الأصباغ في العصر الحجري القديم ولاسيما ما يسمى بـ (الجَبَب) (٢) وهو الطين الأحمر، فقد اتخذ الإنسان البدائي مادة لتلوين جدر الكهوف ومواقع سكناه، واستخدم في تلوين القبور وأجسام الأحياء. ويستفاد من هذه الدراسات الأثرية أن الأحمر كان رمزاً إلى الدم ، والحياة ، والموت ، ويعني ذلك الجمع بين ضدين في المعنى.

ويرمز اللون (الأسود) في تراث الحضارات والثقافات إلى مختلف الرموز كاللون الأبيض. وفيما يأتي أشهرها : (٣)

أ. "يرمز الأسود إلى محور العالم الشمالي / الجنوبي، فيما يرمز الأبيض إلى محوره الشرقي / الغربي. يقع الأسود تحت العالم ، ويرمز إلى السلبية المطلقة".

ب. "الأسود لون الحِداد ، ولكنه ليس كالأبيض. للحِداد : الأبيض وجه بشيري إنقاذي، إنه حِداد الملوك والآلهة الموعودين بالنشور... أما الحِداد الأسود فهو الحزن واليأس، هو للآشي المنذر (لا شيء بعد

١ - معجم الرموز : ١٣.

٢ - انظر: أديان ما قبل التاريخ : ٦٤.

٣ - انظر: معجم الرموز : ٢٠ ، ٢١.

- (الموت) ، الصمت الأبدي، الخسران النهائي، السقوط الأبدي في العدم.
المِغْطَف الأسود يرمز الى حَجَر القَبْرِ (لون الموت).
- ج. الأسود لون الخِصْب ، لون التربة والغيوم السوداء (المُتْرَعَة بالماء).
وفي لغات أخرى يرمز الأسود الى الرَّمْل (الأرض العاقر)، والبرودة
والشتاء، إلا أن الرمل الأصفر يرمز لدى عدة أقوام الى الحصافة
والحكمة والثبات في الحزن والعداوات " .
- د. "يرمز الأسود الساطع والمائل الى الحمرة الى الحماس، وقوة الشباب
في التقاليد الشعبية الروسية" .
- هـ. إقتران الأسود بالأبيض هو زواج الظل والضوء، والليل والنهار، والجهل
والمعرفة ، والأرض والسماء " .
- و. "تسويد الوجه يرمز الى الإذعان وطلب العفو عن الذنوب والخطايا" .
- ز. يُعبّر الأسود في التحليل النفسي " عن غياب كل لون ، وكل نور ،
ورمز الى الحزن العميق، والقلق الشديد ، و (اللاوعي) ، والموت" .
- ح. "الأسود لون الأعماق ، لون الحكمة" .
- ط. "يقترن الأسود بالشرّ : النوايا السوداء ، سواء النفس والطويّة، رواية
سوداء، والجهل، و (اللاوعي) ، والشيطان : أمير الظلام، (الله نور
السموات والأرض)" . ويرمز الأسمر من الألوان الى ما يأتي : (١)

١ - انظر: معجم الرموز : ١٩ ، ٢٠٠ .

أ. "لون الأديم، لون الصلصال، لون الإنسان الأول (آدم (ع)) ، ويرمز الى الورقة الميتة، الى الخريف والكآبة".

ب. "الأسمر لون هابط : انحلال لوني ، وعلامة انفكاك".

ج. "يرمز الى التواضع . لُقّب الرسول (ص) علياً (ع) بـ (أبي تراب)".

د. "الأسمر بديل الأسود لكل رمزيته الجهنمية أو العسكرية".

هـ. صار الأصفر يرمز حديثاً في بعض بلدان أوربا الى السادية (الهتلرية

البنيّة). ويقع اللون الأسمر (البني) بين الأشقر والأسود ، ولكنه الى

الأسود أميل. ومن دلالات اللون (الأزرق) ورموزه ما يأتي : (١)

أ. "الأزرق هو اللون الأكثر شفافية ، أو الأقل مادية وكثافة، أي المصنوع

من الخلاء المتراكم: خلاء الهواء ، وخلاء الماء ، وخلاء البلّور أو

الماس. يرمز الخلاء (الفراغ) الى الدقة والنقاء والبرودة.

ب. يقترب الأزرق برموزه هذه " من الخلاء الكلي للأبيض المحيط حين

تكتسبه الأشياء أو الأغراض، ويمنحها لطافة وتفتّحاً وتماهياً؛ الأزرق

(اللا مادي) بذاته يزيل المادية عن كل ما يتعلق به من حركات

وأشكال وأصوات.

ج. بصفاته هذه التي تمنحه قيمته الرمزية الأساسية يبدو الأزرق كأنه طريق

(اللامتناهي)، إذ يتحول الواقع الى خيال؛ فالأزرق هو لون طائر

السعادة (العصفور الأزرق) ، البعيد والقريب في آن واحد".

١ - انظر : معجم الرموز : ١٨ ، ١٩.

د. "الدخول في الزرقة يعني الانتقال الى الجانب الآخر من المرأة؛ فالأزرق الصافي هو طريق الأحلام، وعندما يتكثف ويدكن يغدو لون الحُلْم، ويفسح الفكر الواعي المجال أمام الفكر (اللاوعي)، مثلما يتحول فيه ضوء النهار الى نور الليل ، الأزرق الليلي" .

هـ. "الأزرق والأبيض يعبران عن انفصال اليتيم عن هذا العالم، ورجوع النفس الى ربّها أي الى (الذهب) الذي يصادف البكر أثناء صعوده الى الأزرق السماوي".

و. بُرْج العذراء أزرق عند بعض المنجمين ، وهو يُعْري الأرض من خضرتها ويجفّف عشبها ونباتها ويجعل الحصاد ممكناً" .

ز. في التراث الشعبي العربي " تتقلب الرمزية ، ويغدو الأزرق رمز خوف وعداوة: (الخوف الأزرق) و (العَظْم الأزرق) و (زُرْق العيون) " .

ويعد اللون الأخضر رمزاً الى " كل الثروات الرفيعة الروحية والمادية" (١) : يقال إن رداء الرسول (ص) كان أخضر، وإن اجتماع أهل الكساء الذين نزلت فيهم آية (التطهير) ، وهم علي وفاطمة والحسن والحسين (ع) كان تحت كساء رسول الله (ص) الأخضر.

- الخِضْر (ع) الذي لقيه موسى (ع) وفتاه كما ورد في سورة الكهف هو " رمز المسافرين الخفيّ الذي بنى منزله في أقصى العالم عند ملتقى

١ - معجم الرموز : ١٤ .

المحيطين الأرضي والسمائي. الخضر هو المرشد الى الحق والحقيقة"

- ترمز النفس الخضراء الى التفتح وحب الحياة ، في حين ترمز المكنسة الخضراء الى الموت.

- "رمزية الأخضر تتجلى في العدل الذي يكتمل في طهارة الأبيض وبراءته. الأخضر هو لون الأعماق والقدر".

٥-رموز الأعداد :

للأعداد رموز وإشارات ودلالات ذات أبعاد أسطورية ودينية واجتماعية، ولها أبعاد أيضاً في المخیلة التفسيرية كما هو ملاحظ - مثلاً- عند أرباب التصوف، وفي الفكر الفلسفي القائم على مبدأ العدد كما هو ملاحظ عند فيثاغورس ومدرسته في الفلسفة اليونانية. ولذلك كله يعد (العدد) رمزاً ذا قيمة يفوق الرموز الأخرى من حيث الأبعاد الزمانية والمكانية. ومن هذا القبيل تقسيم السماء بوصفها قبة الى اثني عشر قطاعاً ^(١) : أبراج الفلك الاثنا عشر ، وهو البعد المكاني ، والأشهر الاثنا عشر ، وهو البعد الزماني. ومن رموز الأعداد ما يأتي : ^(٢)

أ. "يرمز العدد (١٢) الى كثافة العالم الداخلية، ومضاعفة العناصر الأربعة (التراب والماء والهواء والنار) بضربها بالأصول الثلاثة

١ - انظر: معجم الرموز : ١٠ .

٢ - انظر: معجم الرموز : ١٠ ، ١١ .

(الكبريت والملح والزئبق) ، أو بالأصول الثلاثة لكل عنصر (التطور والذروة والكُمون) " .

ب. "الرمز (١٢) هو رمز القدس السماوري : (١٢) باباً ، و (١٢) رسولاً ، و (١٢) كُرْسِيّاً ... الخ " .

ج. يشير العدد (١٢) عند الشيعة الإمامية الى الأئمة الاثني عشر المعصومين (ع). وبذلك يكتسب مضموناً دينياً مقدساً .

ومن العوامل الدينية في توزيع الأرقام اتخاذ الآلهة في بلاد ما بين النهرية أرقاماً؛ فقد وزّعت عليهم بحسب النظامين (الستيني) و (العشري) اللذين كانا شائعين على النحو الآتي : (١)

- الإله (أنو) = (٦٠) . هذا العدد هو أساس النظام الستيني .

- نينكرسو = (٥٠)

- أيا = (٤٠) ، أو ثلثا رقم أنو ، أي (شنبي) ، ومعناها : ثلثان.

- سن = (٣٠) ، وهو عدد الأيام في الشهر القمري التام .

- عشتار = (١٥) ، ورقم الجنّ الصالحين لها : (١٠ ، ٥) .

و(الاثنان) من الأعداد رمز التضاد والتغالب ، وله رموز ومدلولات أخرى

، أهمها ما يأتي : (٢)

١ - انظر : الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور : ٤٢٩ .

٢ - انظر : معجم الرموز : ١١ .

أ. "يدل هذا العدد على التوازن أو المخاطر الكامنة . إنه عدد كل الملايسات الثنائية - (الروح والمادة) .

ب. كان يعزى في الأزمنة القديمة الى الأم ، ويدل على (المبدأ الأنثوي).

ج. تقوم الرمزية الإفريقية برمتها على ثنائية جوهرية في الإنسان : حياة وموت - خير وشر - حُب وكُره ... الخ .

وللعدد (٧) في الديانة الإيرانية القديمة أهمية بالغة؛ إذ اعتقد (الإيرانيون أن الكون خلق على سبع مراحل^(١) . وكان لهذا العدد دلالات انتشرت في الثقافات القديمة بعد الحضارة الفارسية ، منها ترتيب خلق الكون من حيث الزمان على النحو الآتي : السماء أولى المخلوقات ، تتبعها الماء ، فالأرض ، فالنبات ، فالحيوان ، فالبشر ، وأخيراً النار . وفي العقائد الإسلامية القرآنية: السماوات السبع، والأرضون السبع مثلها في العدد . وتعتقد الشيعة الإسماعيلية بسبع من الأئمة، ولذلك أطلق عليهم اصطلاحاً (السبعية) .
٦- رموز الأرض ، والأجرام السماوية ، والظواهر الفلكية ، والحروف ، والأيام:

أ. الأرض^(٢) : "رمز الوظيفة الأمومية ، تهب الحياة وتأخذها ، وترمز أيضاً الى الأم ، وبهذه الصفة تكون الأرض أسماً آخر للخُصْب" .

١ - انظر: الروحانية في أرض النبلاء: ٣١ .

٢ - انظر: معجم الرموز : ١٧ ، ١٨ .

ويرمز أديم الأرض الى (الإنسان الواعي)، ويرمز باطن الأرض الى (الوعي الباطن)، وترمز الذرى المرتفعة الى (ما فوق الوعي).
ب. الشمس والقمر في حضارة ما بين النهرين القديمة: يرمز (قُرْص الشمس) الى الإله (شمش)، والهِلال الى الإله القمر (سين) أو (ننا)، و (الفأس أو المحراث الصغير) الى الإله (مردوخ) ^(١) ، و(الكوكب) الى الإلهة (عشتار).
وتدل الشمس في تفسير الأحلام عند المسلمين على "المَلِك الأعظم، أو الخليفة، أو الأب ، أو الذهب، أو أمير الأمراء" ^(٢) "و" من رأى في المنام أن الشمس كسفت فهو حَدَثٌ بِالْمَلِك الأعظم، وإن رأى أن القمر خُسِف فهو حَدَثٌ بِالْوَزِير" ^(٣) . ويدل القمر في المنام على "ملك عادل، أو عالم كبير، أو غلام حسن، أو ملك جَبَّار جائر، أو رجل كَذَّاب". ^(٤)
ج. الكواكب والنجوم : كان ينظر الى الكواكب في الأزمنة القديمة على أنها (آلهة) أو كأنها (دوائر تديرها الملائكة)، و "صورت كأنها مستقر النفوس الكبيرة" ^(٥) . وتدل الثُرَيَّا من النجوم في تفسير الأحلام عند المسلمين

١ - انظر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ١ / ٥٠٢، ٥٠٣.

٢ - تعطير الأنام : ٢/٢ .

٣ - تعطير الأنام : ٢/٢٥٤ .

٤ - تعطير الأنام : ٢/١٩٩ .

٥ - معجم الرموز : ١٤٨.

على " رجل حازم في الأمور؛ فمن رآها سقطت على الأرض دلّ على موت الأنعام وقلة الثمار في ذلك العام، ومن رآها من الصنّاع دلّ على نفاق ما يصنع وإحكامه". (١)

د. ومن دلالات الأبراج في علم التنجيم عند القدماء دلالة برج المشتري، إذ يوصف بأنه " سيار ، مُذكّر ، حارّ، وفاعل خير ، وهو يبعث بفكرة العدل والدين، وأنه مسؤول عن الناس طوال القامة، وبخاصة ذوي الشعر الأحمر المائل الى السُمرة (الأصحر). وأما بالنسبة الى المهنة فإنه يتعادل مع القضاة وأصحاب الأعمال العامة ورجال الكنيسة. وهو على علاقة بأمراض الكبد وخفقان القلب". (٢)

ويوصف برج الكبش (الحمل) بأنه مُذكّر، مرتبط بالنار، ومسؤول عن الأشخاص الصريحين المستقلين والمنبسطين، وهم ذوو الشعر الأحمر، والقامات المربوعة، ويتحكم بالرأس والوجه والأمراض التي تصيبهما وهو على علاقة خاصة ببلدان انكلترا وألمانيا والدنمارك وفلسطين وسوريا ومدن نابولي وفلورنسا (في إيطاليا) . لونه أحمر ، ويومه الثلاثاء. وأما حجارته فهي نوع من الياقوت الأزرق". (٣)

١ - تعطير الأنام : ١١٦/١. والنافق من البضائع ونحوها : "الرائج؛ الذي يرغب

الناس فيه ويُقبلون على شرائه" نَفَقَ يَنْفُقُ نَفَاقًا بالفتح. الرائد : ١٤٧ .

٢ - الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور : ٢٩٧.

٣ - الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور : ٢٩٨.

هـ. يدل (البَرْق) في السماء عند أرباب التصوف على " أول ما يبدو للعبد من اللوامع النورية؛ فيدعوه الى الدخول في حَضْرَةِ الْقُرْب من الربّ للسير في الله". (١)

و. أول الحروف وآخرها (في العربية : "الألف والياء) ، وفي اليونانية : (ألفا) و (أوميغا) وفي اللاتينية : (A-Z) ، يرمزان الى "مبتدأ الكون وآخره؛ فهما مفاتيحه لدى الحروفيين الذين يعتقدون أن الكون نفسه قائم بكليته بين هذين الحرفين. ويعتقد أهل العرفان أن الكون قائم بين (الكاف) والنون (=كُنْ) ... وترمز الألف والياء الى كلية الاعتقاد، كلية الوجود، كلية المكان والزمان". (٢)

ز. يوم الأحد عند النصارى "أول أيام الأسبوع، يوم ديني يقترن بقيامة السيد المسيح الذي صلب يوم الجمعة (بحسب ما يعتقدون) ، وبقي يوم السبت في الضريح، وخرج منه يوم الأحد. وفي هذا اليوم وقف بين الرسل وأنزل عليهم الروح القدس". (٣)

٧- ومن دلالات الأعلام ولاسيما الأنبياء ما يأتي :

١ - معجم مصطلحات الصوفية : ٣٤.

٢ - معجم الرموز : ٢٢، ٢٣.

٣ - خليل أحمد خليل: معجم المصطلحات الدينية : ١٥.

آدم (ع)^(١) : "يرمز في الحضارات والثقافات والتأويلات كلها الى الإنسان الأول وصورة الله".

- "هو الأول وجوداً وطبيعة وأخلاقاً".
- "هو المصّور على صورة الله (أي على الصورة التي صورها الله تعالى وخلقها) في أحسن تقويم. ويرمز آدم الى حقيقة الروح والعقل والذات والحرية".
- في بعض العقائد : " هو أول الخلق ، وهو أول الخطأ حين رغب في أن يكون واحداً مماثلاً لخالقه لا مغايراً له . هذا معنى الخطأ الأصلي ، معنى شذوذ الروح، الاستعمال العبثي للحرية ورفض التبعية للخالق".
- "يرمز آدم الى سلسلة من الأنبياء والرسل يدعون الى الله ... وهناك علاقة وثيقة في العقائد المسيحية بين آدم (الأول) ، والمسيح (آدم الجديد) .
- يعتقد اليهود أن آدم كان ثنائي الجنس، أي ذكراً وأنثى، " ولم تخرج منه حواء إلا لاحقاً". " آدم القديم هو رمز الإله الحي في الإنسان : عالم الإنسان الداخلي ... الرمز الأزلي الى حُب الله والأرض".
- في أساطير إيرلندية وسواها هناك أجداد أسطوريون للبشر، أي أكثر من آدم واحد، (آدم لكل جنس وعرق) ".

^١ - انظر: معجم الرموز : ١٥ ، ١٦.

ومن رأى آدم (ع) في المنام عند مفسري الأحلام المسلمين " فإنه أذنب ذنباً فليتب منه، وربما دلت رؤيته على الولد، أو السلطان، أو على العلم" (١)

- ومن رأى إدريس (ع) " أكرم بالورع، وختم له بخير ، وصار مجتهداً في العبادة بصيراً حليماً عالماً" . (٢)

- ورؤية إبراهيم (ع) في المنام " تدل على الخير والبركة والعبادة والرزق والإيثار، والاهتمام بالأبنية الشريفة، والذرية الصالحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والعلم والهدى" . (٣)

- ومن رأى إسماعيل (ع) "فإنه ينال فصاحة ورياسة، ويبني لله مسجداً". (٤)

- حواء أم البشر (٥) : هي ذات الطبيعتين . أسمها في اللاتينية يقرأ من الأول والآخر (EVE). وفي بعض التقاليد الرمزية تُصوّر مع آدم قبل المعرفة أي قبل أكلهما من الشجرة المحرمة " يرتديان رداء الخلود ، إذ كانت شهواتهما الدنيوية خاضعة للعقل، وكانا يعرفان الخالق بالعيان،

١ - تعطير الأنام : ١٢/١ .

٢ - تعطير الأنام : ١٣/١ .

٣ - تعطير الأنام : ١٣/١ .

٤ - تعطير الأنام : ١٥/١ .

٥ - انظر: معجم الرموز : ٥٩ ، ٦٠ .

أي أنه كان يتجلى لهما (بحسب بعض العقائد التجسدية) ، وكانا قبل المعرفة أو الخطيئة يتأملان نور الحضور الإلهي، وحلّ بهما الغم بعد الخطيئة" .

وترمز حواء الى ما يأتي :

أ. خلقت حواء من ضلع آدم بحسب الرواية التوراتية ، " وهي بذلك ترمز الى تبعة تكوينية، إنها المرأة الأولى ، الزوجة الأولى، أم البشر" .

ب. "ترمز حواء من داخلها الى العنصر الأنثوي في الرجل. يقال إن في داخل الرجل روحاً ونفساً^(١) . الروح مُذكر، والنفس مؤنثة" .

ج. "تعني حواء حساسية الكائن البشري، وعنصره (اللا عقلائي). وترمز الى اللحم والغضب (المرأة) ، فيما يرمز آدم الى الرجل والروح (العقل)" .

د. حواء " رمز الذكاء والعاطفة، وهي مع آدم إنسان كامل بالمعرفة والحب. تخلق معنى للحياة، وتستقبل هذا المعنى باللموس" .

هـ. وفي تعبير الرؤيا عند المسلمين تدل حواء في المنام " على البركة في الزرع والثمار ونتاج الأولاد وإدراك الفوائد من الصناعة كالنسيج

^١ - النفس - ها هنا - " تقع موقع القلب والضمير يكون فيه السرّ الخفيّ. وقد يُعبّر عن هذا بأن تكون بمعنى (عند) . تقول : أنا أعلم بما في نفسك" أي بما عندك. مجمع اللغة العربية : معجم ألفاظ القرآن الكريم: ٥٤٩/٢.

والحراسة والحِداة وغير ذلك . وربما دلت رؤية آدم وحواء على النُّقْلة من محل شريف الى ما دونه، وعلى الزَّلَل والوقوع في المحذور وشماتة الحاسدين" . (١)

٧- رموز ودلالات متنوعة :

- (الدائرة) من الأشكال الهندسية، ولها رموز مختلفة ، منها ما يأتي: (٢)
أ. "ترمز الدائرة الى الكمال. للنقطة والدائرة خصائص رمزية مشتركة: الكمال والتناغم وعدم التناثر أو الانقسام" .
ب. "ترمز الدائرة الى الكمالات الخفية للنقطة الأولى، وترمز الى العالم بوصفه مختلفاً عن أصله ، نقطة بدايته" .
ج. "تدل الدائرة ذات المراكز المشتركة على درجات الوجود ومراتب المخلوقات" .
د. "ترمز الدائرة الى السماء الكونية، وخصوصاً الى علاقاتها بالأرض" .
هـ. ترمز النقطة المركزية عند الحلاج "الى التوحيد ، أي العلم (علم ما لا يُعلم) ، وترمز الدائرة الى العالم الظاهري" .
و. في الفلسفة الصينية "يشير (يونغ) الى أن رمز الدائرة هو صورة مثالية قديمة عن كلية النفس، عن رمز الذات، في حين يرمز المربع الى المادة الأرضية، الجسد والواقع" .

١ - تعطير الأنام : ١/١٧٢.

٢ - انظر: معجم الرموز : ٦٩ ، ٧٠.

- يرمز القَرْنان على الخُوذة في التصوير الفني الأكدي الى المُلْك. وأشهر صورة بارزة وصلت إلينا وأجملها نُصَب نرام - سين (Naram - Sin) الذي يعود الى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، " وهو تذكّار لانتصار حربي أحرزه ... والمنظر المرسوم جبل يصعده نرام - سين، وهو خفيف الحركة ولكنه مع ذلك مهيب، يحمل قوساً وسهاماً ويلبس خوذة يعلوها قرنان هما رمز ملكه" . (١)
- وهذا النُصَب بما فيه من تصوير وتمثيل دليل واضح على أن القرنين على الخوذة علامة للمُلْك عادة موغلة في القدم في الممالك الشرقية القديمة ولاسيما بلاد الرافدين وبلاد فارس، وربما يكون (ذو القَرْنين) الوارد ذكره في القرآن الكريم^(٢) لُقّب بذلك لقرنين على خوذته، وربما انتقل هذا الشعار الى بلاد اليونان وغيرها في أوربا ولذلك وصف الإسكندر المقدوني بـ (الإسكندر ذي القرنين) ، وهو من دون شك ليس المقصود في القرآن الكريم بل المقصود على الأرجح أحد ملوك فارس القدماء.

١ - الحضارات السامية القديمة : ١١٠.

٢ - في قوله تعالى من سورة الكهف : ٨٣ (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا) .

- ويرمز التاج^(١) في الأساطير البوذية الى تاج المُلْك (الإلهي أو البشري، وله خمسة ألوان:

أ. الأخضر : يدل على الشِّمال (انعدام الخوف).

ب. الأحمر : يدل على العَرَب (التأمل) .

ج. الأزرق : يدل على الشرق (الشهادة) .

د. الأبيض: يدل على الوَسْط (العِبْرَة أو التعليم) .

هـ. الأصفر : يدل على الجَنُوب (المحبة) .

ويدل التاج في تعبير الرؤيا عند المسلمين " على العِلْم والقرآن والمُلْك.

وربما دَلَّ لبس التاج على تجديد ولد أو بلد أو إرغام عدو" . (٢)

ومن عادات الإنسان القديم قبل التأريخ صور ورسوم اكتشفت في الكهف

تظهر نساءً يقطعن سُلَامِيَّات أيديهن. وتوصل علماء الآثار الى أن هذا

العمل يدل على أرامل فقدن أزواجهن^(٣) . ونجد في الأساطير المصرية

١ - انظر: معجم الرموز : ٣٦.

٢ - تعطير الأنام : ١١٠/١.

٣ - انظر: أديان ما قبل التأريخ : ٩٨. والسُّلامى : عِظام الأصابع، أو هي " عظام

صغار طول إصْبَع أو أَقْلَ في اليد والرَّجْل " ، تجمع على سُلَامِيَّات بفتح الميم.

الفيروز آبادي: القاموس المحيط : ٧٤/٤.

القديمة عظام الملوك مصنوعة من الفضة وشعرهم مصنوع من الذهب؛
"... فالفضة البيضاء رمز الى النقاوة ولكل أنواع الطهارة" . (١)

- يرمز البحر عند أهل التصوف الى " العالم والقلب البشري بوصفه مركز
أهواء، ويدل على عاصفة الحياة، إذ يغرق بعضهم وينجو آخرون" (٢)

- وَرَمَزُمُ (٣) : بئر تأريخية مباركة في مكة لها علاقة بهاجر زوجة إبراهيم
(ع) وولدها اسماعيل (ع) . وتشير عند الصوفية الى " علوم الحقائق،
والشرب منها إشارة الى التسلع من ذلك " . (٤)

- استعمال الرمز استعمالاً واسعاً واتسم الفن بالطابع الرمزي في حضارة
وادي الرافدين. وأهم سمة لاستعمال الرموز في هذه الحضارة دلالة
الجزء الغالب والمميز على الكل. قال موسكاتي : " ... وقد أدى الطابع
التقليدي لفن حضارة الرافدين الى استعمال الرمز استعمالاً واسعاً؛
فالجبل - مثلاً - يرمز إليه بحجارة وضعت إحداها فوق الأخرى،

١ - معجم الرموز : ١٢٩.

٢ - معجم الرموز : ٣٠.

٣ - في المصباح المنير ص ٢٥٦: " رَمَزُمُ : اسم لبئر مكة ، لا تتصرف للعلمية
والتأنيث " .

٤ - معجم المصطلحات الصوفية : ٢٠ . يقال : "تَضَلَّعَ الرجلُ : امتلأ شَبْعاً وِرِيّاً"
مختار الصحاح : ٢٤١.

والماء يرمز إليه بخطوط متموجة تقطعها هنا وهناك دوامات صغيرة
وصور أسماك". (١)

- البيت وما تفرع منه عند المتصوفة: البيت المعمور ، والبيت الحرام ،
وبيت الحكمة ، وبيت العِزَّة ، وبيت المَقْدِس: "البيت : هو القلب ،
والبيت المعمور: هو المحل الذي اختصه الله تعالى لنفسه؛ فرفعه من
الأرض الى السماء وغمره بالملائكة، ونظيره قلب الإنسان؛ فهو محل
الحق ولا يخلو أبداً ممن يُعَمِّرُه. والبيت الحرام : قلب الإنسان الكامل
الذي حُرِّم على غير الحق . وبيت الحكمة : هو القلب الغالب عليه
الإخلاص. وبيت العِزَّة: هو القلب الواصل الى مقام الجمع حال الفناء
في الحق. وبيت المَقْدِس: هو قلب طَهَّرَ عن التعلق بالغير" . (٢)

- العصا: ترمز العصا في الأساطير الهندية الى " سلاح بين يدي الآلهة،
ولاسيما الإله (ياما) حارس الجنوب ومملكة الموتى" . (٣)

وكانت العصا في الصين القديمة " تستعمل لطرد المؤثرات المشؤومة
لدى حلول العام الجديد، وكانت العصا الحمراء تستعمل لمعاقبة

١ - الحضارات السامية القديمة : ١٠٦.

٢ - معجم مصطلحات الصوفية : ٣٧.

٣ - معجم الرموز : ١١٧.

المجرمين، لهذه العصا الحمراء سبع أو تسع عُقَد ترمز الى عدد السماوات والأفلاك" (١).

- الشُّكْر : في عرف الصوفية : " دَهَشٌ يلحق سِرَّ المُحِبِّ في مشاهدة جمال المحبوب فجأة، لأن روحانية الإنسان التي هي جوهر العقل لما انجذبت الى جمال المحبوب بَعُدَ شُعَاعُ الْعَقْلِ عن النَّفْس، وَذَهَلَ الْحِسُّ عن المحسوس، وألَمَّ بالباطن فرح ونشاط وهزة وانبساط لتباعده عن عالم التفرقة، وأصاب السِّرَّ دَهَشٌ وَلَهْ وهيجان لِتَخْبُرَ نظره في شهود الحق. وتسمى هذه الحالة سُكْرًا لمشاركتها السكر الظاهر في الأوصاف المذكورة". (٢)

- شارة الطبابة (Caduceus) (٣) : من أقدم الرموز المنقوشة على كوب الملك (غوديا اللاغاشي). ويعود الكوب الى سنة (٢٦٠٠ ق.م). ونقشت الشارة أيضاً على الألواح الحجرية المسماة في الهند ناغاكال (Nagakals).

أ. شارة الطبابة في عصرنا هي صولجان (هرمس) : "عصا تلتف حللها حَيَّتَان في اتجاه متعاكس. ترمز الى توازن الوجه والقفا واليسار واليمين، والنهار والليل". "للأفعى وجهان: خير وشر ، مثل

١ - معجم الرموز : ١١٧.

٢ - معجم المصطلحات الصوفية : ١٣١.

٣ - انظر: معجم الرموز : ٩٥، ٩٦.

- الحياة، وللشارة الطبية الدلالة اتها: دلالة التصارع والتوازن بين الاتجاهات أو التيارات الكونية، التوازن النفسي /الجسدي" .
- ب. "تعود أسطورة الشارة الطبية الى السديم الأول (حيتان تتقاتلان)، والى قطبية إقدام هرمس على الفصل بين الحيتين بعصا تدور حولهما الحيتان، أي تدوران حول المحور، وهما يرمزان الى التوازن النهائي بين النزعات المتغالبة" .
- ج. "تعد الشارة الطبية من رموز السلام، ويعد هرمس من رسل الآلهة؛ فهو مرشد الكائنات في قلب أصولها هبوطاً وصعوداً" .
- د. حين يرتفع جناحان فوق الشارة الطبية يغدو الرمز توفيقاً بين الأرضي والسمائي (الأفعى المجنحة) " .
- هـ. "ترمز الشارة الطبية الى العصا السحرية ، والشجرة المقدسة في الطقوس الهندوكية، وبلاد الرافدين (العصا المركزية) ، أي مقام الآلهة" .

القسم الثاني : الأسطورة

الأسطورة عامل فاعل ومنفعل في الوقت نفسه يمثل التلاقي بين اللغة والحضارة، وكونها عاملاً منفعلاً يظهر في أنها تتضمن معاني دلالية عميقة في ثقافات الشعوب من حيث ارتباطها بالعقائد والأديان والعادات والتقاليد الاجتماعية، ومن ثم باللغة.

وكونها عاملاً منفصلاً يتضح من خلال رسمها لأبعاد ثابتة ومتغيرة لعلاقة الإنسان بالإنسان، وعلاقته بالكون، وتفسيره للأشياء المحيطة به . والبحث في الأسطورة حقل من الأنثروبولوجيا تتداخل فيه الحضارة والمجتمع والدين والجنس...الخ، فهو بحث خليط يستعين بالتأريخ وعلم الآثار والجغرافية الاجتماعية ، ولذلك تعددت مفاهيم الأسطورة وتعريفاتها مصطلحاً ودلالة ومضموناً.

وفيما يأتي خلاصة لأهم ما قيل في شأنها بحسب الأفكار والمناهج والمبادئ : (١)

- تطلق على الأسطورة كلمة (Myth)، وتعرف اصطلاحاً بكلمة (Mythology) أي علم الأساطير.
- يستعمل مصطلح (الميثولوجيا) للدلالة على أمرين " الأول: دراسة الأسطورة بالمعنى الحرفي للكلمة. والثاني : مجموعة الأساطير و(الليجنات) منظوراً إليها كلها لأي ثقافة خاصة كميثولوجيا اليونان القديمة على سبيل المثال " .

^١ - انظر: نور الدين خليل : قاموس الأديان الكبرى الثلاثة: ٥٠٤، وبونت وإيزار وآخرين: معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا: ٦٨، وسميث: موسوعة علم الإنسان: ٩٣، وشابيرو وهندريكس: معجم الأساطير: ٧، ومسلان: تأريخ الأديان: ٢٧٣، ومحمد عجينة: موسوعة أساطير العرب: ٧٤.

والليجندات: " عبارة عن قصص أقيمت على دعائم من الواقع والتأريخ المتعلقين بالأبطال والأحداث مهما كان حظها ضئيلاً وقد انسقت مع الأساطير في هذا التخييل الوهمي " .

- إن مصطلح أسطورة يستعمل على نحو عام للإشارة الى " الحكايات التي تكون ذات طابع مقدس أو ديني واجتماعي أكثر من كونها ذات طابع فردي، أو سردي في موضوع معين، أو تهتم بنشأة بعض الظواهر الطبيعية، أو فوق الطبيعية (ما وراء الطبيعة) ، أو الثقافية الاجتماعية" .

- "إن تعريف الأسطورة والتمييز بينها وبين الانواع الأخرى من التراث الشفهي كالحكاية الشعبية، أو الحكاية الأسطورية ليس تمييزاً صارماً" .
و "المحاولات التي بذلت للفصل بين الأسطورة ودراسة الأشكال الأخرى من التراث الشفوي لم تحظ بقدر كبير من النجاح" .

- "يشير مصطلح علم الأساطير الى معنيين متميزين : يشير أولهما الى مجموعة الأساطير الموجودة في إقليم معين، أو لدى جماعة معينة، ويشير الثاني الى دراسة الأساطير نفسها" .

- ينبغي التفريق بين معنيين للأسطورة : المعنى الأنثروبولوجي لهأن والمعنى الشائع بين العامة الذي (يشير الى معتقد زائف) ؛ فالمعنى الأول يختلف عن المعنى الثاني من حيث الاستعمال.

- "الأساطير هي قصص تأسيسية يتناولها أعضاء مجتمع من جيل الى جيل منذ أقدم العصور".
- "يشغل الزمنه مكانة رئيسة في تعريف الأسطورة ، ليس فقط من داخل الخطاب الأسطوري ... بل أيضاً لأنه يلعب دوراً حاسماً في سيرورة صياغة الأسطورة بصفقتها غرضاً".
- "لكي تتشكل أسطورة من حدث أو قصة أو سرد يتسم بالفردة في البداية يجب أن يتوافر شرطان أساسيان : من جهة يجب أن تدخل عناصرها في علاقة تطابق دلالي وشكلي مع مجمل أساطير الشعب المعني، ومن جهة أخرى يجب أن يهمل ويندثر مصدرها الفردي لكي تصبح قصة عامة أنموذجية، مع كون هذين المظهرين الأساسيين يتشكلان عبّر بُعد وحيد هو الزمن".
- الأسطورة والخُرافة والوَهْم: " قصة تقليدية قديمة عن الآلهة والأبطال، وخاصة تلك التي تقدم تفسيراً لحقائق أو ظواهر معينة، قصة ذات معنى غامض أو خفي، ما يعتقد عموماً أنه غير حقيقي أو بلا أساس".
- ميشال مسلان: الأسطورة " هي كشف رمزي لعلاقات الإنسان مع الكائنات ومع الإلهة". هي " لغة خاصة بالإنسان ... ليست ناتجة عن تخيل صِرْف كما اعتقدنا ذلك طويلاً تحت التأثير المُبالغ لعقلانية صارمة، ولكن عن تعبير أولي مباشر لحقيقة مدركة حدسياً من جانب الإنسان".

- الفيلسوف الفرنسي (دوران) : الأسطورة " نَظْمُ لوقائع رمزية في مجرى الزمان " .
- بول ريكو (Paul Ricoeur) : " الأسطورة حكاية تقليدية تروي وقائع حدثت في بداية الزمان، وتهدف الى تأسيس أعمال البشر الطقوسية حاضرا وبصفة عامة الى تأسيس جميع أشكال الفعل والفكر التي بوساطتها يحدد الإنسان موقعه من العالم؛ فالأسطورة تُثَبِّت الأعمال الطقوسية ذات الدلالة، وتُخبرنا عندما يتلاشى بُعْدها التفسيري بما لها من مغزى استكشافي، وتتجلى من خلال وظيفتها الرمزية، أي ما لها من قدرة على الكشف عن صلة الإنسان بمقدساته".
- وفي التخرج العربي لكلمة (أسطورة) و (أساطير) ما ورد في لسان العرب^(١) : "الأساطير الأباطيل، والأساطير أحاديث لا نظام لها" ، مفردها ألفاظ عديدة، ومنها أُسْطُورٌ وأُسْطُورَةٌ. وورد في اللسان أيضاً في مادة (خرف) ^(٢) : "الخُرَافَةُ الحديث المُسْتَمَلَح من الكَذِب...". وتطلق الخُرَافَةُ وجمعها الخُرَافَات على حديث الليل، و "كل ما يكذّبونه من الأحاديث، وعلى كل يُسْتَمَلَح ويُتَعَجَّبُ منه" . وذكر ابن الكلبي في قولهم: (حديثُ خُرَافَةٍ) " أن خُرَافَةً من بني عُذْرَةَ، أو من جُهَيْنَةَ اختطفته

١ - (سطر) : ٢٨/٦ .

٢ - ٤١٢/١٠ .

الجنّ ثم رجع الى قومه، فكان يُحدّث بأحاديث مما رأى يَعْجَبُ منها الناس فكذّبوه". وهذه القصة من أساطير العرب في الجاهلية. وكلمة (أساطير) جمعاً لأسطورة من ألفاظ القرآن الكريم. قال الراغب الأصبهاني^(١): "... وأما قوله تعالى (أساطير الأولين) ، فقد قال المبرّد: هي جمع (أسطورة)، نحو أَرْجُوحة وأراجيح... وأحدوثة وأحاديث. وقوله تعالى : (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطيرُ الأولين) ، أي شيء كتبوه كذباً وميناً فيما زعموا نحو قوله تعالى : ((أساطير الأولين اكتبها فهي تُملَى عليه بكرةً وأصيلاً)) . ووردت كلمة (أساطير) جمعاً لأسطورة في قوله تعالى : (يقول الذين كفروا إنّ هذا إلّا أساطيرُ الأولين -الأنعام: ٢٥) . واللفظ في الأنفال: ٣١ ، والنحل: ٢٤ ، والمؤمنون: ٨٣ ، والفرقان: ٥ ، والنمل: ٦٨ ، والأحقاف: ١٧ ، والقلم: ١٥ ، والمطففين: ١٣ . وفي معجم ألفاظ القرآن الكريم^(٢) : "الأساطير ... هي الأحاديث لا نظام لها ، أو الأباطيل".

ونستنتج مما تقدم ذكره أن العناصر الأساسية للأسطورة تشتمل على ما يأتي:

- ١- الثقافة الخاصة للأمم والشعوب.
- ٢- التواريخ المتعلقة بالأبطال والأحداث.

١ - المفردات في غريب القرآن: ٣٣٩.

٢ - ٥٦٧/١.

- ٣- حكايات ذات طابع مقدس أو ديني واجتماعي.
 - ٤- الاهتمام بالظواهر الطبيعية وما وراء الطبيعة.
 - ٥- قصص أساسية في مجتمع ما تنتقل من جيل الى جيل.
 - ٦- الزمن والرمز عنصران أساسيان في الأسطورة.
 - ٧- الأساطير ذات طابع عام، وينبغي أن تغفل العوامل الفردية فيها من حيث النشأة والشيوع والتداول والانتقال من جيل الى آخر.
 - ٨- قصص قديمة عن الآلهة والأبطال ذات معنى غامض أو خفي.
 - ٩- الأسطورة رمزية علاقة الإنسان بالكائنات والآلهة.
- وبذلك يمكن أن نطمأن الى تعريف بالأسطورة يتسم بالشمول قدر الإمكان، والدقة والوضوح، وهو أن الأسطورة عبارة عن : قصص وحكايات تتضمن تواريخ الأبطال والأحداث، والظواهر الطبيعية وما وراء الطبيعة، ذات صفة دينية واجتماعية لثقافة شعب من الشعوب، أو أمة من الأمم، تتوارثها الأجيال عبر التاريخ، ولا يعرف لها فرد من حيث النشأة والشيوع والتداول والانتقال، ويمثل فيها الزمان والرمز عنصرين أساسيين، وتظهر في مجملها علاقة الإنسان بالخلق والخالق.
- والعلم الذي يتناول الأسطورة بالدرس يسمى علم الأساطير (Mythology) ، وهو مصطلح غربي النشأة ويدخل في ضمن الدراسات الأنثروبولوجية. وشاع في العربية استعمال المصطلح الدخيل بلفظه: (ميثولوجي) أو (ميثولوجيا).

وأما الأسطورة نفسها التي تطلق عليها كلمة (Myth) فهي ترجمة للمصطلح الغربي، ويجب -ها هنا- أن نترث في هذه المسألة لنسأل: هل الترجمة صحيحة بكلمة (أسطورة)؟ وهل يمكن أن تترجم الى كلمة أخرى مثل (خُرافة) ؟

وقد ذكرنا فيما سبق الأرومة العربية لكلمتي (أسطورة) و (خرافة) ، ولاحظنا أن الأسطورة تدل على الكلام المتصف بالكذب والباطل، والأحاديث المتأرجحة التي لا نظام لها من الحقيقة والصدق. وقريب من معنى الأسطورة في العربية كلمة (خرافة)؛ فهي تدل على كل حديث كذب مستملح، أي مستطرف يثير العجب عند سامعه.

وقد شاعت كلمة (أسطورة) وجمعها (أساطير) ترجمة للمصطلح الغربي المذكور آنفاً على ألسن الكُتّاب والمترجمين العرب و المستعربين، وبلغ حدّ الشيوخ أن دخلت الكلمة بمدلولها الاصطلاحي الجديد في المعجم العربي، وأعني بذلك العقل الجمعي العربي، وقلما نجد من يترجمها بكلمة (خرافة) على الرغم من أن الكلمتين بعيدتان عن معنى المصطلح الغربي وفحواه ومدلوله. ويفضل بعضهم استعمال (الميثولوجي) أو (الميثولوجيا)، أي اللفظ الأصلي الغربي للكلمة للدلالة على الأسطورة وعلم الأساطير معاً ، فيقال مثلاً: الميثولوجيا المصرية ، أو الهندية ، أو الصينية، وميثولوجيا بلاد وادي الرافدين، أو بلاد ما بين النهرين ...الخ، إلا أن ما شاع واستقر في الأذهان وجرى على ألسنة الكُتّاب يرجح استعمال كلمة (أسطورة) وجمعها

(أساطير) ترجمة للمصطلح الغربي، لأن ما شاع أفضل من غيره، على أن تستعمل عبارة (علم الأساطير) أو اللفظ الأصلي (ميثولوجي - ميثولوجيا) للدلالة على العلم الذي يتناول الأسطورة بالبحث والدراسة. وتتصف الأسطورة من حيث صلتها الدالية باللغة بأنها (لغة ذات دلالة ثانية) كما ذهب الى ذلك (رولان بارت) ، و (كلود ليفي شتراوس). وفسر محمد عجبينة ذلك بقوله: " معنى ذلك أن الأسطورة تتألف من نظام دالّ موجود سلفاً هو نظام اللغة -بحسب تعريف الألسنية - والمدلول فيها أقل ارتباطاً بدالّه من ارتباط الدالّ بالمدلول في مجرى الكلام العادي" (١). ولكني أرى المعنى المستفاد من العبارة المذكورة آنفاً هو أن الدلالة في لغة الأسطورة وما ترمز إليه هي من قبيل الدلالة الهامشية الإيحائية التي لم تصل الى مرتبة الدلالة المركزية لتتصف بالثبات النسبي في لغة الجماعة أو في معجمها المخزون ذهنياً.

وللبنية الرمزية للغة في الأسطورة صلة بالرمزية الدينية، والتصور الواعي وغير الواعي للفرد والجماعة. قال مسلان معبراً عن ذلك : " كَشَفَ المعرفة الواسعة، والفهم الجيد للمجتمعات القديمة، الى جانب الاهتمام الواسع المتعلق ببيئة اللغة الأسطورية، والأهمية المنوطة بكل تنظيم إنساني، أي بكل (منظومة دينية للغة الرمزية، وفي الوقت نفسه أبان علم نفس البواطن عن تطور مهم واعٍ وغير واعٍ)، (فردى وجماعي) لصور ورموز هي بمثابة

١ - موسوعة أساطير العرب : ٦٩ .

أحلام اليقظة للإنسان، وكشف عن وجود نشاط (رمزي غائر في الطبيعة البشرية)؛ فالرمز يظهر في الاكتشافات التي تحصل في عصرنا كأمر مرتبط بوجود الإنسان، فهو يتداخل ضمن جميع علاقات الفرد مع غيره، ومع الألوهية أيضاً". (١)

وربط محمد عجينة في تعريفه بالأسطورة بين اللغة والنظام الرمزي من جهة ، والوعي الجماعي واللاوعي من جهة أخرى، فقال : " الأسطورة نمط خاص من أنماط التعبير ، أو لغة خاصة تستند الى اللغة الطبيعية، ونظام رمزي يُعبّر عن مشاغل البشر الفردية منها والجماعية لاتصالها بجانب الوعي منهم على اختلاف أشكاله من دين وتاريخ وفلسفة، أو بما لا يقع منهم تحت دائرة الوعي والإدراك، ولاتصالها أيضاً بالفعل والنشاط ومختلف أشكال التأثير في الكون والمجتمع من طقوس وشعائر وسحر وشعر وأدب وفن... وهلمَّ جَرّاً". (٢)

ولكل شيء غاية وهدف، والغاية من الأسطورة خليط من أمور شتى (٣) ، منها تفسير الطبيعة ونشأتها والحاجة الى سيطرة الإنسان على بيئته، وظهور الأديان والعقائد لتفسير علاقة الإنسان بالطبيعة من خلال معبوده،

١ - علم الأديان: ٢٤٥.

٢ - موسوعة أساطير العرب: ٣٥.

٣ - انظر: معجم الأساطير : ٧ .

وإقامة عبادات بمساعدة (الشامانات)^(١) ، ومنها تفسير التقاليد والعادات الاجتماعية والدينية، ومنها ما تقتصر الغاية منها على (المتعة والتفنن في رواية القصص) ، ولكن الأخيرة من أضعف الإيمان، وعلى الأرجح لم تكن غاية أو هدفاً من وضع الأسطورة وإنما هي وسيلة من وسائل اللهو والاستمتاع العقلي والنفسي.

وثمة صلة ترابطية أو تفسيرية بين الأسطورة والشعائر الدينية؛ فقد "لاحظ الأنثروبولوجيون منذ سنوات عديدة أن هناك ارتباط بين الأسطورة والشعائر، وتنجلي هذه الصلة في الأداء الشعائري للأسطورة ، وفي العناصر الرمزية المشتركة بين الأساطير والشعائر. وقد أدى هذا التشابه الى الكثير من الجدل والمناقشات" .^(٢)

ويمكن القول إن إقامة الشعائر والطقوس الدينية وغيرها من التقاليد الاجتماعية من حيث صلتها بالأسطورة إنما هي تمثيل عملي لمغزى الأسطورة وهدفها والاستفادة من ذلك في تأكيد القيم الدينية والاجتماعية.

١ - "الشامانية (Shamanism): مصطلح سيبيري (نسبة الى سيبيريا) يشير الى مركب من المعتقدات والممارسات الدينية والطبية السلافية المنتشرة في بيئة متنوعة (عرقياً وجغرافياً) سواء في آسيا أم في إفريقيا أو لدى سكان أمريكا الأصليين. ويُعرّف (الشامان) عادة بأنه ذلك الذي يختص بالدين مدة من الزمن، وتعتمد قدراته على الخبرة الشخصية المباشرة". موسوعة علم الإنسان : ٣٤٥ .

٢ - موسوعة علم الإنسان : ٩٣ ، ٩٤ .

وكانت الحويلة من الصلة القائمة بين الأسطورة والشعائر احتدام الجدل بين علماء الأنثروبولوجيا حول أسبقية الأسطورة أو الشعائر^(١) ، وانقسموا على فريقين: فريق يرى " أن الأسطورة هي العامل الأساسي، وأن الشعائر هي أداء لها وتعبير عنها" ، وفريق آخر عكس ذلك أي أسبقية الشعائر على الأسطورة ، و "أن الشعائر هي الأساس والأصل وأن الأسطورة هي تفسير لها" ، ولكن الجدل في هذه المسألة انتهى أو كاد ينتهي عند الأنثروبولوجيين المعاصرين ، وخلصوا الى مبدئين: الأول: أن "الأسطورة والشعائر يرتبطان معاً بعلاقات متبادلة، وأن كلاً منهما يصلح لتفسير الآخر" .

والثاني: الانصراف الى دراسة "العلاقة القائمة بين الأسطورة والشعائر والنظام الاجتماعي بدلاً من محاولة تحديد أولوية واحد من الجانبين من جوانب الإبداع الديني لمجتمع معين على آخر" .

وأرجح القول - بعد استقراء المضمون الدلالي والرمزي للأسطورة- بأن الشعائر دينية كانت أو اجتماعية والأسطورة ظهرت معاً ، وليست لإحدهما أسبقية على الأخرى، وهو قريب مما ذهب إليه البحث الأنثروبولوجي المعاصر.

١ - انظر: موسوعة علم الإنسان : ٩٤ .

وهناك سمات مشتركة بين أساطير الشعوب تشتمل على المكونات الأساسية لها^(١) ، وأهمها:

١- المسائل المتعلقة بخلق الكون أو الأرض، والنظام الشمسي، وأصل الآلهة وسلالاتها ، والأسباب والبدائيات للأشياء على نحو عام.

٢- سمة التشخيص ، إذ "اتخذت الأساطير شكلها بالتشخيص، أي جعل المظاهر الطبيعية أو الأشياء الجامدة أو الصفات والمجردات تتخذ شكلاً بشرياً؛ فتضفي عليها السمات البشرية" .

٣- السمة الإنسانية ، إذ يعزى " الشكل الإنساني والصفات والمفاهيم إلى إله أو حيوان أو نبات أو شيء آخر. وعن طريق التأليه ارتفع الناس والتشخيصات التي شخصوها إلى مرتبة إله" .^(٢)

وعنصر (التقديس) من العناصر المهمة في تكوين الأسطورة، ويراد به أن تكون الأشياء يكشف عن انبثاق الصفة المقدسة للعالم. قال ألياد: " إن وصف كيفية وجود الأشياء هو تفسير وإجابة غير مباشرة عن سؤال آخر: لماذا وجدت تلك الأشياء؟؛ ف(لماذا) هو دوماً متداخل في (كيف) . ويرجع ذلك لسبب بسيط، وهو أن رواية كيف ولد شيء من الأشياء تكشف النقاب

١ - انظر : معجم الأساطير : ٩ ، ١٠ .

٢ - معجم الأساطير: ١٠ .

عن انبجاس المقدس في العالم، وهو السبب الأقصى لكل وجود واقعي" (١)

وبين (الأسطورة) و(الزمان) وشيجة صلة تفسيرية فضلاً عن الصلة التكوينية كما أشرنا الى ذلك سابقاً؛ فينظر الى تجدد الزمان - مثلاً - عبر تجدد السنين عند الإنسان في الحضارات القديمة، فالإنسان ذو المنحة الديني في الثقافات الغابرة " يرى أن العالم يتجدد في كل سنة، وبعبارة أخرى ، أن العالم يجد في كل سنة جديدة (القداسة) الأصلية التي تحلّ بها عندما خرج من بين يدي الخالق" . (٢)

ولما كانت الأسطورة مرتبطة بالدين في بعض صلاتها أثّرت مسألة الإيمان بين المعنيين بمثل هذه الدراسات، أهو بالفطرة أم بالأصل الطبيعي للدين؟ إن طائفة يعتقد بها من الباحثين آمنت بالمبدأ الفطري للإيمان خلافاً للأصل الطبيعي، ومسلان من هؤلاء إذ قال : " الإنسان ليس بإمكانه صنع الآلهة على صورته، إذ في جوهر الشعور الديني يكمن وعي نفسي بما هو مفارق للإنسان ومتعالٍ عن ظرفه الخاص" . (٣)

واتخذ مبدأ (الإيمان الفطري) سبيله الى تكوين مدرسة فكرية في أوروبا متأثرة بأفكار الفيلسوف الألماني (رودلف أوتو : ١٨٦٠م - ١٩٣٧م) ،

١ - المقدس والعادي: ١٢٨ .

٢ - المقدس والعادي : ١٠٩ .

٣ - علم الأديان : ٨٨.

والفيلسوفين اللاهوتيين (فريس) و (أبلت)^(١) ؛ فكان أوتو يرى " أن الدين لصيق بكل تجذر بالذهنية الإنسانية، ومن اللازم خوض عملية تحليلية ذات طابع نفسي حتى يتم بمقتضاها معانقة الإلهي " . وفي هذه العملية التحليلية للمقدس كما يقول مسلان " يرتكز أوتو على منهج المعرفة القبلية لـ(فريس) و (أبلت)، وهما فيلسوفان ولاهوتيان من أتباع الكانتية المحدثه، كان لهما بالغ الأثر عليه " .

وتعد (المعرفة) في هذه المدرسة الموضوعية مستقلة عن الخبرة؛ فالمعرفة الذاتية هي وليدة الخبرة الذاتية من دون أن تكون نتاج الخبرة المعاشة، في حين يظهر التحليل النفسي أن لدى أي شخص أفكاراً ومفاهيم يصعب تفسير أصلها تجريبياً، ومن الصعب البرهنة عليها إلا بالتأكيد على أنها طبيعية أو أصلية لدى الإنسان، أو أنها من جانبها عناصر إيمان، كتمثلات الله والروح والحرية الحاضرة في الوعي الإنساني في مختلف الخبرات الدينية. وبما أن هذه الأفكار هي نتاج إدراك ظرفي فإنه يصعب البرهنة عليها" .^(٢)

وصدر (ليفي شتراوس) الأنثروبولوجي الفرنسي عن مفهومه الخاص بالأسطورة في كتابه المعنون بـ (الأساطير = Mythologiques) الذي صدر خلال الفترة من سنة ١٩٦٤م حتى سنة ١٩٧٢م المتضمن مفهومه،

١ - انظر: علم الأيدان : ٨٦ ، ٨٧.

٢ - علم الأديان : ٨٧.

وهو مفهوم يستند الى أن الأسطورة نوع من أنواع التفكير ومثال لصناعة (المبادئ البنائية العامة التي تكمن وراء كافة النظم الاجتماعية والثقافية، وحلل الأسطورة على أنها (أداة فكرية تستخدم لتأمل التناقضات الإنسانية العامة أو الخاصة، وأنها تعتمد على المستوى الرمزي في حل هذه القضايا).

وخلص الى نتائج أبرزها ما يأتي : (١)

١-ينبغي أن ينظر الى الأسطورة على أنها صيغة أصلية (تحتوي على سلسلة من التحريفات والتشويهات، وتشتمل على كل الصيغ الموجودة الممكنة. ومعنى ذلك التخلي عن فكرة البحث عن صيغة أصلية أو صحيحة للأسطورة ، والاتجاه نحو الاهتمام بعملية الخلق والتعديل الدائم للمعرفة الأسطورية والفكر الأسطوري ، أي جعل الأسطورة ذات صفة تعديلية متحركة غير ثابتة أو ساكنة. ويمكن أن يعبر عن ذلك بـ) ديناميكية الأسطورة عبر الزمان) .

٢-الاهتمام بالعلاقة بين الأسطورة والتنظيم الاجتماعي. وبموجب هذه العلاقة يمكن تفسير كل أسطورة في ضوء علاقتها بالسياق الاجتماعي الذي توجد فيه، ومن ثم تيسير عملية تتبع العلاقات بين عدد هائل من الأساطير المختلفة التي تنتمي الى بيئات ثقافية متنوعة.

٣-إن وظيفة الأسطورة في نهاية الأمر هي (ما تتبناه الجماعة) ما يؤدي الى نتيجة مفادها (أنه لا شيء قابل للتطبيق سوى ذلك الذي تتبناه

١ - انظر: موسوعة علم الإنسان : ٩٥.

الجماعة). ومن خلال البعدين الفكري والرمزي يمكن لعلم الأساطير أن يتجاوز الحدود السوسولوجية ويشكل شبكة ذاتية الاتساع من التحولات والتغيرات والارتباطات الرمزية.

إن التشابك الحاصل في آراء شتراوس المتعلقة بالأسطورة، وربما الخلط بين أبعادها وعناصرها يقودنا الى إظهار أربع مسائل تعد جوهر فكرته، وهي : الفكر ، والبيئة الاجتماعية ، والرمز، والحركية عبر الزمان، وربما عبر المكان أيضاً لو أتيحت فرصة التناقل بين الأساطير في الثقافات المختلفة. وقد عني مالفينوفسكي (١٨٨٤م - ١٩٤٢م) بالبعد الاجتماعي للأسطورة ، وجاء مفهومه للأسطورة ملائماً لهذا البعد إذ جعلها (نوعاً من أنواع الميثاق الاجتماعي؛ فهو يرى أن الأسطورة " يجب أن تفسر باعتبارها نوعاً من الميثاق الاجتماعي ، أي كنوع من تبرير عادات وسلوك جماعة معينة، وأكد ضرورة محاولة فهم الأساطير في ضوء سياقها الاجتماعي المعاصر" .^(١)

وأما (فرويد) وأتباعه من مدرسة التحليل النفسي فقد ذهبوا الى التفسير النفسي للأسطورة مع أهميته الرمزية فيها^(٢) ، وتبعهم في ذلك جمع من المعنيين بالدراسات الأنثروبولوجية إذ عمدوا "الى استخدام البيانات

١ - موسوعة علم الإنسان : ٩٤.

٢ - انظر موسوعة علم الإنسان : ٩٤ ، ٩٥.

الأسطورية كجزء من نظريته عن التأريخ الإنساني، والسمات الأساسية للشخصية الإنسانية " .

وحاول أتباعه أن يجدوا في الأسطورة (تعبيراً عن موضوعات الصراع النفسي) كالحسد والتوتر النفسي وعلاقة الرجل بالمرأة، وبعض المجالات الرمزية الأخرى غير الصراع النفسي كالشعائر الدينية والعادات الاجتماعية والفنون .

وقد أثرت نظرية فرويد هذه أو تفسيره الرمزي النفسي للأسطورة تأثيراً كبيراً في دراسة الأسطورة، حتى أن المؤلفين " الذين يرفضون نظريته في البناء والنمو النفسي والاجتماعي غالباً ما يدينون له بالكثير لأسلوبه الرائد في التحليل الرمزي".

وشأن فرويد وأتباعه في هذا العنوان كشأنه في نظريته النفسية، فيها الشيء الكثير من المبالغة وجنوح عن الحقيقة وميل كبير عن جادة الصواب؛ فالقضايا النفسية وإن بدت مهمة إلا أنها لا تمثل إلا عنصراً من العناصر المعقدة المتشابكة للأسطورة، ويبقى الفكر والمجتمع والزمان من أهم عناصر الأسطورة وأهم ركائز تحليلها تحليلاً علمياً.

واختلفت المداخل في دراسة الأسطورة بين مدرستين أنثروبولوجيتين في الغرب، الأولى: المدرسة البريطانية التي اتخذت المنحى السوسيولوجي (الاجتماعي) في دراسة الأسطورة في المدة ما بين سنتي (١٩٣٠م) و (١٩٦٠م) . والثانية: المدرسة الأمريكية من أتباع الأنثروبولوجي (بوس)

الذين اتخذوا المنحى الثقافي؛ فقد نظروا الى الأساطير على أنها "مستودع معلومات عن الثقافة والسمات الثقافية، ودليل لمعرفة العلاقات التاريخية والجغرافية بين مختلف القبائل والجماعات البشرية" . (١)

ولابد من وجود صلات تاريخية بين الأساطير في مختلف الثقافات ضمن التوجهات الأنثروبولوجية في التفسير الثقافي التاريخي لها، ومن جملة تلك التوجهات "تتبع العلاقات التاريخية بين الأساطير ، أو مجموعة الأساطير، وذلك باستخدام البيانات والمعلومات الواردة في الأساطير كشواهد على العلاقات التاريخية والجغرافية بين الثقافات والمناطق الثقافية" (٢) ، وهذا يعني تجاوز الأسطورة البعد الزمني الى البعد المكاني، ويتضح ذلك من خلال المقارنات بين أساطير الشعوب، وعنصر التأثير والتأثر، وبذلك يمكن أن نضيف الى العناصر الأساسية للأسطورة، أي الزمان والرمز والحركة عنصراً آخر هو المكان.

وبعد العرض للأسطورة من حيث الدلالة والمحتوى والتركيب والتحليل يمكن أن نختصر الكلام على الشواهد والأمثلة من أساطير الشعوب للاستدلال بها على عرضنا سابقاً. ولغرض التيسير والتسهيل يفضل تقسيم الأساطير على أهم شعوبها، ولكن ذلك لا يعني أبداً حرمان الشعوب الأخرى منها على امتداد تاريخ البشرية. وفيما يأتي بيان لذلك.

١ - موسوعة علم الإنسان : ٩٤ .

٢ - موسوعة علم الإنسان : ٩٤ .

- أمثلة من أساطير حضارة ما بين النهرين أو وادي الرافدين القديمة:

١- كان البابليون والآشوريون يخشون في حياتهم اليومية وفي شؤونهم وشجونهم من الشياطين، وهي كائنات أسطورية خرافية صوروها في أذهانهم على نحو يبعث الرهبة والخوف في النفوس، واعتقدوا أن لها قوى خارقة لا يمكن مجابقتها إلا بالتمائم والأدعية والعُوذ وما شابه ذلك، وقد واكبتهم مخافة الشياطين طوال حياتهم وفي كل شأن من شؤونهم. وكانت الشياطين في مخيلتهم " مخلوقات عجيبة يمكنها أن تتشكل في أي صورة، وأن تتفد من أي جسم، وأن تتحرك في كل مكان من دون أن يراها أحد، وكانت تفضل عامة الأماكن المهجورة المظلمة والخرائب والمدافن، وكل مكان آخر يبعث الرهبة. وكانت تدل على وجودها بأصوات حيوانية تبعث الفرع الشديد في الأماكن الموحشة" (١) . واعتقد سكان وادي الرافدين من البابليين والآشوريين أن المرض مبعثه ولوج الشياطين في جسم الإنسان ، وكان شيطان الحمى من أكثر الشياطين رهبة وخوفاً، وتصوره في مخيلتهم كائناً له رأس أسد وأسنان حمار وأطراف نمر أرقط، وصوته كصوت النمر الأرقط والأسد، ويمسك بيديه أفاعي هائلة، وكلب أسود وخنزير يداعبان ثدييه" (٢) . وصوروا

١ - الحضارات السامية القديمة: ٧٦.

٢ - الحضارات السامية القديمة، وقارن بـ(تأريخ الفكر في العراق القديم) : ٢٦٦.

الشياطين في فنونهم" بأجسام الإنس ورؤوس الحيوانات، أو خليط من أعضاء حيوانات مختلفة جمعت على شكل رهيب" . (١)

٢-نينغيرسو (Ningirsu) من الكائنات الخيالية، وهو إله الحرب ، و"يُمثّل بطير له رأس أسد، يزمجر كالماياه، ويندفع نحو البلد المعادي وكأنه العاصفة" (٢). ومغزى الرمز: السرعة والقوة والرغبة والدمار. السرعة يمثلها الطير الذي يحلق في الجو ويبلغ مداه أسرع من غيره من الحيوان، والقوة والرغبة والاندفاع يمثلها الأسد وصوته واندفاعه نحو هدفه كالعاصفة.

٣-إمدوغود (Imdogud) إلهة الغيوم الممطرة، وهي من الكائنات الخيالية، ومثلوها بطائر أسود ضخم " له رأس أسد يزأر، وصوته الرعد، يطير بأجنحة ممدودة هائلة الحجم في الجو" (٣) . ومغزى الرمز تجمع الغيوم السوداء وهي دليل المطر، والرغبة المتمثلة بالأسد والرعد صوته، والامتداد الى مساحات كبيرة في السماء يمثلها كبر الجناحين الممدودين .

٤-ومن آلهتهم أوتو (Utu) إله الشمس، يرمز إليه بقرص الشمس، أو بقرص ذي جناحين، ثم تحول الرمز الى " شكل إنسان يشع من جسده

١ - تأريخ الفكر في العراق القديم : ٢٦٦.

٢ - تأريخ الفكر في العراق القديم : ٢٤٨.

٣ - تأريخ الفكر في العراق القديم : ٢٤٨.

الضياء" ^(١). ومغزى ذلك شدة الضوء وبهاؤه واتساعه ليشمل الأرض بعنانيته. ولم يقتصر إله الشمس على بابل وآشور بل شمل أيضاً سوريا وآسيا الصغرى ومصر. ومن ألقابه في أرض الرافدين : " نور العلم ، ونور الأعالي والأعماق، ونور السماوات والأرض، ونور الآلهة" . ومن صفاته : " يطارد الظلمات، ويقصر النهار، ويطيل الليل كما يشاء. وحياة العالم تتوقف عليه؛ فهو الذي يهبنا الحياة، وهو الذي يحيي الموتى ، وهو الذي يدير الكون كله عاليه وسافله، ويُسيّر مخلوقات الحياة والبشرية كلها، والآلهة أيضاً" ^(٢) . والصفات المذكورة آنفاً تشير كلها الى أنه الإله الأعظم لكل الآلهة والبشر على حدّ سواء؛ فدلالة الرمز شمولية عالم الإنسان وعالم الآلهة، يضاف الى ذلك تقديره للأشياء والحياة والموت، وكل ماله صلة بالإنسان والآلهة معاً بأفعالهم وقدراتهم، وهو بمثابة (زيوس) في الميثولوجيا الإغريقية، و(أودن) في الميثولوجيا الإسكندنافية. ومن آلهتهم أيضاً باو (Bau) إلهة الكلاب والشقاء " وكانت تتميز برأس كلب" ^(٣) . ومغزى الرمز رأس الكلب الذي يشير الى نباحه وما ينطوي عليه من شر وشقاء، ولذلك اختاروا لها

١ - تأريخ الفكر في العراق القديم : ٢٤٨.

٢ - الحضارات السامية القديمة (حواشي د.بكر) : ٢٥٦.

٣ - تأريخ الفكر في العراق القديم : ٢٤٨.

إلهة أنثى وجعلوها مختصة بالكلاب، فأينما حلت وصوتت استجابت لها سائر الكلاب.

٥- كانت الآلهة الأساسية الكبرى في بلاد الرافدين تتألف من ثلاث أسمى

بين الآلهة الأخرى، وهم ثلاثة : (أنو) و (إنليل) و (إنكي) ^(١)

أنو (Anu) إله السماء، وإنليل (Enlil) إله الهواء، وإنكي أو إيا (Enki

-Ea) إله الأرض. ويضاف الى هذا الثلاث ثلاث آخر مؤلف من

أجرام سماوية وهي (الشمس والقمر وكوكب الزهرة). ^(٢)

ومن آلهتهم أد (Adad) إله العاصفة بما يمثل من مظهرها (اللين

السخي كالمطر والفيضان يستعان بهما على النبات والحياة)، ومظهرها

الآخر المضاد المدمر كالبرق والإعصار "يحرمان الإنسان من ثمار

عمله الدائب" ^(٣) . ومن آلهتهم أيضاً نُسكو (Nusku) وهو إله النار ^(٤)

٦- تدل معاني بعض الآلهة المذكورة سابقاً على خصائصها أو أعمالها؛

ف(إنليل = Enlil) أو (إنليل = Ellil) يعد أكبر آلهة السومريين ، واسمه

١ - انظر : الحضارات السامية القديمة: ٧٥ .

٢ - انظر: الحضارات السامية القديمة (حواشي د. بكر) : ٢٥٣.

٣ - الحضارات السامية القديمة: ٧٥ .

٤ - انظر: الحضارات السامية القديمة : ٧٥.

مركب من (إنْ + ليل) ويعني الريح، ومعنى (إيا = E-a) بيت الماء، ومعنى (إنكي = En-ki) سيد الأرض. ^(١)

وكان السومريون وتبعاً لهم الأكديون يعبدون من جملة ما يعبدون الظواهر الطبيعية السماوية ، وأهمها الشمس والقمر وكوكب الزهرة. ويسمى إله القمر عند السومريين والأكديين (سين) وله اسم آخر عند السومريين هو نَنَّا (Nanna) ومعناه رَجُل السماء. وحَرَف الأكديون هذا الاسم الى نَنَّر (Nannar) أي المنير. ويستفاد من ذلك أن مادة (ن ور) ومشتقاتها من الأصول السامية المشتركة، ومنها : النار والنور. ويرمز الى الإله القمر غالباً بالهلال بجانبه قرص الشمس ، وهو رمز إله الشمس. وأما كوكب الزهرة فرمزها نجمة في وسط دائرة. ^(٢)

٧- ومن آلهة البابليين الكبرى (مردوخ) أو (مردك)، ويعد من أشهر آلهة البابليين، ويرمز إليه بالثور. وصورته كما وردت إلينا كما يأتي: "... يبدو فيها وقد لبس تاجاً عالياً أسطوانياً مُجَلَّى بالزهور، يبرز منه بعض الريش، وله لحية، وشعره مُرْسَل في خُصَل خلف الرأس ، وثوبه يصل الى قدميه وقد تناثرت صور نجوم داخل دوائر، ويده اليسرى موضوعة على صدره ممسكة بحَلَقَةٍ وعصا رمزاً الى السلطة، ويده اليمنى مُدَلّاة الى جانبه وقد أمسكت بهراوة. وتقوم على حراسته (الأفعى الحمراء)،

١ - انظر: الحضارات السامية القديمة (حواشي د. بكر) : ٢٥٣.

٢ - انظر: الحضارات السامية القديمة (حواشي د. بكر) : ٢٥٥.

ولها رأس صِلّ ذي قرنين وجسم مُغطّى بالفلوس وَذَنَبٌ عقربٍ وَبُرْتَنّا
(إِصْبَعَا) أسد من أمام ، وَمِخْلَبَا نَسْرٍ من خَلْفٍ (١)
ورموز الأوصاف المذكورة آنفاً تشير الى "أن قوى مملكة الحيوان من
ذوات الأربع والطيور والأسماك والزواحف مركزة في كائن واحد يخدم
الإله في صراعه ضد قوى الشرّ... وقد يكتفى أحياناً للدلالة على مردك
برسم شعاره أو عرشه أو حيوانه" ... وأما شعاره فهو " المِجْرَفَة التي
تستعمل في الحقل (marru)، ومن هنا يبدو أنه إله زراعي... وهو
الذي (يوفر أماكن الرعي والشرب) كما ورد في قصيدة الخلق أو أسطورة
الخلق الأكديّة . (٢)

٨- (عُشْتَار) ربّة الخُصْب والأمومة في الأساطير البابلية والآشورية. وهي
تتّثل بگوكب الزُّهْرَة، ويرمز إليها بالنجمة. (٣)
٩- وشاعت في أساطير وادي الرافدين فكرة " نبات الحياة) أو (شجرة
الخُلْد) التي تجعل الإنسان الذي يأكل من ثمارها خالداً مدى الدهر.
وقد انتقلت هذه الفكرة الى الفن والأدب، وغالباً ما تمثلها صورة " نخلة
عادية ترمز الى تجدد الحياة تجدداً أبدياً" . (٤)

١ - الحضارات السامية القديمة (حواشي د. بكر) : ٢٦٣.

٢ - الحضارات السامية القديمة (حواشي د. بكر) : ٢٦٣.

٣ - معجم الأساطير: ١٣٥.

٤ - الحضارات السامية القديمة : ٩٠.

أساطير الحضارة المصرية الفرعونية القديمة:

١- من العقائد المصرية الغامضة ما يطلق عليه (با (ع) = Ba) ، وهو قوة روحانية تتصف بها الآلهة والإنسان، تُجَلُّ في الآلهة قوة التجسد، وفي الإنسان مقدرة الوجود بعد الموت. ويرمز إليه بعصفور (ذي وجه بشري) ، وقيل في وصفه أنه " يمثل أحد المبادئ الروحانية للكائن المتميز بقدرته على الحركة والتحول المادي. وهو في الأصل من صفات الإله القادر على التجسد بفضل هذه الملكة التشكيلية، ولكنه بالنسبة الى الإنسان أحد أنماط الوجود الممكن بعد الموت؛ فالبا (ع) حين ينعثق من الجسد يواصل الأطلاع بكامل وظائفه الحيوية من حركة وغذاء وجنس كما تدل عليه الرسوم في المقابر المصرية القديمة" . (١)

٢- آمون (monA) من أشهر الآلهة المصرية الفرعونية ، كان إلهاً للهواء وللخضب ، ثم اتخذ فرعون مصر (آمنهات = آمون هو الأول) مؤسس الأسرة الثانية عشرة إلهاً للملوك، ثم أصبح (ملك الآلهة) ولقب بـ (سيد العرش في القطرين) . ويرمز إليه (برأس كبش أو برأس إوزة النّيل) . (٢)

١ - معجم المصطلحات الدينية: ٤٣.

٢ - معجم المصطلحات الدينية: ٣٥ ، ٣٦.

٣- ومن الآلهة الكبيرة عند الفراعنة (رع - حاراکتي = Ra- Harakte)، وهو (رع) رب الشمس الذي يُصوّر (برأس صقر ويرتدي القرص الشمسي) " (١)

٤- (آتون، أو آتن = ton - ĀtenĀ) : اسم يطلق في الأساطير الفرعونية على الشمس ، اتخذه (امنحوتب الرابع) فرعون مصر إلهاً واحداً، وتلقب بـ (أختاتون) أو (أختيناتون)، ويعني : (الذي يفرح بآتون) (٢) ، وأعلن الديانة التوحيدية في مصر، وألغى عبادة آمون وغيره من الآلهة. وتقيد بعض الدراسات أن فرعون هذا عاصر النبي يوسف(ع)، وقصة يوسف الواردة في القرآن الكريم في سورة يوسف(ع) وذهابه الى مصر وما حصل له إنما حدثت في عهده، وأنه تأثر بتعاليم يوسف الوجدانية ذات الأصول الإبراهيمية، ولكن بعد موت امنحوتب عادت مصر الى عبادة آمون. وإذا صحت هذه الدراسات فـ (آتون) الذي يطلق على الشمس ليس إلهاً بل هو رمز الى الإله الواحد الذي لا يُرى ولا يتجسد كالتعاليم الزرادشتية التي اتخذت من الشمس رمزاً الى (آهورامزدا) في السماء، أي آلهة له، ومن النار رمزاً إليه في الأرض. وذهبت دراسات أخرى الى أن (آتون) كان لفظاً اعتيادياً عند المصريين يطلق على الوجه المرئي للشمس ، أي قرص

١ - معجم الأساطير: ٢٢٢.

٢ - معجم الأساطير : ٥٠.

الشمس ^(١) . وفي عهد (تحوتمس الرابع) و (آمنوفيس الثالث) صار آتون يدل على (القوة الإلهية) التي تسكن قرص الشمس، واتخذ إلهاً جديداً يعبد مع سائر الآلهة الأخرى، غير أن (آمنوفيس الرابع) أعلنه إلهاً واحداً لا شريك له في الألوهية؛ فهل آمنوفيس الرابع هو نفسه امنحوتب الرابع ؟ ووصلنا من الأدب الديني البديع للمصريين القدامى نشيد يمجّد فيه فرعون (آتون) (إله المبدع المحيي) و (يعلن نفسه نبياً له). وفيما يأتي نصوص من هذا النشيد:

"... تظهر رائعاً عند الأفق السماوي يا آتونُ الحيّ ، مبدع الحياة. فندما تشرق في الأفق الشرقي تملأ كل مصر بكمالك... وعندما تغيب في الأفق الغربي تغرق الأرض في الظلام كما لو كانت ميّنة... وعندما تبدو الدياجي وأنت تتشر أشعتك ينهض المِصران (علهما مِصر العليا ومصر السفلى) مبتهجين ويستيقظان فيغسل سكانهما أجسادهم ، ويلبسون ملابسهم، وترتفع أذرعهم إليك لتعبدك، ويبدأ المصر كله بالعمل، وترتفع المواشي في مراعيها فيما تخضرُّ الأشجار والنباتات، وتطير الطيور من أعشاشها... " . ^(٢)

٥- حورس (Horus) في الأساطير المصرية هو ربّ السماء والشمس ، ويشترك مع (رع). سماه المصريون (حور)، وسماه الإغريق بـ(حورس) أو (هاربوكراتيس) ، وأشركوه مع (أبولو). عبد في عدد من البلاد بأسماء

١ - انظر: معجم المصطلحات الدينية : ١٢ .

٢ - معجم المصطلحات الدينية : ١٢ .

وأشكال مختلفة، ويمثله فيها (صَقْر) أو (رأس صقر)^(١). وببديتي (Behdety) اسم آخر لـ (حورس) أطلق عليه في (ببريت) ، وهي مذبج في مصر العليا، ويُمَثَّل في رسومه برأس نَسْر مع "صَحْن شمش مجنح" (٢) .

٦- ومن آلهة العالم السفلي عند الفراعنة أنوبيس (Anobis) ، وهو ربّ الجنازات والتحنيط، ويُصَوَّر برأس كلب أو ابن آوى، "يقود الموتى الى العالم السفلي، ويشرف على الميزان الذي توزن فيه قلوب الموتى أمام أوزيريس" (٣) .

٧- باست (Bast)، أو باستيت (Bastet) إلهة أنثى في الأساطير المصرية، وهي "رَبَّة خِصْب محلية ارتقت الى إلهة قومية... حيوانها المقدس هو الهرّ، ورسومها برأس هِرّة ترفع بيدها اليمنى قيثارة أو دِرْعاً" (٤) .

٨- أَمَنْتِي (Amenti) أو أَمَنْت (Ament) من الإلهات في الأساطير المصرية الفرعونية، وهي "رَبَّة تظهر بريشة نعامة أو ريشة صَقْر على

١ - انظر: معجم الأساطير: ١٢٥.

٢ - معجم الأساطير: ٥٨.

٣ - معجم الأساطير: ٣٩.

٤ - معجم الأساطير: ٥٧.

رأسها. كانت ربّة إقليم مصر السفلى الغربي، ثم صارت فيما بعد ربّة الغرب كله". (١)

٩- ومن الإلهات أيضاً ريننت (Renenet)، أو رينينيت (Renenit)، و"تُجسّد أحياناً على هيئة أسد، أو برأس أفعى، وتشارك مع إله الغيث (شاي) في بعض الوظائف لأنّها إلهة المحاصيل". ومن أفعالها أنّها تغذي الرضيع وتسمّيه "وتتبعه عندما يحاكم بعد الموت". (٢)

١٠- وتشتمل بعض الأساطير الفرعونية على مخلوقات أسطورية، منها ما يدعى سفينكس (Sphinx)، وترجم الكلمة عادة بـ (أبي الهول)، وهو مخلوق أسطوري له جسد أسد ورأس رجلٍ أو رأس حيوان. وتمثال أبي الهول معروف مشهور عند أهرامات الجيزة بمصر، وهو منحوت "من الصخر الصلب في عهد المملكة القديمة. واتخذ وضع الرابض ويحمل غطاء رأس فرعون" (٣). وتُمثّل أبا الهول أينما وجد في مصر (تماثيل ضخمة على أساس الصورة التي تجمع (رع) ربّ الشمس وفرعون). ويعتقد المصريون القدامى أنّ هذه التماثيل بهذه الصورة تقوم بالحراسة، ولذلك اتخذت مدخلاً في المعابد والقبور. وهي أقرب من حيث الدلالة الرمزية إلى الثور المجنح عند الآشوريين في حضارة وادي

١ - معجم الأساطير: ٣٥.

٢ - معجم الأساطير: ٢٢٤.

٣ - معجم الأساطير: ٢٣٩.

الرافدين القديمة. وأما السفينكس اليوناني فمركب من (امرأة) و(طير)
و(أسد) .

الأساطير الفينيقية :

أشهرها أسطورة بَعْل (Ball)، وهو من الآلهة الشهيرة لدى الساميين عموماً وعند الفينيقيين خصوصاً، ويعد ربّ الخُصْب عند الساميين القدماء، وربّ العاصفة ومطر الشتاء عند الفينيقيين، ومثّلوه "بمحارب على رأسه خوذة بقرني ثور يحمل رمحاً". وبَعْل في صراع دائم مع عدوه (الموت)، وهو صراع يرمز الى " تجدد نبات الخريف الذي يبدو ميتاً بأمطار الشتاء " (١)

وبَعْل حامون (Ball Hammon) هو الربّ الأكبر لأهل قرطاجة (قرطاجنة) المستعمرة الفينيقية، وكان يصور مرافقاً للخروف ويحمل إنساناً. (٢)

وحاداد (Hadad) من آلهة الفينيقيين، وهو إله العواصف والرعد والبرق والغيوم، "ويشار إليه عادة باسم (بَعْل حاداد) ، وينظر إليه سيّداً وحاكماً،

١ -معجم الأساطير: ٥٥. قال بطرس البستاني في معجمه: "... وبَعْلٌ أو (باعالٌ) اسم صنم كان للصيدونيين. عبدته شزيمة من اليهود" محيط المحيط: ٤٦. وفي مختار الصحاح ص ٤٦: "والْبَعْل اسم صنم كان لقوم إلياس (ع)". واستدرك الرازي على الجوهري بقوله: "قلت: صوابه (وبَعْلٌ) صنم بغير الألف واللام. ويبدو من ظاهر كلام الرازي عدم صرف بَعْل للعلمية والعجمة، ولكن الظاهر خلاف ذلك لأن بَعْلًا من السامي المشترك ، ومن معانيه في العربية: الزوج والسيد.

٢ - انظر: معجم الأساطير: ٥٦.

ويمثل أحياناً بثَّور رمز القوة والسلطة" (١) . وتتبعي الإشارة الى أن كلمة (بغل) في بعض اللغات السامية تعني السيّد والرّب وكبير القوم والزوج (رّب الأسرة)، ولذلك تعد إضافته الى (حامون) و (حاداد) من باب الوصف بالربوبية.

والظاهر أن كلمة (حاداد) مستعارة من الميثولوجيا البابلية، فقد كان (آداد) -بالهمزة الممدودة- من آلهة البابليين.

من أساطير عرب الجاهلية:

١- (الشمس) عند عرب الجاهلية : مثّلوها بصورة امرأة عارية، والمرأة عندهم رمز إلى معاني الأنوثة والخُصب والأمومة. (٢)

٢- (المَقَه) : من أسماء القمر في سبأ عند عرب الجنوب، ويذكر أ، حَرَم بلقيس ملكة سبأ كان مخصصاً لعبادة (إيل مَقَه) أي الإله مقه. و(الثور) رمز الى القمر عند عرب الجنوب، وكان عندهم حيواناً مقدساً، ويرمز به الى المَقَه في سبأ ومأرب، وورد بهذا المعنى في النصوص اللحيانية والشمودية. (٣)

١ - معجم الأساطير: ١١٣.

٢ - انظر: موسوعة أساطير العرب: ١٩٣.

٣ - انظر: موسوعة أساطير العرب: ١٩٣، ١٩٨.

الأساطير اليونانية:

١- زيوس-زوس (Zeus) كبير آلهة الإغريق، وهو جوبيتر (Jupiter) عند الرومان. قيل في وصفه وأفعاله بحسب عقائدهم الوثنية: " سيد مجلس الآلهة الكبار، يتربع على عرش الأوليمب، وهو المُعزِّ والمُذِلُّ، صاحب القدرات والخوارق في تصريف أمور الكون، وهو صاحب العواصف والأعاصير يَهْدُّ بها كيان خصومه، ويُؤدِّب أبناء النَّبَشَر، وهو مُطْلِقُ الرياح من قماقمها حُبْلَى بالأمطار والسيول، ومُوزِّعُ الأقدار كما يهوى بغير حساب... صَوَّرَهُ شعراء الإغريق بخُصَلات نَوَاسَة على جبينيهِ الوَضَاء، وَلِحِيَّة... مُشَدَّبَة مُهَدَّبَة، قابضاً على رمز النصر بِمُئْنَاه، حاملاً الصَّوْلُجَان بِمُئْسَرَاه، وعلى رأسه تاج من أغصان الزيتون والبلوط". (١)

٢- أمالثيا (Amalthea) : من الأساطير اليونانية، وهي "عنزة الجبل التي أرضعت الطفل (زيوس) في جزيرة كريت، (وفي بعض النصوص: حورية أرضعته حليب الماعز) ... وقد أكرمها زيوس بأن جعلها (بُرْج الجَدِّي). (٢)

١ - المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية: ٥١١.

٢ - معجم الأساطير: ٣٤.

٣- القنطورات (Centaurs): من الكائنات الخرافية المتوحشة ، نصفها

إنسان ، والنصف الآخر حصان. (١)

٤- ومن الكائنات الخرافية ما يطلق عليه في الأساطير اليونانية: سيكروب

(Cecrops)، وهو كائن نصفه إنسان والنصف الآخر تيتن، ويذكر

في بعض الأقوال أنه أسس مدينة (أثينا)، وسميت (سكروبيا) نسبة

إليه، و"أدخل المدنية والقوانين والعبادة الدينية الى أتيكا". (٢)

٥- الهاربيات (Hrpies) من الكائنات الخرافية أيضاً، وهي " مخلوقات

مجنحة كريهة ، بأجساد طيور ورؤوس نساء" (٣) ، تنذر بالرياح العاصفة

الدمرة، وتنفث رائحة نتنة في طعام ضحاياها، وتنقل أرواح الموتى،

وتحدد العقوبات الإلهية".

الأساطير الرومانية:

١- جانوس (Janus) ، أو جايفوس (٤) (Jaivus) : من أقدم آلهة روما،

ويعود الى أصل هندي أوربي موغل في القدم، ويبدو أنه كان إلهاً من

آلهة الأقوام الهندية الأوربية. ويرمز هذا الإله الى (وجهي كل شيء)،

والى التحول والانتقال والعبور، و"علاقة التحول من الماضي الى

١ - انظر: معجم الأساطير: ٧٠.

٢ - معجم الأساطير: ٧٠.

٣ - معجم الأساطير: ١١٥.

٤ - انظر معجم الأساطير: ١٣٩ ، ومعجم الرموز : ٤١.

المستقبل، ومن حال الى حال " ، ولذلك اشتق من اسم هذا الإله اسم شهر كانون الثاني (January - Janvies) الذي تتحول فيه السنة الى سنة أخرى جديدة. وكان الرومان يعتقدونه (ربّ الأبواب والمداخل والبوابات)، ويصورونه -عادة- (بوجهين في اتجاهين مختلفين) .

٢- كيوبيد (Cupid) : من أساطير الحبّ والعشق؛ فهو (ربّ الحبّ)، ويمثله عند اليونان إيروس (Eros) . يُصوّر عادة " على صورة صبي مجنح بقوس ونشاب" . (١)

الأساطير الصينية:

١- لي كونغ (Lei-Kung)، وتعني الكلمة في الصينية: (سيدي البرق): هو ربّ البرق ، ويصور " على هيئة رجل قبيح بمخالب وأجنحة وجسد أزرق اللون، يحمل مطرقة خشبية، ويلق طبوله على جنبه" (٢)، وأفعاله معاقبة المذنبين الخارجين عن القانون أو الذين لم تكتشف جرائمهم بعد، " ولكنه يحضّ على مساعدة البشر ويكافئهم كلما انغمسوا في عملهم" .

٢- تومو (Tou-Mu): إلهة أنثى فلكية تدعى (الأم البوشل)، وهي ربّة نجم الشمال ، وأم لتسعة أبناء كانوا أقدم حكام الأرض. " قصرها مركز النظام النجمي، كل النجوم تدور حوله، تهيمن على الحياة والموت،

١ - معجم الأساطير :٧٨.

٢ - معجم الأساطير :١٥٧.

ولكنها محسنة خَيِّرة شفيقة في استعمال سلطتها" . صَوَّروها بثلاث
عيون وثمانى عشرة ذراعاً، "تمسك بالأسلحة من أمثال قرص الشمس،
وقرص القمر، ورأس التَّين، وخمس عربات بخمس أيدٍ" (١)

٣-كونغ كونغ (Kung- Kung): من المخلوقات الخرافية، وهو عبارة
عن تَين أو وحش له قرون. "حطَّم أعمدة السماء الزرقاء برأسه، وتسبب
بزلازل كثيرة ما أدى الى طوفان مريع عندما انهارت قُبَّة السماء
وسقطت" . (٢)

الأساطير الأوروبية:

١-(فوتان) أو أدن (Wotan- Woden): كبير الآلهة في أساطير
الشمال الأوربي والتوتون ولاسيما بلاد إسكندنافية عند (الفايكنغ)
وغيرهم . يوصف بأنه "يتربع على عرش الحكمة معزلاً في قصره،
ويصغي الى غرابيه الأسحمين الواقفين على كتفيه: هوغين (Hugin)
أي الفكر، ومونين (Munin) أي الذاكرة، ينقلان إليه أخبار الخلق.
وهو ساهر على المعرفة التي فقد في سبيلها إحدى عينيهِ، وهو يستقيها
من ينبوع الحكمة ليحملها الى البشر لتكشف عن عقولهم غشاوة
الضلال. وقد سموه الأنغلوسكسون (فودن) ، ومنه اشتقوا اسم يوم
الأربعاء (Wodens day- Wednes day).

١ - معجم الأساطير: ٢٥٦.

٢ - معجم الأساطير: ١٥٠.

وقيل عنه: "إنه" له مهيب يُؤثر الوحدة في قصره الذهبي للتأمل واستقبال موتى الأبطال في الفالهاالا (Valhalla)، وله قدرة على التشكل في أية صورة يريدّها، ويضع على رأسه خُوذة من ذهب، ويُمسك بيده اليمنى رُمحاً صنعه له الأقزام، وبببده اليسرى درُعاً واقية للصدر". (١)

٢- ثور (Thor): من أساطير الشمال الأوروبي، ولاسيما بلدان إسكندنافية، ومنهم (الفايكنغ). ويعد بحسب عقائدهم " إله الرعد والبرق، وهو صديق للبشر، يحمي الزواج المثمر، وسمي باسمه يوم الخميس (Thursday) 'ذ يتزوج فيه الناس ويباركهم". (٢)

٣- يومالا (Jumala): ربّ السماوات والإله الأعلى عند الفينقيين في الأساطير الفنلندية، ويرمز إليه بشجرة السّنديانه. (٣)

٤- إيلماتير (limāter): من الأساطير الفنلندية، وهي " ابنة الهواء التي طارت فوق البحر سبعة قرون، ثم خلقت العالم من البيض الذي وضعته في رُكبّتها عن طريق بَطّه أو عُقَاب. من قشور البيضة تشكلت السماوات، ومن نُقْطها الملونة تشكلت النجوم، ومن صفارها تكونت

١ - المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية: ٥٣٠، ٥٠٤.

٢ - المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية: ٤٦٧.

٣ - انظر معجم الأساطير: ١٤٠.

الشمس، ومن بياضها تكوّن القمر" (١) . وهذه الأسطورة بمثابة أسطورة الخلق.

٥- ومن الأساطير السلافية: سفانتوفيت (Svanto vit) . وهو " ربّ الحرب والخشب. مركز عبادته (أركونا) في جزيرة (روجن) على البلطيق . له في المعبد تمثال يظهره بأربعة رؤوس ما جعله ينظر الى كل الجوانب، ويمسك بيده قرناً، وبحسب كمية الخمر الباقية فيه يتنبأ بما إذا كانت السنة القادمة سنة جميلة مليئة بالخير أو سنة شرّ قاسية " . (٢)

الأساطير اليابانية:

- ١- إناري (Inari): هو " ربّ الزراعة، ولاسيما زراعة الأرز . ربّ الخير. رسومه تظهره رجلاً عجوزاً مع أتباعه ورُسله وثلعبين" . (٣)
- ٢- جوروجين (Jorojen) : ربّ المُعمّرين والحظّ الطيب في الأساطير اليابانية، "ذو اللحية البيضاء. ترافقه سُلحفاة أو لُقْلُق، ويمثل العمر السعيد المتقدم" . (٤)

١ - معجم الأساطير: ١٣١.

٢ - معجم الأساطير: ٢٤٢ .

٣ - معجم الأساطير: ١٣٢.

٤ - معجم الأساطير: ١٣٩.

٣-ريدن (Raiden): "رَبّ الرعد. يرسم كشيطان بمخالب في أقدامه، ويحمل طَبْلًا" . (١)

٤-إماو (Emmao): "رَبُّ بوذي، وحاكم (قاضي). كانت أفعال أي خاطئ توزن قبل إصدار الحكم فتدينه في مكان مناسب من الجحيم. يصور وهو يرتدي ثوب القضاة، وعلى وجهه تعبير الوعيد" . (٢)

الأساطير الهندية:

١-الأسطورة الهندية لها أبعاد في الطبيعة وما وراء الطبيعة، وهي حيوية في التجديد والتوليد، وتنظر الى الزمان المتمثل في دورانه بالسنة من حيث تجدد زمانها وخلقها من جديد، ويرمز الى ذلك كله بالنار؛ (فهي في الطقوس الهندية موضع قداسة وتعظيم لأنها تشبه ميلاد السنة بتجدد كل مذبج للنار في معابدهم، وقوة إنعاش لإله الكون (براجاباتي = Prajāpati)؛ فالنار هي الزمان الكوني المتجدد وليس الزمان المعتاد

و(براجاباتي) كلمة سنسكريتية تدل على إله الكون. قال إلياد موضحاً هذه العقيدة: "... وفي الهند نجد مثلاً أوضح؛ فقد رأينا نَصْب مَذْبَح يعدل تكرار نظرية تكوّن العالم، ولكن النصوص تضيف أ، (مَذْبَح النار) هو السنة، وبعبارة أخرى إنهم لا يعيدون صنع العالم عند بناء

١ - معجم الأساطير ٢٢٢.

٢ - معجم الأساطير: ٩٢.

كل مذبج للنار فقط بل إنهم يجددون أيضاً شباب (الزمان) بخلقه من جديد... ومن ناحية أخرى تُشبه السنة براجاباتي (Prajapati) إله الكون، ومن ثم فإن كل مذبج جديد يعيد إنعاش براجاباتي، أي إنه يشد أزر قداسة العالم؛ فالأمر لا يتعلق بالزمان المعتاد، بمجرد الديمومة الزمنية بل بتقديس (الزمان الكوني) ، والغرض من بناء مذبج النار هو تقديس العالم". (١)

وثمة ارتباط بين اللغة السنسكريتية والعقائد الهندوسية من حيث الأداء اللغوي الصحيح وما يترتب على خلافه لفيدا كتاب الهندوس المقدس. وهذه الصلة أو العلاقة لها أبعاد روحانية خطيرة لأن ترتيل أشعار الفيدا تمنح للطبيعة قوة دفع كبيرة، وأي أداء مغلوط لنصوص الفيدا يؤدي الى أمور لا تحمد عقباها. وقد ذكر العالم بالفيدا واللغة السنسكريتية (باتانغالي) "مثالاً لخطورة النمو السيء الذي قد يهدد الحياة؛ فالشيطان (فريترا) قدم أضحى للحصول على ولد يكون قاتلاً لـ(إندرا) عدوه اللدود من بين الآلهة، ولسوء حظه فإنه لفظ عبارة (قاتل) إندرا بنبرات مغلوطة مشدداً على المقطع الأول منها بدلاً من المقطع الأخير، وهكذا أوجد ولداً سيقتله (إندرا)". (٢)

١ - المقدس والعادي: ١٠٨.

٢ - إمبراطوريات الكلمة: ٢٦٧.

٢-براهما (Brahma) : كبير آلهة الهندوس، ويشترك معه في الأهمية إلهان آخران، هما : (فشنو) و (يفا). ذكرت الأسطورة أن براهما "ولد من (الناريانا)، أي البيضة الأولى ، " ويصوّر بأربعة أوجه، وأربع أذرع"^(١) جالساً على عرش.

٣-آغني (Agni): من الأساطير الهندية، وهو إله النار في كتب الفيدا، ويعد إله النار الآري أصغر الآلهة الفيدية، " اتخذ شكل البرق، واستجلب المطر المخصب الى الأرض" ^(٢) . قيل في وصفه وأفعاله: " يضطلع بدور مركزي في الطقوس والميثولوجيا الفيدية؛ ففي النار تجري شعائر الأضاحي، ويتوجب على ربّ كل منزل في كل يوم صباحاً ومساءً أن يقدم قرباناً الى النار من اللبن الطازج. وكان هذا القربان الاحتفالي يقدم عند ظهور الهلال واكتمال القمر بدرأ، إذ كان آغني يعد بمثابة الوسيط بين الناس والآلهة التي كان يستقدم القرابين لها. وكان يضطلع أيضاً بدور (آكل الجثث)، وحامي البيت. له وجهان: وجه هاديء ، ووجه مُرعب" ^(٣) .

١ - معجم الأساطير : ٦٢.

٢ - معجم الأساطير: ٣١.

٣ - معجم المصطلحات الدينية: ٢٨.

الأساطير الإفريقية:

١- (الطَّوْطُمِيَّة)، نسبة الى الطَّوْطَم (Totem): من الأساطير الإفريقية والشمال الأمريكي ولاسيما عند من يسمون بـ (الهنود الحمر). والطوطم: "حيوان أو نبات و أي شيء آخر من عالم الطبيعة يستخدم رمزاً الى عائلة أو قبيلة أو مجموعة من الناس، ويعد مقدساً . الرموز الطوطمية تُعلّق أو تحفر أو ترسم بألوان فاتحة على أقطاب طوطمية كما يفعل ذلك الهنود الأمريكيان" . (١)

٢- ليسا (Lissa): من الأساطير الإفريقية، وهي " إلهة تعبد باعتبارها (رَبَّة الأم) عند سكان داهومي. ابناها مادو (الشمس) ، وغو (القمر) . يرمزون إليها بالحزباء طوطمها" . (٢)

الأساطير الأمريكية:

١- أليكناك (Alignāk) أو أنينغان (Aningan): من أساطير الأجرام السماوية في الشمال الأمريكي، وهو " الاسم الذي أطلقه الأسكيمو على القمر بعد أن اقترف أخ وأخته المحارم، فصاروا منبوذين في الأرض فارتفعا الى السماء. أليكناك صار القمر، وصارت أخته الشمس" . (٣)

١ - معجم الأساطير: ١٥٨.

٢ - معجم الأساطير: ١٥٨.

٣ - معجم الأساطير: ٣٣.

٢- غاوه (Gaoh) : من أساطير الشمال الأمريكي. وهو " زعيم الريح عند

شعب الأرغواز، ويرسم بصورة مارد مهيمن على الرياح " . (١)

٣- (Thunder Bird) : " طائر الرعد في أساطير الشمال الأمريكي، وهو

" طائر أسطوري ضخم يشبه النسر. يعتقد بعض القبائل من الهنود

الحمير الشماليين أنه (الروح) التي تسبب البرق والرعد ، وهو الذي

يجلب المطر الى مزارعهم " . (٢)

٤- (Fire- Feu) : إله النار في أساطير أمريكا الوسطى، ويعد " من أقدم

الآلهة. صورته التقليدية: كهل ذو وجه عميق التجاعيد، محني الظهر

، يحمل على ظهره أو على رأسه كأساً مصنوعة لحرق البخور، ويظهر

على السفح المكسيكي الأوسط قبل الميلاد. وكان (الأزتيك) يدعونه

الإله الكهل (Ueneteolt) أو (رب المؤثرات). وكانت قبيلة أوتومي

(Otomi) المقيمة في أعلى السفح منذ أقدم الأزمنة تقدس زوجين

أوليين: (الأب الكهل والأم العجوز). العنصر الذكري في هذا الثنائي

هو في آن :شمس ونار،. وفي كل سنة كانت تقدم قرابين بشرية لإله

النار " . (٣)

١ - معجم الأساطير: ١٠٤ .

٢ - معجم الأساطير: ٢٥٢ .

٣ - معجم المصطلحات الدينية : ١٥٤ .

٥-كوبالا (Kupala) : من أساطير الجنوب الأمريكي. وهو " ربُّ تشتمل عبادته على تقديس الزهور والأشجار ومياه الأنهار. أتباع هذه العبادة يستحمون في مياه نثرت فيها الزهور، فإما أن يُغرقوا وإما أن يحرقوا تمثاله في الطقوس التي تقام على شرفه. وفي الكوبالا هناك تقديس خاص لنبته السرخس وزهرها، وهي لا تزهر في السنة إلا مرة واحدة، وذلك في منتصف الليل ، وهي مصدر العطاء والحظ الطيب لمن يمتلكها، وهو الذي عليه أن يقطفها ويقتلعها أمام أعين الشياطين الذين يحرسونها" . (١)

١ - معجم الأساطير: ١٥١.

المبحث الثالث

صراع اللغات

صراع اللغات من المضامين الحضارية للغة إذ إن التفاعل بين اللغات سلباً أو إيجاباً يولد نوعاً من السياسات التي تتسم بما يشبه الغزوات العسكرية؛ فعوامل التأثير والتأثر قد تكون سلماً أو حرباً، وتتجاوز كل بيئة لغوية الى أسباب مختلفة لمداومة عنصري التأثير والتأثر. وهذا يعني صراعاً سلمياً بطرائق التأثير الثقافي أو الاجتماعي، أو سهولة التلقي من حيث البنية اللغوية، كأن تكون اللغة المؤثرة ذات عناصر صوتية أو صرفية وأبجدية ميسرة تهئ لغلبة لغة على أخرى فتحل محلها تدريجياً على نحو كلي أو جزئي. ويعني الصراع أيضاً حرباً وغزواً كما هو مشاهد في تواريخ أمم غزت أمماً أخرى وفرضت عليها بالقوة لغاتها.

وأسباب هذا الصراع مختلفة ومتنوعة، وأهمها الغزو الثقافي كما في أطروحة (العولمة) وتداعياتها، والغزو العسكري بقوه الاجتياح والاحتلال ، والغزو البنيوي الاجتماعي، ولكن أهم ما يعنيا في هذا المبحث هو توضيح مظاهر الصراع بين اللغات وما ترتب عليها من نتائج.

إن العوامل السياسية والثقافية والدينية هي من أكثر عوامل (صنع اللغات) في التاريخ، وقد عبر عن ذلك (ج. ر. فيرث) بقوله: " إن القوى العالمية تصنع لغات؛ فالإمبراطورية الرومانية صنعت اللاتينية، وصنعت الإمبراطورية البريطانية اللغة الانكليزية، فإن الكنائس قوى عظمية أيضاً...

فالرجال الذين لديهم مشاعر قوية موجهة نحو العالم وقضاياه قاموا بأكثر الأعمال... فلغات العالم صنعها الساسة والجنود والتجارة ورجال التبشير الديني ورجال الفعل وذوو المشاعر القوية؛ فاللغات مبنية على الدم والمال والأعصاب والمعاناة في السعي وراء القوة" . (١)

وربما نجد في كلام فيرث هذا شيئاً من المبالغة، إذ جعل القوة أساس الغلبة في الصراع اللغوي، ومزج بين تطلعات الساسة والقادة بما في ذلك الملوك والأباطرة وصنع اللغات. والحقيقة أن صنع اللغات هو من جملة النتائج المترتبة على الصراع السياسي؛ فهو -إذن- نتيجة وليست سبباً، والفرق بينهما واضح بَيِّن.

ومسألة أسباب سيادة اللغات ليست من المسائل السهلة، وإنما هي مركبة من قضايا كثيرة كالعلاقات بين المجتمعات المختلفة وخصائص اللغات ومزاياها والفوارق الثقافية الحاسمة بين المجتمعات اللغوية... الخ . قال أوستلر : "... البحث في أسباب سيادة اللغة ليس في العادة مسألة يمكن حلها بسهولة؛ ففي السجل التاريخي للاتصالات بين الشعوب - وللمنافسات بين اللغات عندما تكون هناك شهادة شهود عيان للحفاظ على نزاهتها حول ما حدث في الحقيقة - فلإننا كثيراً ما نعجز عن تحديد الفوارق الثقافية التي كانت حاسمة بوضوح، وعندئذٍ قد يكون علينا أن ننظر بصورة أعمق ليس فقط الى الارتباطات المدركة بين المجتمعات المختلفة، وكيف نظر

١ - إمبراطوريات الكلمة : ٥٠.

كل منها الى الآخر، والسمات الذاتية للمجتمعات اللغوية، وكذلك مزاياها الموضوعية ، بل حتى الى خصائص اللغات نفسها. وهذا شيء غير عادي ولا تقليدي، وخاصة فيما بين اللغويين".^(١)

وثمة صلة بين سيادة اللغات وعوامل انتشارها، والأسباب التي تؤدي الى انتشار لغة ما وفرض هيمنتها على غيرها. وهذه العوامل إما عوامل بشرية كالتبشير الديني والاحتلال العسكري والتنظيم السياسي والتجارة، وإما عوامل غير بشرية كالموقع الجغرافي والترابط الإقليمي، وإما عوامل من بنية اللغة نفسها كما أشرنا الى ذلك سابقاً. قال توينبي: " ... وانتشار اللغات عن طريق الوسائل غير البشرية قوّاه العمل البشري المقصود الذي اتخذ شكل النشاط التبشيري الديني والاحتلال العسكري والتنظيم السياسي والتجارة ". ومثّل لذلك بانتشار الآرامية واليونانية واللاتينية عبر التاريخ فقال : " الدويلات والقبائل الآرامية كانت عاجزة سياسياً، وقد خضعت للأشوريين ، ومع ذلك فقد انتشرت اللغة الآرامية في جنوب غرب آسيا كما انتشرت الألف باء الآرامية شرقاً الى منغوليا ومنشوريا، وذلك بسبب الاستعمال الإداري للآرامية في الامبراطورية الآشورية والامبراطورية الفارسية الأولى، ولأن النساطرة المانويين استعملوها في الطقوس الدينية. ومن الجهة الثانية فإن نجاح اللغة اليونانية في التغلب على الآرامية في جنوب غرب آسيا وفي مصر يعود الى قضاء الإسكندر الكبير عسكرياً على الامبراطورية

١ - إمبراطوريات الكلمة : ٥٥.

الفارسية الأولى. وكان الاحتلال واسطة نقل اللغات الرومانسية الى رومانيا شرقاً، والى شيلي في الاتجاه الجنوبي الغربي، وذلك من الوطن الأصلي الصغير للغة اللاتينية، وهو الوطن الذي كان يقوم أصلاً على شاطئ المجرى الأدنى لنهر (التبير) الإيطالي" (١).

والاتصال بين اللغات سواء كان عن سبل ثقافية أو اجتماعية أو غيرهما يعزز التواصل بينها، ويتوقف الاتصال حينما تفترق المجموعات اللغوية؛ فعلى سبيل المثال نجد أن اللغات المتصلة بعضها ببعض، ولاسيما تلك التي تنحدر في أصولها التاريخية القديمة تبدأ بالافتراق شيئاً فشيئاً عندما تفقد وسائل اتصالها (٢). وهذه مسألة يجب التنبيه عليها فيما نحن فيه من صلة اللغة بالحضارة؛ فالتواصل اللغوي يحمل في مضمونه سمات بنيوية وحضارية واجتماعية، وأما السمات البنيوية فتعود الى مبدأ التأثير والتأثر، وغالباً ما تتأثر اللغات بعضها ببعض في المضامين الدلالية للألفاظ، وهو سبيل من سبل الانتقال الحضاري، وربما يكون التأثير في البنية الصوتية وهو ما يشاهد في تغير الوحدات الصوتية، وقليلاً ما يحصل في البنية الصرفية والنحوية، أي البناء القواعدي، ولاسيما بين اللغات التي تنحدر من أصول تاريخية مختلفة، وإذغ ما حصل التأثير البنيوي القواعدي فانه يحصل في اللغات المنحدرة من أصول مشتركة.

١ - تاريخ البشرية : ٥٨/١.

٢ - انظر: إمبراطوريات الكلمة: ٣٧.

وأما السمات الحضارية فواضحة كل الوضوح في مجمل لغات العالم ولا سيما الأساسية منها إذ تستعير اللغات بعضها من بعض ألفاظاً ذات مدلولات حضارية متنوعة، وخصوصاً تلك التي لا مقابل لها في لغاتها الأصلية. وأما السمات الاجتماعية وإن كانت ضمن مدلول (الحضارة) ولكنها تتفرد في خصوص والتقاليد والعقائد والعلامات الاجتماعية بين الأفراد والمجتمعات... الخ، ولذلك عبّر (كالفلي) عن تأريخ المجتمعات بأنه (الوجه اللغوي) من هذا التأريخ، فقال : "لئن كان للغة من تأريخ فإنه ينبغي لهذا التأريخ أن يكون فصلاً من فصول تأريخ المجتمعات، أو أن يكون - بصورة أدق - الوجه اللساني (اللغوي) من تأريخ المجتمعات" (١)

ووجه آخر من وجوه ما اصطلح عليه بـ (صراع الحضارات) أو (صدام الحضارات) هو صراع اللغات فيما بينها، وهو أمر أقرته القرائن والأمثلة التاريخية، ويبدأ ذلك بالصراع بين اللهجات وينتهي الى الصراع بين اللغات، و"التذبذب بين اللهجات ينجم عن التصادم اللغوي بين اللهجات المختلفة، وطرق الإملاء المختلفة، والأجيال المختلفة" (٢) . والصراع اللغوي نتيجة حتمية لتعدد اللغات؛ فالتعدد مسوغ واقعي للصراع والتصادم. قال كالفلي: "... فوجود حرب اللغات إنما هو نتيجة لوجود التعدد اللغوي، وذلك أن عالماً ليس فيه إلا لغة واحدة لا يكون فيه هذا النوع من النزاع".

١ - حرب اللغات والسياسات اللغوية: ٢٩.

٢ - أعلام الفكر اللغوي: ١٤٢/١.

ويرى كالفى - وقد بالغ في المسألة - أن الاعتقاد بمسالمة اللغات وَهُمْ دفع عدداً من الناس الى ابتداع لغات مصطنعة كلغة الإسبرنتو" . (١)

وتبدو هذه المبالغة نتيجة لتأثر كالفى بمقولة (صراع الحضارات)، نعم ، من أوجه التأثير اللغوي الظاهرة للعيان الصراع بين اللغات، ولكن المسألة لا تقتصر على ذلك فقط بل هناك أوجه أخرى للتأثير اللغوي، منها على سبيل المثال لا الحصر أن غزو العرب المسلمين لبلاد فارس في حروب الفتوح العسكرية حمل معه عنصراً من أهم عناصر السمة الحضارية، وهو (الدين)، ولما كان الإسلام لا يرى في (القومية) فيصلاً بين الأمور، ونظر في تعاليمه الى مبدأ المساواة بين المسلمين بغض النظر عن الجنس والعرق - على السبيل النظري في أقل تقدير - دان كثير من أهل بلاد فارس بالإسلام طواعية من غير إكراه، وأقر لهم الإسلام فيمن كان على دين الزرادشتية (المجوس) بأنهم (أصحاب كتاب) كاليهود والنصارى، وهي مزية تحقن دماءهم وأموالهم وأنفسهم وعقائدهم في مقابل دفع (الجزية)، وهي ضريبة حماية الرقاب كما هو وارد في المصطلحات الفقهية.

ولم يفرض العرب الفاتحون لغتهم على القوم بل الذي حصل هو العكس تماماً إذ منعوا غير المسلمين من تعلم العربية، ولكن ذلك لم يطل كثيراً فتعلم غير المسلمين العربية وأجادوا فيها وفتحوا أبواب العلم والمعرفة في (عصر الترجمة) الذي ازدهر في القرن الثاني الهجري.

١ - حرب اللغات والسياسات اللغوية : ٣٠ .

ولما كان (العنصر) أي القومية هو ثاني ركيزة مهمة بعد الدين من ركائز البنية الحضارية للأمم وجدنا أن ذلك لم يمنع من قلة التصادم مع الشعوب التي اجتاحتها جيوش المسلمين، وحصل فيما بعد (الردّ العكسي) حينما شعر أهل البلاد المفتوحة أنهم قهروا، وطفحت على السطح النوايا القومية لهم، واستغلها عدد قليل منهم ليصلوا بها الى العنصرية المقيتة، وظهور ما اصطلح عليه في العصر العباسي بـ(الشعبوية) دليل على ذلك. قال أحد أبرز الداعين الى صراع الحضارات في العصر الحديث مبيناً أثر الدين في تحرك الشعوب: " الدين هو قوة رئيسة، وربما هو القوة الرئيسة التي تحرك وتعبئ الشعوب. إنه من الغرور الصرف أن نعتقد أنه بسبب سقوط الشيوعية سيشرعون الى احتضان الليبرالية الغربية على أنها الخيار الوحيد. إن أنقسام الإنسانية في الحرب الباردة قد انتهى، إن الانقسامات الأكثر جوهرية للإنسانية في شكل العرقية والأديان والحضارات تبقى وتولد صراعات جديدة" (١) . واستشهد بقوة صراع اللغات فيما بينها بالقوتين البريطانية والأمريكية في القرنين التاسع عشر والعشرين قائلاً: "قرنان من القوة البريطانية والأمريكية الاستعمارية والتجارية والصناعية والمالية تركت تراثاً مهماً في التعليم العالي والحكم والتجارة والتقنية في جميع أنحاء العالم" (٢) .

١ - هنتغتون (صموئيل) : صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي : ١٤٤.

٢ - صدام الحضارات : ١٣٨.

ويعد (موت اللغات) أو اندثارها أو غيابها نتيجة من نتائج الصراع اللغوي، أو أحد إفرازاته وليست كلها، إذ ثمة ما يكون سبب الانقراض شيئاً آخر غير الصراع، كأن تنتسج الرقعة الجغرافية لمتكلمي لغة ما فتنشعب على مر الزمان الى لهجات محلية، ومن ثم الى لغات مستقلة. وقد ذكر كالفين ثلاثة أنواع من انقراض اللغات وأطلق عليها مصطلح (غياب اللغات) . (١)

النوع الأول: الغياب بالتحول، و "يحدث هذا النوع من الغياب في كل مرة يتطور فيها الشكل اللغوي، ويتميز جغرافياً في أثناء توسع الشعب الذي يتحدث به ليولد عائلة من اللغات كما هو الحال في اللغات الرومانية، مثال اللاتينية كما قلنا مشابه نوعياً لمثال الهندية الأوروبية التي غابت بالتحول في فترة زمنية أطول بكثير، وهو أيضاً مشابه نوعياً لمثال العربية الفصحى التي تحولت في فترة قصيرة من الزمان الى عدد من اللهجات الحديثة" .

النوع الثاني : الغياب بالانقراض، و"يكون هذا النوع من الغياب حين يموت آخر المتخاطبين بلغة من اللغات من دون أن يترك عقباً يخلفه" .

النوع الثالث: الغياب بالاستبدال، و"يحدث في كل مرة تغيب فيها لغة مغلوبة تهيم عليها لغة غالبية. هذه الحال الثالثة مناظرة للحال الأولى؛ فتحول اللاتينية الى هذه اللغة أو تلك من اللغات الرومانية يعني بالضرورة غياب اللغات التي كانت مستخدمة سابقاً قبل اللاتينية" .

١ - حرب اللغات والسياسات اللغوية : ٢٠٤ .

إن صراع اللغات نتيجة لمقولة (صراع الحضارات) سلباً كان أو إيجاباً ، بالقهر والقوة ، أو بالتراضي والإقناع والاقتناع، وثمة مقولة أخرى طفحت على السطح في عالمنا المعاصر واشتدَّ عودها في العقد التاسع من القرن العشرين، وهي مقولة (العولمة)، وتعدّ نتيجة أخرى لصراع الحضارات، ولكنها أكثر ضراوة منها، وترتب عليها ضرر شديد لحق بشعوب العالم الثالث، خاصة في آسيا وإفريقية، وهي شعوب وصفها الغرب بعنجهيته المعتادة بـ(الشعوب المتخلفة). والعولمة هذه لها جذور في التاريخ القديم، وقد تأرجح القائلون بها تنظيراً إلى أن أوصلوها إلى سمة (سالبة) لحضارات العالم ما خلا حضارات الغرب. ونجد شواهد تاريخية للعولمة مثلاً عند الإغريق حينما نشروا لغتهم وثقافتهم بين شعوب الغرب والشرق، ولكن الإغريق لم يتخذوا سبيل القوة والهيمنة العسكرية في فرض لغتهم وثقافتهم إلا قليلاً، نرى ذلك - على سبيل المثال - عند الإسكندر ولكن الإسكندر نفسه لم يكن إغريقياً بل كان من مقدونيا المجاورة لليونان غير أنه تكلم باليونانية ونشر تراث الإغريق في كل بلد من البلدان التي غزاها؛ فالمقدونيون يرون أنفسهم ورثة الحضارة اليونانية في ذلك الزمان. والبحث في مسألة العولمة يستدعي جملة من الأفكار المرتبطة بمفهوم النظام الحضاري لدى الشعوب عبر حقب التاريخ؛ فهناك من يعتقد أن تغيرات النظام الحضاري مرتبطة بعضها ببعض، والتغير في جزء من أجزاء النظام يؤدي بالضرورة إلى تغير أجزاء أخرى منه، وكأن المسألة عبارة سلسلة

متصلة إذا سقطت منها حلقة انفكت السلسلة كلها، وقد تبني (بيرلتي.ج. بيلتو) هذا الاعتقاد وعبر عنه بقوله : " كل نظام حضاري هو سلسلة مترابطة من الأفكار والأنماط لسلوك تؤدي في أحد جوانبها التغيرات عموماً الى تغيرات في أجزاء أخرى من النظام " ، وتمثل لتوضيح فكرته بأمثلة، منها التنظيم الإجتماعي الذي انعقد شمله بسبب (كسب العيش) ، فقال : فلدينا الآن أدلة كثيرة، منها أن في كل مجتمع تعزى الوسائل والأعمال في كسب العيش الى تنظيم اجتماعي، فمثلاً المجتمعات التي فيها اعتماد كبير على تربية الحيوانات تميل الى تأكيد هيمنة الذكور، كما يعبر عن ذلك توريث الممتلكات بوساطة الذكور، واختيار متعدد الأماكن للسكن عند الزواج. مرة أخرى تبين الأدلة الإثنوغرافية أن مجتمعات الصيد وجمع القوت تميل الى تساهل أكثر في ممارسة تربية الأطفال من الشعوب الزراعية والرعية... وأن مناطق الاعتقاد الديني والسحري تبدو مرتبطة بجوانب أخرى من التنظيم الاجتماعي " ، ولكن هذه الأمثلة قابلة للنقاش والحوار والنقد لأنها من (العموميات) قد تصح على بعض الأقوام في مناطق جغرافية محددة وفي فترة زمنية قابلة للدرس والاستنتاج ولا تصح على أقوام أخرى؛ فالمسألة ليست ميزاناً توزن به المجتمعات وتوجهاتها النفسية والتربوية وعاداتها الاجتماعية، إنها مسألة نسبية قابله للرفض.

ومن تعريفات الثقافة أيضاً ذات الصلة بالموضوع توجيهها على أنها نمط من المعاني المتجسدة في الرموز الدالة على عناصرها. وتبني هذا المفهوم

(كلفورد كيرتز) في دراسته المعنونة بـ (تأويل الثقافات)؛ فقد عرّف الثقافة بأنها " نمط من المعاني منقول تاريخياً ومتجسد بالرموز . إنها نظام مؤلف من التصورات والفهم المتوارث المُعبّر عنه في أشكال رمزية تعين الإنسان على التواصل والبقاء وتطوير معارفه ومواقفه حول الحياة". (١)

وقريب من هذا المعنى أمثلة ذكرها (آن مودلر) للوسائط الرمزية للمعنى " كالمعتقدات والشعائر والأشكال الفنية والاحتفالات، تضاف إليها المظاهر والممارسات الثقافية مثل اللغة والقصص وطقوس الحياة اليومية". (٢)

وتشكلت في العقدين الأخيرين من القرن العشرين مجموعة من الأفكار والمفاهيم المستجدة للحضارة عامة وللثقافة خاصة تبلورت حول أطروحة أطلق عليها (الحدثة) ، وسرعان ما انخرط عدد من السياسيين والمفكرين أو أشباههم في جماعة تبنت فكرة (الحدثة على النمط الغربي) التي استعملت وليجة للدخول في نظرية (صراع الحضارات) أو (صدام الحضارات) أو (حرب الحضارات)، وعدّد ما شئت من التعابير.

واستغلت هذه النظرية أسوأ استغلال لاختضاع الشعوب قهراً لما ادعوه (سيادة الحضارة الغربية) وحتمية الانتماء إليها من حيث التبعية (الشكلية) فقط لا من حيث المشابهة والمناظرة للغرب في أدوات المعرفة وسبل التقنية الحديثة، بيد أ، هؤلاء اصطدموا بجبال راسيات من أصول الحضارات

١ - دراسة الأنثروبولوجيا (المفهوم والمنهج) : ١٠٥ .

٢ - عدد من الباحثين : مقالات في الثقافة الاستراتيجية: ٧.

القديمة كالإسلامية والصينية والأرثوذكسية وحضارات أمريكا اللاتينية، وتبنوا خيار الحرب لا السلم في المجابهة، واستعملوا في ذلك أفتك الأسلحة الفكرية وهي القول بـ(العولمة) التي استندت أساساً من حيث أهدافها الى الأخذ بالحدثة في شؤون الحياة المختلفة واصطلحوا عليها بعبارة (modernization) أو بعبارة (Westernization)، وتعني التمدن على النمط الغربي. وكان تبريرهم لهذا التوجه قولهم : "إن توسع الغرب أدى الى دعم الحدثة والتمدن على النمط الغربي في المجتمعات غير الغربية. إن الزعماء السياسيين والمفكرين لهذه المجتمعات اختلفت استجاباتهم أو ردود أفعالهم لتأثير الغرب بطريقة أو أكثر على ثلاثة طرق: رفض الحدثة والتمدن على النمط الغربي، أو قبول كليهما، أو قبول الأول ورفض الثاني" (١) .

وربطت الحضارة بأدوات الإنتاج والبرجوازية لإيجاد حضارة على النمط الغربي، وذكرت مقولة عن (ماركس) و (أنجلس) في القرن التاسع عشر، وهي قولهما: " عبر التحسين السريع لجميع أدوات الانتاج عبر وسائل الاتصالات المُسهلة بصورة هائلة تقوم البرجوازية بجرّ الجميع بمن فيهم الأمم والأكثر بربرية الى حلبة الحضارة.. تقوم باختصار بخلق عالم على

١ - صدام الحضارات : ١٥٣.

صورتها هي " (١) ، وهذا الربط بأدوات الانتاج والبرجوازية هو ربط اقتصادي لأشك فيه، ولكن النظرية الماركسية تنطلق في جوهر أفكارها وأطروحاتها من الاقتصاد وصلته بالبرجوازية ووسائل الانتاج الكبيرة المتسارعة المؤدية الى نمو طبقاتها من ناحية، والتطور (التقني) الذي أحرزته في مجال الصناعة من ناحية أخرى .

ولا يمكن ربط المسائل الحضارية كلها بالاقتصاد على الرغم من أهميته في تحريك المجتمعات فكرياً وثقافياً . وإذا أردنا أن نخضع مقولات الماركسيين بالحدثاة على النمط الغربي الى إرهاصات العولمة في القرن التاسع عشر فإن العولمة هذه تشتمل على أكثر أنواعها أهمية وهي العولمة الاقتصادية التي تنبعث منها العولمة الحضارية، ولكنها لا تقتصر على العولمة الاقتصادية فقط .

ومن المفيد أو من الضروري التعريف بالعولمة اصطلاحاً ومضموناً، وبيان بعض مفاهيمها عند المعنيين بها. وفيما يأتي ملاحظات ينبغي التنبيه عليها:

١- هناك تعريفات عامة بالعولمة من حيث المصطلح والمضمون الفكري لها؛ فمن حيث المصطلح اشتهرت ثلاث مصطلحات أصبحت شائعة في ميدان البحث، وهي (Globalisation، Mondialisation) ،

١ - هوبز باون (E.J. Hobsbawn) : ضمن (العولمة : الطوفان أم الإنقاذ) :

(١) (Globalization) ، ومن حيث المضمون " لم تستقر نسبياً على عناصر في التعريف متقاربة أو متشابهة .

ومن جملة التعريفات بها قولهم : إن العولمة " مفهوم في العلاقات الدولية يصف حالة العالم المعاصر الذي يتميز في وقت واحد بتعزيز للارتباطات وللتضامات، وبانفتاح الدول والمجالات الإقليمية، وبتوحيد في الممارسات والنماذج الاجتماعية على مستوى الكوكب" (٢)

ولبيان أهميتها فقد قيل إن أهميتها (نظرية)؛ " فهي ترى في الواقع أن الظواهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية لا تمكن دراستها بمعزل عن دورها داخل منظومة عالم تتوسع لتغطي الكرة الأرضية بعكس ما كانت عليه في الماضي.. وكذلك تطرح العولمة فكرة اضطراب الفئات الكلاسيكية للتحليل الدولي: تمييز بين الداخلي والخارجي، الاقليم ، السيادة... وغالباً ما يرتبط تحليلها بتحليل انطلاق الذاتية (الخصوصية) التي يتزايد تصورها كردة فعل للحماية تجاه آثار العولمة" . (٣)

وها هنا أمور تستحق توضيحها :

١ - انظر: هرمية وآخرين : قاموس علم السياسة والمؤسسات السياسية : ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

٢ - قاموس علم السياسة: ٢٨٥ .

٣ - قاموس علم السياسة : ٢٨٦ .

- ان العولمة مصطلح يطلق على مفهوم عام للعلاقات بين الدول والشعوب .
- إن الغاية منها تعزيز الترابط بين الدول والشعوب في المجالات الاقليمية والدولية للوصول الى توحيد النماذج الاجتماعية وممارساتها على المستوى العالمي ، أي كالعملة العالمية الواحدة لكل الدول والشعوب. وهذا ضرب من الخيال المجنح لا تفي لتبريره عبارات طنانة أو غير واضحة ومفهومة.
- انها ترى أن الظواهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية لشعوب العالم ودوله كلاً لا يتجزأ، ولا يمكن دراستها بمعزل عن دورها في المنظومة العالمية . وفي هذه المسألة تخطي الواقع الحضاري العام لخصوصياته داخل المجتمعات التي تتبنى العناصر الأساسية لثقافتها منذ القدم وعبر أجيال من البشر.
- ولكي يبرر أصحاب العولمة لفكرهم فهم يرون أن العولمة تطرح تناقضان التحليل الحضاري بين الداخل والخارج بالنسبة الى الدول والشعوب ، وبين الداخل والإقليم، وبين الداخل والعالم، وبين الانفراد والتبعية، أو لنقل (المشاركة) بين الدول والشعوب. ويستلزم ذلك تقادي خطر الخصوصية أي الانطلاق الذاتي لتلك الدول وشعوبها.
- ٢- العولمة في مفهوم (ريتشارد هيغوت) : وهو من الباحثين والمفكرين في هذا الميدان، فقد عرّف العولمة بأنها " إحدى المصطلحات المحددة

للوعي الاجتماعي في أواخر القرن العشرين، وهي ليست مرادفة (للتدويل)، وخلافاً للجغرافية الدولية". وفرق هيغوت بين العولمة و (العالمية)، وبينها وبين (الكونية) ، فقال : "العولمة هي إحدى المصطلحات المحددة للوعي الاجتماعي في أواخر القرن العشرين، وهي ليست مرادفة للتدويل وخلافاً للجغرافية الدولية... العولمة ليست مثل مذهب العالمية (Globalism) الذي يشير الى طموحات الوصول الى حالة من الأوضاع تصبح فيها القيم شراكة وتكون متاحة للبشر كافة في العالم... على اختلاف بيئاتهم وأدوارهم كمواطنين مستهلكين أو منتجين يجمعهم اهتمام العمل الجماعي المقصود به حلّ المشاكل المشتركة، ولا هي مذهب الكونية (Universalism)، أي القيم التي تختص بكل البشرية على سبيل الافتراض أو من منطلق الأمر الواقع"^(١) ، ثم ينتهي هيغوت الى خلاصة مفهومه للعولمة بانها مجموعة من الروابط والعلاقات تتجاوز حدودها في الدول الى الأقاليم ، ومن ثم الى العالم، وتكون مؤثرة فيها جميعاً، وعبر عنها بأنها تمهد للنظام العالمي الجديد أو الحديث فقال: " تعد العولمة مزيجاً متبايناً من الروابط والعلاقات المتداخلة التي تتجاوز الدولة القومية (وضمنياً المجتمعات)، وهو ما يصنع النظام العالمي الحديث. إنها عملية يمكن أن يترتب عليها أن تكون الأحداث والقرارات والأنشطة في جزء ما من العالم لها

^١ - العولمة والأقلمة (اتجاهان جديدان في السياسات العالمية) : ٣

نتائج مهمة بالنسبة الى الأفراد والجماعات في أجزاء أخرى بعيدة في الكرة الأرضية" (١)

ونستنتج من مفهوم هيغوت للعولمة ما يأتي :

- إنه ينظر إليها من خلال الزاوية الاجتماعية أساساً (الوعي الاجتماعي).
 - إنها مزيج من العلاقات المختلفة بين الشعوب والدول تتعدى حدودها القومية الى الحدود الإقليمية والدولية.
 - إنها تمهد للنظام العالمي الجديد ، ويترتب عليها أن الأحداث والقرارات والأنشطة المختلفة للأفراد والجماعات لا تقتصر على الداخل القومي بل تكون مؤثرة في الإقليم والعالم من حيث النتائج المترتبة عليها.
- وربط هيغوت العولمة بالتأثيرات العالمية العابرة للحدود القومية والإقليمية كما استنتجنا ذلك من مفهومه للعولمة، وعبر عن هذه المسألة وأهميتها صراحة بقوله: "نحن نعيش في عالم بلا حدود ، ولكننا نعيش في عالم لم تعد الحدود تمثل فيه حواجز مادية أو فكرية في وجه فيض من التأثيرات العالمية في وجودنا اليومي ، ولهذا - إن لم يكن لشيء سواه- فإن ظهور خطاب العولمة يجعل من مثل هذه الممارسات في التمييز بين الحدود مجرد كلام لا معنى له" . (٢)

١ - العولمة والأقلمة : ٣ .

٢ - العولمة والأقلمة : ٥ .

ويرى هيغوت أن للعولمة بعدين، أحدهما: أنها تمثل "ظهور مجموعة من المتتاليات والعمليات التي لا تعوقها حواجز حدودية أو قضائية، ويعزز هذا بالفعل سيادة الممارسات عبر الحدود في المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية"، والبعد الآخر: "بوصفها خطاباً للمعرفة السياسية بعرض وجهة نظر واحدة للكيفية التي يمكن بها جعل عالم (ما بعد الحداثة) سهل القيادة". (١)

ويتضح من هذين البعدين أن العولمة بمختلف مناحيها واتجاهاتها ينبغي أن تعبر الحدود وتتصف بالسيادة العالمية، وأن تكون هناك (وجهة نظر واحدة) للقيادة العالمية. ومن خلال هذين البعدين يقترب هيغوت الى مقولة عالم واحد ووجهة نظر واحدة، ولكن من غير فرض الوجود والممارسات بل من خلال ما تقضي إليه نتائج العولمة.

وخلاصة ما توصل إليه هيغوت أنه اقترح للعولمة مفاهيم أربعة (٢) بعد أن قال : "إن معنى العولمة يظل موهماً، وسبب ذلك واضح جلي، فلم يقبل أحد بتعريف واحد للعولمة؛ فإن العولمة تحتاج الى أن ترى من خلال المنظورات المعيارية والنظريات المختلفة" :

١ - العولمة والأقلمة : ٩ .

٢ - انظر: العولمة والأقلمة : ص ٣٣ وما بعدها.

المفهوم الاول : العولمة من حيث كونها حقبة تاريخية، تبدأ من بداية الانفراج الى نهاية الحرب الباردة. " إن العولمة جاءت في أعقاب الحرب الباردة من حيث كونها مرحلة تاريخية".

المفهوم الثاني : العولمة من حيث كونها ملتقى للظواهر الاقتصادية. المفهوم الثالث: العولمة وسيلة لهيمنة القيم الأمريكية من خلال استيعاب التقنية الأمريكية ، والتمويل، والمؤسسات السياسية والاقتصادية في القطاع العام، وممارسات الأعمال في القطاع الخاص، وانتصار الحداثة والديمقراطية الليبرالية بمفهومها الرأسمالي الأمريكي. ونظر بعضهم الى مثل هذه الأمور على أنها (شكل جديد من الإمبريالية).

المفهوم الرابع: العولمة من حيث كونها ثورة تقنية واجتماعية ستقل العالم في القرن الحادي والعشرين الى " بدايات حضارة عالمية، حضارة جديدة مؤتلفة من عدد من الحضارات ستزدهر خلال القرن القادم " ، وأهم عنصرين فيهما هما: التغير التقني الجوهري، والروح الجديد للانفتاح.

٣- العولمة في مفهوم هنتنغتون (Samuel , Huntington): ظهرت في القرن التاسع عشر اتجاهات وأفكار تبناها عدد من المفكرين والفلاسفة وأشباههم ربطت العولمة منذ ظهور بوادرها الأولى بالنظام الرأسمالي وتوسعه، وعملت ظهور العولمة بالصراع بين الحضارات والثقافات ومحاولة النظام الرأسمالي للسيطرة على مقدرات الدول والأمم والشعوب. وكان أصحاب هذا الاتجاه بين موافق للعولمة ومخالف لها.

وأبرز من مثل هذا النمط من التفكير والتحليل: ماركس ولينين في النظرية (الإمبريالية)، وعمانوئيل فالرشتاين^(١). وهنتغتون أحد أشهر من تبنى هذه النظرية في أواخر القرن العشرين، ودراسة أفكاره هي خلاصة لأفكار من تبنى هذه النظرية ودافع عنها باصرار، وإن كانت السبل الى ذلك مختلفة في بعض المقدمات ولكن النتيجة تكاد تكون واحدة. قال هونتغتون مشيراً الى مصطلح الحضارة العالمية (Universal Civilization) : "يناقش بعضهم أن هذا العصر يشهد انبثاق ما يطلق عليه (نيبول) (حضارة عالمية). ما الذي يعنيه هذا المصطلح؟ الفكرة تتضمن عموماً الالتقاء الثقافي للبشرية والقبول المتزايد للقيم والعقائد والاتجاهات والممارسات والمؤسسات المشتركة للشعوب في جميع العالم".^(٢) وما عبّر عنه نيبول بـ (الالتقاء الثقافي للبشرية) هو ما يمكن تسميته بـ (التقاء الحضارات) خلافاً لصراعها، وهو تفسير إيجابي - الى مستوى معين - للعولمة، ولكنه ينتهي الى القول بـ (العالم الواحد والحضارة الواحدة)، ولذلك استعمل هونتغتون مصطلحاً مقارباً هو العالمية (Universalism)، وقال موضعاً فكرته في استعمال هذا المصطلح من حيث ثلاثة معايير^(٣) :

١ - انظر: تقى زاده آرمكى : العولمة وأثرها في الهوية والثقافة الإيرانية : ٦٨.

٢ - صدام الحضارات : ١٢٧ .

٣ - صدام الحضارات : ١٤٣ .

الأول : "إن فكرة حضارة عالمية أو كونية هي نتاج متميز للحضارة الغربية. في القرن التاسع عشر ساعدت فكرة (مسؤولية الرجل الأبيض) في تبرير توسع الهيمنة السياسية والاقتصادية الغربية على المجتمعات غير الغربية. ومع نهاية القرن العشرين ساعدت فكرة (حضارة عالمية) على تبرير الهيمنة الثقافية الغربية على المجتمعات الأخرى وحاجة تلك المجتمعات الى تقليد الممارسات الغربية".

الثاني: "إن (العالمية) هي أيولوجية الغرب في مواجهة الثقافات غير الغربية، وكما هو الحال دائماً مع المُمهّشين والمرتدين فإن من بين أكثر المؤيدين تحمساً لفكرة (حضارة واحدة) مثقفين مهاجرين الى الغرب" .

الثالث: "فكرة حضارة عالمية لا تجد إلا تأييداً بسيطاً في الحضارات الأخرى.

ان غير الغربيين ينظرون الى الشيء على أنه غربي، وينظر إليه الغربيون على أنه عالمي. إن ما يحكم عليه الغربيون بأنه تكامل دولي طيّب مثل تنامي إنتشار وسائل الإعلام العالمية يدينه غير الغربيين على أنه (إمبريالية) غربية شائنة. والى نفس المدى الذي يرى فيه الغربيون العالم على أنه واحد يرى الآخرون أنه متعدد".

وربما كانت العولمة الحضارية بعامة والثقافية بخاصة من أكثر الأنواع تأثيراً في البنية الفكرية والاجتماعية وحتى النفسية لشعوب العالم الثالث، ولذلك رأينا دعوات واضحة صريحة ، وبعضها تتصف بالصلف والوقاحة

والعنجهية عند القائلين بصراع الحضارات الى اتخاذ الثقافة الغربية مثلاً يحتذى به في العالم كله إذا أريد تطور المجتمع الإنساني الى أعلى منازل الرقي، وهؤلاء يحثون المجتمعات غير الغربية على أن تتحول الى النمط الغربي في الحداثة لكي تحقق النجاح. وعنصر الحداثة والأخذ بالنمط الغربي مقولة روج لها بعض المثقفين من غير الأوروبيين، ولاسيما اليابانيين والصينيين في أواخر القرن التاسع عشر، ودعوا مجتمعاتهم الى ترك لغاتها التاريخية والأخذ باللغة الانكليزية لغة وطنية لها. وكانت هذه المقولة أكثر انتشاراً بين النخب الغربية، ومضمونها هو : لكي تحرز النجاح "عليك أن تكون مثلاً، طريقنا هو الطريق الوحيد... وأن القيم الدينية والمثل الأخلاقية والبنى الاجتماعية لهذه المجتمعات غير الغربية هي - على أفضل تقدير - شيء غريب، وفي بعض الأحيان مناقضة للقيم والممارسة في المجتمع الصناعي، ومن ثم فإن التطور الاقتصادي سيتطلب إعادة بناء جذرية وأساسية للحياة والمجتمع، وغالباً ما إعادة تفسير لمعنى الوجود ذاته الذي في أذهان الشعوب التي تعيش في هذه الحضارات" . (١)

وعلى المسلمين - بحسب أفكار هؤلاء - أن يأخذوا بالحضارة الغربية، ولا سبيل لهم إذا أرادوا الاستمرار بالوجود غير ذلك. قال هنتغتون ، وهو من أشد المناصرين للعولمة القائمة على مقولة صراع الحضارات: " لتفادي الفوضى، ليس للمسلمين إلا خيار واحد، لأن الحداثة تتطلب الأخذ بالنمط

١ - صدام الحضارات: ١٥٥.

الغربي... الإسلام لم يعط بديلاً من الحداثة ... العلمانية لا يمكن تفاديها. العلم الحديث والتقنية تتطلب أستيعاب عمليات الفكر التي تصاحبها، وكذلك المؤسسات السياسية ، ولأن (المضمون) يجب أن يُحاكي ليس أقل من الشكل فإنه يجب الاعتراف بتفوق الحضارة الغربية حتى يكونوا قادرين على التعلم منها. اللغة الغربية والمؤسسات التعليمية الغربية لا يمكن تفاديها، وإن كانت الأخيرة تشجع التفكير والحياة السهلة... عندما يقبل المسلمون على نحو صريح النموذج الغربي فعند ذلك فقط يمكن لهم أن يتحولوا الى التقنية وأن يتطوروا". (١)

٤-العولمة الثقافية:

تعد العولمة الثقافية أحد أبرز وجوه العولمة، وربما فاق أثرها وجوه العولمة الأخرى. وللعولمة الثقافية تعريفات متعددة ومختلفة غير أنها تتفق في عناصرها الرئيسية على سيادة قيم ثقافية معينة (وأعني بها القيم الثقافية الغربية خصوصاً) على قيم ثقافية أخرى، وقد وضع أحد الباحثين مفهوم العولمة هذه بأنها " تعني الحضور المتزامن والمتربط لجميع الثقافات لا هيمنة ثقافة ما وإبادة التجارب الثقافية الأخرى، وفي هذه الحالة فإن انطلاق الدراسة تكون من الثقافة الى العولمة ، لا من العولمة الى الثقافة". (٢)

١ - صدام الحضارات : ١٥٦ .

٢ - العولمة وأثرها على الهوية الثقافية الإيرانية: ٣٠.

وهذا التعريف يعكس وجهة النظر الإيجابية عند أصحاب نظرية (تكامل الحضارات)، ولكنه لا يعني شيئاً عند مخالفيهم من أصحاب نظرية صراع الحضارات.

وأما المعنى المقصود بعولمة الثقافات المختلفة عند بعض علماء الاجتماع والدراسات والأنثروبولوجية فيتعدى الشؤون السياسية والاقتصادية المعتمدة على المعايير الكمية، "ويركز السوسيولوجيون على العلاقات الاجتماعية والثقافية العلمية والثقافات المحلية الى جانب اهتمامهم بالنتائج الاقتصادية للعولمة".^(١)

وينطلق أصحاب نظرية التكامل الحضاري من مبدأ عام ينفرد بالعبارات الآتية: (عالم واحد وحضارات متعددة)، وقد طور هؤلاء هذه الرؤية الإيجابية للعولمة مقولاتهم منذ التسعينيات في القرن العشرين ، وكان من أبرزهم (رونالد رابرتسون) إذ بيّن في كتابه المعنون بـ(النظرية الاجتماعية والثقافية العالمية) العوامل الاجتماعية الجديدة، وتبنى وجهة النظر هذه أيضاً العديد من الأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع والإعلاميين.^(٢)

وتباينت آراء الداعين الى العولمة الثقافية بمفهومها الإيجابي بين القائلين بـ(عالم واحد وحضارات متعددة)، والقائلين بـ (عالم متعدد وثقافات متعددة) ، غير أنهم اتفقوا على المبدأ العام المشترك وهو عدم انفراد ثقافة وهيمنتها

١ - العولمة وأثرها على الهوية الثقافية الإيرانية: ٥٠ .

٢ - انظر: العولمة وأثرها على الهوية الثقافية الإيرانية: ٣٠.

على ثقافات العالم الأخرى. وفيما يأتي أهم التوجهات في هذا المنظور متضمنة تعريفات بالعولمة الثقافية: (١)

- رونالد رابرتسون المذكور آنفاً، إذ وضح مفهومه للعولمة الثقافية فقال: إنها " ليست عاملاً للإدماج الثقافي إذ لا تناقض بين (العالمية والمحلية)، وبموجب هذا المفهوم يمكن تعريف العولمة على النحو الآتي : العولمة هي تلك الظروف العالمية التي بموجبها تتمكن الثقافات المحلية من التواصل فيما بينها" .

ويستفاد من هذا المفهوم وهذا التعريف عند رابرتسون أنه أكد الجانب التواصلية للثقافات المحلية الذي ينصب في نهاية الأمر الى إيجاد معايير مشتركة أو مبادئ مشتركة للثقافات.

- أنتوني غيدنز: اهتم غيدنز بال مسار الاجتماعي في مفهومه للعولمة، وقد وضح ذلك في كتابه المعنون بـ (تداعيات الحداثة). إنه يرى في العولمة مساراً اجتماعياً مشتركاً يتجاوز عنصري الزمان والمكان من حيث التأثير المشترك والمتبادل بين الثقافات ، فقال : " يمكن تعريف العولمة بأنها تشديد وتركيز للعلاقات الاجتماعية العالمية. تلك العلاقات التي تربط أمكنة متباعدة بطريقة تتأثر فيها كل حادثة محلية الطابع بحوادث أخرى بعيدة مكانياً. وهذه الظاهرة ذات طابع دياكتيكي لأن المؤثرات يمكن أن تنطلق أيضاً على شكل ردات فعل في جهة

١ - انظر: العولمة وأثرها على الهوية الثقافية الإيرانية: ٥٢ ، ٥٣ ، ٨١ .

معاكسة". وربط غيدنز بين الثقافات المحلية والعلاقات الاجتماعية زمانياً ومكانياً فقال: "إن الثقافة المحلية والعلاقات الاجتماعية في قالب الزمان والمكان وتغيراتها هي جزء من عملية العولمة".

- تاملينسون: نظر تاملينسون الى العولمة من زاوية (الحداثة المعاصرة)، وربط بين أنواع العولمة الثقافية والاقتصادية والسياسية وغيرها وجعلها في بوتقة واحدة تحدد بموجبها الحياة الاجتماعية المعاصرة للشعوب قاطبة. وهي رؤية وسطية بين مقوله (عالم واحد وحضارة واحدة) و (عالم واحد وحضارات متعددة) يمكن أن تختصر في العبارات الآتية: (عالم متعدد وحضارات متعددة). قال تاملينسون : (العولمة) شبكة متسارعة النمو والتوسع من العلاقات والارتباطات والتفاعلات المتبادلة والمتراكمة في الوقت نفسه. هي رمز الى الحياة الاجتماعية المعاصرة ... العولمة هي جوهر ثقافة الحداثة، والثقافة هي جوهر العولمة".

واتخذت وسائل الإعلام الأمريكية والغربية ، ولاسيما الكبرى منها وسيلة لنشر أفكار العولمة ومقولاتها كما هو المعهود فيها، وكان الخطاب موجهاً في تلك الوسائل في الأعم الأغلب الى الخارج الأمريكي والغربي، وخصوصاً الى شعوب العالم الثالث (غير المُحصّنة). واستعملت في الدعايات مصطلحات وأفكار ورؤى لها هدف أساسي واحد وهو استمالة شعوب العالم الثالث طوعاً أو كرهاً الى الأهمية التي لا بد منها من توحيد العالم تحت مظلة الثقافة الغربية وطمس ثقافات الشعوب الأخرى، الأمر

الذي دأب في الترويج له أصحاب نظرية (عالم واحد وحضارة واحدة) المنبثقة من فلسفة (صراع الحضارات) الجبرية، وكان من النتائج الهامشية لذلك زيادة أرباح الشركات الرأسمالية والإمبراطوريات الإعلامية ذات النزعة الشمولية التي لا يمكن في أي حال من الأحوال تبرئة ساحاتها من التأثيرات الماسونية والصهيونية العالمية. قال لتشر وبولي (Lecher-Boli) في إظهار العولمة الثقافية الأحادية وتأثير وسائل الإعلام في الترويج لها: "... لك أن تطلق على العملية اسم (الأمركة)، لك أن تدعوها بـ (الغربة)، لك أن تلصق بها وصمة (الإمبريالية الثقافية)، وقد سبقك الى هذا كثيرون داخل الغرب خاصة غير أن القوى المحركة الكامنة وراء عملية إضفاء صفة التجانس هذه تبقى بحسب زعم المنتقدين متمثلة بوسائل الإعلام الجماهيرية عبر خضوعها لتحكم شركات أمريكية وأوربية في المقام الأول، ومن خلال نشرها لمجساتها عبر موجات الأثير الى أقصى كوكب الأرض، تقوم وسائل الإعلام بفرض صورها القوية وأصواتها النافذة وإعلاناتها المؤثرة في شعوب (غير مُحَصَّنة) تستجيب بإذعان لرسائلها المُصمَّمة لزيادة أرباح الشركات الرأسمالية" (١).

ورب ناقد يقول إن مثل هذا الطرح من حيث كونه مقدمة ونتيجة هو من أفكار الماركسية التي ناهضت الرأسمالية طوال القرنين التاسع عشر

١ - لتشنر (فرانك) وبولي (جون) : العولمة : الطوفان أم الإنقاذ الجوانب الثقافية والسياسية والاقتصادية : ٤٩.

والعشرين ، ولكن الواقع الملموس من المقدمات والنتائج المترتبة عليها أظهرت بعد عقود من السنين وبعد انقضاء القرن العشرين وظهور وسائل إعلام حديثة ومتطورة غير البث الإذاعي والتلفزيوني أن المسألة لا تقتصر على أفكار ماركسية مناوئة فقط، وقد ظهر الأمر واضحاً جلياً لا يُبس فيه في العقدين الأولين من الألفية الثالثة أن من الأهداف الأساسية الكبرى إن لم يكن الهدف الأول من وسائل الإعلام الموصوفة بالحدث - الهيمنة الثقافية القسرية على شعوب الأرض وإخضاعها ثقافياً واجتماعياً بعد إخضاعها سياسياً واقتصادياً وعسكرياً من غير أن تستفيد تلك الشعوب شيئاً سوى التعري عن حضارتها وثقافتها والعمل عبيداً للغرب في مقابل الإطعام أو بما تدل عليه كلمة (عُضُوط وجمعها: عضاريط) في العربية، وهو الخادم أو العبد المسترق يخدم سيده في مقابل إطعامه، أو إغراق بعض الدول المصطنعة كالمحميات العربية (دول الخليج) وأشباهاها بالترف المادي الغربي تصريفاً لبضائع الغرب في مقابل مسح الهوية الجوهرية لتلك الدول، ونهب ثرواتها ، ومنعها من أي وسيلة حقيقية للتطور والرقى، والابقاء على مظهرها المتخلف المزيف (الكوفية والعقال والرقص بالسيوف) الدال على جاهليتها الأولى فضلاً عن الثانية. ومن شأن ذلك كله أن يصدر الغرب مفاهيمه وتفسيره للأحداث بحسب هواه وما يخدم مصالحه، وحجب ما يراه العالم الثالث من رؤى للأحداث في بلدانه. وقد

أشارت الى ذلك بوضوح زعيمة الهند الراحلة ورئيسة وزرائها (أنديرا غاندي) في خطاب ألقته سنة (١٩٧٦ م) قائلة:
"نحن نريد أن نسمع الأفارقة وهم يتحدثون عن الأحداث الجارية في إفريقيا، ولابد من أن تكونوا بالمثل قادرين على سماع تفسير هندي للأحداث الجارية في الهند.

من المدهش أننا لا نعرف إلا القليل جداً عن كبار الشعراء والروائيين والمؤرخين والكتّاب المنتمين الى مختلف البلدان الآسيوية والإفريقية والأمريكية اللاتينية، في حين أننا نعرف أسماء مؤلفين وصحفيين ثانويين كثر من كل من أمريكا وأوروبا".^(١)

٥- العولمة اللغوية:

العولمة اللغوية من أبرز الأوجه للعولمة الثقافية ، لأن اللغة هي أداة الثقافة ومن عواملها الطاغية على غيرها من العوامل في مجمل تأريخ الحضارات، ومن أدوات التعصب القومي أو العرقي أيضاً ، إذ ينقل عن الإغريق بأنهم كانوا يصفون من لا يتكلمون بلغتهم بالبرابرة (Barbaroi) أي المتوحشين. واستعار الرومان هذه الكلمة (Barbarus) وأطلقت على (الغريب).

^١ - ماكبريات - روتش: العولمة : الطوفان أم الانقاذ (النظام الإعلامي الدولي الجديد) : ٤٩٥.

وجاء في القاموس الفرنسي (Littre) من القرن الرابع عشر الميلادي أن البرابرة من كانت لغتهم غريبة^(١) ، وكأن دلالة الكلمة استعيرت من اللاتينية .

وقال كالفني معلقاً على هذا المعنى: "نرى أنه حتى لو استعت رقعة غير البرابرة اتساعاً تدريجياً يعطي المشروعات لللاتينية بعد الإغريقية، ثم للإسبانية التي تصبح في عداد اللغات المشروعات فإن مفهوم البربرية في أصله مفهوم عِرقي لتمييز اللغة الإغريقية".^(٢)

وثمة عاملان مهمان غير العامل القومي العرقي هما العامل الثقافي والعامل الديني؛ فكثير من لغات العالم خضعت لهذين العاملين، وفرضت لغات هيمنتها على ثقافات شعوب مختلفة؛ ففي القرن الثامن عشر في أوروبا - مثلاً - سادت اللغة الفرنسية على غيرها من لغات أوروبا، وعدت لغة الثقافة العامة للطبقة المثقفة الأوروبية الى جانب اللاتينية التي بدأت بالانكفاء تدريجياً لتحل محلها لغات أوربية محلية. ولدينا أمثلة لسيادة اللغة الفرنسية^(٣) ، منها ما اختارته أكاديمية برلين في السادس من شهر حزيران (يونيو) سنة (١٧٨٢م) إذ اختارت الموضوع الآتي لسباقها السنوي: ما الذي جعل اللغة الفرنسية لغة عالمية لأوروبا؟ ما الذي جعلها تستحق هذا

١ - انظر: كالفني: حرب اللغات والسياسات اللغوية : ١٠٢ .

٢ - حرب اللغات والسياسات اللغوية: ١٠٣ .

٣ - انظر: حرب اللغات والسياسات اللغوية: ١١٣ .

الامتياز؟ أيمن الافتراض أ، بإمكانها الاحتفاظ به؟ ولم تأت الأكاديمية بجديد إذ روجّ لذلك قبل هذا التاريخ كثير من مفكري فرنسا، فقد ذكر (مونتسكيو) في سنة (١٧٢٨م) بعد رحلة الى فيينا أن "لغتنا فيها (أي في فيينا عاصمة النمسا) لغة عالمية". وورد في معجم الأكاديمية الألمانية طبعة (سنة ١٧٦٢م) : "أنها (أي الفرنسية) تكاد تكون ضرورية للأجانب كلغتهم الطبيعية. وقال (فولتير) في كتابه (عصر لويس الرابع عشر): "إن لغتنا أصبحت لغة أوربا".

وينبغي لنا التفريق على نحو ملحوظ بين (سيادة اللغة) و (انتشار اللغة) على الرغم من أن انتشارها يتوافق مع سيادتها في بعض الأحيان أو نتيجة لسيادتها؛ > فانتشار لغة ما يعزى الى أسباب، منها ما تتصل بسيادتها، وأخرى لا علاقة لها بالسيادة كالحاجة الملحة لبعض اللغات المحلية أو ذات الطابع المنكفى الى استعمال لغة أكثر انتشاراً منها لأسباب تجارية مثلاً، أو اجتماعية للتواصل الاجتماعي بينها وبين مجتمعات أخرى تتكلم بلغات مختلفة أو لأسباب دينية... الخ .

والمعروف في العصر الحديث أن الإنكليزية أكثر اللغات انتشاراً على المستوى النظري في أقل تقدير، وتعد الإسبانية والفرنسية والألمانية والروسية من اللغات ذات الانتشار الواسع قياساً بلغات حية أخرى. ويقر القائلون بنظرية صراع الحضارات أن اللغة والدين من العناصر الرئيسة لأي ثقافة وحضارة، ويفترضون بناءً على ذلك أنه " إذا كانت هناك حضارة آخذة

بالانبثاق فينبغي أن توجد اتجاهات نحو انبثاق لغة عالمية وديانة عالمية". وهو ربط غير مستقر بين اللغة والدين من جهة وانتشارهما من جهة أخرى. وفيما يتعلق باللغة ينقل القائلون بصراع الحضارات ما أفاده محرر جريدة (Wall street journal) ، وهو قوله: "إن لغة العالم هي الإنكليزية" (١) ، ويستدركون عليه - وهو كلام منصف حقاً - أن المسألة هذه "يمكن أن تعني أن شريحة متزايدة من سكان العالم تتحدث الإنكليزية، ولا يوجد دليل يدعم هذا الافتراض، وأن أكثر دليل يعتمد عليه - والذي يوجد ولا يمكن قبوله على أنه دقيق - يظهر العكس تماماً". ويستدلون على ذلك بالبيانات المتوافرة لأربعة عقود (١٩٥٨-١٩٩٢) لانتشار بعض اللغات، وهي بيانات تفيد " أن الأنموذج العام لاستعمال اللغة في العالم لم يتغير بدرجة قوية، وأن درجات مهمة من الهبوط حدثت للجزء المتحدث بالإنكليزية والفرنسية والألمانية والروسية واليابانية من سكان العالم". وفيما يأتي جدول بهذه البيانات: (٢)

المتحدثون باللغات الكبرى في العالم : النسبة من عدد سكان العالم (العدد الإجمالي للمتحدثين بلغة يتكلمها أكثر من مليون نسمة مع تغيير طفيف)

١ - صدام الحضارات : ١٣٣ .

٢ - انظر: صدام الحضارات : ١٣٤ .

اللغة	سنة ١٩٥٨م	سنة ١٩٧٠م	سنة ١٩٨٠م	سنة ١٩٩٢ م
العربية	%٢,٧	%٢,٩	%٣,٣	%٣,٥
البنغالية	%٢,٧	%٢,٩	%٢,٣	%٢,٣
الإنكليزية	%٩,٨	%٩,١	%٨,٨	%٧,٦
الهندية	%٢,٥	%٥,٣	%٥,٣	%٦,٤
الماندرينية	%١٥,٢	%١٦,٦	%١٥,٦	%١٥,٢
الروسية	%٥,٥	%٥,٦	%٦	%٤,٩
الإسبانية	%٥	%٥,٢	%٥,٥	%٦,١

ومن أسباب انتشار اليابانية والصينية القوة الاقتصادية لهذين البلدين، ولاسيما انتشار الصينية في هونغ كونغ وجنوب شرق آسيا^(١)، ولكن العامل الاقتصادي- على الرغم من أهميته في التعاملات التجارية مثلاً وتسويق البضائع- لا يعد العامل الوحيد بل يشاركه في ذلك ويفوقه أهمية العاملان الديني والقومي، وخلافاً لما ذهبت إليه نظرية (صدام الحضارات) فقد قيل أيضاً إن تحديد الهوية القومية والدينية أو العقائدية للغة ما يعوق دون اتخاذها لغة الاتصال السائدة.

قال جوشوا فيشمان أحد علماء اللغة البارزين : "إن لغة ما تميل الى أن تصبح لغة الاتصال السائدة إذا لم يتم تحديد هويتها في شكل عرقي أو

^١ - انظر: صدام الحضارات : ١٣٨.

ديني أو أيديولوجي معين" ^(١) . وتكاد تكون مثل هذه اللغة لا وجود لها في عالم الواقع؛ فاللغات التي تميل الى أن تصبح لغة الاتصال السائدة تخضع لأسباب ومسوغات، والأسباب القومية والدينية والأيدولوجية من أهمها. وفي تأريخ اللغة أمثلة مطردة يمكن أن يستنتج منها قانون لغوي؛ فالإغريقية والرومانية (اللاتينية) سادت عبر التأريخ لأسباب سياسية وثقافية واقتصادية واجتماعية، وكذلك حصل للغة العربية بعد الفتوحات الإسلامية، وكان العامل الديني والعقائدي وما ترتب عليهما من عوامل ثقافية من أهم العوامل في ذيوها وانتشارها في مشرق العالم القديم الإسلامي ومغربيه. ومن أمثلة العصر الحديث انتشار الروسية في جمهوريات الاتحاد السوفيتي، والإنكليزية في المستعمرات البريطانية ولاسيما الهند بما لها من ثقل جغرافي وسكاني وثقافي وديني.

ومن نتائج (حرب اللغات) والمشاكل المترتبة على تعددها ظهرت فكرة (اصطناع لغة عالمية) وكأن اللغة عناصر كيميائية يمكن اخضاعها الى مختبر التجارب. وترجع هذه الفكرة الى القرن السابع عشر في أوروبا إذ دعا إليها كومينيوس (جان كومنيسكي) في كتاباته، مثل كتابه: (الباب المفتوح على اللغات) الذي ألفه بالفرنسية سنة (١٦٣١م) ^(٢) ، وما ورد في إحدى رسائل ديكارت إذ سأله ماران ميرسان (Marin Mersenne) في إحدى

١ - صدام الحضارات: ١٣٦.

٢ - حرب اللغات والسياسات اللغوية: ٣٧٥.

رسائله لديكارت عن " مشروع لغة جديدة لا يكون فيها إلا طريقة واحدة في تصريف الأفعال، وفي الإعراب (ترابط الجملة)، وفي بناء الكلمات؛ فأجابه ديكارت برسالة يتحفظ فيها من هذا المشروع، فقال في بدايتها: "يبدو اقتراح اللغة الجديدة هذا مثار إعجاب في بدايته أكثر مما يبدو عليه ذلك إن أمعنا النظر".

وقال في نهايتها: "... وأظن أن هذه اللغة ممكنة"، ثم استدرك قائلاً: "ولكن لا تأمل أبداً في أن ترى هذه اللغة في حيز الاستعمال؛ فاستعمالها يقتضي تغييراً كبيراً في نظام الأشياء، وينبغي معه أن لا يكون العالم إلا جنة على الأرض، وليس هذا مما يحسن اقتراحه إلا في عالم الروايات" (١)

ويظهر أن فكرة اللغة المصطنعة بدأت في الظهور في أوروبا حينما أخذت وظيفة اللغة اللاتينية وهي لغة أوروبا الثقافية في الانحسار.

ودعا ليبنز (Lebniz) الى " تأسيس نظام رمزي يسمح في الميادين العلمية بالتواصل الذي يستغنى عن اللغات الطبيعية. والمقصود بذلك نحو عالمي للغة مكتوبة يستطيع الناس أن يتفاهموا بها فغي مشرق الأرض ومغربها. ولا ريب في أن القارئ قد فهم أنه يمكن أن نرى في هذا المشروع الأنموذج الأصلي لكل اللغات الاصطناعية" (٢). وثمة قائمة بأسماء لغات مصطنعة

١ - حرب اللغات والسياسات اللغوية: ٣٧٦.

٢ - حرب اللغات والسياسات اللغوية: ٣٧٧.

ابتداءً من سنة (١٨٥٨م) ، وانتهاءً الى سنة (١٩١٤م) تضم (٤٥) لغة (١)

وعرفت لغة فولابوك (Volapük) في سنة (١٨٧٩م)، وهي لغة مصطنعة ومثلها الأكثر شهرة لغة الإسبرنتو (Esperanto) في سنة (١٨٨٧م)، وهما اللغتان الوحيدتان اللتان حققتا شيئاً من النجاح.

وبعد هذا العرض الموجز ينبغي أ، نشير الى الملاحظات الآتية:
أ. إن أسماء هذه اللغات اشتقت من جذور لغات أوروبا ولاسيما اللغات المنحدرة من الفصيلة الرومانية ما يعني " النزعة الأوروبية المركزية عند صناع هذه اللغات العالمية"، وهو ما يمكن الاستدلال به على التوجه القسري في فرض اللغة وإن كانت مصطنعة لا يكتب لها النجاح.
ب. "إن فكرة اللغة العالمية قد ظهرت في فترة تأريخية بدأت فيها اللغة اللاتينية التي كانت لغة نشر للنخب الأوروبية في الأفول".
ج. "ازدياد اللغات المصطنعة بمقدار الاقتراب من الحرب العالمية الأولى، وكأن مشاريع هذه اللغات كانت تحاول تأجيل الكارثة التي بدأت تلوح في الأفق السياسي".

١ - انظر: حرب اللغات والسياسات اللغوية: ص ٣٧٨ الى ص ٣٨٠.

٦- صراع اللغات:

إن صراع اللغات بعضها مع بعض من نتائج السياسات اللغوية، وقد تتخذ هذه السياسات منحىً ثقافياً بحسب مبدأ التأثير والتأثر، وقد تتخذ منحىً قسرياً إجبارياً نتيجة الغزو العسكري، وهو ما سنشير إليه في الفقرة اللاحقة. ومن الملاحظات القيمة التي ذكرها دي سوسير في الفصل بين اللغة والكلام أنه أشار الى أهمية اللغة الأدبية وصراعها مع اللهجات المحلية وابتعادها عن طبيعة لغة الكلام إذ قال: " اللغة الأدبية تتجاوز دائماً الحدود التي يصنعها الأدب، فما علينا إلا أن ننظر الى تأثير (الصالونات)، والبلاط، والمجاميع اللغوية القومية، ثم إن اللغة الأدبية تثير مسألة مهمة وهي الصراع بين هذه اللغة واللهجات المحلية؛ فعلى اللغوي أن يدرس العلاقات المتبادلة بين لغة الكُتّاب واللهجة المستعمله في لغة الكلام لأن اللغة الأدبية إنما هي نتاج الثقافة، فهي لا بد من أن تبتعد في النهاية عن محيطها الطبيعي، لغة الكلام" .^(١)

والثنائية اللغوية مسألة قديمة في تأريخ اللغات حتى في بيئة واحدة متجانسة من الناحية القومية والدينية، والتصنيف الذي أشار إليه دي سوسير ليس عجباً أو شيئاً من قبيل الاستدراك لأن لغة الثقافة في كل أمة متحضرة هي لغة المثقفين فيها، وهي المعيار الأساسي لتقويم ثقافتها على أن لا يغفل عن لغة العامة التي لا تخلو من كنوز ثقافية ذات النمط (الشعبي)، غير

١ - علم اللغة العام: ٣٩.

أن لغة الكلام تختلف حتى عند الطبقة المثقفة عن لغة الأدب، ولذلك يعبر عنها عادة بـ(اللغة الوسطى) أي تتوسط الفصحى والعامية، وهو مشاهد أيضاً عند بعض اللغات والشعوب كالعربية في تأريخها الطويل. والمهم في ذلك كله أن نصل الى قناعة تفيد أن النتاج الحضاري المتأثر باللغة أو العكس إنما هو وليد لغة الأدب ولغة العامة وإن كتب للغة الأدب أن ينظر إليها باحترام أكبر بكثير من لغة العامة، وأن يتوج هذا الاحترام بتدوين نصوصها، ولذلك يبدو أن لغة الأدب (لغة الثقافة) سمها ما شئت أعلى أهمية ومرتبة من لغة العامة.

وعبر (أورويل -سنة ١٩٤٦م) عن التلازم بين الفكر واللغة سلباً أو إيجاباً إذ قال: " إذا كان الفكر يفسد اللغة فإن باستطاعة اللغة أن تفسد الفكر " (١) ، وهذا التلازم قد يكون من أسباب صراع اللغات؛ فالغلبة للغة ما على لغة أخرى على سبيل الصراع بينهما لا ينتج عنها بالضرورة أن تكون الغالبة أكثر ثقافة وفكراً من المغلوبة، وفي بعض الأمثلة يحصل العكس تماماً إذ تفسد الغالبة المضامين الفكرية والثقافية للمغلوبة.

ويظل عامل التفوق الحضاري والثقافي السبب الرئيس في التفوق اللغوي، ولاسيما تفوق إحدى اللغتين على الأخرى في بيئة واحدة. وأشار أولمان الى ذلك متمثلاً باللغتين السلتيّة والانكليزية فقال : " ويوضح هذه الحالة خير توضيح وجود لغتين أو أكثر متفاوتتين في المنزلّة في الدولة الواحدة؛ فلقد

١ - أعلام الفكر اللغوي: ٦٦/٢.

تساءل الناس عن السر في ندرة الكلمات السلطانية في اللغة الإنكليزية، في حين أن اللغات السلطانية مليئة بالكلمات الإنكليزية" (١) . ويعزو (جبرسن) ذلك الى (المركز الاجتماعي) الذي تتصف به اللغة الجاذبة، فذهب الى أن السبب يجب أن يبحث في هذا المركز أو القيمة الاجتماعية للغة، وكان على السلطتين " المغلوبين على أمرهم أن يطعموا كلامهم باقتباسات إنكليزية خالية من البهاء والرونق بكثرة الاستعمال في حين لم يخطر على بالهم قط أن يضمنوا لغتهم الإنكليزية أي شيء من تعبيراتهم ذات الألوان البيئية الخاصة، وعلى هذا المنوال نفسه يسير المهاجرون الحاليون الى الولايات المتحدة" (٢) ، وهذا تماماً ما يعبر عنه في العامية القاهرية بـ (عقدة الخواجة) .

وفيما كتبه مؤرخو اللغات في كتبهم ومباحثهم ومقالاتهم أمثلة كثيرة مطردة لصراع اللغات، منها على سبيل المثال السنسكريتية التي تعد من أصول مجموعة اللغات الهندية الأوروبية؛ فقد كانت كمثيلاً لها لغة " المحاربين الغزاة القادرين جيداً على استخدام الخيل والعربات ذات العجلات لترسيخ سيطرتهم على جيرانهم" (٣) كما عبّر عن ذلك أوستلر. ومنها انتشار الآرامية في الإمبراطورية الفارسية واتخاذها لغة رسمية على الرغم من أفول نجم

١ - دور الكلمة في اللغة: ١٤٦.

٢ - دور الكلمة في اللغة: ١٤٦.

٣ - إمبراطوريات الكلمة: ٢٨٠.

الآراميين السياسي والاختلاف الأساسي في أصول اللغتين الفارسية والآرامية؛ فالأولى هندية أوربية النجاد، والثانية من أصول سامية. وهذا المثال خير مثال للغزو اللغوي (العكسي) أو (السلبى)؛ فبدلاً من أن تشيع الفارسية في الجزء الممتد من الإمبراطورية الذي يقع بين مصر ونهر الفرات احتوتها الآرامية على المستويين الرسمي والشعبي. قال موسكاتي: "الفتح الفارسي مكن الآرامية من تحقيق أعظم انتصاراتها؛ فمن القرن السادس إلى القرن الرابع قبل الميلاد نشأت على امتداد الحكم الفارسي إلى ساحل سورية وفلسطين كله وحدة موقنه في شمال دنيا الساميين، وفي الوحدة الحضارية التي قامت نتيجة لذلك صارت الآرامية اللغة الرسمية لذلك الجزء من الإمبراطورية الفارسية الذي يقع بين مصر ونهر الفرات" (١).

وثمة لغات أجنبية تحل محل اللغات الوطنية وتتخذ لغة رسمية وإدارية للدولة. وفيما يأتي بعض الأمثلة من اللغات الإيرانية: (٢)

- الفارسية القديمة، وهي من اللغات الجنوبية الغربية لإيران، وكتبت بها النقوش الأخمينية (الهخامنشية) بالخط المسماري. واتخذت الآرامية لغة رسمية وإدارية للإمبراطورية الفارسية الأخمينية، وهي لغة سامية خلافاً للغة الفارسية القديمة، ولذلك كان أكثر كتاب الدواوين في هذه

١ - الحضارات السامية القديمة : ١٨٠.

٢ - انظر كلباسي : فارسي ايران وتاجيكستان : ١٨.

الإمبراطورية من بلاد ما بين النهرين الت يتعد من مواطن أنتشار الآرامية.

- البارتية أو البهلوية الأشكانية، من جملة اللغات الإيرانية الوسيطة، وهي لغة البارتيين الذين تعود أصولهم الى (بهلة = P) أو (فهلة)، وهي جزء من إقليم خراسان. وفي بداية حكم الأشكانيين (٢٥٠ ق.م - ٢٢٦ ق.م) كانت اليونانية اللغة الرسمية والإدارية للدولة. وهي لغة دخيلة جلبها السلوقيون خلفاء الإسكندرية الى إيران، واستعملت لغة للمكاتبات الرسمية في البلاط الأشكاني، وحلت محلها بمرور الزمان اللغة البهلوية الأشكانية علماً بأن الخط البهلوي الأشكاني أخذ من الخط الآرامي، والآثار (المانوية) للأشكانية كتبت بالقلم المانوي المأخوذ أيضاً من الخط السرياني.

٧- الغزو العسكري:

الغزو اللغوي العسكري سمة من سمات (صراع اللغات)، أو على نحو دقيق نتيجة من نتائجه. ويتبادر الى الذهن في أول وهلة أن قاعدة ما قد تصلح في تفسير الغزو اللغوي العسكري، وهي غلبة لغة الغزاة على لغة المغزوين، ولكن شواهد التأريخ لا تصح مثل هذه الفرضية لكي تصلح أن تكون (قاعدة) أو شبه قاعدة، إذ قد يحصل العكس تماماً كما سنرى في بعض الأمثلة. والمهم أن الغزو اللغوي ينتج عنه تغير حضاري قد يكون قسرياً أيضاً، وعبر عن ذلك (لورنزو فاللا) ، وهو عالم إنساني إيطالي

(١٤٠٦م - ١٤٥٧م) في كتابه (روعة الحرية) إذ قال : "إن الشعوب المستعبدة -بفتح الباء- تتلخص من نير الأسلحة بسهولة أكثر من تخلصها من نير اللغة" . (١)

ويرى كثير من الباحثين في تأريخ اللغات أن الفتح العسكري لا يؤدي بالضرورة الى تغيير في لغة الشعوب المغزوه، وقد عبّر عن ذلك أوستلر واستشهد عليه بالآرامية في بلاد الرافدين وبلاد الشام وعموم شرق البحر الأبيض المتوسط، والسنسكريتية في جنوب شرق آسيا، فقال: " من الواضح أن الفتح الكلي العسكري، وحتى الروحي ليس كافياً دائماً لإحداث تغيير لغوي ، ومع ذلك يحدث أحياناً أن يتحقق ذلك على يد مجتمع يبدو أضعف... تأمل الآرامية لغة البدو الرحّل التي اجتاحت الإمبراطورية الآشورية التي كانت ما تزال في أوج قوتها في القرن الثامن قبل الميلاد؛ فحلت محل اللغة الأكديّة (النبيلة) التي كان تأريخها يعود الى بداية حضارة وادي الرافدين نفسها. وتأمل في السنسكريتية التي تم اعتمادها والأخذ بها في جميع أنحاء جنوب شرق آسيا في الألفية الميلادية الأولى كلغة تخاطب عند النخبة رغم أنها جاءت عبر البحر من الهند من دون أن يدعمها جندي واحد" . (٢)

١ - إمبراطوريات الكلمة: ٥٩.

٢ - إمبراطوريات الكلمة: ٥٢.

ومن شواهد الغزو اللغوي القسري نفوذ الآرامية في مصر في القرن السابع قبل الميلاد على إثر (قوة الغزو الآشوري).

ويرى بارتولد- وهو محق في بعض الشواهد التاريخية- أن العرب المسلمين حينما غزوا في القرنين السابع والثامن الميلاديين بلاد ما بين النهرين وسوريه ومصر وإفريقية الشمالية وغيرها لم يفقدوا قوميتهم بل أدخلوا تلك البلاد في قومياتهم خلافاً لما حصل للشعوب الجرمانية والمُغُول، وانتهى الى نتيجة صحيحة تماماً مفادها أن غلبة العربية في تلك البقاع لم تكن " بسلطان الحكومة بل بالاختيار " . (١)

وتعد الهجرات والفتوحات العربية الإسلامية من الشواهد والأمثلة الواضحة للعامل العسكري؛ فقد بقي التأثير العربي في مجمل الشعوب التي خضعت للغزو في المشرق، ولم يقتصر ذلك على اللغة والدين وحدهما ببل تعدى الى عناصر من الروح السامي. قال موسكاتي: " ... ومن الهجرات التي لم يقدر لها الثبات والدوام جميع المحاولات المختلفة لفتح العسكري، وأهمها الى حد بعيد فتوح الإسلام، ولكن لما اضمحلت بعد ذلك قوة المسلمين وتصدعت الإمبراطورية العربية بقيت عناصر عربية، أي سامية كثيرة في لغات ودماء الشعوب التي اكتسحتها موجة الفتوح الإسلامية". (٢)

١ - تأريخ الحضارة الإسلامية: ٦٤.

٢ - الحضارات السامية القديمة : ٤٣.

وربما كانت الهند بعد بلاد فارس أكثر تأثراً بلغات الفاتحين؛ فقد خضعت الهند في عصور مختلفة للنفوذ الفارسي، ونفوذ المغول الذين أسلموا، ونفوذ العرب المسلمين. وتأثرت لغتهم الأكثر شيوعاً ، وهي المسماة بـ(الهندوستانية) بلغة الفاتحين على مراحل التاريخ ، وفي الهند نحو (٢٤٠) لغة تشتمل على (٣٠٠) لهجة، وأكثر هذه اللغات انتشاراً حديثة جداً، وزمن ظهورها لا يزيد على ثلاثمائة سنة. وهذه اللغة أي الهندوستانية مزيج من الفارسية والعربية اللتين كان يتكلم بها الفاتحون المسلمون، ومن الهندية التي كانت أكثر اللغات انتشاراً في البقاع التي استولى عليها أولئك الفاتحون". (١)

وأطلق (فيرث) على الأمثلة التي من هذا القبيل اسم (الإمبراطوريات العسكرية المتعددة الجنسيات) (٢) ، واستشهد عليها من جملة ما استشهد بالإمبراطورية الرومانية قديماً وتأثير لغتها اللاتينية في الغرب أكثر من تأثيرها في الشرق، ولاسيما شرق البحر الأبيض المتوسط. ولم تتأثر لغات الغزاة البرابرة كالجرمان وغيرهم باللاتينية في مناطق نفوذ اللاتينية بعد زوال الإمبراطورية الرومانية إلا قليلاً بخلاف ما حصل في الشرق الذي كان تابعاً لها قبل انقسامها الى إمبراطورية غربية وأخرى شرقية؛ فعلى الرغم من "استمرار وجود اللغات الرومانية التي نشأت عن اللاتينية فإن تلك اللغات

١ - لوبون: السنن النفسية لتطور الأمم : ٩٢.

٢ - إمبراطوريات الكلمة : ٥١.

ذات الأصل المشترك قد نمت في بلدان أزيح عنها الحكم الروماني ليحل محله استقرار الغزاة الجرمان، وإن رجال قبائل (الفرانك) و (البورغونديين) و (الفاندال) و(القوط) الذين أقاموا الممالك في أوروبا الغربية بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في سنة ٤٧٦م) لم يكن تأثيرهم في أقصى درجاته يزيد على اللكنة التي تنطق بها اللغة اللاتينية وإضافة كلمات قليلة الى مفرداتها؛ فلم ينجحوا في فرض لغتهم على رعاياهم الجدد في أي مكان. ومع ذلك فعلى الطرف الآخر من البحر المتوسط لم يتحقق للرومان أنفسهم أي نجاح أفضل في نشر اللغة اللاتينية؛ ففي سنة (٣٩٥م) وعلى الرغم من مضي أكثر من خمسة قرون من الحكم الروماني المباشر كان الإغريق والسوريون والمصريون لا يزالون يتبادلون الحديث فيما بينهم باللغة اليونانية، وبعد تلك السنة انقسمت الإمبراطورية الرومانية الى اثنتين: شرقية وغربية، وسرعان ما فقدت اللاتينية حتى دورها الرسمي في الشرق" . (١)

١ - إمبراطوريات الكلمة: ٥١.

المبحث الرابع

العوامل السياسية

العوامل السياسية من حيث تأثيرها في اللغة أو تأثرها بها عوامل متداخلة، أي لها جوانب اجتماعية وقومية ودينية واقتصادية، ولذلك كانت العناية بمجمل هذه العوامل المتداخلة أن انتجت في أربعينيات القرن العشرين إرهافات ما أطلق عليه فيما بعد (علم اللغة السياسي). وهو علم له سمة تطبيقية عملية في أغلب سبله تستعين به سياسات الدول الخارجية والداخلية لتدعيم أفكارها ورؤاها في النواحي المختلفة للشعوب ضمن إطار سياسي موحد بغض النظر عن صحة المزاعم أو فسادها، ومن ثم استقر هذا العلم منهجاً من مناهج علم اللغة، وجزءاً من تحليل الظاهرة اللغوية. وربما كان الأهم من ذلك كله هو ما انحاز إليه هذا المنهج الجديد المستند في آواسط القرن العشرين وما بعده من محاولة جاهدة لتوجيه معطيات المنهج لخدمة الأغراض السياسية. ودخل المنهج اللغوي السياسي حيز المصطلح الدلالي وأطلق عليه مصطلحان شائعان، أحدهما : (glottopolitics)، والآخر : (institutional linguistics)، ودل من حيث المصطلح الفني على "

١ - انظر: معجم علم اللغة النظري: ١٠٩، ومعجم مصطلحات علم اللغة الحديث:

دراسة تهتم بإيجاد أو تدعيم لغة موحدة، أو كتابة موحدة لشعب متعدد اللغات" . (١)

وينبغي لنا في هذا التعريف أن نستدرك عليه عدة أمور، من أهمها أن إيجاد لغة موحدة لبيئة لغوية متعددة وجه واحد من وجوه هذا المنهج كما سنلاحظ ذلك عند شرح عناصره مدعومة بالأمثلة والشواهد. ويمكننا التعريف بعلم اللغة السياسي - بناء على عناصره - على أنه (المنهج الذي يتناول بالوصف والتحليل والاستنتاج كل ظاهرة لغوية مقصودة أو غير مقصودة لها صلة بالسياسة، وتتصف بالنواحي العملية والتطبيقية في الأهم الأغلب، وبغض النظر عن تقويم تلك الظاهرة أو مجموعة الظواهر) .

وشأن علم اللغة السياسي شأن بعض المناهج اللغوية له جذور في تأريخ اللغة، ولكنه لم ينضج ليصبح منهجاً من المناهج اللغوية إلا في العصر الحديث في آواسط القرن العشرين. وسمة الجدة أو التجديد لا تعني عدم وجود إشارات في دراسات لغوية أو غير لغوية طوال التأريخ اللغوي المدون الى أهمية السياسة في فهم بعض الآثار اللغوية المترتبة عليها.

ولما كانت العوامل السياسية عوامل متداخلة مع غيرها أصبح من المرجح - إن لم يكن من الواجب - أن نرى في خضم التأريخ اللغوي القديم وعند حضارات سادت ثم بادت تلك العوامل وأثرها في الجماعات اللغوية والعلاقات بين الشعوب؛ فمن الباحثين من ينظر الى هذه المسألة بمنظار

١ - معجم علم اللغة النظري: ١٠٩.

سلبى ويرى فيها شاهداً أو دليلاً على صراع اللغات (الحضارات) وله الحق أن يرى ذلك طالما الشواهد التاريخية تؤيد مزاعمه، ومنهم من يرى عكس ذلك فيطرح فكرة (النماذج) بدلاً من (التباين)، ومن هؤلاء موسكاتي الذي خبر دراسة الحضارات السامية القديمة إذ قال: "ربما كانت العلاقات بين الشعوب واللغات ذات طبيعة معقدة متغيرة نعجز كل العجز عن تتبعها؛ ففكرة عملية التباين المطرد يجب أن نكملها ونقومها بفكرة عملية النماذج، حيث نجد العناصر اللغوية أو الأجنبية تتداني بفضل أسباب سياسية أو ثقافية، ولا تتباعد" ^(١). وهذا الفريق من العلماء والباحثين له الحق أيضاً لاستدلاله على رأيه بشواهد كثيرة في التأريخ اللغوي الحضاري العام؛ فالمسألة - إذن - في هذه الأفكار والنظريات والمقولات ليست حسماً وفصلاً بين جدارين مثلاً، وإنما تخضع لحسابات أخرى يجب أن تتصف بالنسبية لكي نتجنب المقدمات الخاطئة المؤدية إلى نتائج خاطئة.

إن التحولات السياسية وتغير الأنظمة نتيجة للثورات المفاجئة عامل من عوامل تغير أسماء الأشياء من دون المساس بحقائقها، بمعنى أن التغير يشمل الشكل لا الجوهر، ولا يطرد ذلك دائماً؛ إذ قد يحصل أن تتغير الأشياء مع حقائقها وفق نظرة الجماعة اللغوية، والبيئة الاجتماعية، والأبعاد الحضارية، والمفاهيم التي تفرزها الثورات. قال لوبون: إن "التأريخ حينما يعرض علينا قصة الثورة المفاجئة لا يصنع سوى إنجاز عمل من أعماله

١ - الحضارات السامية القديمة : ٥٣.

المعتادة، وهو اختلاق الأغاليط ونشرها. ونحن حينما ندرس تلك التحولات عن كثب لا نُعْتَم أن نرى أن أسماء الأشياء هي التي تتغير على حين نُبْصِر أن الحقائق التي تتستر خلف الألفاظ تداوم على الحياة ولا تتحول إلا بأقصى بُطء^(١).

ومثل هذا الكلام لا ينطبق على كل شيء مطلقاً، وتتفاوت نسب التغير بحسب أسبابها؛ فمن العسير أن يشمل ذلك العناصر الأساسية لبعض الأديان والعقائد، ولاسيما السماوية منها إلا قليلاً ومن خلف ستار، وأما اللغات فهي تبع الحضارة المؤثرة والمتأثرة، ولا تمس أسس العناصر اللغوية إلا قليلاً وعلى مراحل متباعدة. وأغلب ما يشمل التغير اقتراض بعض الألفاظ أو إقراضها، والتغير الدلالي للكلمات عبر المراحل التاريخية للغة. ولا يجوز الخلط بين الدين ومن يعتنقه، وما يشاهد من القضايا الغربية الدخيلة على دين من الأديان هو من بعض من اعتنقه كما حصل في التغيرات التي حصلت للكنيسة المسيحية في تأريخها الطويل منذ ظهور الكاثوليكية ونظام البابوات خلفاء بطرس الحواري، ومروراً بالبروتستانتية في عصر النهضة والإصلاح الديني للكنيسة الى ظهور كنائس أخرى في الغرب. وأما في الشرق فقد حافظت الأرثوذكسية وكنائس شرقية أخرى على أصولها على الرغم من اختلاف السريان في مذاهبهم الدينية بين مبدأ الصفة الواحدة للسيد المسيح ومبدأ الصفتين... الخ، وأما الأمثلة في تأريخ الإسلام

^١ - السنن النفسية لتطور الأمم : ٨٦.

الحديث للعقائد المنحرفة الخارجة عن الملة فالبهائية والقاديانية والوهابية خير أمثلة لها.

إن المسلمين في الهند لم يجعلوا من نبي الإسلام (إلهاً يعبد) يضاف الى آلهة الهند الأخرى كما زعم لوبون، وإن مسلمي الدكن في الهند لم (يشوهوا) دينهم ويجعلوه كالبرهمية مطلقاً كما زعم لوبون ذلك باطلاً، إذ قال: " قد بلغ الإسلام في (الدراويد) في (الدكن) من التشويه درجة لا يمكن تمييزه بها من البرهمية مطلقاً، وهو لا يُميز منها بغير اسم (محمد) و (المسجد) الذي يعبد فيه هذا النبي بعد أن أُلّه " . (١)

وإذا شوّه قليل من المسلمين دينهم وانتقلوا الى معتقد آخر فالجديد هذا لا يمكن أن يسمى إسلاماً، ومن يعتنقه لا يسمى مسلماً، ونرى ذلك جلياً عند الأحمدية القاديانية في الهند وباكستان، والبهائية في إيران، والوهابية في بلاد نجد والحجاز وبعض المحميات المسماة بالإمارات في الخليج الفارسي؛ فهؤلاء (قاديانيون) و (بهائيون) و (وهابيون) ، ولا يتصفون بالمسلمين إلا تعسفاً وخلافاً لمنطق العقل والتأريخ والواقع.

وقد تتبدل ألفاظ وعبارات وصفات بعد تحولات سياسية جوهريّة في البلاد، ويحصل لها ما يسمى في علم الدلالة بـ(الانحطاط الدلالي)، نحو كلمة (وزير) في العربية" اصبحت في الإسبانية لا تعني أكثر من (الشرطي) ، وفي الإيطالية (مساعد جلاد) " بعد أن اقترضتها هاتان اللغتان من العربية

١ - السنن النفسية لتطور الأمم : ٨٩.

ومن أمثلة العصر الحديث ألقاب : باشا ، وبك (Bag)، وأفندي في اللهجة المصرية، إذ انزوت هذه الألقاب ونظائرها الدخيلة من التركية العثمانية، و "مرت بها تطورات في دلالتها، وانحط قدرها على توالي الأيام، وصارت كلمة أفندي في آخر عهدها ذات قدر تافه وأصبحت أقل الرتب بعد أن كان لها خلال القرن التاسع عشر مركز مهم ومكان مرموق" . (١)

وتم أمثلة وشواهد من التأريخ اللغوي السياسي تشير الى تغير الدلالة وتحولها الى معنى مرتبط بحادثة تاريخية سياسية تنتقل عبر اللغات، ولاسيما تلك التي تتحدر من أصول واحدة. ومن طرائف ما يذكر بهذا الخصوص أصول الكلمة الإنكليزية (Ostracise) التي تعني نفي الشخص وتقييد عمله في المجال السياسي أو إنهاءه؛ فالكلمة الإنكليزية تعود في جذورها الى اليونانية الأثينية، إذ اقترح أحد الأثينيين لضمان عدم رجوع النظام القديم أن تجرى ما يشبه الانتخاب العام للشعب، وابتكر طريقة لاقتراع سنوي يقوم به الأثينيون لدفع خطر أي رجل دولة يخشون خطره على الوطن والمواطنين، ويقوم هذا الاقتراع أن يكتب المقترح اسم الشخص غير المرغوب فيه على كسرة من آنية فخار توضع في وعاء فخار، أي ما يشبه صندوق الانتخاب في عصرنا هذا، وبعد الانتهاء من العملية تجمع الأصوات، فإذا بلغت نسبة الفوز في اسم شخص معين حكم عليه بالنفي من البلاد وحرمانه من العمل السياسي. وكانت تلك الآنية التي تجمع فيها

١ - إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ : ١٣٩.

أصوات الناخبين تسمى (اوستراخون = Ostrakon ، واشتقت منها الكلمة الإنكليزية المذكورة سابقاً بعد أ، تحول مجالها الدلالي. ^(١))
وغالباً ما تحمل الألفاظ السياسية دلالات هامشية عند أرباب السياسة وأحزابهم، وتكون هذه الدلالات من السعة والتوجيه العقائدي بقدر ما تسهم في أهلية الأحزاب للحكم، أو توجيه الشعوب نحو آرائهم وأفكارهم ، أو تكون طعنًا بالخصوم السياسيين الآخرين. وكثيراً ما ينظر الى تلك الأحزاب على أنها تتلاعب بالألفاظ ومعانيها الهامشية وفقاً لرغباتها، وقد تتسم في بعض الأحيان بالكذب والنفاق، غير أن تعميم هذه الصفة ليس صحيحاً. قال إبراهيم أنيس: "ويعمد السياسيون أحياناً الى شحن تلك الألفاظ السياسية بقدر كبير من الدلالات الهامشية، ويستغلونها أسوأ استغلال في دعايتهم وفرض آرائهم وعقائدهم على جمهور الناس؛ فالفدائي يجعلونه إرهابياً، والوطني قد يصفونه بالمتهور المتعصب، والهزيمة يصورونها في صورة النصر المبين؛ فألفاظ السياسة فوق أنها ألفاظ كاذبة الدلالة في غالب الأحيان تحاط عادة بهالة من الدلالات الهامشية التي تؤثر في عقول الناس ونفوسهم، وتوجههم توجيهاً معيناً نحو الخير حيناً ونحو الشرّ أحياناً". ^(٢)
وتعمد السياسة الى خلط الألفاظ ومعانيها إذا استدعى الموقف ذلك، وقد تدل الكلمة الواحدة على معنيين مختلفين أو متناقضين تبعاً لما يريده التيار

١ - انظر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٥٨٦/٢.

٢ - دلالة الألفاظ : ١٠٩.

السياسي الفكري المُنظَر؛ فمن الأمثلة اختلاف دلالة (الديمقراطية) ومضمونها السياسي بين (اللاتينيين والأنغلو سكسون) اختلافاً يصل الى حدّ التناقض بينهما. وقد وضع غوستاف لوبون هذا التناقض الدلالي في قوله: "كلمة الديمقراطية لدى اللاتين تعني على الخصوص انزواء إرادة الفرد ومبادرته أمام إرادة الدولة ومبادرتها، فتكّلف الدولة بالتوجيه والحصار والاحتكار شيئاً فشيئاً، وإلى الدولة يرجع جميع الأحزاب بلا استثناء وباستمرار ... ، وبالعكس تعني كلمة (الديمقراطية) عند الأنغلو سكسون ولاسيما الأمريكي شدة نموّ الإرادة والفرد، وانزواء الدولة؛ فلا يُترك للدولة شيء من التوجيه حتى التعليم، وذلك خلا أمور الشرطة والجيش والصلات السياسية، ومن ذلك نرى أن للكلمة الواحدة معاني متناقضة تنافاً مطلقاً لدى الشعبين المذكورين" . (١)

والموقف السياسي للشعوب المتمثل بالعاطفة الوطنية من العوامل ذات الأثر السياسي والاجتماعي في التمسك بلغة ما إظهاراً للاستقلال عن الدول الأخرى أو بنفور تلك الشعوب من دول معينة. وقد عبّر فندريس عن هذا المنحى ومثّل له ببعض الأمثلة قائلاً: " فضلاً عن الظروف الاقتصادية يجب أن ندخل في حسابنا الموقف السياسي ؛ فبعض الشعوب يتمسك بهذه اللغة دون تلك ويُرخى لها عمداً عنان التفشي مدفوعة في ذلك بعاطفة

١ - روح الجماعات: ١٠١.

وطنية، أو بقصد إظهار استقلالها، أو بنفورها من دولة مجاورة" (١) . ومثل لهذا التوجه باللغة الإيرلندية في مقابل الإنكليزية، واللغة الفرنسية في الألزاس إبان حكم الإمبراطورية الألمانية، والمنافسة اللغوية بين دول البلقان؛ فقد شاعت في إيرلندا "حركة تتجه الى إحياء اللغة الوطنية القديمة يقوم أصلها على بواعث سياسية وهي التخلص من حكم الإنكليز أعدائهم التقليديين" ، و "الفرنسية لم تُتَكلَم يوماً في الألزاس بقدر ما كانت تتكلم في فترة انضمامها الى الإمبراطورية الألمانية، أما حينما كانت مقاطعة الألزاس جزءاً من فرنسا قبل سنة (١٨٧١م) ولم تكن مضطرة الى اتخاذ لغة بعينها فلم يكن لدى الألزاسيين باعث قوي على ترك لهجاتهم المحلية الجرمانية" ، وخضعت "المنافسة اللغوية في الأقطار البلقانية لأسباب سياسية الى حد كبير ، ولكن الدين بدوره يقوم فيها بدور مهم" .

إن للعوامل القومية المدفوعة بأسباب سياسية أثراً مهماً في مقاومة استعارة الألفاظ الدخيلة من لغات أجنبية، وتنقية اللغات المحلية من شوائبها، ظهر ذلك واضحاً منذ نشأة القوميات في أوروبا وامتداد تأثيرها في جهات أخرى من العالم (٢) ، ومن الشواهد على ذلك محاولات هتلر في ألمانيا وبعض زعماء روسيا السوفيتية، ومصطفى كمال أتاتورك الذي تمكن من إلغاء

١ - اللغة : ٣٥٠ .

٢ - إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة : ١١٩ ، ١٢٠ .

الكتابة بالحروف العربية وإحلال الحروف اللاتينية محلها، ومحاولة آخر ملوك إيران الشاه محمد رضا بهلوي.

وللحوادث التاريخية ولاسيما الكبرى منها أثر واضح فيما يطرأ على اللغات من تغيرات متفاوتة في النسبة، وكذلك استيطان أقوام مواطن جديدة لهم وتأثيرهم في اللغات المحلية للمواطنين الأصليين. وأشار دي سوسير الى ذلك قائلاً: " الحوادث التاريخية العظيمة ... لها أثر كبير في عدد لا يحصى من الحقائق اللغوية، والاستيطان - وهو جانب من جوانب الغزو - يؤدي الى تغيير في اللغة نظراً لنقل اللغة الى بيئات تختلف عن البيئة الأولى لها". (١)

ويتضح العامل السياسي في اللغة بسبب استعمال الناس لها؛ فالاستعمال السياسي قيد لتبلور مفاهيم ذات طابع سياسي تنتشر بين الملا سواء منهم النخبة أو السوق، وتبعاً لذلك المؤسسات المختلفة المعنية بالشؤون السياسية مباشرة أو تلك التي تتأثر بها على نحو غير مباشر. (٢)

وتختلف حدود الدولة مع حدود اللغة في أي بقعة من بقاع العالم؛ فهي لا تتطابق و(الخارطة السياسية) لدولة ما " الى درجة أن الخارطة السياسية تظهر ملامح مختلفة تماماً عن ملامح خارطة انتشار اللغات" (٣). ويستنتج

١ - علم اللغة العام : ٣٩.

٢ - انظر: هارمان: تأريخ اللغات ومستقبلها: ٣٣٣.

٣ - تأريخ اللغات ومستقبلها : ٥١.

من ذلك أن حدود اللغة في أغلب مناطق العالم أقدم من حدود الدولة، وهو أمر منطقي إذا أخذنا بالاعتبار العوامل الأساسية لنشوء الدول وقيام الحكومات ، وأهمها العوامل الدينية والقومية واللغوية الناشئة عنهما، ولكن هل يطرد ذلك ؟ الجواب : لا ؛ فثم شواهد تدل على أن حدود الدول أقدم من حدود اللغات، أو بعبارة مختصرة دقيقة : إن حدود اللغات قد تتأثر بحدود نشوء الدول، ولا سيما ذات الصفة القومية والعنصرية والدينية المتشددة التي تسعى لفرض لغاتها قهراً على الشعوب الخاضعة لها. وقد سعى الأوروبيون في عصر ظهور الاتجاهات القومية في القرن التاسع عشر خصوصاً للمؤالفة بين حدود دولهم وحدود لغاتهم، غير أن سعيهم لم يلق النجاح المطلوب. وحصل ذلك في أمريكا اللاتينية أيضاً حين قسمت الى وحدات سياسية (اعتبارية) إذ اخترقت حدود الدول الناطقة بالإسبانية مناطق انتشار السكان الأصليين أي الهنود الأمريكيين . (١)

ويتوافق الأثر الديني مع الأثر السياسي في بعض الأحيان لانتشار حدود لهجة ما، وغالباً ما يتطابق انتشار اللهجات مع التقسيم السياسي، ويبقى ذلك حتى بعد زوال الأسباب السياسية التي أدت الى انتشارها. ويمكن أن نستنتج من ذلك أن التطابق اللهجي أكثر وضوحاً وديمومة من التطابق اللغوي، بمعنى أن لهجة متفرعة من لغة ما تبقى صامدة ضمن حدودها السياسية فترة أطول من اللغة المستقلة. قال فندريس: " ... كذلك اللهجات

١ - انظر: تأريخ اللغات ومستقبلها: ٥١.

تتضح حدودها إذا كانت تطابق تقسيماً سياسياً، وتبقى هذه الحدود في غالب الأحيان زمناً طويلاً بعد زوال الظروف التي أدت الى تحديدها"، واستشهد على ذلك ببعض أقاليم ألمانيا، فقال: " لذلك يلاحظ في بعض أقاليم ألمانيا... أن حدود الخصائص اللغوية تتطابق في بعض النقاط التي تتفق فيها هذه الحدود مع الحدود السياسية السابقة لسنة (١٧٨٩م). وهذه الحدود ترجع في عمومها الى القرن السادس عشر، بل الى القرن الخامس عشر ، وقد كانت حدوداً دينية في الوقت نفسه، حتى أن الأثر الديني يتعاون مع الأثر السياسي في تعيين حدود اللهجة".^(١)

وتتحكم العوامل السياسية غالباً ما في السياسات اللغوية للدول على الرغم من التمايز بين حدود الدولة وحدود اللغات المنتشرة فيها كما لاحظنا ذلك سابقاً، غير أن تلك اللغات (لا تملك وضعاً رسمياً)^(٢) . ولا يتجاوز عدد اللغات الرسمية المستعملة في الشؤون الإدارية بضع مئات، وهذا يعني أن اللغات الرسمية في العالم مقننة أو موجهة بتأثيرات سياسية لمسوغات أهمها التوجه العرقي (القومي) والفكري والثقافي، " ويعتمد إدراك وفهم العلاقة القائمة بين اللغات التي لها وظائف رسمية والتي ليس لها وظائف رسمية على معرفة السياسة الثقافية لكل دولة من الدول المعنية"^(٣) . ومما لا

١ - اللغة: ٣٢٧.

٢ - تاريخ اللغات ومستقبلها: ٨٥.

٣ - تاريخ اللغات ومستقبلها: ٨٥.

ريب فيه أن التوجه الثقافي لأمثال تلك الدول لها طابع قومي وفكري وسياسي معين وموجّه. ومن أمثلة التوجه اللغوي السياسي اللغة التركية التي اعتمد مؤسسو تركيا الحديثة على التوزيع القومي للأغلبية والأقلية؛ فهذه اللغة تمثل (دولة ذات شعب متعدد القوميات ومتعددة الثقافات ومتعددة اللغات)، إذ تبلغ نسبة الأتراك نحو ٧٠% من إجمالي عدد السكان ، تليها نسبة الأكراد البالغة ٢٠%، وأما المجموعات الأخرى فتبلغ نحو ١٠% ، وأهمهم الأرمن والشركس والجورجيون والعرب.

ومنذ قيام الجمهورية التركية وإلغاء الخلافة الإسلامية في سنة (١٩٢٣م) اتخذت هذه الدولة سياسة فرض اللغة الرسمية للدولة على الأقليات الأخرى إذ اعتمدت اللغة التركية الحديثة بحروفها اللاتينية لغة رسمية للبلاد تستعمل في الشؤون الرسمية الحكومية وشؤون التربية والتعليم، واستبعدت لغات أخرى من هذه الوظيفة كاللغة الكردية لأن "التركيب السياسي التركي هو تركيب الدولة الموحدة الذي لا يسمح لأية منطقة كانت التمتع بأي حقوق خاصة متميزة".

ولم يقتصر هذا التوجه السياسي والثقافي الموحد على اللغة التركية فقط بل شمل أيضاً دولاً وشعوباً^(١) أخرى مثل فرنسا والمغرب وأندونيسيا وفيتنام (٢).

١ - انظر: تأريخ اللغات ومستقبلها : ٨٧، ٨٨.

٢ - تأريخ اللغات ومستقبلها: ٩٠.

وذكر هارمان أن (السمعة الوطنية) ومراعاتها هي السبب الرئيس الذي جعل الاتحاد الأوروبي يضيف الى مجموعة اللغات الرسمية البالغة تسع لغات حتى سنة (١٩٩٤) إحدى عشرة لغة أخرى مستعملة في لجانه الرسمية منذ سنة (١٩٩٥م) .

ولا أعلم على وجه التحديد ما الذي أراده هارمان من عبارة (السمعة الوطنية) ؟ فهي من دون شك ليست السمعة الوطنية في بلدان الاتحاد الأوروبي لأن هناك لغات أخرى أوروبية شرقية أضيفت الى قائمة اللغات الرسمية المتعامل بها في لجان الاتحاد الأوروبي. والمقصود بالسمعة الوطنية كما هو محتمل ويتبادر الى الذهن (الحِسّ الوطني) أو (النزعة الوطنية) ، أو قل : (الشعور القومي). وإذا كان هذا الاحتمال مرجحاً فلا معنى للسمعة الوطنية في غير مجالها. ويمكن أن نفترض - وهو افتراض أقرب الى الحقائق الواقعية- أن الاتحاد الأوروبي تنكب هذا (العناء!) لأغراض اقتصادية نفعية بحتة.

ونستنتج من أمثلة تعدد اللغات الرسمية في البلد الواحد أن التناسب بين اللغات الرسمية والحكم الشمولي تناسب عكسي؛ بمعنى أنه كلما كانت البلاد بعيدة عن الحكم الشمولي (الدكتاتوري) تعددت فيها اللغات الرسمية، ولدينا مثال واضح في جنوب إفريقيا، فبعد أن تشارك البيض مع السود في حكم هذا البلد في سنة (١٩٩٤م) بقيادة الزعيم الإفريقي الراحل (نيلسون مانديلا) زادت فيه اللغات الرسمية المستعملة في الشؤون العامة للبلاد؛ فقد

كانت اللغتان (الإفريقية والانكليزية) هما اللغتان الوحيدتان الرسميتان في أيام الحكم العنصري، وزاد عدد اللغات الرسمية بعد سقوط هذا الحكم الى تسع لغات إفريقية محلية أخرى تضاف الى اللغتين الإفريقية والانكليزية (١)

وكذلك لا يمكن أن نقتنع بما ذهب إليه (٢) هارمان من أن بعض الدول اتخذت لغة واحدة رسمية لها لأنها افترقت الى الموارد المالية التي (تمكنها من جعل مثل هذه التسوية قادرة على العمل والتطبيق) ، وجعل نيجيريا مثلاً لذلك إذ أقرت باللغة الإنكليزية لغة رسمية للبلاد على الرغم من أنها بلد إفريقي وفيها عشرات اللغات واللهجات المحلية. ونيجيريا قبل كل شيء بلد نفطي فيه موارد اقتصادية كبيرة، يضاف الى ذلك أن عدد المسلمين فيها قد يصل الى نصف السكان إن لم يزد، واتخاذ (الانكليزية والإفريقية) لغتين رسميتين للبلاد لا يمكن تفسيره وتعليه بقلّة الموارد المالية وإنما بسبب عنصري محض، كما فعل الانكليز في شبه القارة الهندية. والفرق بين المثالين أن الأوربي الذي يتحكم في نيجيريا أحلّ لغته محل اللغات المحلية ، ولكن في الهند أحلّ الإنكليز لغتهم محل اللغات المحلية المتعددة أيام كانت مستعمرة تابعة للتاج البريطاني. وبعد الاستقلال شجعوا المتعصبين الهنود على اتخاذ اللغة الهندسوتانية لغة ثقافية ومن ثم رسمية بدلاً من

١ - انظر: تأريخ اللغات ومستقبلها: ٨٦.

٢ - تأريخ اللغات ومستقبلها : ٨٨ ، ٨٩.

الفارسية التي كانت تعد اللغة الثقافية، ولغة الأردو بدعوى أن الغالبية السكانية من الهندوس ، ولكن الصراع الخفي في تدمير القواعد الإسلامية الثقافية في الهند بما في ذلك النفوذ السياسي للمسلمين هو الذي توخاه الانكليز من هذه المسألة، وكان انفصال باكستان عن الهند نتيجة من نتائج هذه السياسة الكيدية.

وتحافظ بعض اللغات ذات المكانة السياسية والثقافية في مراحل تأريخية سابقة على أهميتها واتخاذها لغة رسمية بغض النظر عن التوزيع (الديموغرافي) للسكان. وتعد اللغتان الفنلندية والسويدية في فنلندا مثلاً واضحاً لهذا الاتجاه؛ فالسويديون في فنلندا أقلية لغوية لا تتجاوز نسبتها ٤% من السكان، ولكن اتخاذها مع الفنلندية لغة رسمية في الوثائق الرسمية الحكومية يعود الى أن السويدية كانت سابقاً لغة النخب الاقتصادية والثقافية والسياسية في البلاد " (١) . والمثال المذكور آنفاً دليل على الثنائية اللغوية في بلد واحد.

ومن الآثار السلبية لتعدد اللغات الرسمية في البلد الواحد أنه يحتاج الى رصد مبالغ كبيرة، ويؤثر سلباً في التواصل الاجتماعي. وينبغي التنبيه على أن عدد الدول التي تستعمل لغة رسمية واحدة في شؤونها الحكومية المختلفة أكثر من تلك التي تستعمل لغات رسمية متعددة. (٢)

١ - تأريخ اللغات ومستقبلها : ٨١.

٢ - انظر : تأريخ اللغات ومستقبلها : ٨١ .

والبلدان التي تتحدث بلغات متعددة تبعاً لقوميات شعوبها المختلفة تشير الى هذه المسألة في تسميتها كالاتحاد الروسي مثلاً بعد زوال الاتحاد السوفيتي، وهذه الصفة أو التسمية تعني وجود قوميات أخرى في البلاد الروسية غير الروس، كالقوميات السلافية والتركية والمغولية والذين يسكنون الأنحاء الشمالية من سيبيريا ويطلق عليهم التندرة ^(١) (Tundra) وتعد الهند الحديثة الدولة الوحيدة في العالم التي تنتشر فيها لغات كثيرة، وقد شجعت الحكومات المختلفة فيها على هذا التوجه؛ ففي الهند أكثر من (٤٠٠) لغة ولهجة، منها (١٦) لغة فقط تعد لغات رسمية. وتنتشر في أرجائها اللغة الإنكليزية (المعدلة) أي الإنكليزية الهندية - إذا صحّ التعبير - مع اللغة الهندية (الهندوستانية)، وتعد لغات أخرى كالبنغالية والماراثية والأردو لغات رسمية ذات صفة إقليمية وليست عامة في البلاد، يضاف الى ذلك كله لغات رسمية (اختيارية) معترف بها كالنيبالية والميزو . ^(٢)

١ - انظر : تأريخ اللغات ومستقبلها: ٥٥، ٥٦.

٢ - انظر : تأريخ اللغات ومستقبلها : ٨١.

ومن غريب الأمثلة استعمال لغة غير رسمية لأغراض السياسة الخارجية والدبلوماسية^(١) كما في جزيرة مالطة^(٢) ؛ فساكنها يتحدثون بلغة رسمية واحدة هي اللغة المالطية، وهذه اللغة فيها الكثير من العربية إذ وصفت بأنها (أحد ضروب اللغة العربية الشمالية) ، ولكن حكومتها تستعمل اللغة الإنكليزية لغة رسمية في السياسة الخارجية وعلاقاتها الرسمية مع الدول الأخرى. ولا ريب في أن السبب الرئيس في ذلك هو تأثيرها بعصر الاستعمار البريطاني والتأثير السياسي والثقافي للغة الإنكليزية فيها ، وهو تأثير سلبي قسري بلا منازع .

إن (التخطيط) اللغوي مصطلح ظهر في أواخر العقد الخامس من القرن العشرين، وهو من المصطلحات الأساسية في السياسة اللغوية إذ عدّه بعضهم مرادفاً لها، ويتصف بالبعد الطبقي ، وله علاقة بالسياسات اللغوية التي تنتهجها الدول ، ولكن المصطلح نفسه لم يستقر على ما يبدو على معنى ثابت نسبي وإن كان أميل الى الدلالة السياسية للغة، وهو ما أرجحه بعد توضيح مفهومه ومقاصده. وينبغي لذلك أن نشير الى عدد من

١ - الدبلوماسية (Diplomacy) : "مجموعة القواعد والأعراف والمبادئ التي ترسخت بمرور الزمن بهدف تنظيم وإدارة العلاقات القائمة بين أطراف المحيط الدولي" ناظم عبد الواحد الجاسور: موسوعة المصطلحات السياسية والدولية : ٢٩٧ . بغداد .

٢ - انظر: تأريخ اللغات ومستقبلها : ٨١.

التعريفات بهذا المصطلح عند كبار اللغويين المعنيين بعلم اللغة السياسي وغيره مما له صلة به . وفيما يأتي خلاصة لبعض الآراء : (١)

١- إن مصطلح التخطيط اللغوي (Language planning) وليد الخمسينيات في القرن العشرين، وأول من استعمله اللغوي الأمريكي هوغن (E. Haugen) سنة (١٩٥٩م) في مثالة عن الحال اللغوي في النرويج.

٢- أضاف فيشمان (Joshua , A. Fishman) الى المصطلح المذكور آنفاً مصطلحاً آخر هو السياسة اللغوية (Language policy) في كتيب نشره سنة (١٩٧٠م) جاعلاً المصطلحين وكأنهما مترادفان.

٣- وربما سيزداد شيوع المصطلحين المذكورين آنفاً (السياسة /التخطيط) في الدراسات اللغوية ذات الصلة السياسية التطبيقية في القابل من السنين من دون أن نصل الى تعريف واضح لكليهما.

٤- إن التخطيط اللغوي عند هوغن جزء من علم اللغة التطبيقي، في حين جعله فيشمان ضمن علم اللغة الاجتماعي التطبيقي إذ درسه في فصل عنوانه: (لسانيات اجتماعية تطبيقية) .

٥- وللغويين فرغيسون (Ferguson) ، وداس غوبتا (J. Das Gupta) إشارة واضحة الى مفهومهما للتخطيط اللغوي إذ يصفانه بأنه " قادم

١ - انظر كالفلي : حرب اللغات والسياسات اللغوية : ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

جديد الى أسرة التخطيط الوطني والمحاولات الإرادية الهادفة الى تغيير اللغات، والحفاظ عليها، وعلى استخدامها يمكن أن تكون قديمة قدم السياسة الاقتصادية، ولكن لم يعترف إلا حديثاً بهذه النشاطات مظهراً من مظاهر التخطيط الوطني في الميدان اللغوي". وهي إشارة واضحة منهما على أن معايير التخطيط اللغوي لها أصولها التاريخية القديمة في حقل السياسة والاقتصاد، ولكن لم تظهر على نحو واضح متميز في الميدان اللغوي إلا حديثاً .

٦-يفرق كالفني في كتابه بين مصطلحي (السياسة اللغوية) و (التخطيط اللغوي)، فهو يرى أن مفهوم السياسة اللغوية قديم قدم التعدد اللغوي إذا جعلناها (إدارة التعدد اللغوي فرعاً من فروع السياسة اللغوية). قال: "يعج التاريخ بالأمثلة على تدخل الإنسان في اللغات قبل أن نضع هذا التدخل تحت اسم (السياسة) أو تحت اسم (التخطيط اللغوي) بزمان طويل". وبناء على ذلك فإن المصطلحين غير مترادفين، ولتوضيح هذا المقصود أشار كالفني الى جهود (شارل كونيت) في سنة (١٥٥٠م) الذي حاول أن يحل الإسبانية محل لغة الهنود الأمريكيين، واقترح ثلاث مراحل لتحقيق ذلك:

أ. مرحلة التفكير بالمشكلة اللغوية وبتحليل الوضع، ومعنى ذلك في السؤال الآتي : "أيمكن تدريس المسيحية باللغة المحلية لهؤلاء الهنود؟".

ب. مرحلة التقرير، ويعني ذلك استخدام اللغة الإسبانية لجعل الهنود مسيحيين .

ج. مرحلة التطبيق، أي (وضع القرارات موضع التنفيذ) ، ويفترض تعليم اللغة الإسبانية قبل تعليم المسيحية بهذه اللغة.

وخلص كالفلي للتفريق بين مصطلحي (السياسة) و (التخطيط) معلقاً على محاولة شارل كونيت المذكورة آنفاً الى قوله : "نحن نعد أن السياسة اللغوية هي مجمل الخيارات الواعية المتخذة في مجال العلاقات بين اللغة والحياة الاجتماعية ، وبالتحديد بين اللغة والحياة والوطن. ونعتبر أن التخطيط اللغوي هو البحث عن الوسائل الضرورية لتطبيق سياسة لغوية، وعن وضع هذه الوسائل موضع التنفيذ"، ثم يستدرك قائلاً : "وإن عدنا الى المثال المذكور أعلاه فإن قرار شارك كونيت يشكل خياراً في السياسة اللغوية، أما احتمال وضعه موضع التنفيذ على الساحة الأمريكية الجنوبية فيشكل تخطيطاً لغوياً" . وعلى هذا النحو يرى كالفلي أن التخطيط هو الجزء التطبيقي للسياسة اللغوية. أي قسم منها وليس قسماً لها أو نتيجة لها. وهو رأي لا يخلو من وجهة، ولكن يعترضه أن الذين مارسوا السياسات اللغوية عبر التاريخ كان لهم تخطيط سابق لتحقيق هذه السياسة. وإذا أخذنا هذا المفهوم بنظر الاعتبار وجدنا أن المصطلحين يدلان على مقصد واحد ولا فرق بينهما سوى ظهور مصطلح التخطيط ضمن ما يعرف بعلم اللغة السياسي الذي يعد منهجاً جديداً من مناهج الدراسات اللغوية الحديثة.

وانتقد كالفى أيضاً شرح فرغيسون وداس كوبتا للتخطيط اللغوي، ورأى أن التخطيط يمثل نوعاً من (التحدي اللساني) لكونه مُوجَّهاً، وقال إن "مجرد ذكر مصطلح التخطيط يصنف اللغة الى جانب الأشياء التي يمكن التخطيط لها كالمدرسة والولادة والتطور والبناء وغير ذلك، أي الى جانب الأشياء التي للسلطة نفوذ عليها وتستطيع إدارتها وتوجيهها" ، ثم يسأل السؤال الآتي: الى أي حدّ يمكن التخطيط للغة؟

ويجيب عن هذا السؤال بقوله: " تقتضي فكرة التخطيط اللغوي ثلاثة أمور: خصوصيتين لغويتين ، وقدرة إنسانية على الفعل. وتقتضي الخصوصية الأولى أن اللغة متغيرة، وهذا ما لا جدال فيه؛ فتأريخ اللغات يثبت ذلك . وتقتضي الخصوصية الثانية أن العلاقات بين اللغات قابلة للتغيير، ولكنها تفترض أن الإنسان قادر على التدخل في هاتين المسألتين، وأنه قادر في بيئة مصطنعة أي في المختبر أن يغير اللغة، وأن يغير العلاقات بين اللغات". ويعود كالفى ويستدرك بقوله: " إن التطور سواء أكان تطور اللغة نفسها أم تطور العلاقات بين اللغات يخضع للحدث الاجتماعي لا للتدخل الموجه؛ فاللساني يشرح الحدث الاجتماعي ولكنه "يُحدثه"، ولهذا تشكل فكرة التخطيط اللغوي بحد ذاتها نوعاً من التحدي للسانيا).

وهذا فصل القول في هذه المسألة المتأرجحة بين الفعل والانفعال لأنه لا يمكن إخضاع اللغة لتغيير قسري مخطط له ما لم يلق استجابة طوعية غير مقصودة أو مبرمجة من الجماعة اللغوية. ويمكن أن نصل مما تقدم

ذكره الى خلاصة مفادها أن التخطيط هو نتيجة للسياسة اللغوية، وأنه رهن بتقبل المجتمع إياه، ولا يمكن فرضه قسراً ، وأن المحاولات التي حصلت في تأريخ اللغات لغرض مبدأ التخطيط باءت كلها أو معظمها بالفشل إلا قليلاً منها، وما جرى لبعض اللغات من تغيير لم يكن في البنى الأساسية والتركيبية لها ولكنه في الغالب بسبب طرائق الكتابة كما حصل للغة التركية في عصر أتاتورك، واستيعاب مفردات من لغات أخرى، وتغيير ملحوظ طفيف في بعض البنى الصوتية والصرفية. وهذا ما نستحسنه ونميل إليه كل الميل وربما كان مرجحاً على غيره من الآراء. ولذلك أشار كالفي الى أن السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي تهدفان " الى التأثير في شكل اللغة، أي تمييط اللغة الوطنية وتقييسها"، ورأى أن ذلك يحصل على ثلاثة مستويات :

- أ. "مستوى الخط: حين يتعلق الأمر بأن يبتدع خط للغة الشفوية، أو أن يغير الخط المعتمد فيها، أن تغير أبجديتها" .
- ب. "مستوى المعجم: حين يتعلق الأمر بخلق وحدات معجمية جديدة (بالاقتراض أو بالتوليد) ليسمح للغة بالتعبير عن معانٍ كان يعبر عنها بلغة أخرى (كمفردات السياسة والعلوم وغير ذلك) .
- ج. "مستوى الأشكال اللهجية: حين تكون للغة التي ارتقت حديثاً الى مستوى اللغة الوطنية أشكال مختلفة باختلاف مناطقها، ويجب أن يختار واحد من هذه الأشكال أو أن يستحدث شكل جديد يأخذ من مختلف اللهجات".

ومن المسائل ذات الصلة بالسياسة اللغوية والتخطيط اللغوي مقولة تقليص مفردات اللغة والاقتصار على أهمها من حيث الاستعمال مما تستدعي الحاجة إليه. وقد شاعت هذه المقولة في أواخر القرن التاسع عشر ، وتبناها عدد من اللغويين والمفكرين وكانت لها إرهابات قبل ذلك بزمان طويل. وخلاصة هذه المقولة هي تقليص مفردات اللغة ولاسيما المفردات ذات المعاني المجردة الت يتدفع للبس والإيهام وسوء الاستعمال وقصور الفهم. وفيما يأتي أهم ما قيل في هذه المسألة :

١- جون لوك (١٦٣٢م - ١٧٠٤م) : من أوائل المفكرين الذي نبهوا على أهمية توضيح الأفكار بالتجربة الحسية المباشرة وتطويع اللغة لذلك؛ فقد صنف لوك الأفكار الى أفكار بسيطة وأخرى معقدة، ورأى أن من بين الأفكار المعقدة أفكاراً أطلق عليها (الأنماط المختلفة)، " وتشمل جميع المصطلحات الأخلاقية، وهي الأكثر احتمالاً على خلق سوء التفاهم ما لم يتم تحديدها بشكل دقيق وفق الأفكار البسيطة المستفادة من التجربة الحسية المباشرة التي تتحدد مع بعضها لتشكل تلك المصطلحات" . (١)

٢- ستيوارت جيس (١٨٨٨م - ١٩٨٥م) : ألف كتابه المعنون بـ (طغيان الكلمات) ونشر في سنة (١٩٣٨م) ، ولاقى رواجاً وشيوعاً بين المعنيين بالدراسات اللغوية ولاسيما الدالين منهم . وساعد هذا الكتاب على

١ - أعلام الفكر اللغوي: ٧١/٢.

تبسيط علم المعاني، وحذر فيه المؤلف من الألفاظ والمصطلحات المجردة، واهتم فيه "بالكيفية التي تقودنا فيها الفخاخ المجردة المحملة باللغة الى أنماط مزيفة من التفكير" (١) . ودعا جيس الى " التدخل المباشر في الاستخدام اللغوي من أجل الوصول الى التفكير الواضح" ، وكان متشككاً في الكلمات المجردة ذات المدلول المعنوي " الى الدرجة التي يوهم فيها نفسه أن طغيان تلك الكلمات أكثر واقعية من طغيان هتلر " . قال جيس في كتابه: " تتجسد المصطلحات المجردة في هيئة أشخاص لتصبح وقائع مُحَرِّفة ومُقاتِلة، مع ذلك تكون المعرفة في علم المعاني عامة؛ فإن النار المُدمِّرة نادراً ما تبدأ " . وقال في موضع آخر : " الكلمات والمصطلحات المجردة التي ليست لها مدلولات يمكن الرجوع إليها إنما تسجل فراغاً في المعنى وضجيجاً لا معنى له " . (٢)

ومن طريف القول أن أورويل، وهو من أكثر المدافعين عن تهذيب اللغة الإنكليزية وتشذيبها من فضول طيف الدلالات ، ردّ على جيس قائلاً : " لقد أوشك ستيوارت جيس وآخرون على الادعاء أن جميع الكلمات المجردة خالية من المعنى، واتخذوا ذلك ذريعة للدفاع ونوعاً من الاستسلام السياسي؛ فمثلاً: طالما لا تعرف معنى (الفاشية) فكيف يتسنى لك النضال ضد

١ - أعلام الفكر اللغوي: ٦٨/٢.

٢ - أعلام الفكر اللغوي: ٦٩/٢.

الفاشية؟". ورأى أورويل أن "المبالغة في التشكك في الأفكار المجردة يمكن أن تؤدي الى نتائج سياسية وخيمة لا تحمد عقباها". (١)

٣- ذهب أوغدن (١٨٨٩م - ١٩٥٧م) في كتابه مع ريتشاردز (معنى المعنى) المنشور سنة ١٩٢٣م الى أن نشوب الحرب العالمية الأولى كان نتيجة لسوء استخدام الكلمات المجردة الدالة على معاني غير محسوسة كالديمقراطية والحرية، وكانت تلك الألفاظ تستعمل غالباً في العامة الإعلامية، وترويج أفكار وسياسات تبنتها الدولة الفاعلة في الميدان السياسي في أوروبا. ولابد للمعنيين ولاسيما المفكرين من توجيه معاني هذه الألفاظ على نحو لا تستغل في أعمال سوء، وذكر أن "أي أمل في السلام العالمي في المستقبل يعتمد على قدرة الأشخاص المفكرين على السيطرة على معاني تلك الكلمات لئلا يساء استخدامها" . (٢)

وتبنى أوغدن فكرة (مثالية) من الصعب تحقيقها إن لم يكن من المستحيل في السيطرة على معاني الألفاظ السياسية في كتاب (معنى المعنى) في الفصل الخاص بالمصطلحات ودعا الى تقليص مفردات اللغة الانكليزية "

١ - أعلام الفكر اللغوي: ٦٨/٢ .

٢ - أعلام الفكر اللغوي: ٧١/٢ .

القادرة على التعبير عن كل شيء بمفردات لا تتجاوز (٨٥٠) ثمانمائة وخمسين كلمة فقط" . (١)

وظن أن تقليص اللغة الانكليزية الى هذا العدد ، وهي الألفاظ ذات المدلولات الحسية الملموسة " سيجعل من المستحيل في النهاية استخدام اللغة بطريقة يخدم فيها الناس لأغراض دعائية" .

٤- جورج أورويل (George Orwell)، وهو الاسم المستعار الذي اشتهر به . وأما اسمه الحقيقي فهو إرك آرثر (Eric Arthur Blair) ولد في بريطانيا سنة (١٩٠٣م)، وتوفي في سنة (١٩٥٠م) ، وهو روائي مفكر صحفي بريطاني .

أُتسم أسلوبه بالوضوح، وذهب مذهب الاشتراكية الديمقراطية، واعترض على الحكم الشمولي ، ودعا الى العدالة الاجتماعية، وأشهر مؤلفاته رواية سنة (١٩٨٤)، و (مزرعة الحيوان)، كان أورويل ينظر الى اللغة الانكليزية على عهده ويعني بذلك اللغة الفصحى المعتمدة في الصحف والمقالات والشؤون الحكومية والخطب ونشرات الأخبار في الإذاعة ... الخ ، كان ينظر إليها بوجل وحذر شديدين، وعدّها من أشد أعداء اللغة الإنكليزية التي وصفها بالجيدة. قال في كتابه المعنون بـ(الشعب الإنكليزي) المنشور في سنة ١٩٤٧م : " ربما نجد اللغة الفصحى من أشد أعداء اللغة الإنكليزية الجيدة، هذه اللهجة المقيّنة (المملة) لغة المقالات الرئيسية في الصحف

١ - أعلام الفكر اللغوي: ٧١/٢.

والكرّاسات الحكومية والخطب السياسية ونشرات الأخبار في هيئة الإذاعة البريطانية آخذة بالانتشار من غير شك، وهي تتغلغلا في السلم الاجتماعي نزولاً، وفي اللغة المحلية صعوداً. وسمتها البارزة اعتمادها على العبارات الجاهزة، مثل : (في الوقت المناسب)، و(أغتنم أول فرصة) ، و (تقدير عميق)، التي كانت يوماً ما جديدة وواضحة، بيد أنها أصبحت مجرد وسائل (لتعليب الأفكار)، وعلاقتها باللغة الانكليزية الحية مثل علاقة (العُكّازة بالساق). وكل من يُحضر مادة إذاعية، أو يكتب لجريدة (التايمز) يتبنى هذا النوع من اللغة بطريقة تكاد تكون غريزية، وهي تنقل العدوى الى اللغة المحلية كذلك" (١)

وكان ديدن أرويل هو الوصول الى قوة لغوية تعضد التفكير الواضح ، وقد تطرق الى هذه المسألة مدفوعاً بعقيدته السياسية في مقال له عنوانه (السياسة واللغة الإنكليزية) المنشور في سنة ١٩٤٦م في المجلة اللندنية المسماة بـ (آفاق). وجوهر هذا المقال أن التفكير الملتبس يؤدي الى استبداد الكلمة، ولكي نحارب الاستبداد السياسي الناتج عن ذلك يجب أن نركن الى لغة الطبقة العاملة الموروثة، ورأى " أن الاتجاهات في اللغة والفكر التي ينبغي مقاومتها هي تلك التي تنسب الى الطبقتين العليا والمتوسطة". قال في توضيح مقولته: " إن الانحطاط الموقت في اللغة الانكليزية مردّه - مثل أشياء أخرى كثيرة- الى نظام الطبقات الفوضوي لدينا. لقد أصبحت

١ - أعلام الفكر اللغوي: ٧٥، ٧٦.

اللغة الانكليزية (المصقولة) تعاني من فقر لأنها - فترة طويلة- لم تستمد القوة من الطبقات الكادحة. إن أكثر الناس استعمالاً للغة البسيطة الملموسة الذين يفكرون في الاستعارات التي تستدعي فعلاً (صوراً مرئية) هم أولئك الذين يعيشون في تماس تام مع الواقع الفعلي. وتعتمد حيوية اللغة الإنكليزية على الإمدادات المستمرة من ذلك النوع من الصور، وهكذا فإن اللغة ، واللغة الإنكليزية الخاصة، ستعاني عندما تفقد الطبقات المثقفة تواصلها مع العمال الكادحين". (١)

وجعل أورويل التجديد السياسي نتيجة للتفكير الواضح، وفي معرض إشارته الى الاعتقاد السائد أن اللغة نموّاً طبيعياً ويصعب (تدجينها) وفق أغراضنا، استدرك على هذا الرأي بما يفيد خلافه على العكس فقال : " قد يعترف معظم الذين يهتمون بهذا الموضوع بأن اللغة الانكليزية في حالة مزرية، ولكن الافتراض السائد أنه ليس بوسعنا فعل أي شيء حيال ذلك، وبخاصة العمل الواعي. ويكمن وراء ذلك الاعتقاد شبه الواعي أن اللغة نمو طبيعي وليست أداة نشكلها على وفق أغراضنا. والمسألة المهمة هي أن العملية قد تكون معكوسة؛ فاللغة الإنكليزية الحديثة، وبخاصة اللغة المكتوبة مليئة بالعادات السيئة التي تنتشر بالتقليد والتي يمكن تجنبها إذا أبدى المرء استعداداً لتحمل ذلك، وإذا تخلص المرء من تلك العادات يصبح بمقدوره

١ - أعلام الفكر اللغوي: ٧٦.

التفكير بوضوح أكثر، والتفكير الواضح بمثابة الخطوة الأولى اللازمة في سبيل التجديد السياسي" . (١)

إن العوامل السياسية قد تؤدي في بعض الأحيان الى الاستحواذ الفكري، وأطلق عليها أورويل في (اللغة الجديدة) أو (المبتكرة) مصطلح (التفكير الازدواجي) (٢) . وربط بين التوحيد القياسي أي (تقييس اللغة)، و (تقييس الفكر) ما ينجم عنه إعادة صياغة بنية اللغة، ووصف هذا الأمر بأنه " استبدال لا يقل خطراً عما فعلته الثورات الشيوعية. ويتعاضد الخطر على نحو خاص " عندما يصبح تقليص اللغة - كما حصل مع اللغة المبسطة- الوسيلة التي يمكن بوساطتها لجم اللغة وكبح جماحها " (٣) ، فأورويل يحذر من تطويع اللغة للفكر سواء أكانت اللغة مبسطة يراد بها دفع استغلال ظلال المعاني المجردة لخدمة أغراض سياسية أم كانت اللغة الدارجة المعمول بها. والمسألة عند أورويل هي مكافحة استغلال اللغة لغرض قيود فكرية معينة على المتلقي.

ولا يدعو أورويل في لغته الجديدة المقترحة الى إعادة بناء اللغة، وإنما يدعو الى تغيير الطريقة التي تستخدم فيها مكونات اللغة؛ فهو يرى أن يبدأ المستعمل للغة بالأفكار لا بالكلمات، وبالأفكار المحسوسة الملموسة القابلة

١ - أعلام الفكر اللغوية : ٦٥/٢.

٢ - رواية عام (١٩٨٤) : ٤٨.

٣ - أعلام الفكر اللغوي : ٧٧ .

للملاحظة التجريبية " وعند ذلك فقط يمكن للغة أن تطمح الى خدمة مصالح الحقيقة وليس لمجرد خدمة مصالح السلطة" (١) . وهاهنا ينبغي لنا أن نسأل أورويل: إذا بدأنا بالأفكار الملموسة الخاضعة للملاحظة التجريبية وعزفنا عن الأفكار المجردة ذات الظلال الدلالية المتشابكة فمن يضمن أن لا يستغل ذلك أرباب السياسة في الترويج لأفكارهم ومقولاتهم وأحزابهم؟ صحيح أن نسبة الاستغلال في مثل هذا الحال تقل عما عليه مع الأفكار المجردة ولكن يبقى المتكلم والمتلقي أسير المعنى الدلالي للألفاظ؛ فعلى سبيل المثال : إذا روج سياسي ما أو حزب ما في الانتخابات العامة لبرنامج الانتخابي بعبارات من قبيل (النهضة الاقتصادية) ، و (تخفيف الضرائب عن الناس) ، والتوجه في الصناعات الى (الصناعات البتروكيميائية) ... الخ من العبارات ذات المدلول المحسوس، فمن يضمن حينذاك أن لا يندفع بعض العوام من الناس؟ وأن لا يستغل ذلك السياسي أو الحزب حتى المجالات اللغوية المحسوسة لصالحه ومصالحه؟ ولذلك نرى أورويل قد جنح الى التخفيف من وطأة الأفكار المجردة ولم يمل عنها كل الميل، فهو لا يرفض تلك الأفكار رفضاً مطلقاً، بل يرى أن " التشكك في الأفكار المجردة يمكن أن يؤدي الى نتائج سياسية وخيمة لا تحمد

١ - أعلام الفكر اللغوي: ٦٨.

عقباها" ^(١) ، وردّ بهذا الصدد على ستيفارت جيس صاحب كتاب (طغيان الكلمات) كما أشرنا الى ذلك سابقاً.

وعند أورويل قناعة بأن الألفاظ المجردة وسوء استعمالها تظهر للناس مدى إجرام بعض التيارات السياسية بحق البشرية ، وهي بذلك يمكن توظيفها في الكشف عن الهوية الحقيقية لتلك التيارات والأحزاب، ولا ينبغي محاربتها كما ارتأى جيس. وقيل بهذا المعنى : "إذا كان جيس يعتقد أن اللغة البذيئة الآن أقوى سلاح متوافر في مستودع الأسلحة عند الطغاة الديماغوجيين (زعماء الدهماء) فإن لدى أورويل جرساً يذكره بأن مجتمعات الصناعة العسكرية التي يمتلكها هتلر وستالين ليست من السهل تحويلها الى لغو فارغ. ولعل لغة هتلر الطنانة ودعاية غوبلز لعبتا دوراً رئيساً في وصول النازيين الى السلطة. أما بعد أن أصبحت السلطة بأيديهم ويخشون ضياعها فإن الطريقة المثلى في محاربة تلك السلطة ليس في الادعاء أن أفكارهم التجريدية فارغة من المعنى، بل على العكس من ذلك ، كانت ثمة حاجة ملحة لدى الناس ليروا كيف أن استخدام الطغاة للكلمات المجردة ملأهم بالمعاني الملموسة الرهيبة". ^(٢)

والمهم عند أورويل عدم (فصل اللغة عن الواقع) ما يؤدي الى منع (الصور الذهنية من الحضور) عند المتلقي ، وظن أن هذا الأمر سيكون سداً أمام

١ - أعلام الفكر اللغوي: ٦٩/٢ .

٢ - أعلام الفكر اللغوي: ٧٠/٢ .

السلطة السياسية لخداع الجمهور . قال : "إن فصل اللغة عن الواقع المشاهد هو الذي يمكن الحزب السياسي أن يديم معتقداً سياسياً بين أتباعه ويخدع أولئك الذين يريد استعبادهم، وإذا أفلح الحزب في استخدام اللغة بطريقة تمنع الصور الذهنية من الحضور لا يصبح بمقدور الناس فهم ما يجري لهم، وهكذا لا يستطيعون الثورة على أمر لا يفهمونه" . (١)

وإطلاق مثل هذا الكلام غير دقيق ويتنافى مع طبيعة اللغة والمستعملين لها؛ فهل الصور الذهنية لأي من الألفاظ وإن كانت ذات مدلول حسي واحدة عند الناطقين باللغة؟ وهل يستوي فهم الجميع في استحضار صور ذهنية لأشياء لم يروها أو يسمعوها بها؟ فاللغة فضفاضة حتى في مدلولات أكثر الألفاظ حسية كالحجر والتراب والسماء والماء ... الخ .

ولاشك في أن العاملين السياسي والاقتصادي يولد ألفاظاً جديدة أو مستجدة أو مقترضة، وغالباً ما تكون الألفاظ مستجدة ، أي هي ألفاظ قديمة في ثوب جديد ودلالة جديدة، وعلى سبيل المثال فإن أصحاب "الإعلانات الجديدة لا يألون جهداً في تخير الألفاظ، وصبغها بدلالات جديدة جذابة، رغبة في رواج بضائعهم وأسواقهم ... وقد تدعو الحاجة أو الضرورة الى الالتجاء الى ألفاظ اللغات الأجنبية، فيستعار منها ما تمس الحاجة إليه حيناً وما لا حاجة إليه حيناً آخر" . (٢)

١ - أعلام الفكر اللغوي: ٦٩/٢ .

٢ - إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ : ١٤٨ .

وبناء على هذا التوجه يمكن للأحزاب السياسية والحكومات المنبثقة منها توظيف اللغة لأغراضها، ولكن هل يشمل ذلك القضايا السياسية فقط؟ الجواب بالنفي؛ فإن قوى أخرى دينية أو مدنية قد تلجأ الى مثل هذا التوظيف ، والتأريخ الديني لأوروبا في القرون الوسطى حتى أيامنا هذه شاهد على ما نقول، وقد أصابت العدوى أمماً وديانات أخرى أيضاً، وخارج العصر أمثال (داعش) وغيرها من التنظيمات الإرهابية خير دليل. وإذا ما توغلنا الى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين نجد أمثلة واضحة جلية لمدى سوء استعمال اللغة في قضايا العقائد والأديان، وأبرز الأمثلة لذلك ظهور ثلاث حركات في المشرق انحرفت بالاسلام حتى خرجت عن أصوله وقواعده وعقائده، وهي الوهابية والبهاية والقاديانية. وخلافاً لما ذهب إليه أوغدن متأثراً بمقولة جون لوك في حصر الألفاظ قدر الإمكان بالألفاظ ذات المدلولات الحسية الملموسة رأى أورويل أن السبيل الى إغلاق باب التأويلات السياسية للأحزاب هو جعل أنماط التفكير الأخرى مستحيلة بالتحليل المنطقي والمناظرة وصولاً الى إعادة كتابة العبارات . قال : " أدرك أن ذلك قد يكون له في الواقع أثر عكسي. ويمكن محاربة الدعاية فقط بالتحليل المنطقي والمناظرة. وهذا يتطلب إعادة كتابة العبارات الدعائية بصيغة مختلفة. وإذا أصبحت مثل هذه العملية لإعادة الكتابة مستحيلة بسبب فقد الكلمات المرادفة التي من خلالها يمكن إعطاء الفكرة الواحدة أشكالاً لغوية شتى فعند ذلك لم يكن من الممكن الشك في أي عبارة

من العبارات" (١) ، أي "جعل جميع أنماط التفكير الأخرى مستحيلة" ، وهو ما عدّه أورويل الهدف الدقيق للغته الإنكليزية المنتقاة التي أطلق عليها (اللغة الجديدة أو المبتكرة) وبنى عليها أفكاره ومقولاته في ارتباط اللغة بالسياسة. إن تيسير المسألة على هذا النحو المبسط وكأن اللغة آلة يمكن التحكم بها وتوجيهها كيفما يشاء المرء أمر لا ينطبق على اللغة نفسها وعلى الناطقين بها؛ فالمترادفات في أي لغة موجودة بفعل الفوارق المعنوية الدقيقة، وليس الترادف إلا مسألة نسبية إذ لا وجود لترادف مطلق، ثم إن المناظرة والتحليل المنطقي اللذين يدعو إليهما يترتب عليها تتابع الأسئلة المختلفة والأجوبة المتباينة فضلاً عن معنى المناظرة والتحليل المنطقي، فمن الذي يناظر ويحل؟ وكيف يناظر ويحل؟ ومن الذي يناظره؟ وكيف يتفق الجميع من الناطقين والمتلقين على نتائج هذه المناظرة والتحليل المنطقي 'ذا أقررنا بإمكانية حدوثهما افتراضاً؟ ولنا أن نفترض المستحيل لنصل الى تصحيح الآراء والمقولات، وكيف يشاع ذلك في الجماعة اللغوية؟ وهل الجماعة اللغوية على مستوى واحد من الفهم والإدراك؟ ... الخ من الأسئلة الكثيرة التي تنتهي يقيناً الى أن الفكرة من أساسها لا تتلاءم مع طبيعة اللغة والمجتمع والإدراك الفردي والجماعي، وكأن أورويل يبني لنفسه قصراً من الأوهام التي يعجز الإنسان عن تحقيقها.

١ - أعلام الفكر اللغوي: ٧٢/٢.

وكان أورويل سيئ الظن بالسياسة والسياسيين الذين اتخذوا مذاهب سياسية خلافاً لتوجهاته. وأصرّ على أنهم كثيراً ما يسيئون استعمال الكلمات ذات المضمون السياسي، وأن تلك الكلمات جوفاء مفرغة من معانيها ويمكن التلاعب بمضامينها بحسب الأحزاب السياسية استجلاً للمنافع، ودفعاً للضرر عنهم، أو وسيلة من وسائل أسر الوعي العام الجمعي، وأحياناً للإضرار بمنافع الآخرين. قال : "يساء استعمال كثير من الكلمات السياسية؛ فلا معنى اليوم - مثلاً - لكلمة (الفاشية) باستثناء أنها تشير الى (شيء ما غير مرغوب فيه). كُـلُّ كلمة من الكلمات الآتية: الديمقراطية ، والاشتراكية ، والحرية ، ووطنيّ ، وواقعيّ ، والعدالة ، لها معانٍ متعددة، ولا يمكن لهذه المعاني أن تتسجم مع بعضها". وقال عن الديمقراطية الكلمة الأكثر شيوعاً ورواجاً وخداعاً للأمم والشعوب: "وبخصوص كلمة الديمقراطية ليست المشكلة في عدم وجود تعريف بها متفق عليه، بل إن محاولة وضع مثل هذا التعريف مرفوضة من قبل كل الأطراف. ويكاد يكون الشعور بأننا عندما نصف بلداً بأنه (ديمقراطي) فنحن نظري عليه، وينتج عن هذا أن المدافعين عن أي نظام يصفونه بالديمقراطي ويخشون أنهم سيضطرون الى التوقف عن استعمال هذه الكلمة إن عرفت بوضوح. وغالباً ما تستعمل مثل هذه الكلمات بطريقة مخادعة بشكل واعٍ، ومن

يستخدم هذه الكلمات يعطها معنى خاصاً، ولكنه يدع القارئ يظن بأنه يستعملها بمعنى آخر مختلف" . (١)

وبهذا التوجه الصحيح الصريح كشف أورويل عن خداع الشعارات البراقة والمصطلحات الطنانة الخاوية من معانيها الحقيقية، وكشف اللثام وأزاح الستار عن وجوه تجار الشعارات. وأظن أن فعالة هذا من حيث الهدف يقترب مما فعله (مكيافلي) السياسي الإيطالي المعروف قبل قرون حينما كشف عن حقائق سياسات الدول ومؤامرات الملوك والأمراء والقادة ورجال الدين، ولكن باختلاف في الأسلوب؛ فأورويل صريح فيما يزعم، ومكيافلي يبطن ما يريد أن ينبه عليه الآخرين.

ووصف أورويل الكتابات السياسية في زمانه (أواخر العقد الرابع من القرن العشرين) بالردئية، وأن أساليب التعبير عن العقائد الحزبية تنسم بـ (التقليدية والجمود)، وأن الخطاب السياسي يحاول جاهداً استيعاب الصورة الذهنية، وفصل اللغة عن الواقع (٢) المشاهد. قال في هذه الالتفاتة المهمة المعتمدة على استقراء الأحوال السياسية الواقعية في زمانه: "عندما تفكر بمادة ملموسة فإنك تفكر من غير كلمات، وعند ذلك إذا رغبت في وصف الشيء الذي كنت تتصوره فربما تبدأ بتصيد الكلمات الى أن تعثر على الكلمات التي تبدو لك مناسبة لذلك الشيء. وعندما تفكر بشيء مجرد فإنك تميل

١ - مقاله المعنون بـ (السياسة واللغة الانكليزية الحديثة).

٢ - انظر: أعلام الفكر اللغوي: ٦٧/٢.

الى استخدام الكلمات من البداية، وربما من الأفضل تأجيل استخدام الكلمات ما أمكن ذلك للوصول الى المعنى الواضح قدر المستطاع من خلال الصور والأحاسيس" . (١)

ويصف أيضاً في مقاله المعنون بـ (السياسة واللغة الإنكليزية الحديثة) الكتابة السياسية بأنها كتابة سيئة، وأن الخطاب السياسي الذي يتطلب الالتزام بالتعاليم الرسمية خطاب ميت من حيث الأسلوب. قال في بيان هذه المعاني : " يصح على العموم القول في أيامنا هذه إن الكتابة السياسية كتابة سيئة. وعندما لا تكون سيئة عادة ما نجد أن الكاتب بطريقة ما متمرد يعبر عن نفسه وليس عن (الخط الحزبي). ويبدو أن الالتزام بالتعاليم الرسمية مهما كان شكلها يتطلب أسلوباً ميتاً يعتمد على التقليد. وبطبيعة الحال تختلف اللهجات السياسية والخطابات الحكومية وملخصات وكلاء الوزارات بين حزب وآخر ، ولكنها جميعاً تقريباً تشترك في أنك لن تجد فيها أية محاولة حيوية طازجة في الكلام" . وشبه ما تقدم ذكره بخطيب يعتلي منصة الخطابة السياسية ، و" عندما يشاهده المرء يردد التعابير المألوفة الآتية: وحشي ، والجرائم الفظيعة، والجزمة العسكرية، والطغيان الدموي، وشعوب العالم الحرة، ونقف كتفاً لكتف... الخ ، يراوده الشعور الغريب بأن هذا ليس كائناً حياً بل دُمّية. هذا الشعور يتضاعف فجأة عندما يقع الضوء على (نظارات) هذا الشخص حيث تظهر كأقراص فارغة لا عيون فيها،

١ - أعلام الفكر اللغوي: ٦٧/٢.

وهذا ليس معتمداً بشكل كامل. والشخص الذي يستعمل هكذا تعابير قد اجتاز مسافة كبيرة في تحويل نفسه الى (آلهة). الضجيج المسموع قادم من حنجرتة ولكن دماغه غير مشارك في العملية كما سيشارك فيها لو كان هو نفسه من يختار كلماته. وإذا كان معتاداً على إلقاء الخطاب نفسه مرات ومرات فسيكون تقريباً غير واع بما يقول كما هو حال من يريد الصلوات في الكنيسة. وهذه الحالة المخففة من الوعي إن لم تكن ضرورية للامتثال السياسي فهي - على كل حال - مؤاتيه له .

وأشهر رواية لأورويل روايته المسماة بـ (١٩٨٤)، وقد ذاع صيتها وانتشرت بين الناس وترجمت الى لغات عديدة. وتمثل هذه الرواية خلاصة الفكر السياسي للمؤلف وأطروحاته ورؤاه للمستقبل، وهي تحكي حقبة من الزمان شهدت حكماً دكتاتورياً فردياً يقوم على حزب سياسي ممنهج بأفكار غير واقعية، وعلى رأس هذا الحزب زعيم يكاد يكون من الآلهة، أمره فرض وطاعته واجبة، وقد برمج حزبه على أقل التفاصيل اليومية للمواطن واستعمل أكثر آلات التجسس دقة و(غسل) أدمغة الناس وصادر الوعي الجمعي للأفراد والجماعات وجعلهم يصدقون أو يجبرون على تصديق أبسط المعادلات الرياضية خلافاً لحقيقتها.

وكشف أورويل في روايته هذه أساليب الحزب السياسي المتسلط والحكم المطلق في تشويه الحقائق الماضية والحاضرة والمستقبلية، وقلبها على خلاف حقائقها الموضوعية والواقعية، فأشار الى أن أحد شعارات الحزب:

" من يسيطر على الماضي يسيطر على المستقبل، ومن يسيطر على الحاضر يسيطر على الماضي". (١)

ووصف في هذه الرواية زعيم الحزب الشمولي الذي سماه (الأخ الكبير) ومدى الرعب الذي ألقاه في نفوس تابعيه وغيرهم بما يأتي (٢): "... كانت عيناه حتى من خلال قطعة النقود تلاحقنا: على العُملة، على الطوابع، على أغلفة الكتب ، على الأعلام ، على ألواح الإعلانات، على عُلَب السكاكر، في كل مكان، ودائماً عيناه تراقبانك، وصوته يحيط بك سواء أكنتَ مستيقظاً أم نائماً، تعمل أو تأكل، داخل منزلك أو خارجه، في الحمام ، أو في الفراش، لا فرق ولا مهرب لك، أنت لا تملك سوى تلك السنتمترات المكعبة داخل جمجمتك".

ومن الأمثلة التي وردت في روايته التي نشرت سنة ١٩٤٩م ما يأتي :

- إن اثنين زائداً اثنين تساوي خمسة بحسب أهواء الحزب : " نجد بطل الرواية (وينستن سميث) يدرك بالدليل الذي تراه عيناه أن ذلك خطأ ، ولكن الحزب يتمتع بسيطرة كافية على أفكاره ولغته إذ إنه لا يستطيع جمع خيوط المناظرة التي يعرفها بالحدث والتي يمكن إثبات خطأ المعادلة الحسابية". (٣)

١ - رواية عام (١٩٨٤) : ٤٨.

٢ - ص: ٣٨.

٣ - أعلام الفكر اللغوي: ٧٢/٢.

- شعار الحزب في إعادة كتابة التاريخ : " الحرب هي السلام ، الحرية هي العبودية، الجهل هو القوة " . (١)

ويصف أورويل حال الصغار وكيفية معاملتهم واستغلالهم للأهداف الحزبية المعلنة والمخفية كما يأتي : " إن الصغار بانضمامهم الى منظمات مثل (اتحاد الجواسيس) كان يتم تحويلهم بشكل منهجي الى رِعا ع صغار لا يمكن ضبطهم. وهذا بدوره يقتل فيهم أي ميل الى الثورة ضد نظام الحزب، بل على النقيض من ذلك سيصبحون عبيداً للحزب ولكل ما يتصل به. إن المواكب، وحمل الرايات ، والرحلات الجماعية، والتدريب على الأسلحة الزائفة، والتهاتف، وتقديم فروض الطاعة، والتهاتف بـ(يحيا الأخ الكبير)، كل ذلك كان نوعاً من اللعب الممتع بالنسبة إليهم. أما ضرورتهم وشراساتهم فكانتا توجهان الى الخارج ، الى أعداء الدولة، الى الأجانب والخونة، وزمر المخربين ومجرمي الفكر. وكان أمراً طبيعياً لمن هم فوق سنّ الثلاثين أن يخافوا أولادهم؛ فلم يكن يمر أسبوع إلا وتنتشر جريدة (التايمز) قصة تحت عنوان (بطل صغير) تروي كيف استطاع (البطل) أن يتصنت على والديه ويشي بهما لشرطة الفكر بنقله ملاحظة تضعهم موضع شبهات " . (٢)

١ - رواية عام (١٩٨٤) : ٩ .

٢ - رواية عام (١٩٨٤) : ٣٥ .

ويشير أورويل بشيء من الحماسة الى الحكم الدكتاتوري الشمولي وقلبه لأبسط المعادلات المنطقية والبديهيات الرياضية في روايته^(١) . وقد بالغ في الوصف حتى أخرجته عن حدود المعقول وكأن الدول ذات النظام (الديمقراطي!) المتعدد الأحزاب والتوجهات السياسية خلت من موبقات الحكم وفساد الحكام، وهو خلاف الواقع المستفاد من تجارب الأمم.

قال: "... التقط كتاب التاريخ الخاص بالأطفال ، ثم تطلع الى صورة الأخ الكبير التي تغطي الغلاف حيث العنان المغناطيسيتان تحدقان فيه، وكأنما كانت هنالك قوة هائلة تجثم عليك. شيء يخترق الجمجمة ويدخل دماغك فيزعزع معتقداتك ويحملك على أن تنكر على حواسك ما تشعر به؛ فمن الممكن في نهاية المطاف أن يعلن الحزب أن اثنين واثنين يساويان خمسة، وعليك أن تصدق ذلك ، وعاجلاً أو آجلاً سيحصل ذلك. إن منطقته يتطلب مثل هذا؛ ففي الحزب لم تكن فلسفتهم تنكر صلاحية التجربة فحسب، وإنما كانت تنكر أيضاً- بكياسة- وجود الحقيقة الظاهرة. كذلك كانوا يعتبرون ضلال الضالين هو عين العقل . والمرعب في ذلك ليس احتمال قتلك بجريرة التفكير بطريقة مغايرة، بل احتمال أن يكونوا على صواب، إذ كيف يمكنك أن تعرف أن اثنين واثنين يساويان أربعة؟!، أو أن قوة الجاذبية موجودة؟ ، أو أن الماضي لا يمكن تغييره؟ ، فإذا كان كلُّ من الماضي

١ - ص: ١٠٦.

والعالم الخارجي لا يوجدان إلا في أذهاننا، وإذا كانت أذهاننا نفسها يمكن التحكم بها فماذا تكون النتيجة؟!".

وخلاصة ما توصل إليه أورويل في مقولاته السياسية والثقافية واللغوية أن وضع ست قواعد يجب الأخذ بها في الخطابة والكتابة السياسيتين كما يأتي : (١)

١- لا تستعمل أبداً أية استعارة أو تشبيه أو أي أسلوب آخر من أساليب الكلام الذي اعتدت أن تراه مطبوعاً .

٢- لا تستعمل أبداً عبارة طويلة عندما تقى بالغرض عبارة قصيرة.

٣- إن استطعت حذف كلمة ما فاحذفها دائماً.

٤- لا ستعمل أبداً المبني للمجهول عندما تستطيع استعمال المبني للمعلوم.

٥- لا تستعمل أبداً مصطلحاً أجنبياً أو كلمة علمية أو كلمة تخصصية عندما تستطيع العثور على كلمة مقابلة لها في الانكليزية المستعملة في الحياة اليومية.

٦- خالف أية قاعدة من القواعد المذكورة آنفاً إن كان اتباعها سيؤدي الى قول غير صحيح.

ويتوارد الى الأذهان - وربما أذهان الكثير من الناس- أن الأنظمة (الشمولية) التي تنتهج سياسة (القبضة الحديدية) من خلال تحكم الحزب الواحد كالنظام الماركسي في الاتحاد السوفيتي، والنظام النازي في ألمانيا

١ - انظر مقاله : (السياسة واللغة الإنكليزية) .

الهتلرية في العصر الحديث، وقديماً في أنظمة الأمبراطوريات والملكيات أن اللغة طيّعة بالقدر الذي يمكن تطويعها لخدمة الحاكم وأفكاره وعقيدته السياسية. هذا ما يتبادر الى الأذهان، ولكن الحقيقة أن مثل هذا الادعاء يخلو من التقويم العام لسير تأريخ اللغات. صحيح أن هذا الترابط الافتراضي في أكثر جوانبه، والحقيقي في حالات قليلة لم يلق النجاح. ومما يلفت النظر رواية غير متوقعة من الزعيم السوفيتي ستالين المعروف بتعصبه الحزبي والاستبداد وعنفه وقسوته تجاه أعدائه وشكوكه وأوهامه حتى تجاه أصحابه ومقربيه وقتله الملايين من البشر، فقد كان المبدأ العام للحكم السوفيتي أن تكون اللغة (أداة مهمة في نشر المبادئ الشيوعية) ^(١) ، ولذلك اتبع قادة هذا الفكر (سياسة واعية في الاصلاحات اللغوية والكتابية)، واعترفوا بأهمية اللغة لترسيخ المبادئ والأفكار الماركسية في عقول الناس على النحو الذي يساعدهم في ترسيخ حكمهم. وأما ستالين فقد كانت له نظرة أخرى مختلفة إذ أعلن " وجوب جعل اللغة مستقلة عن المبادئ الماركسية المتعلقة بالقاعدة الاقتصادية للمجتمع وتركيباته الأخرى التي تقوم عليه" ^(٢) ، وتوقع - وهو واهم بحسب الحقائق اللغوية والتأريخ اللغوي- أن انتصار الاشتراكية في العالم " سوف يؤدي الى بروز لغة دولية واحدة" ^(٣)

١ - لوتز : علم اللغة (مجموع آفاق المعرفة) : ٢٩٧.

٢ - لوتز : علم اللغة : ٢٩٨.

٣ - حرب اللغات والسياسات اللغوية: ٢٣٧.

، وهو بذلك يدعم نظرية العولمة اللغوية والثقافية ومصادرة الثقافات الأخرى، ويتناغم مع الفريق الذي حاول جاهداً تأليف لغة اصطناعية عالمية كلغة (الاسبرانتو)، وقد جرى سيل النسيان على مثل هذه الأطوارحات وجرفها الى حافة البُطلان.

إن الصلة بين اللغة والكتابة أمر لا يحتاج الى دليل أو استدلال؛ فالكتابة هي اللغة المدونة، ولذلك نرى تداخل العوامل السياسية في تغليب بعض الكتابات تبعاً للغاتها، ولعل شرق أوروبا كان من أوضح المسالك لتمرير هذه الصلة؛ فقد شهد شرق أوروبا تغيرات لغوية ذات طابع سياسي اتسمت بـ(الثورية)، ولاسيما بين الأبجديتين السلافية واللاتينية في حقبة السلطة السوفيتية، وبعد انهيار هذه السلطة شاهدنا التحول العكسي الذي أدى الى خلط اللغة بالسياسة في مسير عودة دول الشرق الأوروبي الى أصولها الثقافية مع تحويرات العولمة الأمريكية الأوروبية. قال هارمان: "... لا يوجد أي مكان في العالم الحديث أخذت فيه التغيرات السياسية تقلبات جباره بهذه القدر الكبير كما حدث في شرق أوروبا حيث لم يجر زج الأفراد فقط بل شعوب بأسرها مع هويتها الجماعية ولغاتها في حضن التوترات السياسية. وفي هذه الدول المستقلة التي حققت سيادتها شاهدنا جمع الاستراتيجيات والتواصل في الحوار السياسي السلمي، ومروراً ببناء المجتمعات الديمقراطية، وانتهاءً بالاضطرابات المتطرفة العنيفة" (١)

١ - تاريخ اللغات ومستقبلها : ٣٣٤.

ويعزو هارمان ^(١) أسباب ذلك كله الى انهيار الاتحاد السوفيتي، وتحريك (الإثنية المكبوتة)، وسرعة الأحداث المتعاقبة التي شهدتها المنطقة، مثل الاتجاهات غير المستقرة في التطور السياسي الصاخب للدول الفتية التي ظهرت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، وكان الأمر قبل ذلك (تسييس) الكتابة إذا صح التعبير - وفقاً للأفكار الماركسية ولاسيما أطروحات لينين؛ وكانت الثقافة اللغوية في جانبها الكتابي مرتبطة على نحو مباشر أو غير مباشر، وعلى مستويات متفاوتة بالسياسة والاتجاهات الفكرية والدينية والثقافية في روسيا القيصرية، ومن بعدها روسيا الماركسية وقيام الاتحاد السوفيتي الذي ضم روسيا وشرق أوروبا وآسيا الوسطى. وكانت الكتابة الكيريلية (نسبة الى كريلوس مخترع الأبجدية السلافية) وسيلة للتعبير في روسيا، وأثرت هذه الكتابة في الأدب الديني للشعوب غير الروسية قبل سنة (١٩١٨م). وبعد الثورة تبنى لينين (الكتابة اللاتينية) وعدّها (وسيلة ثورية للتحديث) خلافاً لمنظور ستالين الذي جاء بعده واعتمد على الكتابة الكيريلية وعدّها (أداة لاتجاه سلطوي وحيد في السياسة الداخلية)^(٢). وكان الاعتماد على الكتابة اللاتينية وسيلة فيما بعد للتحرر المناوئ للسوفيت بعد سنة (١٩٩١م)، أي بعد سقوط الاتحاد السوفيتي. ومن الشواهد على ذلك اللغة الآذرية لغة أذربيجان (إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي الشرقية)؛ فقد استعملت

١ - انظر: تأريخ اللغات ومستقبلها: ٣٣٥.

٢ - تأريخ اللغات ومستقبلها: ٢٦٥.

الأبجدية الكيريلية في كتابة اللغة الآذرية، ولكن سرعان ما استبدلت الأبجدية اللاتينية بعد سنة (١٩٩١م).

والتأريخ بسني حكم الملوك في بعض الحضارات القديمة البائدة سمة من سمات الأثر السياسي في اللغة، ومن الشواهد الطريفة على ذلك في حضارة وادي الرافدين وما حولها أن الدول التي ظهرت على أرضها منذ عهد السومريين كانوا يؤرخون بالحوادث المشهورة في تأريخها، وهي طريقة شاعت عند الساميين وغيرهم، ووصلت الى عرب الجاهلية.

والمعروف المشهور أن العرب الشماليين ولاسيما قريش كانوا ينحون نحو ذلك، ومن الدلائل ما قيل عن ولادة الرسول (ص) في (عام الفيل)، وهو العام الذي غزا فيه أبرهة ملك الحبشة مكة المكرمة، ولكن الكيشيين استبدلوا بالحوادث طريقة التأريخ وهي طريقة أكثر يسراً فأرخوا بسني حكم الملوك ابتداءً من السنة الأولى من تتويج الملك الى سنة موته، ثم يبدأون بسنة جديدة حين يحكم الملك الذي يخلف الملك السابق.... وهكذا. (١)

وظهر في حضارة وادي الرافدين القديمة ما يمكن أن يطلق عليه (الاحتواء اللغوي)، وهو سبيل من سبل التأثير السياسي في اللغة، فالأكدية التي تمثل السامية الشمالية الشرقية حلت محل السومرية واحتوتها في لغة الكلام والتدوين والمراسلات (٢) وإن بقيت السومرية محتفظة بنفوذها بعد أفول

١ - انظر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة: ٥٠٢/١.

٢ - انظر: موسكاتي: فقه اللغات السامية المقارن: ١٨.

نجمها السياسي. وامتازت الأكديّة بـ"ليونة قواعد صرفها، وبمقدرتها على تأديهِ مختلف أنواع الفكر مهما كانت دقيقة" . (١)

ويفترض في حال الغزو العسكري أو السياسي أن تتغلب لغة الغازي على لغة المغزو فتحثويها، ولكن لدينا شواهد عديدة في التأريخ الحضاري تبين عكس ذلك تماماً ، منها أن لغة الأموريين أو لهجتهم السامية الغربية لم تحلّ محل الأكديّة على الرغم من كثرة قبائلهم وتعدد سلالاتهم في وادي الرافدين، ولم يحصل ما حصل للأكديّة حين أزاحت بالتدريج اللغة السومرية التي كانت لغة التدوين في تأريخ وادي الرافدين القديم، بل حصل العكس تماماً إذ اتخذ الأموريون اللغة الأكديّة التي يطلق عليها في عهدهم (البابلية القديمة) لغة لهم، ولذلك لم تصلنا نصوص من السلالات الأمورية الحاكمة إلا أسماء أعلام كثيرة. (٢)

ولم يتخذ ملوك وادي الرافدين لقلب (الملك) إلا منذ عهد الملك الأشوري شمسي - أدد الأول: (١٨١٣ ق.م، ١٧٨١ ق.م)، إذ اتخذ لقب (شَرُوم) ويعني الملك بالآشورية، وكان الملوك والحكام قبله يتخذون اللقب السومري القديم (آنسي)، وهو يرادف الكلمة الأكديّة - الآشورية (أشاكم) (٣) ، ثم تطور تلقيب الملوك فيما بعد واخذ مدلولاً دينياً وسياسياً عند الأكديين، إذ

١ - تأريخ الحضارات العام : ١٧٣/١.

٢ - انظر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٤٤٦/١ .

٣ - انظر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٥٨٦/١ .

اتخذ (سرجون) الأكدي أو حفيده (نرام -سين) لقباً يتضمن معنى ملك (الجهات الأربع) وبالأكدية: (شار كبرات أربعيم). واتسع مدلول هذا اللقب الجديد للسلطة مع اتساع المملكة والبعد الديني، فكان لقباً لبعض الآلهة الكبار مثل (آنو) و(أنليل) و(شمش) وهم أسياذ الخليقة والكون بحسب عقائدهم، وكأن الأكديين باتخاذهم هذا اللقب أرادوا أن يضيفوا على الملوكية صفة (حكم العالم) ^(١) ، وهي أقرب الى مفهوم (الحق الإلهي للملوك) في حضارة القرون الوسطى في أوروبا.

إن انتشار اللغات ونفوذها لا يطرد دائماً مع نفوذها السياسي والعسكري ، وربما يحصل العكس، إذ يبقى نفوذ اللغة حتى بعد انحسار نفوذها السياسي أو تلاشيها، ومن الشواهد التاريخية الواضحة في تأريخ اللغات السامية حلول الآرامية محل الأكدي في الاتصالات الدبلوماسية، وأضحت بذلك لغة دولية في بلاد الرافدين وبلاد الشام، وامتد نفوذها وبلغ مصر غرباً. ويحدثنا التأريخ عن المفاوضات التي جرت بين ممثلي (حزقياهو) ورسل آشور أثناء حصار أورشليم إذ طلبوا الى ممثلي الملك أن يتكلموا بالآرامية حتى لا يفهم الشعب اليهودي ما يجري. وقد وردت الإشارة الى هذا الخبر في سفري (الملوك ١٨ : ١٦) و (إشعيا: ٣٦ : ١١) . وشاهد آخر على هذه المسألة ، وهو دليل على انتشار الآرامية لغة دبلوماسية غرباً، إذ نشر المستشرق دوبون سومر (A. Dupont Sommer) في سنة (١٩٤٨م) ورقة بردي مكتوبة

^١ - انظر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٣٨٦/١.

بالآرامية تشتمل على رسالة من أمير فينيقي الى فرعون مصر، وقدّر تأريخها بسنة (٦٠٥ ق.م).^(١)

ويبقى السؤال الآتي مطروحاً دائماً: هل حياة اللغات ونفوذها الثقافي والسياسي والديني يرتبطان بمصيرها السياسي؟

وقد أجاب أحد الباحثين في تأريخ اللغات عن هذا السؤال متمثلاً باللغة الأكديّة واستمرار نفوذها بعد أفول نجمها السياسي بقوله: "إن أحد الدروس التي يعلمها تأريخ هذه اللغة بالفعل هو أن حياة اللغات وموتها منفصلان من حيث المبدأ عن المصائر السياسية للدول المرتبطة بها؛ فمن الغرائب أنه عندما بلغت الأكديّة ذروة نفوذها وامتدادها أثناء الكسوف الطويل للقوة الآشورية البابلية فإن أفولها بدأ عندما كانت الإمبراطورية الآشورية في أوج قوتها"^(٢). ومثل ذلك ما حصل للآرامية وحلولها محل الأكديّة في (ذروة تأثير الأكديّة السياسي) ؛ فالآرامية تلك كانت لغة لساميين وصفوا بأنهم "بدو رحل حتى وقت قريب، وهم أناس لم يكن بوسعهم الادعاء بأن لهم ميزة ثقافية" عالية الشأن واسعة الانتشار ما عدا لغتهم، ويمكن القول بناء على ذلك: إن العوامل اللغوية ذات الطابع الحضاري عوامل عامة غير قاطعة، ومقدار ما يخرج أون يشذّ عما يسمى بالقواعد أو الفرضيات أمر وارد في

١ - انظر: الحضارات السامية القديمة: ١٨٠ .

٢ - إمبراطوريات الكلمة : ١٠٦ .

عديد من الأمثلة ؛ فالقواعد لا تطرد دائماً ولا بد من البحث عن أسباب أخرى.

ومن الشواهد التاريخية على تضمين الألفاظ دلالات سياسية ما يعرف بـ (النظم الإسلامية) أو (الأحكام السلطانية) بحسب المصطلح القديم. وهي ألفاظ مستحدثة الدلالة ظهرت بعد الإسلام وقيام الدولة ومؤسساتها ولاسيما في العصر العباسي الأول؛ ونكتفي ببعض الأمثلة ، فمنها: الوزارة ، وتنقسم على قسمين: وزارة التقويض ووزارة التنفيذ؛ فوزارة التقويض هي أن " يستوزر الإمام (أي الخليفة) من يفوض إليه تدبير الأمور " ، وأما وزارة التنفيذ فقد ذكر الماوردي أن " حكمها أضعف وشروطها أقل، لأن النظر فيها مقصور على رأي الإمام " . (١)

وظهر منصب (الوزير) مصطلحاً سياسياً مع قيام الدولة العباسية وسقوط الدولة الأموية في سنة (١٢٣ هـ)، وأول وزير اختص بهذا اللقب هو أبو سلمة الخلال، إذ استوزره أبو العباس السفاح أول خليفة عباسي، ولقب بـ (وزير آل محمد) ، وقد أشرنا الى ذلك سابقاً. وكان الوزير بحكم وزارة التقويض هو مُسير أمور المملكة نيابة عن الخليفة مع الأخذ بمشورة الخليفة. وتأرجحت صلاحيات الوزير في الدولة العباسية وما بعدها بين صلاحيات عامة وأخرى محددة بحسب تطور الأوضاع السياسية؛ فالوزير

١ - الأحكام السلطانية: ٢٢.

في أيام السبكي - مثلاً- أي في القرن الثامن الهجري كان "ينظر في المكوس وغيرها من الأموال التي ترفع الى السلطان وبيت المال" .^(١) ومن الألفاظ ذات المدلول السياسي كلمة (أستاذ)؛ فقد كان ولاية البلاد وأولاد الخلفاء في القرن الرابع الهجري يلقبون بـ(الأمرء)^(٢) ، وامتنع كافور الإخشيدي في مصر أن يلقب بهذا اللقب تواضعاً، واكتفى بلقب الأستاذية، ولقب ابن العميد الكاتب وغيره بهذا اللقب أيضاً. وكلمة (أستاذ) أقل شأنًا من كلمة (وزير) .

ومن الألفاظ التي طرأ عليها (رقي دلالي) كلمة (حاجب)؛ فقد أطلقت في النظم الإسلامية ولاسيما المشرقية على من يقف عند باب الخليفة أو السلطان يأذن للداخلين المأذون لهم بالدخول، ثم تطور مدلول الكلمة في النظم المغربية أي في بلاد المغرب والأندلس حتى اتخذ معنى الوزير أو أكثر من وزير؛ فقد كان الحاجب أحياناً يحجب الأمير عن رعاياه، أو يتوسط بينهما ، وظهر بذلك بمظهر الوزير المطلق الصلاحية.^(٣)

^١ - السبكي : معيد النعم ومبيد النقم: ٢٧. والسبكي هو تاج الدين عبد الوهاب. ولد

في سنة (٧٢٧ هـ)، وتوفي أيام المماليك في مصر والشام سنة (٧٧١ هـ) .

^٢ - انظر: متر : تأريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : ٤٥/١.

^٣ - ديمومبين: النظم الإسلامية : ١٤٨ .

ومن الألقاب السلطانية (أمير الأمراء) و(السلطان)، فقد ظهر في القرن الرابع الهجري لقب (أمير الأمراء) ، وهو ذو دلالة على منازعة الخليفة بعض سلطته، ثم سمي بعد ذلك بـ(السلطان) " . (١)

وبلغ التأثير السياسي في استعمال الألفاظ والمصطلحات مبلغاً مهماً يشمل حتى تسمية التقاويم والسنين والأشهر . ويبدو أن الرومان هم من أوائل الذين اتبعوا هذه السّنة، فقد ذكر عن أوغسطس (أوكتافيوس) أول إمبراطور في روما بعد قيام النظام الإمبراطوري سنة (٣٠ ق.م)، أن اسمه أطلق على شهر آب تخليداً لذكراه لأنه مات في شهر آب سنة (١٤ م) ، " وقد أقام له الرومان تمثالاً عظيماً كانوا يسجدون له إجلالاً وتعظيماً" (٢) . ومعنى كلمة أوغسطس الذي لقب به الإمبراطور في اللاتينية هو (المُجَلِّ) أو (المُوقَّر) . وأطلق قبل ذلك اسم (يوليوس قيصر) عاهل الدولة الرومانية الذي اغتيل في مجلس الشيوخ الروماني سنة (٤٤ ق.م)

١ - النظم الإسلامية: ١٤٨ .

٢ - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ٦٧١/٢ . ويجدر بالذكر أ، أوغسطس لقب بعدة ألقاب ، منها (الإمبراطور) ، وهو لقب قديم في الأصل كان يطلق على القائد المنتصر (Imperarto) ومعنى الكلمة : قَادَ أو حَكَمَ ، ثم اتخذت الكلمة مدلولاً جديداً لُقِّبَ به ملوك روما. انظر: المصدر المذكور آنفاً : حاشية ص ٦٧١/٢ .

على أحد شهور السنة (يوليو أي تموز)، وسمي التقويم الذي ما يزال مستعملاً إلى يومنا هذا بالتقويم (اليولياني) نسبة إليه . (١)

إن الصراع بين اللغات يتخذ طابعاً سياسياً في كثير من شواهد التأريخ الحضاري ؛ فقد تنهض لهجة نائية ما ويشيع استعمالها وتتخذ لغة سياسية وثقافية لطيف كبير من الشعوب الغالبة والمغلوبة بغض النظر عن مستوى هذه اللهجة الثقافي. ومثال ذلك (الهيلنستية) في بلاد الإغريق القديمة، فقد شاعت ابتداءً من عهد الإسكندر، وهي في جوهرها الأتيكية (Attique) التي ظلت حتى القرن الخامس ق.م " لغة محلية لإقليم منعزل لا يكاد يرحل 'ليه أحد من الأجانب، وكان سكانه - وهم في عمومهم من الزّراع - من عنصر نقي نسبياً لا يشوبه اختلاط". (٢)

وخرجت اللغة الإغريقية المشتركة - وهي لغة السياسة والأدب والفكر والفن في أثينا وغيرها من المدن اليونانية - من صلب هذه اللهجة، وكان لأثينا الأثر الأبرز في شيوع اللغة المشتركة منذ القرن الرابع قبل الميلاد إلى القرن التاسع بعد الميلاد.

إن لكلمة (Barbarus) اللاتينية من أصل إغريقي مضموناً تاريخياً ولغوياً وثقافياً، يضاف إلى ذلك مضمونها السياسي، إذ وصف الإغريق من لا يتكلم اللغة الإغريقية بالغريب ومن لا يتكلمونها بالغرباء، وصنفوهم على

١ - انظر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ٢ / ٦٦٨ .

٢ - اللغة: ٣٢٨ .

أنه برابرة متوحشون (Barbaroi) ، ثم انتقلت الكلمة الى اللاتينية لغة الرومان بمدلولها (Barbarus) أي الغريب.

والمعنى الأصلي للكلمة في الإغريقية هو من (لا يتكلم) "لأنه لا يتكلم الإغريقية ولا يستطيع أن يصدر إلا صوتاً هو أشبه بالضجيج منه بالكلام" (١) . وانتقلت الكلمة بمدلولها هذا فيما بعد الى اللغات الرومانية. قال أنطونيو دو نيبريجيا (Antonio de Nebrija) في كتابه عن (نحو اللغة الإسبانية) المؤلف في سنة (١٤٩٢ هـ) : "البَرَبَرَة عيب لا يمكن التسامح معه في جزء من الجملة ، ويسمى هذا (Barbarism) ، لأن الإغريق كانوا يسمون الشعوب كلها باستثنائهم برابرة (Barbares). وقد سمي اللاتينيون بدورهم (برابرة) كل الشعوب الأخرى باستثنائهم والإغريق، ولأن الغرباء الذين كانوا يسمونهم (برابرة) كانوا يفسدون عليهم لغتهم حين كانوا يريدون التكلم بها، فقد سمو العيب الذي يقع في كلمة من كلامهم بـ (البَرَبَرَة) (Barbarism=). ويمكن أن نسمي جميع الغرباء عن لغتنا بـ (البرابرة) ما عدا اللاتينيين والإغريق" . (٢)

١ - حرب اللغات والسياسات اللغوية : ١٠٢ .

٢ - حرب اللغات والسياسات اللغوية : ١٠٢ ، ١٠٣ .

وكانت للغتين اللاتينية والإغريقية من عوامل تثبيت أسس الإمبراطورية الرومانية وتماسكها، وأصبحت تلك اللغتان دليلاً على الرقي المدني والثقافي، إذ "تكلم بهما البشر المتمدن" . (١)

وثمة أثر ثقافي وسياسي للمصطلحات اللغوية الوافدة وشيوعهما في اللغات المقترضة - بفتح الضاد-، وفي منتصف القرن السابع الميلادي وبعد الفتوحات الإسلامية كانت المصطلحات المختلفة ولاسيما الإدارية والمالية منها من أصول يونانية ولاتينية في البلدان التي كانت خاضعة لحكم البيزنطيين الرومان. (٢)

ولو تحرينا جذور اللغة اللاتينية التي أضحت لغة مشتركة لإيطاليا ولغة العالم الغربي بأسره فيما بعد وبقيت لغة العلم والمعرفة والثقافة في عموم أوربا في القرون الوسطى وما بعدها لوجدنا أن اللاتينية كانت لغة روما في أول الأمر، أي لغة المدينة بما تعنيه من مدنية في مقابل لغة الريف المجاور واللهجات البعيدة (٣) . وبعد مضي الزمن بدأت لغة المدينة هذه بالتضييق على لغة الريف وحلت محلها ومحل اللهجات اللاتينية الأخرى. وبهذا المعنى والبعد التاريخي اللغوي يمكن وصف المدينة بأنها عاصمة (سياسية) أثرت في مجمل اللهجات اللاتينية الأخرى وأقصتها عن

١ - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ٦٨/٢ .

٢ - انظر: تاريخ الحضارات الإسلامية : ٦٩ .

٣ - انظر: اللغة : ٣٢٩ .

الاستخدام وصارت لغة الإدارة والسياسة والعلوم والمعارف في أنحاء الإمبراطورية الرومانية كلها.

وحصل مثل هذا التطور للغة الفرنسية المشتركة أيضاً المشتقة من اللاتينية وتغلّبت على اللهجات الأخرى من الفصيحة اللغوية نفسها، ولهجات من فصائل أخرى مختلفة منحدرة من أصل جرمانى أو كلتى، وتجاوزت حدودها الإقليمية والسياسية إلى أجزاء من بلجيكا وسويسرا. وكان هذا التغيير لاعتبارات أبرزها أهمية باريس السياسية.

قال فنديرس موضحاً أبعاد هذا التغيير: " من العاصمة أيضاً خرجت الفرنسية المشتركة؛ فأهمية باريس السياسية والمنطقة الباريسية تفسر لنا بدرجة كبيرة انتشار (اللهجة الفرنسية) في الأقاليم المجاورة، وذلك بانضمام هذه الأقاليم إلى المملكة وصيرورتها في نهاية الأمر أداة للتبادل الذهني... والفرنسية لم تمتد فحسب على اللهجات التي تشترك معها في أسرة واحدة، أي اللهجات المشتقة مثلها من اللاتينية، بل اتخذت أيضاً لغة مشتركة لدى الفلمنكيين و(البريتانيين) مع أن لغتيهما الطبيعتين من أصل جرمانى أو كلتى. ونفذت أيضاً بوصفها لغة مشتركة في إقليم (الباسك) في الجنوب الغربي من فرنسا، على أنها لم تقتصر على حدود فرنسا السياسية إذ إن بعض الأجزاء البلجيكية والسويسرية يدخل في المجال الفرنسى من الوجهة

اللغوية، وذلك من دون أن نتكلم عن الجاليات القديمة أو الحديثة التي تعمل على انتشار الفرنسية فيما وراء البحار". (١)

ومنبع الفرنسية المشتركة هو العاصمة باريس ، إذ خرجت من الطبقات البرجوازية الباريسية . ونقل فندريس بهذا الصدد قول برينو (Brunot) اللغوي الفرنسي: " إن لغتنا المشتركة على النحو الذي استقرت عليه في القرن السابع عشر هي لغة البرجوازية الباريسية، برجوازية المدينة ، وقد سلّم بها القصر ثم الأقاليم والكتّاب الكبار باستعمالهم إيّاها، زودوها بالقدرة على فرض نفسها نهائياً وعلى استمرارها". (٢)

وأشار فندريس الى أسباب الانتشار الجغرافي للفرنسية المشتركة ، وربطها بالعوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية إذ قال : "... وتأريخ هذه الفرنسية المشتركة وتأريخ تكوينه وانتشارها الجغرافي يتصل اتصالاً وثيقاً بتاريخ فرنسا السياسي والاقتصادي والاجتماعي، فلا يستطيع فهم أحدهما من دون معرفة الآخر". (٣)

وقبيل منتصف القرن السادس عشر اتخذت الفرنسية لغة للقضاء في القضاء الفرنسي وحلت محل اللاتينية وأصبحت لغة الدولة الرسمية ، إذ أصدر الملك (فرانسوا الأول) في الخامس عشر من شهر آب /أغسطس

١ - اللغة : ٣٣٠ .

٢ - اللغة : ٣٣٠ .

٣ - اللغة : ٣٣٠ .

من سنة (١٥٣٩م) مرسوم نيلار - كوتري (Nillers - Cotteret) الخاص بالقضاء. ونصت المادتان (١١٠) و (١١١) على أن الفرنسية لغة القضاء^(١). وقدم الأب (غريغور) أمام الجمعية التأسيسية الفرنسية في الثامن والعشرين من شهر آيار / مايو سنة (١٧٩٤م) تقريراً مهماً جاء فيه : " حظيت لغتنا بهذه المنزلة عند الطغاة وفي البلاطات، حيث كانت فرنسا (الملكية) تقدم لهم المسارح وريش الزينة والأزياء وآداب اللياقة؛ فكم هي المنزلة التي لم تحظ بها عند أفراد الشعوب التي كشفت لها فرنسا (الجمهورية) عن حقوقها وفتحت لها الطرق الى الحرية؟ " . وقال في تقريره أيضاً : " يمكن أن نؤكد - من دون مبالغة- أن ستة ملايين على الأقل من الفرنسيين ولاسيما في الأرياف لا يعرفون لغتهم الوطنية، وأن عدداً مماثلاً لهم لا يحسن إنشاء خطاب متماسك بهذه اللغة، وأن عدد الذين يكتبونها كتابة صحيحة أقل من ذلك أيضاً" .^(٢)

هذا التقرير المهم كشف عن قلة شيوع الفرنسية الفصيحة - إن جاز التعبير - بين عوام الناس ولاسيما سكان الأرياف منهم ، وأن طائفة لا بأس بها من المدنيين لا يحسنون استعمالها على النحو الصحيح. وفي أواخر القرن الثامن عشر الميلادي أضحت الفرنسية أوسع اللغات الأوروبية انتشاراً، ويبقى توسعها الجغرافي (محدوداً جداً) كما قال كالفلي؛

١ - انظر: حرب اللغات والسياسات اللغوية : ١١٢.

٢ - حرب اللغات والسياسات اللغوية : ١١٣، ١١٤.

فلا تستعمل في بولونيا والمجر، وهي قليلة الاستعمال في البرتغال، ولا تستعمل أيضاً في روسيا وأوروبا الشرقية والنمسا وألمانيا وإسبانيا ومناطق واسعة من كندا وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية التي تتكلم باللغة الإسبانية خلا البرازيل التي تتكلم باللغة البرتغالية. (١)

وهناك عوامل سياسية مشتركة في تغليب لغة على أخرى كالصلة بين لغة الاستعمار واللغة المشتركة، والشعور الوطني في توحيد البلدان عن طريق اللغة. ولدينا شواهد وأمثلة عديدة تشتمل على لغات أوروبية ويغرها. وظهر ميل واضح في الإمارات الألمانية في القرن الرابع عشر الميلادي قبل توحيد ألمانيا الى اتخاذ لغة مشتركة مختلفة عن اللهجات الإقليمية. والمستشارية الإمبراطورية هي أول من اتخذ هذا القرار لأسباب، أهمها توحيد اللهجات في لغة رسمية تشمل المستعمرات الألمانية أيضاً في الأراضي السلافية. وتكونت هذه اللغة في شرق ألمانيا وامتدت الى سائر الأرجاء يعضدها (الاصلاح الديني)، واستقرت بعد اكتشاف الطباعة وأصبحت اللغة الثقافية في أنحاء ألمانيا كلها. (٢)

وكانت اللغة الدنماركية مهيمنة على اللهجات النرويجية في النرويج زمناً طويلاً وبدافع من الشعور الوطني عند النرويجيين ظهرت محاولات لتثبيت اللغة الوطنية، كان من أشهرها مقاربتان، إحداهما لـ (كنود كنودسن =

١ - انظر: حرب اللغات والسياسات اللغوية : ١١٤ .

٢ - انظر: اللغة : ٣٣٣، ٣٣٤ .

Knud Knudsen ١٨١٢م - ١٨٩٥م) الذي اقترح الاعتماد على اللغة المستعملة في المدينة و "أن ينطق بالدنماركية على الطريقة النرويجية للوصول الى نطق وطني نرويجي" ، والأخرى منسوبة الى (إيفار آسين - Ivard Aasen ١٨١٣م - ١٨٩٦م) الذي اقترح الاعتماد على اللهجات القروية النرويجية ، وهي لهجات رأى آسين أنها امتداد للنرويجية القديمة، وهو اقتراح تغلب على الآراء الأخرى فيما بعد حين أصبحت النرويجية لغة وطنية معتمدة في سائر بلاد النرويج. وألف آسين كتباً في نحو تلك اللهجات القروية وقواعدها، ووضع معجماً لها. وأطلقت على هذه اللغة أو اللهجة تسميات مختلفة، منها : (لغة شعبنا) ، و (اللغة الشعبية النرويجية الحقيقية)، و (اللغة الوطنية النرويجية) ، و(النرويجية). ولم يبق من هذه الأسماء سوى اسم (لغة الوطن) . (١)

ومن الشواهد على العامل السياسي في الصراع اللغوي ما تشهده دول البلقان من صراع بين كتابتين ، الأولى : ذات الأصول اللاتينية، والأخرى: ذات الأصول السلافية وهي الكيريلية وقد أدّى هذا الصراع الى اندلاع الحرب في بلدان الاتحاد اليوغسلافي، واتخذ وسيلة سياسية للتصفيات القومية وتفكك الاتحاد، وما تزال هاتان الكتابتان في البوسنة والهرسك تخوضان صراعاً ثقافياً وسياسياً . (٢)

١ - انظر: اللغة : ٣٣٣، ٣٣٤ .

٢ - تأريخ اللغات ومستقبلها : ٢٦٦ .

ومثل ذلك ما حصل من صراع لغوي بين (الصرب) المنحدرين من أصول سلافية والألبان، واتسم هذا الصراع بالشدة والقسوة والقمع مارسه الصرب ضد الألبان بدوافع قومية وثقافية وسياسية؛ فمنع الألبان - مثلاً- في كوسفو من استعمال لغتهم الأم فاضطروا الى استعمالها داخل بيوتهم، وأما في الحياة اليومية في مجالات العمل فقد استعملوا لغة غريبة لغة أعدائهم الصرب. ووصلت شدة الصراع الى مرحلة جعلت الألبان ينظرون الى اللغة الصربية على (أنها اداة قمعية تستعمل ضدهم). قال هارمان : " لقد كانت اللغة في كوسوفو أكثر من مجرد أداة سياسية؛ فبالنسبة الى الطرف الأول (الصرب) كانت اللغة الصربية تعد رمزاً لممارسة مطلقة للسلطة الوطنية، أما بالنسبة الى الطرف الثاني (الألبان) فإن اللغة الألبانية تعد رمزاً للبقاء الجسدي والمقاومة الثقافية ضد سياسات الانصهار الصربية". (١)

وترغم تركيا الحديثة العلمانية أنها من البلدان التي تتكلم بلغة واحدة (٢) على خلاف واقعها الاجتماعي التركيبي ؛ فتركيا تشتمل على قوميات ومذاهب وأديان متعددة غير الأتراك والألبان. وكان الأكراد وما يزالون يشكلون نسبة كبيرة من الشعب التركي وهم من أصول هندية أوروبية، وتعد لغتهم من فروع مجموعة اللغات الإيرانية، ويختلفون بذلك عن الأتراك المنحدرين من أصول أورالية ألتائية (طورانية)، ولغتهم تختلف تماماً عن اللغة الكردية، ولذلك

١ - تأريخ اللغات ومستقبلها: ٥٨.

٢ - انظر: تأريخ اللغات ومستقبلها : ٥٤، ٥٥.

نراهم من أكثر القوميات مقاومة " ضد الاحتكار التعليمي والإداري الذي تمارسه الحكومة التركية" التي لم تسمح للغة أخرى غير التركية في مجالات السياسة والإدارة والتعليم ، وجعلتها اللغة الرسمية للبلاد لا منازع لها. وبعد أن ألغى مصطفى أتاتورك الخلافة العثمانية في سنة (١٩٢٣م)، وأسس النظام الجمهوري ذات الصفة العلمانية استبدل بالحروف التركية العثمانية وهي الحروف ذات الأصول العربية الحروف اللاتينية، وبذلك قام بخطيئة كبرى لا تعترف إذ ألغى ثقافة قرون وأجيال لإمبراطورية امتدت من الشرق الى الغرب حتى طرقت أبواب فينا عاصمة النمسا، وفلورنسا في إيطاليا، وقطع الصلة بالثقافة الشرقية الإسلامية. وربما كان الدافع له هوس سياسي لربط تركيا الحديثة بالغرب^(١) ، وربما كانت هناك أسباب أخرى خفية أخطر من الهوس السياسي. ولم يكتف أتاتورك باستبدال الأبجدية وإنما دعا الى تهذيب اللغة التركية من المفردات الفارسية والعربية وغيرهما، أو ما يمكن تسميته بـ (سياسة التتريك اللغوية) ، بعد سياسة تتريك المجتمع التركي. ومن الشواهد العجيبة أنه أطلق في عهده على الأكراد (أتراك الجبل)، وكانت اللغة الرسمية المختارة لطبقة المثقفين قبل اصلاحات أتاتورك تشتمل على كثير من المفردات الفارسية والعربية. وعلل المعنيون بحركة الإصلاح اللغوي لتهذيب التركية من المفردات الأجنبية بأن السواد

١ - انظر: لوتز: علم اللغة (مجموع آفاق المعرفة) : ٢٩٨ .

الأعظم من الناس لا يفهمون تلك المفردات^(١) ولا سيما الفارسية والعربية منها ، ولكن السؤال هو هل بقيت التركية الحديثة بمنأى من دخول مفردات غريبة فيها؟! ليصبح التحليل المذكور آنفاً وهماً أو عذراً أقبح من ذنب . ويمكن إجمال حركة الإصلاح اللغوي في تركيا الحديثة في النقاط الآتية^(٢) :

- ١- إنشاء لجنة لغوية في عام (١٩٢٨م) مهمتها وضع أبجدية جديدة.
- ٢- "أقرت الجمعية الوطنية هذه الأبجدية في شهر كانون الأول سنة (١٩٢٨م)، وبديء باستعمالها فوراً في التعليم، وعلى نحو تدريجي في الإدارة، إذ أخذت تحل محل الأبجدية القديمة في الوثائق الإدارية ومطبوعاتها على أن تنتهي العملية في شهر حزيران سنة (١٩٣٠م).
- ٣- ألزم بقراءة القرآن الكريم بحسب الترجمة التركية بدلاً من النص الأصلي بالعربية ابتداءً من سنة (١٩٣١م) .
- ٤- "أنشئت في سنة (١٩٣٢م) (جمعية دراسة اللغة التركية) التي كلفت بـ(تتقية اللغة التركية)، أي باختيار كلمات مشتقة من أصول تركية لتحل محل الكلمات المقترضة" .
- ٥- تم التصديق في سنة (١٩٣٤م) على قانون " يلزم المواطنين بأن يُسمّوا بأسماء ذات أصل تركي، إذ سمّى مصطفى كمال نفسه (أتاتورك)،

١ - انظر: حرب اللغات والسياسات اللغوية: ٢٦٢.

٢ - انظر حرب اللغات والسياسات اللغوية : ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤.

ومعنى الكلمة باللغة التركية : أبو الأتراك (ليقندي به الناس). واتخاذ أتاتورك هذا اللقب دليل واضح لا لبس فيه على انتحال الوطنية ذات البعد القومي الذي تجاوز حدّه الى التعصب العرقي.

٦- "نشر قاموس للتركية القديمة والحديثة، ونشرت قواميس للغات أخرى تنتمي الى المجموعة اللغوية نفسها كاللغتين (القرقيزية والياقوتية)، ونشرت كتب في النحو، وكتب مدرسية تأخذ في حسابها هذه الاصلاحات، وكتب تعميمية الى الجمهور الواسع من القراء... الخ".

إن الصراع اللغوي في إفريقية ولاسيما جنوب إفريقية مثال واضح وشاهد حي على تنازع الانكليزية والفرنسية مع اللغات الإفريقية المحلية، وبعد انتقال الإدارة السياسية من البيض الى السود في إفريقية الجنوبية سنة (١٩٩٤ م) وسقوط سياسة الفصل العنصري اتجهت الحكومة الى اتخاذ تدابير ذات صلة باستعمال لغاتها الوطنية الأصلية بدلاً من الإنكليزية الوافدة من أوربا نتيجة للاستعمار وتأليف حكومة أقلية بيضاء تتسم بالنزعة القومية المتطرفة والفصل العنصري البغيض. ولم يكن هذا الاتجاه الجديد وفق "معايير علمية موضوعية دقيقة بل كان طموحاً وأمانى شعوب إفريقية السوداء في أن ترى لغاتها الأم الأصلية تؤدي الوظائف الرسمية في البلاد".^(١)

وفي ختام هذا المبحث اللغوي السياسي تنبغي الاستفادة مما يأتي :

١ - تأريخ اللغات ومستقبلها: ٣٣٤.

١- في مجال المواثيق والعهود والمعاملات والقرارات الدولية: اختيار الألفاظ المحددة تحديداً دقيقاً واضحاً قدر الإمكان. وإذا أريدت الاستفادة من هامش (المناورات السياسية) يلجأ واضع النص الى ألفاظ (عائمة) تحتمل وجوهاً مختلفة تبني عليها تفسيرات متداخلة أو متباعدة بحسب المراد من وضع النص أو الهدف السياسي المتوخى منه. ويدخل في هذا المجال ما يمكن حمله على (حسن النوايا أو سوءها)، وما يمكن أن يستعمل في المناورات السياسية وصولاً الى تحقيق الأهداف الحقيقية من وضع النص.

٢- في مجال التصريح السياسي: دقه استعمال الدلالة من حيث دلالة الألفاظ على الأهداف المتوخاة من التصريح. ويتضح ذلك جلياً في ميادين الحروب والأزمات السياسية وما يسمى بـ (الضغوط السياسية) تجاه الخصم. ويندرج ضمن هذا المفهوم الوصول الى الحلول الوسطى في (الصفقات السياسية) بارتفاع سقف المطالب نزولاً الى الوسطية المقبولة من الطرفين.

٣- في مجال الدساتير وقوانين الدولة : يراعى في وضع الدستور وملحقاته من التشريعات القانونية، وكذلك القوانين المحلية المختلفة منتهى الدقة والحيلة في توضيح الفحوى والمعنى والمقصد من المادة الدستورية أو التشريعية أو القانونية لكي لا يحصل التأويل المخل بوجود ثغرات يمكن أن تستغل خلافاً لجوهر المادة القانونية أو التشريعية.

- ٤- في المجال الدبلوماسي والعلاقات الدولية : وهو مجال خطير ، إذ يترتب على المبعوثين الدبلوماسيين وممثلي الدول كالسفراء والقناصل والملحقين والمبعوثين المختصين بقضية من القضايا أن يكونوا على أتم حرص في الإفادة والتصريح والعليق شفاهة أو كتابة بما يضمن تحقيق الأهداف السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها لدولهم التي يمثلونها .
- ٥- إذا فهمت السياسة في بعض معاييرها ومقاصدها بأنها (فن الخدعة) لزم ذلك أن تقوم اللغة بهذه الخدعة مع ما يصاحبها من السلوك العملي .
- ٦- غالباً ما تكون (الكلمة) على مر العصور والدهور الحدّ الفاصل بين الحرب والسلام .
- ٧- في مجال الأحزاب والأفكار والعقائد السياسية تبرز اللغة أو ما يمكن تسميته بـ(فن الأداء الكلامي) في مرحلة القيادة والريادة لكثير من الأحزاب السياسية . وكثيراً ما تُغلف الأحزاب السياسية أطروحاتها بغلاف من الكلمات والعبارات والمدلولات والمصطلحات خدمة لأهدافها الظاهرة والمستترة . وتتخذ اللغة أيضاً أداة لنشر العقائد السياسية ذات المنحى الفلسفي والمضامين الاجتماعية والاقتصادية ، ويظهر في هذا المجال ما يطلق عليه (غَسْلُ العقول) والتهيئة العقائدية للفئات التابعة لحزب ما أو تنظيم ما ولاسيما الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين (١٨) سنة و (٣٠) سنة .

٨- في مجال الإعلام: يعد هذا المجال في هذا العصر من أخطر المجالات، ولاسيما بعد التطور المتسارع لأجهزة الإعلام المختلفة المقروءة منها والمسموعة والمرئية. وأحدث التطور الآلي في مجال الاتصالات تغييراً خطيراً في كثير من المفاهيم الإعلامية، واتجهت الوسائل الإعلامية الى خدمة الأغراض السياسية بمختلف السبل المباحة وغير المباحة بصرف النظر عن المفاهيم الأخلاقية والأدبية العامة للعقل الإنساني الواعي والمدرّك لحقيقة الأشياء. واستغلت هذه الوسائل أبشع استغلال في (فبركة) الأحداث السياسية ، ولاسيما المظاهرات والثورات الشعبية والعصيان المدني والانتقال العسكري... الخ . واتجهت بعض هذه الوسائل الى (الإنترنت) (للفبركة) الإعلامية وقلب الحقائق والكذب والنفاق وبث الريبة. وبلغ الأمر الى قيام ما يعرف بـ (ثورات افتراضية) لا حقيقة لها صورت على الوسائل الاتصال هذه عبر الأقمار الاصطناعية على أنها احداث وحقائق جارية في بلد من البلدان.

٩- إن سوء استعمال الكلمة قد يكون في بعض الموارد أقل خطراً في السياسة الداخلية والإقليمية والدولية من سوء فهمها، لأن سوء الاستعمال يكون مقصوداً يستهدف أغراضاً معينة، وأما سوء الفهم فهو غير مقصود، وقد تترب على ذلك نتائج خطيرة.

المبحث الخامس

العوامل الدينية والاجتماعية

العوامل الدينية

إن العوامل الدينية متداخلة مع العوامل الثقافية على نمط تكيف الثقافات، ولا يمكن أن ينظر الى الصلة بين الدين والحضارة بمعزل عن الأسباب الأخرى المحيطة الفاعلة.

وفي السؤال الآتي يكمن الاختلاف في الرؤى والأطروحات بين جمهرة العلماء والباحثين في الشأن الحضاري، والسؤال هو عن الصلة بين الثقافة والدين، فهل الدين نتيجة للثقافة؟ وهل الثقافة هي نتيجة الدين؟ سؤالان متضادات في ظاهر القول ، ولكن عند الفحص الدقيق للتأريخ الحضاري نجد السؤالين غير متضادين بل متكاملين، بمعنى أن أحدهما كان سبباً أو عاملاً لظهور الآخر، الفرز الظاهري يأباه البحث الاستنتاجي في بعض المسائل الحضارية المتشابهة، وبناء على ذلك لا يمكننا فصل الدين عن الثقافة بجعله نتيجة للثقافة أو العكس، ولذلك ذهب (T.S. Eliot) الى أن " الثقافة هي نتيجة للدين، والدين هو نتيجة للثقافة " ، وكان يرى أن للثقافة ثلاثة شروط ينبغي توافرها فقال: " إنني أناقش ما يبدو لي أن هناك ثلاثة شروط مهمة للثقافة :

١- البنية الأساسية المتطورة التي تغذي المنقول الوراثي لثقافة ما في داخل ثقافة أخرى، وهذا يستدعي إصرار الطبقات الاجتماعية وثباتها.

٢- تحليل الثقافة جغرافياً الى ثقافات محلية.

٣- الموازنة بين الاتفاق والاختلاف في الدين، ويعني هذا عمومية العقيدة مع خصوصية الطقوس الاجتماعية".

وخلص الى ربط ثقافة الفرد بثقافة الجماعة قائلاً: " إن ثقافة الفرد تعتمد على ثقافة الجماعة أو الطبقة الاجتماعية التي تعتمد على ثقافة المجتمع كله بجعلها جزءاً منه". (١)

وفي طرح إليوت هذا ونظرته من زاوية الصلة بين الدين والثقافة ملاحظات ينبغي التنبيه عليها كما يأتي:

١- يجب النظر الى العناصر الأساسية المكونة لأي حضارة أصيلة على أنها عناصر مشتركة ومترابطة ومتبادلة الأسباب والمُسببات . ولما كانت العناصر الأساسية للحضارة هي اللغة والدين والقومية ظهرت الصلات بينها في كثير من الأمثلة والشواهد في التأريخ الحضاري والتحليل البنيوي للثقافات المختلفة؛ فالمسألة - إذن - ليست حدوداً جغرافية بينها لا يمكن تخطي أحد العناصر تجاه الآخر .

٢- وإذا ما أفرزت تلك العناصر الأساسية المذكورة آنفاً حضارة ما فتلك الحضارة هي وليدة عناصرها جميعاً، بمعنى أن تركيب اللغة مع الدين والقومية ينتج حضارة.

¹ - Notes to wads the definition of culture , 15 .

٣- وبناء على ما تقدم ليس لنا أن نجعل الدين نتيجة للثقافة، والثقافة نتيجة للدين كما ذهب إليه الناقد والأديب الإنكليزي المشهور (إليوت) ، لأن الثقافة هي الوجه المعنوي للحضارة، أي هي قسماً منها وليست قسماً لها. وللثقافة عناصر متعددة ، منها الدين؛ فالدين - إذن - مظهر من مظاهر الثقافة ، بمعنى التقسيم الموضوعي لا بمعنى التبعية التي تترتب عليها النتيجة.

٤- إن تأريخ ما قبل الحضارات البشرية، وبتعبير أدق حضارات ما قبل التأريخ والتدوين فيه شواهد كثيرة على الصلة السببية بين (الدين) و (السّحر)، وبين السحر والطب* ؛ فالدين بأي عقيدة كان ولو إيغلاً في تأريخ الجنس البشري، يرتبط بوجود الإنسان على الأرض، ولا يمكن تصور وجود بشري لآخر جيل من البشرية فضلاً عما قبله خالياً من أي عقيدة ولو كانت في منتهى البدائية، ومن هنا جاء الخلط بين السحر والدين؛ فأحدهما صار سبيلاً الى الآخر، ثم بدأ الانفصال بينهما تدريجياً بعد حقبة زمنية طويلة الى أن تحرر الدين من علاقته السببية بالسحر على الرغم من بقايا شوائب منه في الأديان والعقائد الوضعية، على أننا نجد شوائب منه أيضاً علقت ببعض الأديان السماوية وافدة إليها من خارج أصولها. ويمكن أن نستنتج مما تقدم أن الدين منفرداً أقدم بكثير من الحضارات والثقافات لأنه يمثل أحد العناصر الأساسية لها.

* انظر على وجه الخصوص كتاب (الغصن الذهبي) لمؤلفه جيمس جورج فرايزر.

وينطوي التأثير الديني في اللغة على أن المتكلمين بها تجمعهم عقيدة دينية واحدة، ولذلك تنتقل ألفاظ وعبارات من هذه العقيدة الى لغتهم نطقاً وكتابة، ولاسيما رجال الدين الذين هم مؤتمنون على دينهم. قال ماريوباي: " هذا النفوذ اللغوي الديني يعني - عادة- أن اللغة التي يرتبط المتكلمون بها بعقيدة معينة سوف تأخذ كلمات وترجمات مقترضة من اللغة المقدسة، وأن بعضاً من أبناء اللغة - قل أو أكثر - سوف يستعملون بصورة أو بأخرى اللغة المقدسة كلغة متكلمة" . (١)

وتختلف الأمم والشعوب في مدى تأثير الدين بكونه عاملاً من عوامل التفكير في الفكر الجمعي، ومن الملاحظ في التأريخ الفكري الحضاري أن أمم الشرق ولاسيما الشرق الأوسط والأدنى تميل الى تغليب الدين على العوامل الحضارية الأخرى واتخاذها محوراً تدور حوله عوامل الحياة المختلفة. قال موسكاتي في هذا المعنى: " هناك منحى ثابت من التفكير يتخلل الشرق الأدنى القديم كله ويحدد موقفه من الوجود وهو غلبة الدين على بقية عوامل الحياة جميعاً، تلك العوامل التي تتخذ من الدين مصدراً مشتركاً للإلهام. وهذا الاتجاه العقلي يتماشى وفلسفة خاصة للتأريخ تفسر العالم على أنه نظام واحد يدور حول الربوبية" (٢) ، ولذلك نلاحظ أن للكلمة

١ - أسس علم اللغة : ٢٠٨.

٢ - الحضارات السامية القديمة : ٢٢٦.

المكتوبة شأناً عظيماً في حضارة البابليين والآشوريين ^(١) ، والعقائد الدينية عبارة عن سلوك معين أو طقوس مقترنة بكلمات وعبارات منطوقة ومن ثم مكتوبة تثبيتاً لها وانتقالها من جيل إلى آخر .

وتقديس النصوص والكتب يشمل أيضاً الديانات السماوية؛ فهي تعتقد أن كتبها المنزلة على أنبيائها وحي مقدس يجب صونه من أي خلل والاعتماد عليه في تفسير العقائد والأحكام العملية المستفادة منه. وذكر توينبي - على سبيل المثال - مفهوم الكتاب عند اليهود قائلاً: "كان العالم السوري... وهو العالم الذي ينتمي إليه اليهود لا ينظر بالتأكيد إلى (الكتاب) على أنه مجرد مذكرة يستعين بها المتحدث، بل كان يقده باعتباره وحياً من عند الله ، أي شيئاً مقدساً، لكل نقطة فيه قوة سحرية، ومن ثم أهمية لا حد لها" ^(٢) .

والظاهر أن العامل الديني الذي حملته السريان كان من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار لغتهم في بلاد فارس والهند وآسيا الوسطى ومنغوليا والصين، وكان السريان من أصحاب المذهب النسطوري الذين حكم بكفرهم وطردوا من (إيدسا) سنة (٤٨٩م) هم رواد هذا الانتشار، وإيدسا هي أورفة الحديثة والقديمة في تركيا وتقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط. وبسط السريان هؤلاء نفوذ لغتهم من آسيا الوسطى إلى أقصى شرق آسيا، وكانت

١ - انظر كونتينو : الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور : ٢٨١ .

٢ - الحضارة في الميزان : ٦٥ .

(نصيبس = نصيبين) في (آرام نهرايم = أرض الأنهار) قاعدة انطلاقهم على الطريق الى (آغباتانا = همدان) في بلاد فارس، ومن ثم الى الهند، إذ أقاموا أُسْقُفِيَّةً كالايانا (قرب مومباي) وعدداً من الأديرة الى الجنوب. وتابع هؤلاء النساطرة رحلتهم شرق بلاد فارس على طريق (الحرير) المعروف تاريخياً الى (قراقورم) في منغوليا والمدن الشمالية في الصين. وهناك " عمود حجري يحمل نقشاً ثنائي اللغة بالسريانية والصينية أقيم في سنة (٧٨١م) لإحياء ذكرى وصول الراهب (آلوبين) الى العاصمة الصينية (تشانغان = إكسيان) في سنة (٦٣٥م)".^(١)

وكانت للفرسية الحديثة المتأثرة دينياً وثقافياً بالفتوحات العربية الإسلامية صولة وجولة في آسيا الوسطى ومن بعدها الهند. وأدت الفتوحات العربية الى نشر الفارسية في القرن الثامن الميلادي ، إذ عمت آسيا الوسطى بما في ذلك طاجيكستان والنصف الشمالي الغربي من أفغانستان، وما يزالان هذا البلدان يتكلمان الفارسية، وبعد مضي خمسمائة سنة تغلغت الفارسية بصحبه جيش إسلامي الى ما وراء الهند، وأقيمت (سلطنة دلهي) التي اتخذت من الفارسية لغة رسمية لها.^(٢)

ومن المسائل الشائعة في التأريخ الحضاري توجيه أسباب انتقال علم اليونان وفلسفتهم الى العرب في أيام المنصور والمأمون لعنايتهما بالترجمات

١ - إمبراطوريات الكلمة : ١٤٢.

٢ - انظر : إمبراطوريات الكلمة : ١٥٣.

المعرفية للعلوم الإغريقية، ولاسيما في مجالي الفلسفة والطب على نحو مباشر أو عن طريق السريانية، وإنشاء (بيت الحكمة) في عهد المأمون دليل وشاهد يكثر تناقله في الدراسات والبحوث، ولكن السؤال المهم هو : هل كان انتقال المعرفة اليونانية الى العرب في العصر العباسي حصراً؟ وهل بقيت تلك المعرفة التي انتشرت في بلاد فارس قبل الإسلام بمنأى عن تأثيرها في العرب الفاتحين بعد فتح بلاد فارس وتوغلهم الى آواسط آسيا؟ والمبدأ الحضاري يرفض تماماً مثل هذه التكهنات الحدية بالزمان والمتبلورة عن الماضي، إذ لا بد لكل ظاهرة حضارية من سبق بالتأثير والتأثر، وهي ليست منبثة عن أصولها، ولذلك علق بارتولد على هذه المسألة أو الاستفسار قائلاً: "من الخطأ أيضاً الظن بأن دخول علم اليونان وفلسفتهم في العرب كان بتأثير الأوامر التي صدرت في أيام المنصور والمأمون بالبحث والحصول على مخطوطات وترجمتها الى العربية؛ فلاك في وجود علاقة بين العلم في العهد الإسلامي والعلم اليوناني كان منتشراً في إيران قبل العهد الإسلامي" (١)

١ - تاريخ الحضارة الإسلامية: ٨٠.

وَأَلَّفَ أَبُو رِيحَانَ الْبَيْرُونِي (٣٦٣ هـ - ٤٤٠ هـ) كِتَابَهُ الْمُنُونُ بِ (تَحْقِيقِ مَا لِلْهِنْدِ مِنْ مَقُولَةٍ مَقْبُولَةٍ فِي الْعَقْلِ أَوْ مَرْدُولَةٍ)* شَرَحَ فِيهِ الْأَدْيَانَ وَالْعُلُومَ وَالْمَعَارِفَ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ الْكَبِيرَةِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْبَيْرُونِي كَانَ عَلَى عِلْمٍ بِاللُّغَةِ السَّنَسْكَرِيَّةِ إِذْ أَخَذَ مَعْلُومَاتِهِ عَنِ الْكُتُبِ الْمُؤَلَّفَةِ بِهَذِهِ اللُّغَةِ مُبَاشَرَةً. قَالَ بَارْتُولْد: " وَأَلَّفَ (أَيُّ الرِّيحَانِي) كِتَابًا قِيمًا عَنِ الْهِنْدِ يَدُلُّ عَلَى نَظَرٍ وَاسِعٍ وَحَيَادٍ عِلْمِيٍّ تَامٍ. وَفِي هَذَا الْكِتَابِ الْخَاصِّ بِالْهِنْدِ مَعْلُومَاتٌ وَاسِعَةٌ عَنِ الْأَدْيَانِ وَالْعُلُومِ الَّتِي فِيهَا، وَقَدْ اسْتَقَامَهَا الْبَيْرُونِي عَنْ مَنَابِعِهَا بِالسَّنَسْكَرِيَّةِ الْهِنْدِيَّةِ مُبَاشَرَةً" (١) . وَالْكِتَابُ مُؤَلَّفٌ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ اللُّغَةِ الثَّقَافِيَّةِ الْجَامِعَةِ لِلْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ.

وَتَأَلَّفَ هَذَا الْكِتَابُ وَغَيْرُهُ دَلِيلٌ عَلَى مَدَى انْتِشَارِ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْهِنْدِ. وَلَمْ يَكْتَفِ الْبَيْرُونِي بِالتَّأْلِيفِ بِالْعَرَبِيَّةِ بَلْ أَلَّفَ كِتَابًا بِالْفَارْسِيَّةِ لِلْغَزْنَويِّينَ، وَهُمْ حُكَّامُ غَزْنَةِ وَمَا وَالَاهَا فِي آسِيَا الْوُسْطَى، وَكَانُوا تَبَعًا لِلْخُلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فِي بَغْدَادٍ. وَالْكِتَابُ الَّذِي أَلَفَهُ الْبَيْرُونِي اخْتَصَّ بِالْأَدْيَانِ. وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّهُ أَشَارَ فِي كِتَابِهِ هَذَا إِلَى كِتَابِ أَسْتَاذِهِ (الْإِيرَانْشَهْرِي)(٢) فِي

* طُبِعَ الْكِتَابُ فِي حَيْدَرِ آبَادِ الدَّكْنِ - الْهِنْدِ سَنَةَ (١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م) وَصُحِّحَ عَنِ النُّسْخَةِ الْقَدِيمَةِ الْمَحْفُوظَةِ فِي الْمَكْتَبَةِ الْأَهْلِيَّةِ بِبَارِيْسَ (مَجْمُوعَةُ شَيْفَرِ رَقْمُ ٦٠٨٠)

١ - تَارِيخُ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ : ١١٧ .

٢ - انْظُرْ: تَارِيخُ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ : ١١٧ .

الأديان الثلاثة: النصرانية واليهودية والمانوية، ويبدو أنه اعتمد عليه مصدراً أساسياً في تأليف كتابه. ويستفاد من تأليف هذا الكتاب بالفارسية شيوع الفارسية في أواسط آسيا في القرنين الرابع والخامس الهجريين.

إن اقتران اللغة بالدين من القضايا المسلم بها في بحث العوامل الدينية وصلتها باللغة، وتبعاً لذلك بالكتابة؛ فهي مؤشر في بعض الأمثلة الى دين ما أو عقيدة ما. ومن الأمثلة لذلك اللاتينية في الكنيسة الكاثوليكية، والصراع بين الكاثوليك والأرثوذكس في أوربا الشرقية. قال لوتز: "...وكثيراً ما يقترن استعمال لغة بدين من الأديان، وقد تكون في بعض الأحيان لغة ما غير مستعملة في الحياة اليومية، ولكنها تبقى مصونة في الطقوس الدينية كاللاتينية في الكنيسة الرومية الكاثوليكية. وقد تكون حروف الكتابة أحياناً بمثابة تعبير عن حقائق اجتماعية. والعلاقة الوثيقة بين حروف الكتابة والدين أمر معروف؛ ففي يوغوسلافيا - مثلاً - نجد أن المناوأة القائمة بين الكرواتيين الكاثوليك والصربيين الأرثوذكس والتي اتضحت بجلاء في الحرب العالمية الثانية يقابلها استعمال للحروف اللاتينية (عند الكاثوليك) ، والسريالية (أي السلافية عند الصرب) ".^(١)

^١ - علم اللغة (مجموع آفاق المعرفة) : ٢٩٨.

والبعد الثقافي للدين قد يكون سبباً من أسباب استقرار الكتابة، "والارتباط بالدين وخاصة في الشرق الأوسط يمكن أن يحافظ على اللغة ضد الأخطار" (١) .

والدواعي المعرفية في سير حضارات الشرق كانت سبباً مهماً في توجه المستشرقين الباحثين في الديانتين المسيحية والإسلامية الى تعلم لغة أو أكثر من اللغات الشرقية. قال بارتولد لتوكيد هذا الرأي " إن المسيحية والإسلام، ثم مذهب التجديد الأدبي (Humanism = المذهب الإنساني) غيرت آراء الأوربيين في الشرق مرة أخرى؛ فصارت معرفة لغة من اللغات الشرقية أمراً محتتماً على كل أوربي مثقف". (٢)

وقد يغير قوم أسماء قوميتهم بدواع دينية محضة؛ فالآراميون -مثلاً- في بلاد ما بين النهرين ومن جاورهم في المائة الأولى للميلاد استبدلوا باسمهم القديم اسماً جديداً هو (السريان) (٣) لأن الآراميين ذو صلة وصفية بالوثنية فأراد هؤلاء السريان أن يتجنبوا هذه الصفة.

وترتبط بعض الأديان بلغات معينة تستعمل غالباً في الطقوس الدينية لأسباب سياسية أو دينية . وفيما يأتي أمثلة لذلك : (٤)

١ - إمبراطوريات الكلمة : ٢١٩ .

٢ - تأريخ الحضارة الإسلامية : ٣٨ .

٣ - مقدمة أبي إسحاق رقائق لكتاب (الآراميين) لـ (ديونت سومر) : ص ١٠ .

٤ - انظر : إمبراطوريات الكلمة : ١٤٣ .

١- ارتبطت اللغة العبرية بعد زوالها من لغة الكلام بالطقوس العبادية للكهنة الإسرائيليين في صلواتهم وأدعيتهم، ومن ثم تمّ إحيائها لعوامل سياسية وقومية (منعته) بعد ظهور (الصهيونية) وقيام إسرائيل الحديثة واحتلالها للأراضي الفلسطينية وطرد أغلب الفلسطينيين منها، علماً بأن الصهيونية هي الفئة الوحيدة في تأريخ البشرية كلها جعلت من الصفة الدينية صفة قومية لها خلافاً للمنطق والواقع التاريخي والقومي واللغوي كمن يجعل (المسلمين) صفة للعرب وحدهم، و(النصارى) أو (المسيحيين) صفة للعالم الغربي وحده.

٢- القبطية في مصر وارتباطها بالمسيحية، " كرّسها البطريك (غابريل الثاني) للاستعمال في الطقوس الدينية بين العاميين (١١٣٢م) و (١١٤٥م) ". وبقيت القبطية الى يومنا هذا في مصر خاصة لغة طقوس دينية. وحاول بعضهم أن يمزج القبطية والأقباط بصفة قومية ولكنه لم يفلح. وبقيت القبطية صفة للغة الطقوس الدينية للأرثوذكس، وهي لغة سبقت الفتح العربي الإسلامي لمصر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب.

٣- بقيت لغة الكنيسة الحبشية المسماة بـ(الجعزية) محافظة على نفسها لارتباطها الديني بالمسيحية.

٤- علاقة اللغة الأرمنية بكنيستها هيأت لشعور منبعث "من وجود جماعة دينية يزيد مقاومة اللغة قدرة". (١)

ويظهر عامل الكتابة تبعاً للتأثير الديني والثقافي، وربما كان الموروث الثقافي والعقائدي لجنوب شرق أوربا مثلاً واضحاً لذلك؛ فبعد القرن الثاني قبل الميلاد شاعت في هذه الأنحاء الكتابتان اليونانية واللاتينية لأسباب ثقافية، ولكن الذي حصل بعد زمن طويل أن ظهرت كتابات أخرى من أرومة غربية أو شرقية كالكيريلية في دول البلقان خاصة، والعربية والعبرية. (٢)

ولما كانت الحضارات التي ظهرت في الشرق الأدنى والأوسط غالباً ما ذات سمة دينية ولاسيما حضارات وادي الرافدين وبلاد الشام أثرت في أقصى شرق آسيا، ولاسيما الهند والصين، ويذكر بهذا الصدد أن الحروف الهجائية السنسكريتية في الهند نشأت بتأثير من الشرق الأدنى والأوسط ومنها انتقلت الى الصين (٣)، ولا عجب في ذلك فالحروف الصينية القائمة على أساس المقاطع الصوتية أقرب ما تكون الى الحروف المربعة الآشورية التي انتقلت الى الآرامية القديمة والعبرية.

١ - اللغة : ٣٥٠ .

٢ - انظر: تأريخ اللغات ومستقبلها : ٢٦٥ .

٣ - انظر: تأريخ الحضارة الإسلامية : ٤٠ .

وتشير الدراسات التاريخية الحضارية والآثرية الى أن الكتابة في وادي الرافدين ظهرت في المعابد في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، أي في الأطوار الأخيرة من عصر الوركاء لحاجة القيمين على المعابد الى تدوين واردات المعبد وأملاكه، وقد عثر على "أقدم كتابة صورية في منطقة معبد (أي-أنا) في مدينة الوركاء الشهيرة" .^(١)

ومن الدلائل التي تشير الى مدى ارتباط الدين بالكتابة في العهد السومري الغابر أن العلامة الدالة على الكاهن الأعلى في الكتابة المسمارية ظهرت قبل ظهور العلامة الدالة على الملك^(٢) ، ولذلك جمع الكاهن الأعلى السومري (En) بين السلطتين الدينية والمدنية. وجرى هذا العرف في نظام الحكم في فترة من عصر فجر السلالات حتى بدأ الانفصال بين السلطتين، وظهر مع الكاهن الأعلى حاكم أو ملك مفوض من إله المدينة يحكم بين الناس ويدير دفة الدولة، وأطلق عليه مصطلح (Ensi). وزيادة على الاستدلال المذكور آنفاً نجد الكتاب في العهد البابلي الحديث يطلق عليهم (Tup shar) ومعناها في البابلية : من يكتب على الألواح، وكان الكتاب يوصفون في عقود معاملات البيع والشراء وغيرها بكلمة شانكو (Shangu)

١ - انظر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٣٦٦/١.

٢ - انظر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٣٦٦/١.

وتعني : الكاهن، وهي كلمة مأخوذة من أصل سومري: سانغا (Sanga) وتعني الكاهن أيضاً . (١)

وكان الدين سبباً في نشر بعض الكتب، ويطالعنا التأريخ الحضاري لنصارى المشرق في العالم العربي ولاسيما نصارى سوريا ومصر أن الأوربيين المقيمين في تلك البلاد أقاموا زمناً في الأديرة المنتشرة فيها وتعلموا العربية وأجادوها . وأول ما ترجم ونشر في أوربا كتب نصارى المشرق، وحصل ذلك في القرن السابع عشر الميلادي إذ ترجمت تلك الكتب الى لغاتهم الأوربية ولاسيما كتب مؤرخي العرب النصارى في القرن الثالث عشر الميلادي قبل نشر كتب المؤرخين المسلمين. (٢)

وكان للكنيسة تأثير واضح في نشر الكتب باللغات القومية المختلفة بين الطبقات الشعبية من باب نشر تعاليم الدين والترغيب فيه بعد أن كانت الكتب المؤلفة باللاتينية خاصة حكراً على الخواص من الناس. ونتيجة لذلك انتشر الأدب القومي بين الطبقات الشعبية انتشاراً واسعاً (٣) . ويعزو بعض الباحثين (٤) في الأصول اللغوية الموهلة في القدم اختراع الكتابة على يدي السلطات الدينية، ويستدل على ذلك بمعنى كلمة (هيروغليفي)

١ - انظر: الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور : ص ٣٠٢ ، وحاشيتها.

٢ - انظر: تأريخ الحضارة الإسلامية : ٦١ .

٣ - انظر: تأريخ الحضارة الإسلامية : ٤٣ .

٤ - أولمان: دور الكلمة في اللغة : ٤٢ .

في اللغة اليونانية التي تعني (النقش المقدس)، والمعروف أن الهيروغليفية هي الكتابة المصرية القديمة التي تعود الى ستة آلاف سنة كما يزعم، وبقيت هذه الصفة الدينية لصيقة بالكتابة على مر الدهور. وبما أن هذا الرأي له ما يبرره من بعض الأوجه، وهي صلة الدين باللغة في بداية الحضارة المصرية القديمة غير أن إثبات أسبقية الكتابة في تلك الحضارة يظل فرضاً يحتاج الى تأكيد، علماً بأن الكتابة ظهرت أيضاً أول ما ظهرت في حضارة وادي الرافدين القديمة قبل السومريين في تاريخ إن لم يكن سابقاً لتأريخ الحضارة المصرية فهو موازٍ له. وقد رأينا في الأمثلة المذكورة سابقاً مدى ارتباط الدين بالكتابة عند السومريين، وهو أمر لابد أن يكون موروثاً من حضارة سبقت الحضارة السومرية، والخط المسماري الذي كتبت به السومرية لم يكن أبداً وليد عصره، ولابد له من جذور قبل ذلك ومَرّ بتغيرات صورية ومن ثم مقطعية الى أن انتهى الى ما هو عليه.

وكانت للكلمة قوة رمزية روحانية في بعض الحضارات ولاسيما تلك التي تستند الى الدين. وربما كانت الحضارة المسيحية بتوجهاتها الروحانية أكثر ميلاً الى إضفاء قدسية رمزية وقوة تحكم (للكلمة) أكثر من غيرها من الحضارات، يظهر ذلك على نحو واضح في العبارات الافتتاحية للإنجيل يوحنا، وهي قوله: " في البَدْء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمةُ الله " . وقد اختلف في معنى (الكلمة) الواردة في النص؛ فهل تعني "نسبة قوة إلهية الى الكلمة؟" ، علماً بأن الترجمة اليونانية للإنجيل استعملت

كلمة (Logos)، وهي كلمة تدل على معانٍ عدة : التقدير والمغزى والمعنى والمنطق، وبعد ترجمة الإنجيل الى اللاتينية ترجمت الكلمة اليونانية المذكورة آنفاً الى الكلمة اللاتينية (Verbum)، وهي التي (صبغت الموضوع بصبغة لغوية قاطعة) تقليدية، ولذلك نرى الأديب والفيلسوف الألماني المشهور (غوتيه) حين ترجم الإنجيل على لسان (فاوست) تردد في معناها وحاول أن يترجمها الى (المعنى) و(القوة) ولكنه انتهى به التردد الى ترجمتها بكلمة(العمل) .

وما أراه أن عبارات يوحنا المذكورة آنفاً يفهم منها أن المراد بالكلمة هو (القدرة الإلهية) في الخلق والإيجاد، ولذلك جعلها في (البدء) وكأنه أراد بها الصفة الذاتية الإلهية، وهي (القدرة)، وربما تكون أقرب في المعنى الى بعض العبارات القرآنية، على أن تكون هذه القدرة المطلقة الممثلة بالخلق مختصة بالذات الإلهية. ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : (إذا قضى أمراً فإنما يقول له كُنْ فيكون - البقرة: ١١٧، وآل عمران: ٤٧) ، وقوله تعالى : (إِنَّمَا قَوْلُنَا إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ - النحل : ٤٠) ، وقوله تعالى : (فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ - غافر: ٦٨) .

وارتبطت معاني بعض الألفاظ بعقائد دينية وتقاليد اجتماعية ، كدلالة كلمة (التطهير) في البابلية في عصر حمورابي على (العِثْق) ^(١) ، إذ كان

^١ - انظر: تأريخ الحضارات العام : ١٥٢/١ .

تحرير العبيد أي عتق رقابهم يتم في احتفال ديني يُطهر أثناءه جبين المعتوق . وتحولت حكومة سبأ في حضارة جنوب الجزيرة العربية من حكومة ذات صفة دينية الى حكومة مدنية، وكان حكامها قبل ذلك يتخذون لقب (مُكرب) ومعناه الكاهن الأكبر. (١)

والعداء المستأصل بين الكنيسة الأرثوذكسية وخصومها من الكنائس المسيحية الأخرى جعل الأرثوذكس يشتقون اسم مذهبهم من كلمة (مَلِك)، وينعتونهم بـ(الملكِيّة)، و " يفهمون الناس أنه مذهب الإمبراطور الرسمي"(٢) أي إمبراطور بيزنطة.

ولم تكن اللغة العربية بعد الإسلام بمنأى عن تأثير العامل الديني سواء في شيوعها وانتشارها في البلدان غير العربية واتخاذها لغة للثقافة والعلوم بعد زمن ليس بالطويل أم بتعلمها لمسوغات دينية متصلة بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. قال أستاذنا الدكتور محمود فهمي حجازي مبيناً ذلك : "ارتبط معدل تأثير العامل الديني في تعلم العربية بدرجة التدين ودرجة الاهتمام بنصوص القرآن والحديث" . (٣)

ومن الأمثلة الطريفة لتجاوز العربية حدودها الجغرافية وتأثيرها في أوروبا الغربية لأسباب دينية كلمة (أساسيين) التي دخلت في الفرنسية من الكلمة

١ - انظر: الحضارات السامية القديمة : ١٩٢ .

٢ - تاريخ الحضارة الإسلامية: ٤٨.

٣ - اللغة العربية عبر القرون : ٤٨.

العربية (حشاشين)^(١) ، وهي بمعناها الحرفي الذين يتعاطون مادة الحشيش المسكرة والمخدرة، إلا أنها جاءت نتيجة لنظام المذهب الإسماعيلي من المذاهب الإسلامية وأطلقت على تنظيم سرّي يمكن أن يسمى (تنظيماً فدائياً) انتحارياً يخدم أهداف المذهب ويحقق رغبات داعي الدعاة، وهي أعلى مرتبة في التنظيم السري. وتزعم بعض الروايات - حقاً أو باطلاً- أن هؤلاء كانوا يتعاطون الحشيش. إن التنظيم السري للإسماعلية كان له أثر بالغ جداً في كثير من التنظيمات الأوربية السرية في القرون الوسطى وما بعدها .

ومن الألفاظ المركبة ذات الدلالة الدينية أيضاً كلمة (دالاي - لاما = Dalai Lama -) ، وهي لقب يطلق على الزعيم الروحي لأهل التبت. والكلمة مركبة من كلمتين منغولية وتبتية : (دالاي) المنغولية ومعناها : المحيط، و (لاما) التبتية ومعناها : الزعيم الروحي^(٢) ، واستعملت كلمة المحيط استعمالاً مجازياً لتدل على أن تعاليم الزعيم عميقة وبعيدة الغور كالمحيط. ويمكن أن نضع مقابلاً عربياً هو عبارة : (بحر العلوم الدينية). وكان العامل الديني السبب الأهم في وضع قواعد اللغة السنسكريتية قبل الميلاد ببضعة قرون، يضاف إليه عامل الحفاظ على اللغة. قال لوتز : "... في

١ - تاريخ الحضارة الإسلامية : ١ : ٤٣ .

٢ - خليل أحمد خليل : معجم المصطلحات الدينية : ٧٣ .

هذا الوقت صمم نحاة اللغة السنسكريتية ولأسباب دينية على وضع إطار مدهش لصيانة لغتهم والحفاظ عليها من التغيير " . (١)

إن الميل الى تعاليم بوذا واعتناقها كانت مسوغاً دينياً قبل أن تكون سبباً ثقافياً في انتشار السنسكريتية ولغات الهند الأخرى ولاسيما المتصلة بالبوذية إذ تجاوزت حدود الهند الى الشمال حول جبال الهملايا، ومنها الى التبت والصين واليابان، وكان بوذا نفسه يتكلم الـ (براكيت) ، وتسمى الـ (ماغادي) ، وامتدت البوذية الى بورما وأنحاء الهندكلها وسريلانكا (٢) مع مرور الزمن ، واتجهت الى جنوب شرق آسيا ، وكتبت تعاليمها بلغة ذات صلة وثيقة بـ البراكيت تدعى لغة (بالي)، وهي لغات ولهجات مختلفة للسنسكريتية الهندية، ودونت التعاليم أيضاً باللغة السنسكريتية التقليدية. وصلة السنسكريتية بالهندوسية والبوذية ظلت قائمة منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة، وما تزال الى يومنا هذا ترتل الطقوس الهندوسية بهذه اللغة (٣) . ولو عدنا الى عقائد الديانة الهندوسية لوجدنا نصوصاً تشير الى نشأة اللغة

١ - علم اللغة (مجموع آفاق المعرفة) : ٣٠٤.

٢ - انظر: إمبراطوريات الكلمة : ٢٥٧.

٣ - انظر: إمبراطوريات الكلمة : ٢٦٠.

الأولى، ومنها ما ورد في كتاب الهندوس المقدس (ريغ فيدا = Rigvéda)^(١) إذ جاء فيه ما يأتي :

"عندما قام سيد العالم الحكيم بتأسيس مبدأ اللغة الأول الذي يعطي الأسماء فإن ما هو ممتاز فيها وما هو نقي كامن في أعماق داخلها خرج الى الضوء من خلال المحبة. كثير من الناس لا يرون الكلمة، وكثير من الناس السامعين لا يسمعونها ، ومع ذلك فإنها تكشف نفسها لآخرين مثل عروس متألفة تستسلم لزوجها" . (٢)

وهذا النص يعود بنا الى الجدل المحتدم في تأريخ اللغة بين آراء مختلفة ومتباينة في كيفية نشأة اللغة، أهى عن طريق (التوقيف) أم عن طريق (الاصطلاح) ؟ وكيف حصل ذلك في كلا المبدأين ؟ وهو جدل رافق تأريخ اللغات منذ النشأة الأولى لإرهاصات البحث اللغوي إذ نجده عند كثير من الحضارات والثقافات القديمة، وكذلك الديانات المختلفة، وامتد الحديث في هذا الشأن الى العصر الحديث قبل أن تقرر بعض المدارس اللغوية

^١ - (ريغ) تعني في السنسكريتية بيت شِعْر ، و(فيدا) تعني المعرفة ، ويمكن أن تترجم عبارة (ريغ فيدا) الى أبيات المعرفة أو آيات الحكمة . وهي مجموعة من الأناشيد تشتمل على (١٠٢٨) نشيداً. انظر: لويس صليبا : أقدم كتاب في العالم (ريغ فيد) - دار ومكتبة بيبليون - لبنان (٢٠٠٥م) .

^٢ - إمبراطوريات الكلمة: ٢٦١ .

والمجامع اللغوية كمجمع باريس الكف عن هذا الموضوع وإخراجه من دائرة البحث اللغوي الى دائرة المباحث الأنثروبولوجية.

وفضل الهندوس السنسكريتية الفصحى في حين فضل البوذيون لهجة بالي^(١) من اللهجات السنسكريتية أيضاً ولكنها أبسط منها. وإنطلق هؤلاء البوذيون لتفضيل لهجة تتسم بالبساطة من تعاليم بوذا الذي أوصى أتباعه باتخاذ أي لهجة عامية دارجة سهلة لإيصال تعاليمه وأفكاره الى أغلب الناس^(٢). و(الفيدية) اللغة الهندية القديمة نسبة الى (فيدا) وهو الكتاب المقدس عند الهندوس بقيت مستعملة في العبادات، وترتل بلا تغيير يذكر الى يوم الناس هذا.

وتشتمل الفيدا على ترانيم للآلهة تعود الى القرون الأخيرة من الألف الثاني قبل الميلاد^(٣). وتسرب النفوذ اللغوي الديني للبوذية الى بلاد فارس، ويذكر في العصر العباسي الأول أيام استحواذ البرامكة على سلطة الخليفة العباسي ولأسيما هارون الرشيد قبل نكبتهم أنهم خولوا في القرن التاسع الميلادي (القرن الثاني الهجري) مسؤولية الإشراف على المعبد البوذي في مدينة (بلخ). ويعتقد المستشرق (ريتشارد بوليت) أن هذا الأمر "قَدَّم للبرمكيين قاعدة نفوذ محلية على البوذيين السابقين، ومكّن في الوقت نفسه

١ - انظر: إمبراطوريات الكلمة : ٢٩٨.

٢ - انظر: إمبراطوريات الكلمة : ٢٩٨.

٣ - انظر: إمبراطوريات الكلمة : ٢٥٣.

الحكومة المركزية في بغداد من السيطرة على الشرق الإيراني من خلال نفوذ البرمكيين" . (١)

وإذا صح هذا الرأي فهو دليل على انتشار البوذية في شرق بلاد فارس أي ما يعرف اليوم بـ(أفغانستان)، وتماثيل بوذا الكبيرة المنحوتة في جبالها خير دليل على ذلك، وقد هدمتها جماعة طالبان الإسلامية المتطرفة بدعوى أنها من بقايا الوثنية وتدعو إليها. ونستشف دليلاً آخر مما ذهب إليه (بوليت)، وهو أن أجداد البرامكة القدامى كانوا على صلة عقائدية بالبوذية قبل أن يعتنقوا الإسلام، وربما وهو ما أرجحه أن هذه الصلة القديمة كانت سبباً للخليفة العباسي لأن يتولى هؤلاء شؤون المعبد البوذي في بلخ، ودليلي على ذلك أصل كلمة برمك (Barmak) فقد ذكر (ريتشاردز فولتر) احتمال عودة الكلمة الى أصل سنسكريتي: (baramika) وتعني كاهناً بوذياً^(٢) ، ولكن التحقيق يفيد أن أصل الكلمة السنسكريتية هو (pramakha) وتعني الرئيس، وأطلقت على الرئيس الروحاني للبوذيين في معبد النوبهار (vihāra) ببلخ . (٣)

١ - الروحانية في أرض النبلاء : ١٠٠ .

٢ - الروحانية في أرض النبلاء : ٩٩ .

٣ - انظر: فرهنك فارسي معين : ٤٠٤٥ . والبرامكة : " أسرة فارسية عريقة، واحد منهم : بَرْمَكِي، نسبة الى بَرْمَك (barmak) ، وهو الاسم الذي كان يطلق على أجدادهم. تولوا الوزارة للعباسيين في القرن الثاني الهجري " . فرهنك فارسي معين : ٤٠٤٥ .

وتسمية بعض القرى الواقعة في غرب خراسان الى (الريّ) القريبة من طهران الحديثة باسم نَوْبَهَار (naw-bahar) هو من هذا الباب أيضاً. ويرى فولتز أن هذه التسمية تعود الى أصل سنسكريتي: (nava- vihāra) وتعني المعبد أو الدير البوذي الجديد^(١). وفي المعجم الفارسي أن النوبهار "اسم معبد في مدينة بلخ كانت تتولاها أسرة البرامكة قبل إسلامهم في أواخر القرن الأول الهجري، وكان المعبد يشتمل على أراضٍ واسعة وموقوفات كثيرة" . (٢)

وقيل إن النوبهار اسم بيت نار بلخ كما ورد في شعر الشاعر الفارسي (دقيقي)، ولكن (بيت النار) لا يطلق إلا على معابد الزرادشتيين، فكيف يمكن التوفيق بين هذين المعنيين ؟ ويفيد التحقيق في هذه المسألة أن النوبهار اسم معبد للبوذيين في مدينة بلخ التي كانت معقلاً من معاقل البوذية قديماً، ويمكن الاستدلال على ذلك بإشراف البرامكة عليه بتوجيه من الخليفة العباسي في القرن الثاني الهجري كما سبق ذكره، وربما التبس الأمر على الشاعر دقيقي فظن أنه اسم بيت النار للزرادشتيين.

وكان للآرامية - التي سميت فيما بعد بالسريانية تقادياً للصفة الوثنية - شأن في تغليب لغة لأسباب دينية ؛ فالآرامية كما هو معروف كانت لغة السيد المسيح (ع) ، ولذلك نلاحظ أن الكنيسة الرسمية السريانية اتخذتها لغة لها،

١ - الروحانية في أرض النبلاء : ٩٢.

٢ - فَرَهْنَك فارسي معين : ٥٣١٨.

"وبهذه الصفة عاشت قروناً بعد ذلك وانتجت أدباً دينياً ضخماً"^(١) . وقبل المسيح والمسيحية أنتجت الآرامية عبادات مختلفة في الشرق والعالم العربي، وانتقلت عن طريق الشرق الى الرومان، ولكن نصيبها لم يكن على قدر ما نشرته الكنيسة السريانية في المشرق؛ فالنصرانية شاعت وانتشرت من بلدان المشرق الى أوروبا في العصر الروماني، واتسع انتشارها فيما بعد الى ما بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية ، واتخذت الكنيسة الكاثوليكية اللغة اللاتينية لغة رسمية ودينية لها في مقابل الكنيسة الشرقية في بلاد فارس والعراق والشام التي اتخذت (السريانية) لغة رسمية ودينية لها. ومن قبيل تسمية الأشياء وإضفاء صفة دينية عليها كلمة (اليهود) ؛ فهي اسم للسبط (يهوذا)^(٢) أحد أولاد النبي يعقوب(ع)، والذي خرج على نسبه النبي داود (ع) مؤسس دولة يهوذا في فلسطين، وعاصمتها أورشليم (القدس). وأطلقت الكلمة فيما بعد على من اعتنق الديانة الموسوية. وتتبعي الإشارة الى أن مصطلح اليهودي (judaïos) لم يظهر في اللغة اليونانية حتى القرن الثالث قبل الميلاد .^(٣)

وتأثرت الجاليات الأوروبية المهاجرة الى أمريكا قديماً باللغة العبرية على أنها في الأصل لغة العهد القديم الذي يدين له النصارى أيضاً فضلاً عن اليهود،

١ - الحضارات السامية القديمة: ١٨١.

٢ - انظر: تأريخ الحضارات العام : ٢٧١/١.

٣ - الروحانية في أرض النبلاء: ٦٩.

وقيل إن اللغة العبرية اتخذت لغة رسمية لجامعة هارفارد الأمريكية العريقة حين تأسيسها في سنة (١٦٣٦م)، وفي سنة (١٦٤٢م) نوقشت أول رسالة دكتوراه في هذه الجامعة، وكان عنوانها : (اللغة العبرية هي اللغة الأم) ^(١) . ويبدو أن هذا الأمر كان بسبب النفوذ اليهودي في المجتمعات الأمريكية أيضاً مع النفوذ الديني، ويستدل على ذلك بتعصب البروتستانت المهاجرين لليهود ونظرتهم لسكان أمريكا الأصليين أي الهنود الحمر كأنهم الكنعانيون سكان فلسطين الأصليين، ونظرتهم لأنفسهم كأنهم بنو إسرائيل الذين اجتازوا البحر باتجاه صحراء سيناء ومنها الى فلسطين أرض الميعاد كما يزعمون. ووصف أحد الباحثين هذا الأمر بقوله : " لقد كان المهاجرون البروتستانت الأوائل الى أمريكا يؤدون صلواتهم باللغة العبرية... ويطلقون على أبنائهم وبناتهم أسماء أنبياء وأبناء وبنات بني إسرائيل الوارد ذكرهم في التوراة، وقاموا بفرض تعليم اللغة العبرية في مدارسهم حيث شبهوا خروجهم من أوروبا الى أمريكا بخروج اليهود أيام موسى (ع) من مصر الى فلسطين ... إذ نظروا الى أمريكا على أنها (بلاد كنعان الجديدة) أي فلسطين ، ونظروا الى الهنود الحمر، وهم سكان أمريكا الأصليون على أنهم الكنعانيون العرب، وهم سكان فلسطين الأصليون " . ^(٢)

^١ - سبيرودوفيتش : حكومة العالم الخفية : ٢٤٨.

^٢ - حكومة العالم الخفية : ٢٤٨.

وتعد اللغة القبطية في مصر من اللغات التي ارتبطت أيضاً بالمسيحية، وهي من بقايا اللغة المصرية القديمة تأثرت بالآرامية واليونانية اللتين وفدتا إليها من بلدان الشرق الأدنى والأوسط، وضاق مدلولها بعد الفتح الإسلامي لمصر وأطلقت على نصارى مصر، وصار (الأقباط) يعرفون على أنهم نصارى مصر، ولهم كنيسة مخصوصة بهم تختلف عن الكنيسة الكاثوليكية. ومن المفيد الإشارة الى أن الأبجدية القبطية مأخوذة من الأبجدية اليونانية مع بعض التعديلات لتمثيل اللغة المصرية، وأضافوا إليها شبه أحرف جديدة مستعارة من الكتابة الشعبية المصرية القديمة. وبعد استقرار الأبجدية القبطية ترجمت بعض الأنجيل والمقالات والخطب الدينية وقصص القديسين في صحراء مصر كالقديس (باخوميوس) وأتباعه، والمواعظ والرسائل والمجادلات الدينية، وكتبت اللغة المصرية بحسب هذه الطريقة نحو ألف سنة ^(١) . وكان الدافع الى تطوير القبطية (النصرانية) - إذا صح التعبير - مع أبجديتها هو التبشير بالمسيحية واستعمال اللغة وسيلة لذلك وجعلها " أفضل وسيلة لإحراز تقدم في تنصير الشعب المصري" .

وظهر في العصر الساساني في بلاد فارس مذهب نصراني استعمل اللغة الفارسية في العبادة، و" كان لهذا العمل تأثير في دخول النصرانية في آسيا

^١ -انظر : إمبراطوريات الكلمة : ١٩٦ .

الوسطى والصين"^(١) . وتبدو المسألة - ها هنا - على عكس ما هو متوقع إذ كان المفروض أن يستعمل نصارى بلاد فارس في العهد الساساني السريانية وهي امتداد للآرامية لغة دينية لهم تبعاً لأقرانهم من نصارى العراق وبلاد الشام، ولانتشار الآرامية في بلاد فارس قبل العهد الساساني بزمان طويل واتخاذها لغة رسمية للإخمينيين فيما عرف بـ (أرامية الدولة). وربما كان السبب في اتخاذ نصارى بلاد فارس اللغة الفارسية، والمقصود بها (البهلوية) لغة دينية لهم هو قوة ارتكاز هذه اللغة وإعادة كتابة بقايا (الأوستا) عن طريق الرواية الشفوية باللغة البهلوية التي أضحت لغة رسمية للدولة الساسانية ، يضاف الى ذلك ظهور المانوية ، وهي دين وضعي جديد دعا إليه (ماني)، وكان خليطاً من الزرادشتية والمسيحية الشرقية والغنوصية. ودونت أغلب تعاليمه بالبهلوية .

وكانت (الكيشوا) لغة لنحو عشرة ملايين من الهنود الحمر في ستة ولايات من ولايات أمريكا اللاتينية (البيرو وبوليفيا والاكوادور وكولومبيا وشيلي والأرجنتين) على الرغم من شيوع الإسبانية في أنحاء أمريكا اللاتينية إذ كانت مستعمرة للإسبان زمناً طويلاً. وبقيت الإسبانية اللغة الرسمية لبلدان أمريكا الجنوبية الى يومنا هذا باستثناء البرازيل ، ولذلك أطلق عليها أمريكا اللاتينية لانحدار الإسبانية من أصول لاتينية.

^١ - تأريخ الحضارة الإسلامية : ٤٩ .

وفي القرن السادس عشر اتخذ إمبراطور إسبانيا (شارل الأول) قراراً بدافع ديني بحت جاء فيه : " ... بعد أن نظرنا إن كانت اللغات الهندية حتى أكثر اللغات الهندية كملاً قادراً على التعبير عن إيماننا الكاثوليكي المقدس، ووجدنا ذلك محالاً" . وعلق (توريرو) على إرادة الإمبراطور هذه قائلاً: " كانت نية الإمبراطور الحقيقية بلاشك أن ينشر اللغة الإسبانية في المستعمرات الأمريكية كما نشر الرومان اللاتينية في القسم الأعظم من ممالكهم الأوروبية " (١) ، وعدل بذلك (توريرو) من السبب الديني الدافع للإمبراطور الى سبب وطني لغوي بحت، ولكننا قد نجد الجمع بين السببين الديني والوطني وجعله مسوغاً للإمبراطور غير أن أنه فشل في تحقيق مآربه الدينية ونجح في تحقيق أمانيه الوطنية فشاعت الإسبانية في أمريكا الجنوبية.

ومن الوشائج ذات الصلة بالأديان والعقائد وفرة أسماء الآلهة وإطلاقها على مسميات الأشياء واكتسابها دلالات مختلفة مادية ومعنوية. نلاحظ ذلك في أغلب الحضارات القديمة، ومنها على سبيل المثال حضارة وادي الرافدين إذ نلاحظ في هذه الحضارة المترابطة والمترابطة منذ عهد الفراتيين الأوائل أي قبل السومريين ، وربما قبل ذلك أن للآلهة صفات مادية ومعنوية ورموز ودلالات يعبر عنها بكلمات تصويرية تضيف عليها نمطاً فريداً . وقال (كونتينو) في وصف آلهة سكان ما بين النهرين : " كل دين كان يمثل آلهته

١ - حرب اللغات والسياسات اللغوية : ١٨٥ .

وأعمالهم بعبارات مادية، قد صوروها كذلك في صفة تصويرية مستقرة، ووفقاً لذلك أضيفت الى الآلهة المتنوعين صفات بدنية ومعنوية ثابتة. وبالطبع فإن السبب الرئيس لذلك هو أنه عند وصف الإله باصطلاحات مقبولة فإن هذا الوصف ملزم بأن يتطابق مع نمط فريد...^(١) . وفي الوقت الذي تصمم فيه تماثيل الآلهة لفائدة عموم المؤمنين بها فإنها يجب أن تكون ثابتة الشكل لكي يمكن معرفتها. وامترجت - عادة - وضع علامة متميزة مع هذه التماثيل أو بعضاً من توابعها، بالإضافة الى أن هذه التماثيل نفسها كانت تخلق نوعاً من الرموز التي تقرب التمثال وتضعه في ذهن الناظر حتى ولو كان هذا التمثال قد صور تصويراً غامضاً.. كانت هذه عادة سكان ما بين النهرين الذين صنعوا التماثيل بالحجم الطبيعي... ولكن العلاقة الشديدة القائمة بين السماء والأرض كانت تعني (أن كل جسم مخلوق لابد من أن ينتمي الى أحد الآلهة)، وأن كل أداة وكل جسم وكل عنصر يستخدم عند الاحتفال له تفسيره الخاص^(٢) . وكثرت الآلهة في حضارة وادي الرافدين في عهودها جميعاً، وكان الاعتقاد العام السائد أن المعابد ما هي إلا سكن للآلهة وبيوت لها، لذلك كانت المعابد تبدأ أسماؤها بكلمة (é) السومرية التي تعني البيت والدار والسكن.^(٣)

١ - الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور : ٢٩٧.

٢ - الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور : ٢٩٧.

٣ - انظر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٣٦٦/١.

وكان الغالب على أسماء الأعلام في حضارة وادي الرافدين " سواء كانت أسماء حكام وملوك أم أفراد من عامة الناس أن تدخل أسماء الآلهة المختلفة في تركيبها. والى هذا فإن كثرة استعمال اسم إله معين في تركيب أسماء فترة تاريخية خاصة يكشف لنا عن اشتهاار ذلك الإله لدى الجماهير وتعلقهم

به، وقد يشير الى انتماء الشخص من الناحية القومية...". (١)

وثمة فرق بين آلهة سكان ما بين النهرين وآلهة المصريين القدامى في العصور الفرعونية؛ فالملك في بلاد ما بين النهرين يعد وسيطاً بين البشر والآلهة بخلاف ما نجده عند فراعنة مصر، ففرعون مصر يعتقد أنه من

صلب إله وحينما يعتلي العرش يرتقي الى مصاف الآلهة. (٢)

وشاعت نسبة الأقوام الى المدن والآلهة القومية عند الأكديين والبابليين والآشوريين؛ فالآشوريون سموا بذلك نسبة الى (آشور) عاصمتهم وإلههم القومي^(٣)، ولا يعرف أيهما أسبق كما قال طه باقر، ولكن الاحتمال الراجح أن تسمية الإله أسبق من تسمية العاصمة كما كان متعارفاً في زمانهم، وأطلقت كلمة (الأكديين) على الأقوام السامية التي استوطنت وادي الرافدين، وتشتمل على الآشوريين والبابليين في مختلف عصورهم، وهي

١ - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ٣٦٩/١.

٢ - انظر: تاريخ الحضارات العام : ١٤٢/١.

٣ - انظر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ٥١٧/١.

تسمية نسبة الى مدينة (أكد)، وكذلك الحال عند البابليين نسبة الى مدينة بابل، وأطلقت أسماء الآلهة على بعض المدن والمستوطنات. واستمرت عبادة الآلهة المحلية في بلاد بابل بعد استيلاء الفرس عليها، وفرض الملك الفارسي (أخشويرش) عبادة إله واحد هو (أهورامزدا) كما ورد في أدبيات الديانة الزرادشتية، ولكن أهل بابل أو بعضهم بقي متمسكاً بعبادة آلهته، ويرى طه باقر أن تسمية البابليين أبناءهم في العهد الفارسي بأسماء إيرانية "تدخل في تركيبها الآلهة الإيرانية لها دلالتها على تساهل القوم في التمسك بآلهتهم" ^(١)، ولكن التحليل الموضوعي يقتضي خلاف ذلك، فلو كان الأمر كما ذكر طه باقر لعبد أهل بابل إله الزرادشتيين الواحد وهو أهورامزدا ولاعتنقوا الديانة الزرادشتية، يضاف الى ذلك أن العقيدة الزرادشتية في أصل تكوينها ونشأتها كانت عقيدة موحدة تؤمن بإله واحد أحد، ولم يكن لديهم آلهة مختلفة، وإنما ما ورد في كتابهم المقدس (أوستا) هو أسماء ملائكة روحانيين، وأسماء شياطين يمثلون عالم الظلمة أي عالم الشر. وبناء على ذلك يمكن أن نجد تعليلاً آخر لتسمية البابليين أبناءهم هكذا تسمية، وهو غلبة التأثير الثقافي عليهم، والمنحى السياسي وتأثيره فيهم، واتباع المغلوب للغالب في بعض عناوينه ومسمياته. وكثرت الآلهة عند عرب الجاهلية الشماليين والجنوبيين، واتخذت في أسمائها مناحٍ مختلفة وإن غلبت عليها أسماء الكواكب والنجوم. والغريب

^١ - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ٦٤٦/١.

هو عبادة الشيطان والتسمية باسمه على الرغم من دلالاته العامة في العربية على الشر والتمرد، إذ اطلق على كل عاتٍ متمرد من الجن والإنس والدواب. والظاهر أن عبادته كانت وافدة إليهم من خارجهم. وعبدوا أيضاً بعض الملائكة والجن. وممن تسموا بـ (بني الشيطان) قوم وفدوا على النبي (ص) : "فقال : مَنْ أَنْتُمْ؟ قالوا: نحن بنو الشيطان، فقال : أَنْتُمْ بنو عبد الله؛ فبعضهم يقول : بنو الشيطان، وبعضهم يقول : بنو عبد الله". (١)

وممن تسمى بالشيطان : الشيطان بن بكر وشراحيل بن الشيطان من سَعْد العَشِيرَةِ (مَذْحِج) من بني زيد بن كَهْلان، والشيطان بن الحارث من كِنْدَةَ من القحطانية، وشيطان بن زهير من جهينة بن حنظلة من تميم من العدنانية.

ومن آلهة الظواهر الطبيعية : إله الجَبَل ، ويسمى في الصفوية : (إله هَجَبِل) أو (إله هاجَبِل) والهاء أداة تعريف كما هي في العبرية ، وكان " إلهها صفوياً عبده أهل الجبال والأراضي المرتفعة " . (٢)

ومن أمثلة الآلهة المسماة بأسماء الحيوان : النَّوْر، وكان "معبوداً عند العرب قبل الإسلام؛ وقد سمّت العرب : عَبَدَ نَوْر. وعثر في النصوص اليمنية القديمة على إله باسم (نَوْر بَلْعَم). ورمز الى إله القمر بـ(ثور)، ولعل ذلك بسبب قَرْنِيهِ اللذين يذكّران بالهلال. وعُدَّ الثور من الحيوانات المقدسة التي

١ - جورج كدر : معجم آلهة العرب قبل الإسلام: ١٤٨.

٢ - معجم آلهة العرب قبل الإسلام: ٥٦.

ترمز الى الآلهة، ونجد له صورة مرسومة في النصوص اللحيانية والتمودية، وعند غير العرب من الشعوب السامية. وأكثر الأوثان والصور التي كان الناس يقدمونها الى معابد المقه (إله القمر) وفاءً لنذورها اشتملت على صورة ثيران. ويلاحظ أن الثيران كانت من أكثر الحيوانات التي كان المتعبدون يقدمونها ذبائح لهذا الإله. واستنتج المستشرق (دتلف نلسون) من هاتين الملاحظتين، ومن تسمية أشخاص وأسر وعشائر وقبائل باسم (ثور) أن الثور رمز يراد به المقه (القمر) " (١)

وكان (النَّسْر) من أسماء الآلهة المسماة باسم الحيوان عند عرب الجاهلية وهو من الأصنام القديمة، على صورة نَسْر، وكان " بموضع من أرض سبأ يقال له : (بَلْخَع) تعبد به حَمِيرٌ ومن والاه، فلم يزل يعبدونه حتى هودهم ذو نواس . وكانت حمير تنسك لَنَسْر وتعظمه وتدين له، وكان في عُمدان وهو قصر ملك اليمن" (٢) و (البقرة) من أسماء الحيوان التي أطلقت على الآلهة، وكان صنماً على صورة ثور، وشاعت عبادته في قبيلة هَمْدَان اليمانية. (٣)

و(ذات أنواط) اسم شجرة مقدسة "عظيمة خضراء ، عبدتها قريش وسواها من العرب ، وكانوا يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم ، ويذبحون

١ - معجم آلهة العرب قبل الإسلام : ٨٠ ، ٨١.

٢ - معجم آلهة العرب قبل الإسلام: ٢٣٧.

٣ - انظر: معجم آلهة العرب قبل الإسلام: ٧٠.

عندها ، ويعكفون عندها يوماً، وكان من حجّ منهم وضع رداءه عندها ودخل من غير رداء تعظيماً لها" (١) . وارتبطت بعض الآلهة عند عرب الجاهلية بالتجارة، ومنها : (تاجر) ، وهو إله ثمودي، وكان "سيد البائعين والأسواق وحاميتها" (٢) ، وكانت الأسواق تقام حول معبده في مواسم الحج. وورد اسم (تاجر) في نص دعاء "يطلب صاحبه فيه العون من هذا الإله".

وارتبطت أسماء أغلب الآلهة عند عرب الجاهلية من أهل الشمال أو الجنوب بأسماء النجوم والكواكب، والأمثلة لذلك كثيرة نكتفي منها بما يأتي :
الشّعري:

- "من الآلهة الكوكبية ، تعبدت لها خُزَاعَة وقَيْس . وقد عرفت العرب عبادتها مثل عبادة (نَجْم) و (الثُّرَيَّا) و (الرُّهْرة) وغيرها " .
- "عبادة الشعري كانت من أقوى العبادات التي انتشرت في جزيرة العرب"
- الشعري من حيث كونها نجماً عرفت عند العرب على أنها شِعْرِيَان، إحداهما: العبُور ، والأخرى : العُمَيْصَاء. سميت بالعبُور "لأن سهيلاً والشعري كانا زوجين، فانحدر سُهَيْل فصار يمانياً فتبعته الشعري العبور فعبرت المَجَرَّة فسميت العبُور " ، وأما العُمَيْصَاء " فقد أقامت

١ - معجم آلهة العرب قبل الإسلام : ١٠٧ .

٢ - معجم آلهة العرب قبل الإسلام: ١٠٧ .

- في مكانها وبكت لَفَقْد سهل حتى غَمِصَتْ عيناها" أي سال غَمَصُها، وهو ما سال من القذى في العين.
- عبدت طائفة من عرب الجاهلية الشعري العبور ، وعبد قوم من خُرَاعة من بني مُلَيْح الشعري.
- كانت تلبية مَدَج في حَجَّها: " لَبَّيْكَ رَبَّ الشَّعْرَى، وربّ اللّات والعُرَى " .
- من المرجح أن الشعري هي الإله (ذو الشَّرى)، إله النَّبْط الكبير، وكان أيضاً من آلهة الصفويين والتدميريين" (١) .
- الزُّهرة : من عبادات الكواكب والنجوم .
- شاعت عبادتها ، وعبدها أغلب العرب، وهي من حيث كونها كوكباً عدت من كواكب (السَّعد)، وكانوا يتقاعلون بها . (٢)
- زُحَل : من عبادات الكواكب والنجوم :
- عرفت عبادته عند عرب الجاهلية في جزيرة العرب .
- "زعمت الصابئة (وهم غير المندائيين) أن البيت الحرام هو هيكل زحل" .

١ - معجم آلهة العرب قبل الإسلام : ١٤٥، ١٤٦ .

٢ - انظر : معجم آلهة العرب قبل الإسلام : ١٢٨ .

- "كانت العرب تعتقد أن قُرَح اسم الشيطان ملحق بزحل. وكانت العرب تسمي زُحَل والمَرِيخ (من حيث كونهما كوكبين) : النَّحْسِين، وأما السَّعْدَانِ عندهم فهما : المُشْتَرِي والزهرة " . (١)
- الدَّبْرَان : خمسة كواكب ، وهي من منازل القمر . (٢)
- "إله ثمودي تعهدت له (طُسم)، وعبدته طائفة من تميم " . (٣)
- المَقَه (*) :
- "إله سبأ العظيم، وهو الإله القمر فيها ، مثل (عم) عند القتبانيين، و(وَدَّ) عند المعينيين، و(سِن) أو (سِين) عند الحضارمة . كان معبده في صَرَوَاح، وهو حِصْن في اليمن أمر ببنائه سليمان (ع) لـ (بَلْقِيس) ومنه انتشرت عبادته". (٤)
- الثُّرَيَّا : من عبادات الكواكب والنجوم، وهي عدد من الكواكب تبدو في صورتها الوهمية كالثرثريا المعلقة في السماء .
- "عبدتها طَيِّيء ، وسمّت العرب : عبد الثُّرَيَّا " . (٥)

١ - معجم آلهة العرب قبل الإسلام : ١٢٨ .

٢ - انظر: أمين آل ناصر الدين : الرائد : ٦٥٩ .

٣ - معجم آلهة العرب قبل الإسلام : ١٠٣ .

٤ - معجم آلهة العرب قبل الإسلام : ٢٢٥ .

٥ - انظر: معجم آلهة العرب قبل الإسلام : ٨٠ .

تنف : إلهة أنثى، عبدت عند العرب الجنوبيين، وهي من أسماء الشمس (١)

الأسد: أحد بروج السماء الاثني عشر بحسب مصطلح المنجمين والفلكيين (٢) ، وهو من العبادات الكوكبية .

١ - انظر: معجم آلهة العرب قبل الإسلام : ٧٨.

٢ - الفَلَك: الفضاء الذي تدور فيه النجوم والكواكب. وأسامي البروج كما هو معروف عند المنجمين والفلكيين المسلمين هي : الحَمَل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسُّنْبُلَة والميزان والعقرب والقُوس والجُذْي والدَّلُو والحُوت. وفلك البروج يطلق في اصطلاحهم على اثني عشر قسماً أو بُرجاً في منطقة الفلك الثامن التي تشتمل على ما أسموه بـ (الكواكب الثابتة). والبروج من = حيث التصور التخيلي مجموعة من النجوم تشبه صور مسمياتها في أخيلة الفلكيين القدامى. قال الأحمد نكري : " ... واعلم أنهم أخذوا أسماء البروج من صور يخيّلونها من وصل الخطوط بين الكوكب الثوابت " : جامع العلوم في اصطلاحات الفنون : ١ / ١٤٤. ولعل أشهر كتاب في التراث الفلكي الإسلامي هو كتاب (صور الكواكب الثمانية والأربعين) لمؤلفه أبي الحسين عبد الرحمن بن عمر الرازي المعروف بالصوفي المتوفى سنة (٣٧٦ هـ - ٩٨٦م) . ومن طبعات هذا الكتاب النفيس طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن - الهند في سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤م) ، ويشتمل الكتاب على الصور التخيلية لمجموعات الكوكب والنجوم المؤلفة للبروج.

- "تعبدت له بعض قریش. ويرمز الأسد الى القوة والشجاعة والجرأه. ويبدو أنه كان من آلهة الحرب عند العرب؛ ففي الديانة التدمرية كان الأسد يرمز الى آلهة الحرب عندهم". (١)

أطيرات: من آلهة ثمود، وهي إلهة أنثى. ويعني هذا الاسم : بَرّاقة. قال (براندين) في كتابه (تأريخ ثمود) : " أطيرات إلهة شمسية تابعة للإله (عم) أو (وَدّ). ونجدها في اسمي العلم : (بن أطيرات) ، و(ثور أطيرات). والثور رمز الى الإله القمري" . وذكر براندين أيضاً : أن أطيرات إلهة قمرية في الشمال كما في الجنوب. ويبدو أن وجودها في اسم علم من صيغة المذكر : (أطير سميك) يشكل دليلاً على ذلك" (٢)

أم عطار : إلهة ثمودية أنثى، و "تتوافق مع الإلهة العربية الجنوبية : (أم عطار) الشمسية بأنها (أم عطار) النجمية" . ونجد الاسم منفصلاً مرة واحدة في اللغة الثمودية كما يقول براندين في كتابه تأريخ ثمود. (٣)

١ - معجم آلهة العرب قبل الإسلام : ٤٧.

٢ - معجم آلهة العرب قبل الإسلام : ٥١.

٣ - معجم آلهة العرب قبل الإسلام : ٥٧.

أنبي : "من آلهة قَتَبَان. واسمه مقرون باسم الإله (عم) إله قَتَبَان الرئيس، وهو مثله إله ذكر هو القمر. ورد اسمه " : (أنبي شيمن) ومعناه : الحامي والحافظ والمدافع عن المؤمنين به" . (١)

بادر : صَنَمٌ لِلأَرْد. قيل كان في (سَمَال) ، وهي قرية في عُمان. وبادر من أسماء القمر ومعناه : السيد . (٢)

أحوار: من آلهة ثمود، وهو اسم كوكب يشير الى الكوكب (جوبيتر). وورد في التمودية اسم (عبد أحوار). قال براندن في كتابه تأريخ ثمود: "إن أحوار إله نجمي غير أنه لا يطابق الإله (عطار) المقابل لكوكب الزهرة" . (٣)

الطَّارِق: "من العبادات الكوكبية ، وهو كوكب الصبح. كان العرب تفتخر به للدلالة على الرفعة والعُلُوّ والشرف. وربما كانت النساء الجميلات تنتسبن إليه ويقال لهن : بنات طارق" . (٤)

١ - معجم آلهة العرب قبل الإسلام : ٥٧.

٢ - انظر: معجم آلهة العرب قبل الإسلام : ٦٦.

٣ - معجم آلهة العرب قبل الإسلام : ٤٠.

٤ - معجم آلهة العرب قبل الإسلام : ١٥٧ .

عُطارد : عبده بنو أسد. قال النويري في كتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب ٣٢/١) : " قالوا في عطارد : إنه النافذ في الأمور ، ولهذا سمي بالكاتب " . (١)

ومن قبيل العوامل الدينية تسمية أجزاء الكتاب باسم الآلهة، وقد قسم هيرودوتس كتابه في التاريخ على تسعة أجزاء، وأطلق على كل جزء اسماً من أسماء الإلهات أو الحوريات الخاصة بالموسيقى والشعر والغناء (٢) . وهن تسع إلهات (Muses) كما وردت في الأساطير اليونانية. وخصص الجزء الأول من الكتاب لتأريخ بلاد ما بين النهرين، وأطلق عليه اسم إلهة التأريخ كليو (Clio). وأسماء بعض الأشهر الرومية القديمة مستمدة من أسماء الآلهة أو أسماء أعياد تكريماً لها؛ فشهر شباط (February) (٣) - على سبيل المثال - هو من الأشهر الرومية القديمة، ويعني (التطهير) . كان يحتفل به في الحادي عشر من شهر شباط تكريماً للرب بان (Pan) ، و"العيد نفسه كان يدعى في قديم الزمان : فيرواتا (Februata) . وارتبطت أسماء بعض الآلهة بالقرايين البشرية التي تقدم الى الآلهة وأغلبها من النساء والأطفال، فقد ذكر عن القرطاجيين أنهم كانوا يقدمون ضحايا بشرية من الأطفال الى (إيل) الذي سمي عندهم بـ (بعل هامون)، و "لعل

١ - معجم آلهة العرب قبل الإسلام : ١٧٢ .

٢ - انظر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ١٢٥/٢ (الحاشية) .

٣ - انظر: بلوتارخ : السَّير : ١٠٠/١ .

اسم هذه الذبيحة (مُلَق) هو الذي حدا بالعبرانيين أن ينسبوا الى الفينيقيين إلهاً اسمه (مولوخ) " . (١)

وأطلق العبرانيون على الإله الذي كانوا يعبدونه اسم (يهوه) ، وقالوا : إنه هو الذي سمى نفسه بهذا الاسم ، ومعناه (الكائن) أو (المَكُون) ، وسموه أيضاً : (إيلوهيم) ، وهي صيغة الجمع لكلمة (إيلوه) ومعناه : إله ، "لأنهم جعلوا منه مجموع كافة القوى الإلهية" (٢) . ولعل الأرجح في التسمية بصيغة الجمع هو الاحترام والتكريم والتعظيم ، كما يقال في العربية : (نحن) و (أنتم) احتراماً وتعظيماً للمتكلم والمخاطب.

وتشتمل الهندية الأوروبية القديمة على اسم إله هو ديو (Diwo) كما ذكر فولتز (٣) ، وهو إله السماء عند الهنود الأوربيين الأوائل. وانتقلت هذه الكلمة باشتقاقات مختلفة الى كثير من اللغات الهندية الأوروبية المنحدرة من الأصول القديمة؛ فقد انتقلت - مثلاً- الى اللاتينية القديمة (Deus) ، وانتقلت أيضاً الى اللغة الانكليزية بصيغة (Tius) وأطلقت على يوم الثلاثاء (Tiusday) ، وكان اليوم مكرساً في الأصل لهذا الإله.

١ - تأريخ الحضارات العام : ٢٦٠/١.

٢ - تأريخ الحضارات العام : ٢٦٩/١.

٣ - الروحانية في أرض النبلاء: ٢٣.

وتشير الكلمتان الإيرانية والهندية (Dyaos) و (Dyaus) كما زعم فولتز إلى "إله فقد مكانته ولم يعد معبوداً عندما كتبت نصوص الأوستا والسنسكريتية".

ويفيد التحقيق الدقيق أن كلمة دو (Dev) من أصل بهلوي وفارسي قديم؛ فقد دلت على إله غير إيراني، وصنم، وإله الآريين. وأطلقت الكلمة قبل ظهور (زرادشت) نبي الزرادشتيين على آلهة الآريين القدامى، وبعد ظهوره استعملت للدلالة على إله باطل ومضلّ. وبقي مدلولها القديم عند الأقوام الهندية الأوربية الأخرى، واشتقت منها : (Deus) في اللاتينية، و (Zeus) في اليونانية، و (dieu) في الفرنسية. وهذه الكلمات المذكورة آنفاً مشتقة من جذر الكلمة الأصلي، أي من أصل الكلمة الأوستائية : (daéva) واستعملت كلمة (deva) في السنسكريتية بمعنى الإله والنور. (١)

إن التنغيم في الصوت من السبل الصوتية التي تحمل دلالات معينة تتسجم مع المتكلم والمتلقي والحال الذي يتم فيها الكلام والغرض من إيصاله. وهذه المسألة من مباحث الدلالة الصوتية في علم اللغة الحديث، كالتنبر الموضعي على المقاطع الصوتية. والتنغيم الصوتي أيضاً عنصر أساسي فيما يعرف بـ (قيمة الصوت)، فنحن نعرف شخص المتكلم ولو تكلم من وراء حجاب بقياس لهذا العنصر.

١ - بهرام فره وشی : فرهنگ بهلوی : ١١٩.

ويبدو أن أغلب الحضارات القديمة استفادت من هذه الخصوصية للصوت تضاف إليها مسائل صوتية أخرى أهمها مسألة الجهر والخُفْت في أداء الألفاظ. واستعمل التنغيم الصوتي في أداء الطقوس الدينية ولاسيما الصلاة والدعاء وقراءة بعض التعاويذ.

قال كونتينو : " حين نريد أن نستدعي شخصاً ما لا نكتفي بلفظ اسمه فقط بل نستعمل نغمة خاصة تضمن لنا الطاعة. والحقيقة أن الصوت يجدي في بعض الظروف... ولقد أدرك المصريون هذه الحقيقة؛ فكانوا يقولون أنه يجب من أجل لفظ الصيغ المقدسة عندهم أن نستعمل صوتاً حقيقياً لا يشبه الصوت الذي يستعمله المغني بل الصوت المستعمل وقت الصلاة أو الدعاء" . (١)

وكان الكهنة والمتعبدون من سكان وادي الرافدين وربما العامة جميعاً إذا استدعت الحاجة والضرورة يشيرون ما يرونه صحيحاً الى النطق بالتعاويذ، ولا يستعملون في ذلك الفعل (قُلْ) بلغتهم بل يستعملون الفعل (لبشو) ومعناه: انطق، ويمكن أن يعني : غنّ أو دَمِّم. واستعملوا في صلواتهم طريقة أخرى مختلفة . واستعمل البابليون الخُفْت في قراءة الرُقَى والتعاويذ الدينية؛ فكانوا يَخْفَتون -مثلاً- حين قراءة التعاويذ الآتية: (لِيرْحَكُ الحكماء أهل التعاويذ) . (٢)

١ - الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور : ٢٨٠ .

٢ - الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور : ٢٨٠ .

وعلى عكس الكلام الجهري نرى أن بعض الرهبان من أصحاب العقيدة الترابية ويسمون بـ(الترابين) امتنعوا عن الكلام الجهري لأنهم أخذوا على أنفسهم عهداً دينياً بتركه^(١) . واتخذ الامتناع عن الكلام جهاراً سبيل ما يعرف بـ(اللامساس)، فعلى سبيل المثال أن المرأة الأرملة تمتنع عن الكلام الجهري في مناطق استراليا البدائية لتحريم ذلك في عقائدهم، وربما احتراماً للزوج المتوفى.

ولأيام الأسبوع حرمة في بعض الديانات، ومنها الديانات السماوية ، كحرمة يوم الجمعة في الإسلام إذ جعل عيداً من الأعياد وتؤدى فيه صلاة الجمعة ، وفي القرآن الكريم سورة تسمى سورة الجمعة، وكذلك يوم السبت عند اليهود، وهو اسم اليوم السابع في التقويم اليهودي، وينظر إليه على أنه يوم البركة والراحة، ولذلك وصفوه في عقيدتهم بأنه (يوم الرب والراحة)، وفيه شعائر وطقوس يجب القيام بها؛ فيمنع فيه العمل وإيقاد النار ومغادرة البيت وأن يطبخ فيه ويخبز^(٢) . ومثل الجمعة والسبت يوم الأحد عند النصارى، فهو أول أيام اسبوعهم، ويوصف أيضاً بأنه يوم الرب و " يقترن بقيامة السيد المسيح (ع) الذي صلب (بحسب عقيدتهم) يوم الجمعة، وبقي يوم

١ - علم اللغة (مجموع آفاق المعرفة) : ٢٩٤.

٢ - انظر: معجم المصطلحات الدينية: ٤٨.

السبت في الضريح وخرج منه حياً يوم الأحد. وفي هذا اليوم وقف بين الرسل وأنزل عليهم الروح القدس" (١).

ومن القضايا الدينية والاجتماعية المرتبطة بالسياسة تمثيل اليهود والنصارى في البلاط العباسي؛ فمثل اليهود زعيمهم الديني، ويطلق عليه (رأس الجالوت)، ومثل النصارى من المذهب النسطوري ما يسمى (الجالتيق) (٢)، والكلمة من أصل يوناني (katholikos) (٣) بمعنى العام أو العالمي، وهو أعلى مرتبة ومقاماً من أساقفة البلد بحسب ترتيب رجال الدين المسيحيين، وهو (بَطْرِيَرَك) مسيحي المشرق.

والظاهر أن الكلمة انتقلت الى السريانية (Qatuliqa) (٤)، ومنها -احتمالاً - الى العربية. وجاء في محيط المحيط (٥): "الجالتيق والجالتيق: رئيس الأساقفة عند الكلدانيين يكون تحت يده بطريق أنطاكية. معرب (كاثوليكوس) باليونانية، والجمع: جثالقة".

والظاهر أن الجالتيق النسطوري أصبح رئيساً للمسيحيين الشرقيين بعد انتقال عاصمة الدولة الإسلامية الى الشرق، ويعد بذلك الرئيس الأكبر

١ - معجم المصطلحات الدينية : ١٥.

٢ - انظر: الروحانية في أرض النبلاء: ١١٦.

٣ - غرائب اللغة العربية : ٢٥٦.

٤ - انظر: Fraenkel ، ٢٧٥ ، وفرهنگ تطبيقى : ١٢٤.

٥ - ص : ٩٢.

للنصرانية، و "كانت الكنيسة تنتخبه، ويصادق الخليفة على انتخابه ويكتب له عهداً كما يكتب لكبار العمال والمتصرفين" ^(١) . ومن جملة العهود ما ورد في نسخة عهد الجاثليق سنة (٥٣٣ هـ) ، وهو قوله : " ... وانفرادك عن كافة أهل ملتك بتقمص أهبة الجبلة المتعارفة في أماكن صلواتكم ومجامع عباداتكم " . ^(٢)

وكان ممثل اليهود في البلاط العباسي (رأس الجالوت) يرفع المصالح اليهودية الدينية والمدنية، وهو المسؤول عن جمع الضرائب (الجزية) وإرسالها الى حكومة الخلافة ^(٣) . ومصطلح (رأس الجالوت) يختلف عن كلمة (جالوت) التي وردت في قوله تعالى : ((قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده - البقرة : ٢٥٠)) ، وقوله تعالى : ((ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً -البقرة : ٢٥٠)) ، وقوله تعالى : ((فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت - البقرة : ٢٥١)) ؛ فجالوت في الآيات المذكورة أنفاً اسم علم لقائد فلسطيني ذي بأس شديد، قتله النبي

١ - متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : ٧٩/١ .

٢ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : ٧٩/١ .

٣ - انظر : الروحانية في أرض النبلاء : ٧٧ .

داود (ع) ^(١) . وورد هذا الاسم في العبرية (Gālyat) ، والآرامية (Glwtā)، وفي السريانية باللفظ نفسه. ^(٢)

وأما رأس الجالوت (Ryšglwt) فقد وردت في التلمود ^(٣) بمعنى رأس اليهود المنفيين. والكلمة مركبة من (Ryš) بمعنى الرأس و (glwt) بمعنى الجلاء في العربية، وأطلقت على اليهود المسيبيين في الأسر البابلي المشهور . ويرى رفائيل نخلة ^(٤) أن كلمة (جالوت) تعود الى أصل آرامي (goloûtā). وبين الكلمة المعربة والكلمة الآرامية وما ورد في التلمود وشائج صلة من حيث الجذر والاشتقاق والمعنى، وهي من الألفاظ السامية المشتركة.

ويعود فضل اشتهار الآلهة اليونانية القديمة من بحث أسماؤها وتأريخا وعوائلها الى الشعر والشعراء الإغريق، وهذه سمة من سمات التأثير الديني القديم في العقائد والديانات. جاء في كتاب تأريخ الحضارات العام ^(٥) : " ... كان للشعراء أثر بعيد في الديانة اليونانية؛ فإليهم يعود الفضل في أنهم

١ - انظر: محيط المحيط : ١١٥ .

٢ - انظر: فرهنگ تطبیقی: ١٢٤.

٣ - فرهنگ تطبیقی : ١٢٤.

٤ - غرائب اللغة العربية : ١٧٧.

٥ - ٢٩٥/١ .

اختاروا آلهة كباراً يحملون أسماء عالمية الشهرة، ويتحلون بشخصيات مميزة ولهم عائلتهم وتأريخهم، وانتظموا مجتمعات على غرار المجتمع البشري".

واقصر الأدب العبري الأساسي القديم على أسفار العهد القديم بما فيه التوراة وأسفار الأنبياء، وانصب جهد العبريين على حفظ هذا الأثر الديني الذي يشكل أساس عقيدتهم جيلاً بعد جيل، وانتهى عملهم المتواصل بعد أجيال متعاقبة إلى جمع هذه الأسفار الدينية في كتاب بيد أن أحبارهم وكهانهم احتفظوا بما يلائمهم من تلك الأسفار والكتب، واستبعدوا طائفة منها كما كشفت مخطوطات البحر الميت العبرية، والظاهر أن ضم بعض النصوص واستبعاد أخرى كان لأسباب دينية بحتة وليس لأسباب أدبية.

قال موسكاتي: " منذ أقدم العصور كان الجهد الأساسي للعبريين جيلاً بعد جيل موجهاً إلى حفظ الأسفار التي تضم تأريخهم القومي ودينهم ونقلها إلى الأجيال اللاحقة. وقد وصلت إلينا نتيجة جهدهم الدائب في صورة كتاب أو مجموعة كتب هي أعظم عمل أدبي للشعب العبري في العصور القديمة، ونعني به العهد القديم ... ولم تحفظ على هذا النحو جميع آثار الأدب العبري القديم؛ فأسفار العهد القديم نفسها تشير إلى المصادر التي استمدت منها مادتها، هذا إلى أن المخطوطات العبرية التي كشفت أخيراً بالقرب من البحر الميت تضم عدا بعض نصوص العهد القديم كتابات أخرى ليست فيه ... والسبب الرئيس الذي دعا العبريين إلى أن يحفظوا في العهد القديم

الأسفار التي يضمها دون غيرها هو أن الغرض من تصنيفه كان دينياً لا أدبياً" . (١)

وبعد ظهور الساسانيين في حكم بلاد فارس وتوحيدها واتخاذهم الزرادشتية ديناً رسمياً للدولة ألقاهم دخول حضارة غريبة عنهم وهي النصرانية في بلادهم خشية تأثيرها في الدين والعقيدة ونظام الطبقات الاجتماعية الذي كان سائداً أيام حكمهم، ولذلك نشأ في بلاد فارس مذهب نصراني اتخذ سمة رسمية ولكنه استعمل اللغة الفارسية في العبادة، وزعم بارتولد أنه من نتائج هذا التحصين الديني والاجتماعي أسماء أيام الأسبوع في اللغة الفارسية. قال : " وما تزال أسماء الأيام التي أدخلها الفرس النصارى - لا العرب - مستعملة الى اليوم عند الإيرانيين المسلمين " (٢) . ومثل هذا الزعم يحتاج الى تحقيق مفصل، ويبقى السؤال مطروحاً وهو هل كانت تسمية أيام الأسبوع عند الإيرانيين قديمة قبل دخول النصرانية في إيران؟

وانتقلت الديانة البوذية عن طريق الرهبان البوذيين الداعين إليها من الهند الى وسط آسيا والصين وشرق آسيا عموماً ، وكانت الطرق التجارية الرئيسة سبيلهم الأمثل للسفر لتأمين أنفسهم من مخاطر الطريق (٣) ، "وعلى هذا

١ - الحضارات السامية القديمة : ١٥٥ ، ١٥٦ .

٢ - تاريخ الحضارة الإسلامية : ٤٩ .

٣ - انظر : الروحانية في أرض النبلاء : ٨٩ .

الأساس فإن نشر البوذية كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالتجارة البعيدة المدى"

.

واشتملت بعض اللغات في جنوب شرق آسيا على مفردات عربية انتقلت مباشرة أو عن طريق الفارسية أو غيرها من اللغات لدواعٍ دينية أو تجارية، ومن الأمثلة لذلك مفردات في اللغة الأندونيسية ونكتفي بذكر بعض المفردات الدينية ومنها : (١)

- بركة (berkah) .
- أذان (azan) . ويبدو أن هذه المفردة انتقلت إليها عن طريق الفارسية لأن الـ ذال الدخيلة في الفارسية من العربية تلفظ زائاً (z) .
- جهاد (djhad) بدءاً بالصوت المركب من الدال والجيم .
- عبادة (ibadat) ، وهذه الكلمة انتقلت إليها كما يبدو من الفارسية لأنها تلفظ في الفارسية بتاء طويلة في آخرها.
- عيد الفطر (idulfitri) .
- هلال (halal) .
- القيامة (kiamat) . وهذه الكلمة انتقلت إليها من الفارسية كما هو واضح في التاء الطويلة في آخرها.
- ومثل سابقتها كلمة (قُدرة) الله (kodrat) .

١ - انظر: الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى: ٦٣ ،

- إيمان (iman) .
- معصية (maksiat)، والظاهر أن الكلمة إنتقلت إليها من الفارسية أيضاً كسابققتها للتاء الطويلة في آخرها.
- ومثلها أيضاً : لعنة (la'nat) ، والآخرة (acherat)
- استغفار (istighfar) .
- فتوى (fatwa) .
- مسجد (masdjed) . ويلاحظ الصوت المركب من الدال والجيم.
- مؤذن (main) .
- صلاة (salat) .
- منبر (mimbar) . ويلاحظ قلب النون الساكنة ميماً إذا وقعت بعدها نون، وهو ما يعرف في العربية بـ(القلب).

العوامل الاجتماعية

الصلة بين اللغة والمجتمع من بديهيات البحث اللغوي الاجتماعي؛ فالترابط العضوي بينهما يجعل اللغة وليدة المجتمع لأنه لا يمكن تصور جماعة من الناس أو شعب من الشعوب من غير لغة تربط بعضهم ببعض في سير الحياة، فهي كالطعام والشراب من حيث أهمية ديمومة الحياة وسيرها الطبيعي للإنسان منذ ظهوره على الأرض.

وإذا كنا نفترض جماعات بدائية من الناس موعلة في قدم التأريخ أو قبل التأريخ من غير وسيلة للتقاهم والتعارف والتعاون والتحارب والاحتراز وتبادل المنافع وغيرها من سبل العيش كنا قد افترضنا أمراً محالاً؛ فالإنسان البدائي لابد له من وسيلة وأداة للتواصل ولو مع أحاسيسه الخاصة ما دام يعيش في جماعة، ومهما كانت تلك الوسيلة فهي من دون شك لغة ما ، وحتى لو افترضنا مجموعة من الإشارات والعلامات بالرؤوس والأيدي مصحوبة بأصوات معبرة عن المقصود أو غير مصحوبة فإن مآلها الى مجموعة من العلامات والإشارات ذات دلالات متعارف عليها عند الجماعة. وإذا أخذنا بالمنهج الاجتماعي في النظرية اللغوية أو غيره من المناهج الأخرى فإن دلالات الألفاظ الاجتماعية ستبقى من أهم عناصر المعنى الأساسية بغض النظر عما يمكن أن توحيه أصوات تلك الألفاظ وصيغها من دلالات أخرى. قال إبراهيم أنيس: " كل كلمة من كلمات اللغة لها دلالات معجمية أو اجتماعية تستقل عما يمكن أن توحيه أصوات هذه الكلمة أو صيغتها من دلالات زائدة على تلك الدلالة الأساسية التي يطلق عليها الدلالة الاجتماعية " . (١)

وهذه الدلالة هي الغاية التي يراد بها التواصل في العملية الكلامية، (وتظل تحتل بؤرة الشعور) ، أو يمكن التعبير عن ذلك بأنها المضمون والمحتوى

١ - دلالة الألفاظ : ٤٨ .

للتواصل اللغوي. وأما غيرها من أشكال اللغة كالصوت والصرف والتركيب النحوي فهي وسائل يستعان بها لبلوغ التواصل. (١)

ولا يحصل التواصل الاجتماعي بين المجتمع الواحد إلا عن طريق لغة مشتركة تجعل هذا التواصل منسجماً وتأريخاً مشتركاً. قال أوستلر موضحاً التوجه اللغوي الاجتماعي: "وبالنظر في التأريخ الإنساني نجد أن المجتمع اللغوي وحدة طبيعية؛ فاللغات بطبيعتها كأدوات اتصال تقسم الإنسانية إلى مجموعات. ولا تستطيع أي مجموعة من الأشخاص أن تتصرف بشكل جماعي منسجم إلا من خلال لغة مشتركة، وبذلك يكون لها تأريخ مشترك. وعلاوة على ذلك فإن اللغة التي تتشارك فيها المجموعة هي بالضبط الأداة التي يمكنها أن تنقسم بها ذكريات تأريخها المشترك؛ فاللغة تمكن الناس أن يعيشوا تأريخاً مشتركاً وأن يسردوه". (٢)

إن المُخيلة الاجتماعية أي خيال الجماعات سواء على مستوى الأفراد أم التجمعات تتأثر متأثراً قد يكون بالغ الخطورة بالألفاظ والصيغ، أي مضامينها ودلالاتها وما توحى إليه، ولذلك يمكن القول إن للألفاظ والصيغ سلطاناً أقوى من سلطان الملك وحداً أمضى من حدّ السيف، وهذا ما يمكن أن يعبر عنه بـ (التحفيز الاجتماعي للغة). قال لوبون: إن الجماعات في خيالها " تتأثر بالصور على الخصوص ، ونحن إذا لم تكن لدينا هذه

١ - انظر: دلالة الألفاظ : ٤٩.

٢ - إمبراطوريات الكلمة : ٣٣.

الصور في كل وقت أمكننا أن نستحضرها باستعمال الألفاظ والصيغ استعمالاً بارعاً... والحق أن الألفاظ والصيغ إذا ما استخدمت بحذق اتفق لها من السلطان الخفي ما عزاه إليه المؤمنون بالسحر فيما مضى، والحق أنها تثير في روح الجماعات أشد العواصف هَوَلاً كما أنها توجب سكونها. ولو جمعت عظام مَنْ ذهبوا ضحية سلطان الألفاظ والصيغ لأمكن أن يقام هَرَمٌ أعلى من هرم (خوفو) القديم " . (١)

وبهذا المعنى يكون للألفاظ والصيغ إحياء نفسي للجماعات يوحي إليها ما صغر من الأمور وما عظم، ولها من قوة الوقع ما لا يمكن مقاومته بالحجج والبراهين والأدلة. قال لوبون معبراً عن ذلك : لا يستطيع العقل ولا البراهين مقاومة بعض الألفاظ وبعض الصيغ. والألفاظ والصيغ ينطق بها أمام الجماعات تُطَق احترام فتعنولها الوجوه وتتحنى أمامها الرؤوس. ويعدها كثير من الناس كقوى الطبيعة وكأقدار خارقة عظيمة مبهمة، غير أن الإبهام الذي يخلطها يزيد في قوتها الخفية، وهي تُشَبَّه بالآلهة المرهوبة المستترة خلف (قُبَّة العَهْد) التي لا يدنو العابد منها إلا مرتجفاً". (٢)

١ - روح الجماعات : ٩٦.

٢ - روح الجماعات : ٩٧.

وعبر (ماييه) عن مفهومه للغة بأنها "نتاج اجتماعي أو مؤسسة اجتماعية يرتبط تطورها بمحيطها التاريخي والثقافي والاجتماعي، وتتدرج نتيجة لذلك في محيطها هذا، وترتبط به ارتباطاً وثيقاً". (١)

وفي هذا القول خلاصة للنظرية الاجتماعية للغة التي أسست لعلم اللغة الاجتماعي؛ فعناصر التاريخ والثقافة هي في حقيقتها التأسيسية واستدامتها عبر مراحل الحضارة عناصر أفرزتها المجتمعات البشرية.

وذهب فيرث المؤسس الحقيقي لمدرسة علم اللغة الاجتماعي اللندنية الى أن اللغة جزء من المسار الاجتماعي، ولذلك جاء بمقولة سياق الحال (the context of situation) ، ومفادها أن القضايا المادية المحيطة بالنص أو بالكلام تتكون " من مجموعة العلاقات بين الأشخاص الذي يقومون بدور معين في المجتمع، ومن مجموعة الكلمات التي ينطقون بها والأحداث التي يرتبطون بها" ، وجمع فيرث بذلك العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والأعمال والأحداث والسلوك، وهي كلها مقومات اجتماعية، ولم ينظر في مفهومه للغة على أنها إشارات وعلامات اصطلاحية تعارفت عليها الجماعات، ورأى أنها " جزء من المسار الاجتماعي كشكل من أشكال الحياة الإنسانية... ويقيم دراسة عناصرها انطلاقاً من دراسة علاقتها

١ - الألفية (علم اللغة الحديث) : ٢٨٠ .

بالقضايا الاجتماعية، وذلك لأن دلالات اللغة تحدد من خلال استعمالاتها المتنوعة في المجتمع" . (١)

وتختلف نظرة (سابير) الى العلاقة بين اللغة والمجتمع اختلافاً جوهرياً يمكن أن يرقى الى مستوى العكس من رؤية فيرث ومدرسته الاجتماعية المذكورة آنفاً؛ فسابير يرى أن المجتمع تبع لعاداته اللغوية، أي أن اللغة هي التي تولد العادات والتقاليد والعلاقات الاجتماعية، وتختلف تلك باختلاف اللغات، وليس هناك تشابه يصل الى مرتبة التطابق بحيث يمكن جعل لغتين تمثلان الواقع الاجتماعي نفسه. قال: " البشر لا يعيشون في العالم المادي وحده، ولا يعيشون فقط في عالم النشاط الاجتماعي بالمفهوم العادي، ولكنهم في الواقع واقعون تحت رحمة تلك اللغة المعنية التي اتخذوها وسيلة للتفاهم في مجتمعهم. حقيقة الأمر أن العالم الحقيقي مبني الى حد كبير على العلاقات اللغوية لمجتمع معين. وليس في العالم لغتان تتشابهان تشابهاً كبيراً الى درجة اعتبارهما تمثلان نفس الواقع الاجتماعي. إن العوالم التي تعيش فيها المجتمعات المختلفة عوالم مختلفة، لا مجرد عالم واحد نسميه أسماء مختلفة" . (٢)

إن طبيعة اللغات تختلف باختلاف مجتمعاتها من حيث النظرة الى العالم الخارجي، فالأفعال والأحداث والأسماء ومسمياتها هي في حقيقتها وليدة

١ - الألسنية (علم اللغة الحديث) : ٢٨٢.

٢ - نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية الحديثة: ٢٢٠ .

اللغة المتعارف عليها في مجتمع ما ولا تعكس بالضرورة حقائق الأشياء على ما هي عليه في طبيعتها المتغيرة، ولذلك وصفت اللغة بأنها تعارف اجتماعي على الأشياء والأحداث؛ فالشمس على سبيل المثال مؤنثة في العرف اللغوي العربي والقمر مذكر، والتأنيث والتذكير - ها هنا - مجازي يقيناً لأننا نصف عالماً خارجياً مرئياً، وليس الأمر كذلك بالنسبة الى لغات أخرى تكون (محايدة) للاستعمال التذكيري والتأنيثي. قال كوندرا توف فاصلاً بين العالمين اللغوي والخارجي: " تطلق الأسماء على الأشياء ، والأفعال على الأحداث. وهذا مألوف بالنسبة الى الإنكليزية والفرنسية والألمانية وغيرها من اللغات. ونحن مثل أغلب الأوروبيين نقسم العالم الى مجالين: الأشياء والأحداث؛ وإن هذا الوصف الساذج -في الحقيقة- يخص لغتنا لا العالم الخارجي الذي هو في حالة حركة دائمية: ميلاد وتغير" . (١)

إن التطورات الطارئة على اللغة تتأثر بجملة من الأسباب والمسوغات، ولعل من أهمها (المحتوى الاجتماعي) ضمن المستوى الدلالي (٢) "فترتد بالنتيجة دراستها ضمن إطار أوسع تكوّن دراسات الحضارة البشرية" ، و ثم أمثلة كثيرة في المجالات الحضارية المختلفة تؤكد هذا المعنى، ولا سبيل الى فهمها إلا من خلال الربط السببي بين المجتمع واللغة، وما الألفاظ ذات المدلول الحضاري إلا مثال واضح ومسير متصل لهذا الربط إذ لا

١ - أصوات وإشارات: ٦٥، ٦٦ .

٢ - الألسنية (علم اللغة الحديث) : ١١٣ .

يفهم المعنى إلا من خلال إطاره الاجتماعي الخاص والحضاري العام، والتغير الذي ينتاب دلالات الألفاظ الحضارية هو من هذا القبيل من دون ريب. ولم يقتصر الأمر على المستوى الدلالي بل تعداه - ولو بنسبة أقل - إلى المستويين الصرفي والنحوي ما جعل بعض المفكرين والمعنيين بالفكر الفلسفي أن يربط "بين طبيعة التركيب الصرفي والنحوي للغة ما وبين طريقة تفكير المجتمع الذي يتكلم بتلك اللغة؛ فربطوا بين ذلك التركيب أو تلك البنية وبين الفلسفة ومظاهر التفكير الأخرى التي أنتجتها ومنتجها ذلك المجتمع" ^(١). واستشهدوا على ذلك ببعض الشواهد والأمثلة للغات مختلفة ، وتوصلوا إلى نتائج تلفت النظر. وفيما يأتي طائفة منها : ^(٢)

١- تفسير مزايا الفلسفة الألمانية بربطها ببنية اللغة الألمانية.

٢- إن اللغة التي تتبع فيه الصفة الموصوف كالفرنسية والعربية تدل على مجتمع يتبع سبيل التفكير (الاستنتاجي) ، خلافاً للغة التي يتبع فيها الموصوف الصفة، فهو يميل إلى نمط التفكير (الاستقرائي) .

٣- اللغة التي لا يميز فيها التركيب الصرفي والنحوي بين (الحدث) و (الفاعل) و (الأشياء) كبعض لغات الهنود الحمر تشير إلى أن المجتمع المتكلم بها يؤمن بـ (الجبرية)، ويعزو الأحداث إلى (القضاء والقدر) من دون فهم للأسباب والمسببات.

١ - الألسنية (علم اللغة الحديث) : ٢١٨.

٢ - انظر: الألسنية (علم اللغة الحديث) : ٢١٩ .

٤- المجتمع الذي تفتقر لغته من حيث بنية الأفعال الى مدلول (الزمن) لا يعير الى الزمن اهتماماً.

٥- اللغة التي تفتقر الى المصطلحات المتعلقة بـ (العمليات المنطقية) ينقص مجتمعها المتكلم بها التفكير المنطقي والتفكير العلمي المعقد. واختلفت آراء بعض اللغويين والمفكرين والفلاسفة في طبيعة الصلة بين اللغة والقومية، أي عقلية المتكلمين بها؛ فمنهم من رأى الصلة قائمة بينهما، ومنهم من رأى خلاف ذلك ونفى أي الصلة بينهما . وانبثقت عن هذه المسألة مسألة أخرى للقائلين بالعلاقة بين اللغة والقومية أو عقلية المتكلمين بها . ومفاد هذه المسألة : من المؤثر ومن المتأثر؟ اللغة في عقول المتحدثين بها أو العكس؟

وذهب (وورف) وأتباعه الى الرأي الأول كما لاحظنا ذلك سابقاً إذ تأثر بآراء (همبولت) ونظر في المسألة " من زاوية جديدة، فادعى أن اللغة هي العامل المؤثر في نفسية الجماعات التي تتحدث بها بعكس القول بأن اللغة هي التي تتأثر بأنماط تفكير المتحدثين بها" .

واللغة بهذا المنظور عنده (تؤثر في طريقة تفكيرنا وتشكل سلوكنا)، وتمثل ببعض الأمثلة، منها عامل الزمن، فاللغة التي تحتوي على أزمنة محددة واضحة للأفعال - مثلاً- تدفع المتحدثين بها الى إدراك قيمة الوقت، وتعودهم الدقة في المواعيد والمحافظة عليها، وأما اللغة التي لا توجد فيها أزمنة واضحة للفعل بل تكتفي بصيغة زمنية واحدة فإنها تؤثر في المتحدثين

بها وتفقددهم الاهتمام بقيمة الوقت ما يجعلهم يهملون المحافظة على المواعيد ، ولا يهتمون بإنجاز أعمالهم بحسب جدول زمني واضح" . (١)

وذهب الى الرأي الثاني أغلب اللغويين والمفكرين والفلاسفة المعنيين بالمسائل اللغوية ابتداءً من (ليننتر) الذي سبقهم عصراً الى اللغويين المحدثين ما خلال همبولت. وكان ليننتر "أول من حاول بطريق علمي البحث عن رابطة محددة بين اللغة وعقلية المتحدثين بها ونفسياتهم وأنماط سلوكهم ، ونادى أن اللغة هي مرآة لحياة الشعوب الروحية" .

وأما همبولت فقد ذكر في كتاب نشره بين سنتي (١٨٣٦م - ١٨٣٧م) " أن اللغة هي المظهر الحسي للناحية الروحية للناس وأنها القوة التي تؤثر في أنماط تفكيرهم" . (٢)

وأنتج البحث في هذه المسألة مدرستين ، إحداهما (المدرسة الحسية) في علم اللغة إذ ذهب أصحابها الى "أن التغيرات في اللغة والعمليات اللغوية ما هي إلا ردود أفعال منعكسة آلية لا يتدخل بها عقل المفكر الواعي إلا قليلاً" (٣) أي أن اللغة لا تتأثر بالعقل أو الفكر ، والأخرى (المدرسة العقلية) التي ذهب أصحابها الى أن الصلة الضمنية قائمة بين اللغة

١ - باي : لغات البشر : ٥٤ .

٢ - لغات البشر : ٥٤ .

٣ - لغات البشر : ٥٥ .

والعملية العقلية للمتكلمين بها، أي أن العقل نافذ في اللغة مؤثر فيها ،
واتبع لفيف من الفلاسفة وأرباب الفكر هذه المدرسة.

ويرى ماريو باي أن العلاقة بين اللغة والمتكلمين بها علاقة بين عاملين
متغيرين وليس بين عاملين ثابتين أو بين عامل ثابت وآخر متغير^(١) ؛
فنظر الى هذه المسألة من حيث التغير والثبات وليس من حيث التأثير
والتأثر وكأنه يشير ضمناً الى أن الصلة بين اللغة والمتكلمين بها صلة
ترابطية تبادلية، وهو المرجح في التحليل الموضوعي للمسألة إذ إن العلاقة
التي تربط اللغة بعقلية الجماعة التي تتكلم بها وبسلوكهم علاقة (متبادلة)
من حيث التأثير والتأثر؛ فاللغة تتأثر بعقلية المتكلمين بها وتؤثر فيها في
الوقت نفسه، ولا يستحسن الفصل بين هاتين العلاقتين، والاستدلال على
هذا الرأي يتضح من خلال العلاقة العامة بين اللغة والحضارة.

وأما من الناحية التاريخية للعلاقة بين اللغة والمجتمع فقد طرأ تغير حضاري
عام في وادي الرافدين بعد هجرات الأقوام السامية في حضارات الشرق
الأوسط القديمة الغربية الى هذه البلاد. وشمل هذا التغير البنى القومية (
الإثنية) والسياسية واللغوية، وسادت السامية بالتدرج سياسياً ولغوياً وقومياً
على الأقوام التي استوطنت البلاد قبل هجرات الساميين إليها، وأهمها
السومريون.

١ - انظر: لغات البشر: ٥٦ .

قال طه باقر : " إن هجرات الساميين الغربيين (الأموريين أو الكنعانيين الشرقيين) الى مختلف بلاد الشام ووادي الرافدين أحدث تغييراً في الأبنية العامة لهذه الأقطار من النواحي القومية والسياسية واللغوية، وبإضافة هؤلاء الساميين الغربيين الى الساميين القدامى الموجودين في وادي الرافدين طغى التحول القومي واللغوي في العراق الى السامية على الطابع السومري القديم؛ فقد انتهى السومريون من الناحية السياسية، وتفردت الأقوام السامية بالحكم منذ نهاية سلالة أور الثالثة الى سقوط الدولة الكلدانية على يد الفرس الاخمينيين سنة (٥٣٩ ق.م). (١)

ولم يقتصر تأثير السامية والساميين على بلاد الشام والعراق بل امتد الى الحبشة عبر البحر الأحمر، و"كان الامتزاج الجنسي بين المهاجرين الساميين الى الحبشة سريعاً بالغ الكمال، وقد فرض القادمون الجدد على الشعوب المحلية لغتهم وحضارتهم" . (٢)

واتخذت اللغة (الكتابة) وسيلة من أهم الوسائل للاتصال والتدوين في شتى المجالات؛ فهي باقية على مر الأجيال بخلاف الخطابة والإلقاء والمحاضرة والإيصال الشفوي بعامة، فهذه زائلة بزوال متحدثيها إذ لم تعرف في الأزمنة القديمة وسائل تسجيل الأصوات كما هو معروف في زماننا، ويذكر أن وسائل التعليم في اليونان اتخذت سبلاً جديدة وأنماطاً مختلفة بعد عهد

١ - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: ٤٧٩/١ .

٢ - الحضارات السامية القديمة: ٢١٩ .

أرسطو إذ كان الاعتماد قبل ذلك على الإيصال الشفوي، وقد مرت الحضارة اليونانية في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد بـ(أزمة أدبية) جعلت اليونانيين يختارون الكتابة عمدة في الإيصال والاتصال لتلبية "حاجات اجتماعية جديدة ومُلحّة لم تصادف مثلها إدارة دولة المدينة القديمة من قبل على الإطلاق". (١)

واعتمد بعض الباحثين في أصول الأقوام والشعوب وحضاراتهم ولاسيما المستشرقين على اللغة وسيلة للاستدلال بها على أصول تلك الأقوام. واشتهر في مجال (الساميات) المستشرق (غويدي) إذ استدل باللغة على الموطن الأصلي للساميين ورأى "أن الساميين ليس لديهم اسم مشترك للجبل ولكن لديهم اسم مشترك للنهر، ويستنتج من ذلك أنهم كانوا في الأصل أهل زراعة يعيشون بالقرب من الأنهار، وفي منطقة ليست جبلية، ويقول: إن المدلولات الجغرافية والنباتية والحيوانية التي تعبر عنها اللغات السامية بأسماء مشتركة تشير الى وادي الفرات الأدنى لا الى الجزيرة العربية" (٢).

وهذا الاستنتاج له ما يبرره، وهو مستحسن ولكنه ليس قاعدة مطردة أو شبه مطرده يمكن الاطمئنان إليها في الاستدلال على أصول الأقوام والشعوب

١ - أعلام الفكر اللغوي: ٩٣/١ .

٢ - الحضارات السامية القديمة: حواشي أستاذنا الدكتور سيد يعقوب بكر : ٣٤٧
٣٤٨،

سامية كانت أو غير سامية؛ فالعربية - مثلاً - فيها ألفاظ عديدة للآبار والمياه، ويمكننا أن نستنتج ألفاظاً مختلفة. ومن قبيل الاستدلال اللغوي على أصول الشعوب والأقوام وعلى سبيل المثال كلمة تاجيك (tajik) في الفارسية . وللکلمة مدلولات تاريخية واشتقاقية مختلفة، وفيما يأتي بيان ذلك:

١- "تطلق كلمة (تاجيك) على بقايا الأقوام الإيرانية المختلفة التي استوطنت منذ القدم ما يعرف الآن بـ (آسيا الوسطى) أو (آسيا المركزية). وأما وجه التسمية فقد ذكرت أوجه مختلفة، منها: إن قبيلة طيء العربية التي استوطنت أطراف العراق كانت من أوائل القبائل العربية التي اصطدمت بالإيرانيين، ولذلك استعمل الإيرانيون كلمة (طايي) الفارسية للدلالة على العرب بعامة، ثم تحولت هذه الكلمة في الفارسية الوسطية الى (طايك) أو (طاجك). ولما توجهت جيوش المسلمين المؤلفة من أغلبية إيرانية تتكلم الفارسية الى شرق إيران وآسيا الوسطى سماهم أهل آسيا الوسطى : (تاجك) ، ومن ثم توسع مدلول الكلمة فأطلقت (تاجك) أو (تاجيك) على الإيرانيين المسلمين جميعاً"^(١). وورد في معجم (لغت نامه) لـ (دهخدا) أن "تازيك (tāzik) ك (تاجيك) وزناً ومعنى. وهي كلمة تركية تعني غير العرب وغير الترك، وأطلقت على الإيرانيين

١ - کلباسی : فارسی ایران وتاجیکستان : ٩ .

في أفغانستان وتركستان. وسمى الأتراك الإيرانيين بـ(تاجيك) و (تات) " . (١)

٢- ورد في قاموس اللغة البهلوية (٢) : تازيكان (tāzikan) تطلق على العرب، ويقابلها كلمة (تازيان) في الفارسية. وورد أيضاً في القاموس المذكور آنفاً (٣) : "تاجيك (tājīk) = تازي. وتفيد أسطورة أنهم من أعقاب (تاج) أخي (هُوشَنُك) (من الملوك الأسطوريين في التراث الإيراني القديم) ، وتدل أيضاً على العرب" .

٣- جاء في معجم (برهان قاطع) لابن خلف تبريزي (٤) : ؟" تاجك مخفف تاجيك: تطلق على غير العرب والترك ، وتدل الكلمة في أصل معناها على أولاد العرب الذين تربوا عند العجم" .

٤- (تاجيك) و (تاجك) و (تازيك) بمعنى واحد. من أصل تركي = تازيك (TAŽİK) . "والكلمة التركية مركبة من تات (tat) بمعنى الرعية ، و(zik) لاحقة تدل على التصغير والتحقير، واستعملت الكلمة في أصلها التركي للدلالة على غير الأتراك، أو على غير الأتراك والمغول، وأطلقت خصوصاً على الإيرانيين ، وعلى سكان تاجيكستان في الزمن

١ - نقلاً من كتاب كلباسي المذكور آنفاً: ص ٩ .

٢ - فرهنگ بهلوی : ٤٣٢.

٣ - فرهنگ بهلوی : ٤٢٥.

٤ - ص : ٢٨٧ .

الحاضر" ^(١) ، وكانت دولة من دول الاتحاد السوفيتي ثم استقلت بعد سقوط الإتحاد. وقال معين : "تختلف كلمة تاجيك عن كلمة (تازي) بمعنى العرب" .

وتعد اللهجة التاجيكية من لهجات الفارسية ، وهي متداولة الى يومنا هذا في بلاد تاجيكستان (طاجيكستان) . ^(٢)

ونستنتج مما تقدم أن كلمة (تاجيك) من أصل تركي بمعنى غير الأتراك من الأمم والشعوب عموماً وبمعنى الشعوب الإيرانية خصوصاً كالفرس والأفغان والبشتو والطاجيك وغيرهم ولا علاقة للكلمة بقبيلة طيء العربية .

وتم ترابط بين اللغة والطبقات الاجتماعية؛ فالشعوب والأمم المؤلفة من نظام الطبقات تتفاوت من حيث استعمال اللغات واللهجات والنبذة في أداء الألفاظ، والتنغيم الصوتي واختيار بعض الألفاظ والعبارات يستدل بها كثيراً على انتماء الفرد الى طبقة معينة، والأمثلة من عربية ما بعد الإسلام كثيرة، منها سيادة اللغة العربية بعد الفتوحات ودلالة التكلم بها في البلدان المفتوحة على انتماء الأفراد والجماعات الى ما يمكن تسميته بـ(الطبقة العليا) .

وأضحى التكلم بغير العربية أي باللغات المحلية في تلك البلدان سمة الانتماء الى الطبقة الوسطى والدنيا، ولذلك أقبل غير العرب على تعلم

١ - انظر فرهنگ فارسي معين : ٧٤١.

٢ - انظر : فرهنگ فارسي معين : ٤١٤ .

العربية والاجتهاد في تحصيلها، ولعل سيبويه وأمثاله من أعلام اللغويين خير دليل على ذلك؛ فالعربية سادت في المجتمعات غير العربية لعوامل دينية أساساً ، وإن كانت مثل هذه القواعد لا تطرد دائماً ولكنها بحسب الاستنتاج الحضاري قيمة مستقيمة يمكن التعويل عليها. قال أستاذنا الدكتور حجازي : "... وظلت اللغة العربية سمة الانتماء الى الطبقة العليا في تلك المجتمعات بعد الفتح على مدى أجيال " ، وقال في موضع آخر : "... وفي تلك المجتمعات التي ضمتها الدولة الإسلامية في العصر الأموي كان التحدث بغير العربية سمة انتماء الى الطبقات الوسطى والدنيا؛ ففي هذه الفترة كانت الطبقات الوسطى والدنيا ما تزال مرتبطة - إن قليلاً أو كثيراً- باللغات التي سادت تلك الأقاليم قبل الفتح الإسلامي" (١) . وكان المثقفون في القرن الثاني الهجري سواء كانوا من أصول عربية أو غير عربية يستعملون اللغة العربية في حديثهم عن المجالات العلمية المختلفة، وفي تأليفهم للكتب والرسائل (٢) . وكان لكل فرد في المجتمع اللغوي لغته الخاصة به؛ ففي لغة كل فرد خصائص تشير الى مركزه الاجتماعي، أو تشير على الأقل الى ذلك من القطاع، أو تلك الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها" . (٣)

١ - اللغة العربية عبر القرون : ٤٧ .

٢ - انظر: اللغة العربية عبر القرون : ٥٢ .

٣ - أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : ٢٢٣ .

وتتسع دائرة اختلاف لغات المجموعات الإنسانية والطبقات الاجتماعية باختلاف بيئتها الاجتماعية وأعمالها ومهنها وأنشطتها المختلفة، ولكل جماعة من هؤلاء ألفاظ مختصة بها. قال أولمان: " كل مجموعة إنسانية مهما صغرت لها لغتها الخاصة بها؛ فهناك في دائرة الأسرة والمكتب والمصنع ومطاعم الجنود تتوالد الكلمات والعبارات والمعاني الهامشية والألغاز وطرق التعبير الأخرى التي تختص بهذه البيئات والتي يصعب إدراكها على من لا ينتمي إليها. وهذا هو الشأن أيضاً في المجموعات الأكبر والأوسع من تلك البيئات التي يربطها رباط المصالح المشتركة كالمهنة والحرفة والتجارة والانتماء الى مختلف فروع العلم والفن والصحافة والقوات المسلحة والكنيسة والهيئات الأكاديمية والرياضية... الخ؛ فكل من هذه المجموعات ثروتها اللفظية الخاصة بها، وهي ثروة تعكس خصائص الموضوعات والمناقشات التي يتناولها الأعضاء فيما بينهم وتسهل اتصالهم بعضهم ببعض" . (١)

وتختلف سمات الاستعمال اللغوي بين المجتمعات البدائية والبدوية عنها في المجتمعات المتحضرة أو شبه المتحضرة تبعاً لأسباب اجتماعية وبيئية وحضارية ، ومن هذه السمات ما يأتي : (٢)

١ - دور الكلمة في اللغة: ١٥٠ .

٢ - انظر: رمضان عبد التواب: المدخل الى علم اللغة : ١٢٩ .

١- نجد اللغة في المجتمع البدوي غير المتحضر " محدودة الألفاظ والتراكيب والخيال، ليست مرنة ولا تتسع لكثير من فنون القول. أما إذا كانت اللغة في مجتمع قد أخذ قسطاً من الحضارة فإننا نجدها متحضرة الألفاظ مطردة القواعد يسيرة في نطقها خفيفة الوقع على السمع".

٢- إن "اللغة في المجتمع البدائي كثيرة المفردات فيما يتعلق بالأشياء المحسوسة والأمور الجزئية، قليلة الألفاظ التي تدل على المعاني الكلية".

٣- "كثيراً ما تخلو مدلولات الكلمات في هذا المجتمع البدائي من الدقة، ويكثر فيها اللبس والإبهام، وهي غالباً لا تعبر إلا عن ضرورات الحياة اليومية، ولذلك كانت جملها قصيرة وروابطها قليلة، ولا يزال بعض هذه اللغات البدائية يعتمد حتى الآن اعتماداً كبيراً على الإشارات اليدوية والجسمية لإعطاء المعنى المقصود من الألفاظ التي ينطقونها".

وقد تستعمل بعض الألفاظ بمدلولات معينة تشير الى التمييز الطبقي، ومن أمثلة ذلك في تأريخ وادي الرافدين القديم استعمال كلمتي (ناسي آني) و (شاغلوتي) في اللغة الآشورية، وتذكر بهذا الصدد رسالة أرسلت الى الملك الآشوري "يقارن فيها المرسل بين عائلات نينوى المقيمة منذ زمن طويل وبين (ناسي آني) أي مُحدّثي النعمة و (الشاغلوتي) أي المنفيين. وهي كلمة ربما كانت تحمل معنى آخر على سبيل التورية هو (شاكلوتي) أي

الجهلة، ولكن الواضح أن للأشخاص ذوي الأسماء السامية كانت توكل إليهم على الأغلب مسؤولية مهمة " (١).

ومن الأمثلة الأوربية الحديثة هيمنة اللغة الدانماركية على النرويج؛ فالانقسام اللغوي في النرويج أدى الى انقسام طبقي اجتماعي أي الى صراع لغوي بين لغة قياسية مكتوبة اتخذتها الطبقة الحاكمة ولهجات شعبية محلية اتخذتها الطبقة العامة الشعبية، ونتجت عن ذلك اضطرابات شهدتها النرويج في أواخر القرن التاسع عشر بين ما يسمى بـ(لغة الوطن) أو لغة الأرض (Land smaal) واللغة القياسية (Rigsmaal = ريغسمال) (٢). وأشار كالفي الى هذا الصراع قائلاً: "استمر الانقسام اللغوي صورة للانقسام الاجتماعي؛ فالطبقات الحاكمة من جهة تتكلم لغة قياسية من اللغة المكتوبة التي يسمونها (Rigsmaal) أي اللغة القياسية، ومن الجهة الأخرى الطبقات الشعبية التي تستخدم شكلاً أقرب الى اللهجات المحلية التي يسمونها (Land smaal). هذه الصورة على ما فيها من تبسيط ليست بعيدة جداً عن الحقيقة، وقد استخدمها - على كل حال - الحزب الشيوعي النرويجي الذي كان يقوم بدور سياسي مهم في الثلاثينيات وكان يردد أن الصراع من أجل اللغة الشعبية جزء من صراع الطبقات" (٣).

١ - إمبراطوريات الكلمة: ١١٠.

٢ - إمبراطوريات الكلمة: ١١٠.

٣ - انظر: حرب اللغات والسياسات اللغوية: ٢٥٨.

إن التلاقي بين اللغة والعلاقات الاجتماعية علاقة سببية بغض النظر عن تأثير إحداها في الأخرى واختلاف وجهات النظر بين اللغويين والمفكرين وبعض الفلاسفة كما أشرنا الى ذلك سابقاً. وقد برز في هذا المضمار (سابير)، فهو ينظر الى اللغة من خلال علاقتها بالمجتمع، ويعدها عاملاً مؤثراً في العلاقات الاجتماعية بين الناس. واللغة عند سابير تمثل (البيئة للعالم المحيط بها)، وهي " في الواقع تنظم الى حد كبير أفكارنا وتسهم في تكوين جوانب تصورنا للعالم؛ فالعلاقة إذاً بين اللغة والثقافة علاقة متبادلة ومتفاعلة، ذلك أن اللغة تتأثر بتطور المجتمع من جهة، ومن جهة أخرى تفعل في الواقع المجتمعي ، وهي دليل لهذا الواقع" (١) .

وتم صلة بين الأصول (الإثنية) أو العرقية وتحول اللغات بفعل العامل الحضاري على الرغم من أن أغلب شعوب العالم ولاسيما العالم المتمدن مختلط الأعراق والقوميات في زماننا هذا، غير أنه يمثل أيضاً توجهاً عرقياً (إرثياً) على المدى الأجيال له مزايا وصفات معينة؛ فالقوميات في العالم القديم أكثر صفاء ونقاءً منها في عالمنا اليوم لأسباب، منها مسألة العولمة والغزو الثقافي، وتطور وسائل الاتصال المسموعة والمرئية، والاقتصاد والتجارة، والهجرات من قارة الى أخرى ومن بلد الى آخر، فضلاً عن الاختلاط المجتمعي في ميادين العمل والزواج والسياسة...الخ.

١ - حرب اللغات والسياسات اللغوية: ٢٥٩.

وتبقى العوامل الإثنية لها تأثيرها المباشر وغير المباشر في شيوع اللغات وانتشارها أو انحسارها. قال لوبون: "... ولم يكن مختلف العروق ليتكلم بلغة واحدة طويل زمن، وقد تؤدي مصادفات الفتوح أو مصالح الشعوب التجارية الى انتحال هذا الشعب لغة غير لغته الأصلية لا ريب، ولكن هذه اللغة الجديدة تتحول في أجيال قليلة تحولاً تاماً، ويزيد هذا التحول عمقاً كلما كان العرق الذي استعار تلك اللغة مختلف عن العرق المُعير له" (١)

ومن الدواعي الاجتماعية لاستعمال اللغة اختصاصها بطبقة معينة أو بالتصنيف الجنسي كأن تختص بالنساء دون الرجال، وفي الأدب السومري أمثلة شاخصة، ويذكر بهذا الصدد أن أميرات وكاهنات معابد كن ينظمّن المقاطع الشعرية لأغراض دينية واجتماعية، ومنهن على سبيل المثال (إنهدوانا) ابنة سرجون إذ نظمت مجموعتين من الترنيّيمات في عصر ثنائية اللغة (السومرية والأكدية) بعد زوال سلطان السومريين، وأشهر هذه الترنيّيمات الترنيمة المهداة الى (إينانا). وفيما يأتي أمثلة لبعض الترنيّيمات الشعرية(٢) :

(مدينتك ترفع يدها كشخص مشلول ، يا مولاي شو - سين

وهي تقبع عند قدميك كشبل أسد ، يابن شولغي

١ - السنن النفسية لتطور الأمم : ٩١ .

٢ - انظر: إمبراطوريات الكلمة: ٩٠ ، ٩١.

آه يا إلهي ، إن خادمة الشراب العذراء لديها شراب حُلُو تعطيه)
ومن الترنيمات التي تتشد لتتويم الأطفال:

(تعالَ يا نَوْمُ، تعالَ يا نوم

تعالَ يا نوم ، تعالَ يا نوم

تعال الى ولدي

وعجّل بتتويم ولدي

ونَوْمُ عينيه المضطربتين

ضع يدك على عينيه البراقنتين

فلا تدع هذيانه يحجب عنه النوم) ... الخ الترنيمة الشعرية

ومثل هذه الترنيمات المذكورة آنفاً نظمت للنساء خاصة بما يعرف عنهن من رقة الصوت والنطق، وعُبرَ عنها بالسومرية بـ (إيميسال) أي اللسان الناعم الرقيق، وقد نظمت بلهجة سومرية مختلفة عن السومرية الفصحى الموحدة المسماة (إيميجير) بمعنى اللسان الأميري.

وتدخلت اللغة في شؤون القرابة والنسب والزواج، ويذكر من هذا القبيل مثال اللايسيين إذ نقل هيرودوتس المؤرخ الإغريقي المشهور (٤٨٤ - ٤٢٤ ق.م) عن اللايسيين أن لهم عادة واحدة " يختلفون فيها عن جميع أمم العالم، فإنهم يتخذون اسم الأم وليس الأب، فإذا سألت أحد اللايسيين مَنْ أنت ؟ أجابك بإعطاء اسمه الخاص ثم اسم أمه... وفضلاً عن ذلك إذ تزوجت امرأة حرة عبداً فإن أطفالهم يكونون مواطنين كاملين، ولكن إذا

تزوج رجل حرَّ امرأة أجنبية أو عاش مع عشيقته ولو كان الرجل الأول في الدولة فإن الأطفال يفقدون جميع حقوق المواطنة" (١) .

ومثل ذلك ينقل عن (مالينوفسكي) البولندي المولد، وهو من مشاهير الأنثروبولوجيين، وأحد أهم المصادر التي اعتمد عليها فيرث في تحليله اللغوي الدلالي ولاسيما مقولته في (سياق الحال)؛ فقد ذهب مالينوفسكي الى جزر (تروبرباند) ، وهي جزر بعيدة عن سواحل غينيا الجديدة " وأمضى فترة الحرب العالمية الأولى منشغلاً بالبحث في اللغة والتنظيم الاجتماعي والدين والممارسات الاقتصادية وكل وجه آخر تقريباً من أوجه طرق الحياة في تروبرباند" (٢) . وخلص الى أن سكان هذه الجزر مثلهم كمثلي اللبسين الذين وصفهم هيرودوتس يعتمدون على الأم وليس على الأب في نظام القرابة والنسب " .

وصحيح ما ذكره كوندرا توف عن عدم التزام اللغات " تبني التفسيرات ذاتها لانطباعها عن العالم الخارجي " ، وساق أمثلة لبعض اللغات، ومنها ما يأتي (٣) :

- الإنكليزية والروسية : تفرق في الكلمات بين (الأخ) و (الأخت) .

١ - دراسة الأنثروبولوجيا : ٣١.

٢ - دراسة الأنثروبولوجيا : ٤٩.

٣ - انظر : أصوات وإشارات : ٦٥.

- في المجرية لا تفريق فيها بين الأخ والأخت، إذ يعبر عن الأخ بـ(الأكبر)، وعن الأخت بـ(الكبرى) أو عكس ذلك : (الأصغر والصغرى).

- في لغة الملايو يعبر عن الإخوان والأخوات بكلمة واحدة، وهي (saudara)

ويمكننا أن نضيف الى ما تمثل به كوندرا توف بعض الأمثلة الأخرى:

- في العربية : يعبر عن الأخ والأخت بكلمتين مختلفتين .
- وكذلك الأمر في اللغة الفارسية إذ يعبر عن الأخ بكلمة (برادر = bradar) ، وعن الأخت بكلمة (خواهر = Xāhar) (بحذف الواو في النطق وتسمى اللام غير الملفوظة). والظاهر أن اللغات الهندية الأوربية كانت تميز بين الأخ والأخت في أصولها القديمة؛ فكلمة (برادر) الفارسية يرجح أن تكون من الأصول الهندية الأوربية، ولذلك نلاحظ شبه التطابق بينها وبين اللفظ الإنكليزي، ويبقى جذر الكلمة متشابهاً في لغات أوربية ما يجعل كلمة (برادر) الفارسية ومثيلتها في الإنكليزية من الهندية الأوربية المشتركة، وكذلك الشأن في لغات سامية.

ودرس لويس هنري مورغان (١٨١٨م - ١٨٨١م) مؤسس الأنثروبولوجيا الأمريكية مجموعات من الهنود الحمر ولاسيما قبائل (أوكويس)، وخلص في دراسته الى أن هؤلاء يستعلمون إشارات غريبة الى القرابة^(١).

واشتملت اللغة الأندونيسية على مفردات عربية ذات مدلول اجتماعي، منها على سبيل المثال ما يأتي^(٢):

- مَحَبَّة (muhabat)، والظاهر أن الكلمة انتقلت عن طريق الفارسية بدليل التاء الطويلة في آخر الكلمة، والمعروف أن المفردات العربية الداخلة في اللغة الفارسية إذا كانت منتهية بتاء قصيرة ملفوفة تلفظ تاءً طويلة.

- مُنَاسَبَة (munasabat)، هي كسابقتها منتهية بتاء طويلة.

- سَلَامَة (Selamat) بمعنى التهنئة ، وهي كسابقتها أيضاً.

- ومثلهما أيضاً الكلمات الآتية: مصلحة (maslahat)، وصُحْبَة (Sahbat)، وهِبَة (hibat) ، وخيانة (chianat).

- ابن (bin) .

- بنت (binti) .

- خادم (chadam) .

- ختان (chitan) .

^١ - دراسة الأنثروبولوجيا: ٤١.

^٢ - انظر: الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأوسط: ٦٤.

- عاشق (asjik) .

وللأسماء والألقاب أهمية كبيرة في العلاقات الاجتماعية ولاسيما الأسرية منها. قال كالفلي: " إن الأسماء كالبطاقات التي تلصق على الجلد لصقاً فيصعب سلعها. الأسرة -إذن- موضع لسلطة تسمية الأعلام، إنها موضع لسلطة الرجل على زوجته" (١) .

واستعملت الألفاظ من باب التورية والأخجية عند السومريين لعوامل اجتماعية، ويذكر أن "الجواب الذي أجاب به (أوتانبشتم) عندما سئل عن السبب الذي جعله يهيبء استعداداته للرحيل، لقد أكد للناس في الوقت نفسه الوعد بأن الدنيا ستمطر عليهم (kibtu) و (kikku) أي القمح والحجر، غير أن الجواب كان يحتوي على التورية والأخجية معاً، لأن الكلمات تعني الحزن وسوء الطالع، وكانت القضية قضية اختيار المعاني الصحيحة" (٢) . وإخفاء الاسم الحقيقي للشخص من العادات والتقاليد الاجتماعية في بعض الحضارات ، ونجد المصريين القدامى - على سبيل المثال - يخفون الاسم الحقيقي للشخص عن الناس للحفاظ على قوة المسمى، لأن الاسم يتضمن (قوة خفية) لا يجوز هدرها وسلبها من المسمى. قال كونتينو: "... ما دامت معرفة اسم الشخص تضيي قوة على حامل الاسم فمن

١ - حرب اللغات والسياسات اللغوية: ١٤٥.

٢ - الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور: ٢٨٨ ، و(أوتانبشتم) هو الاسم السومري للنبي نوح (ع)، وقد ورد اسمه في ملحمة كلكامش.

الطبيعي أن يحتس حامل الاسم من جعل اسمه معروفاً؛ فمثلاً نجد أن المصريين يسمون الطفل باسم معين ثم ينادونه باسم آخر طوال حياته" (١)

وتدل بعض أسماء الأعلام على عادات وتقاليده اجتماعية ، فإذا أطلق اسم ما دل على شيء أو حدث ما. ومن طرائف ما ذكر بلوتارخ في موسوعته التاريخية^(٢) عادة خطف العذاري، وارتباط ذلك باسم علم وتغير مدلول اسم العلم الى مناسبه اجتماعية، فقد اشار في كتابه الى حادثة خطف عذراء في ملعب روما أيام مؤسسها رومولوس) قائلاً: " ... قيل إنه يوجد كثير من الأرامل والدهماء بين الذين أسهموا في خطف العذاري، وشوهت طائفة تحمل آنسة فاقت الأخريات جمالاً وجاذبية ورشاقة، فاعترضتهم زمرة من سراهن وحاولت انتزاعها فاحتجوا قائلين : إنهن يحملونها الى تالاسيوس (Talasius)، وهو - الحق يقال - شابٌ فتِي لكنه غير معروف بصفات الشجاعة واللباقة. ولما سمعوا منهم ذلك أيدوهم واستحسنوا ما يفعلون بهتافات عالية، وانضم بعض الزمرة الى هؤلاء الدهماء طرباً ولعباً، وراحوا يهتفون باسم تالاسيوس. ومن هذه الحادثة نشأت عادة عند الرومان ما تزال

١ - الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور: ٢٨٢.

٢ - السير: ٨٨/١. وعاش بلوتارخ الى أوائل القرن الثاني الميلادي، وذكر المؤرخون أنه ولد في سنة (٤٥) أو (٥٠م) وتوفي في سنة (١٢٠م) على وجه الاحتمال.

متبعة الى يومنا هذا (الى عصر المؤلف) ؛ فهم في حفلات أعراسهم يتنادون بلفظة تالاسيوس بوصفها الكلمة التي تقوم مقام العُرس".

ومن أمثلة الاستعمال اللغوي لأغراض اجتماعية وأخلاقية ما تستعمله قبيلتنا النافاهو (Navaho) و (الونتو)، وهما قبيلتان من الهنود الحمر؛ فاللغة تعبر عن تجارب في بعض الموضوعات؛ فقبيلة النافاهو تتجنب التلفظ بكلمات معينة تعبر عن خوفها من النطق بها، وأفرادها " يتجنبون الميت تجنباً مطلقاً، بل يهربون منه هروبهم من المرض، فيظهر هذا السلوك واضحاً في لغتهم؛ فعندما يقص أحدهم قصة عليه أن يضيف لاحقة لاسم الشخص الميت كلما اضطر الى ذكره... وقبيلة الونتو لا تغير اهتماماً كبيراً للتمييز بين المفرد والجمع... ولكنها تبلغ مستوىً عالياً في التمييز في مجال آخر هو التمييز بين الاسم الخاص واسم الجنس" (١).

وتشتمل اللغة اليابانية على عادات وتقاليد اجتماعية مصحوبة بنغمات صوتية جميلة كالقواعد المتعلقة بمفهوم (الشرف)، واختيار ضمائر شخصية معينة في مخاطبة الزوجة لزوجها أو مخاطبة الصديق، واستعمال بعض الأدوات المعبرة عن المشاعر النفسية والأخلاقية، قال كلوكهون موضحاً بعض الجوانب للقواعد المعقدة في اللغة اليابانية: " أما اللغة اليابانية فإنها مثقلة بقواعد دقيقة لا تؤدي إلا الى إخراج نغمات صوتية فنية. وتبدو بعض الأصوات خشنة جداً بالنسبة الى آذان النسوة اليابانيات فلا ينطقنها. وهناك

١ - الأنثروبولوجي الحضاري (مجموع آفاق المعرفة) : ٧٧.

القواعد الخاصة بمفهوم الشرف، وهي قواعد معقدة تعقيداً محيراً، ومن الممكن في اليابان أن يكتب كتاب كامل في روعة الاختيار في الضمائر الشخصية التي تتسحب في مخاطبة الزوج أو الصديق أو من يعرفهم المتكلم ، وهناك أداتان صغيرتان هما (وا) و (كا) تستعملان لتمييز أشكالاً مختلفة من فاعل الفعل ومفعوله، ولهما معانٍ تعبران عن مشاعر تترك حتى اليابانيين أنفسهم" (١) .

وللكلمات قوى خفية بحسب عقائد الناس ومشاعرهم تجاهها منذ فجر التاريخ. قال أولمان: "إن الكلمات - منطوقة ومكتوبة- تتمتع بقوة خفية غامضة منذ أقدم أيام التاريخ المعروف، إنها - مثلاً- تستغل في كل أنواع الرقى وتعاويز السحر، وقد يهابها الناس فيعمدون الى تحريم استعمالها أو الى تضيق هذا الاستعمال" (٢) . فضلاً عن ذلك تتمتع بعض الألفاظ والصيغ بقدرة على توليد الآراء والمعتقدات، وقد أشار لوبون الى هذه المسألة قائلاً: " الألفاظ والصيغ من أكثر العوامل توليداً للآراء والمعتقدات، وهي لما فيها من قدرة رهيبة قد أوجبت هلاك أناس أكثر من الذين قتلتهم المدافع، وما في الألفاظ من قدرة فناشئ عن أنها توقظ في المرء مشاعر دالة عليها" (٣) .

١ - الأنثروبولوجي الحضاري (مجموع آفاق المعرفة) : ٧.

٢ - دور الكلمة في اللغة : ٤٤.

٣ - الآراء والمعتقدات : ٤٥.

وننتج عن هذه القوة المعنوية للألفاظ ما يعرف بـ (اللامساس) أو حظر استعمال ألفاظ معينة لأسباب دينية واجتماعية دعت الى عدم استعمال تلك الألفاظ فيستعاض منها بكلمات أخرى خالية من الصور والأذى بحسب عقائد بعض الشعوب منذ أقدم عصور التاريخ الى يوم الناس هذا. ولدينا مثال واضح لذلك في عقائد اليهود، فهم يتجنبون التلفظ باسم (يهوه) الذي يطلق على الله تعالى، ويطلقون عليه بدلاً من ذلك كلمة (إيلوهيم) بلاحقة الجمع في العبرية تعظيماً لشأن الله تعالى. وتجنبهم التلفظ بـ (يهوه) سببه المبالغة في تقديسه وتعظيم شأنه.

ومصطلح (اللامساس) أو حظر الاستعمال اللغوي أو (حَسْن التعبير) كما في اللغويات العربية القديمة له تعريفات عديدة، منها تعريف أولمان إذ عرّفه بأنه " يطلق على كل ما هو مقدس أو ملعون ويحرم لمسه أو الاقتراب منه لأسباب خفية، سواء أكان ذلك إنساناً أم كلمة أم شيئاً آخر " (١).

ودواعي اللامساس متعددة بتعدد الاستعمال الدلالي للألفاظ، وهو يقترن غالباً بعقائد دينية وأعراف اجتماعية ذات أبعاد نفسية، وقد يكون من دواعيه أسباب سياسية وعنصرية، وله كثير من الأمثلة في مختلف الحضارات القديمة والجديدة المستحدثة فضلاً عن الأديان والعقائد سواء منها السماوية أم الوضعية.

١ - دور الكلمة في اللغة: ١٧٤.

ومن الأمثلة القديمة في حضارة وادي الرافدين تجنب استعمال بعض الأسماء لما تتضمنه من دلالات سيئة أي من باب (الانحطاط الدلالي)؛ فقد تجنب الآشوريون - مثلاً- كلمة (شوبارتو) أو (سوبارتو) أو سوبر (Subir) ، وهي الاسم القديم لموطنهم قبل مجيئهم، والكلمة نسبة الى القوم الذين استوطنوا هذا الجزء من شمال العراق منذ أبعد العصور التاريخية. وسبب تجنب الآشوريين هذه الكلمة وإطلاقها على بلادهم وأنفسهم أنها تتضمن معنىً شائئاً إذ لم ترد في لغتهم إلا في نصوص قليلة ذات صلة بالفأل والتنجيم ، والكلمة ترادف كلمة العبد (=subrum) في اللغة الأكديّة كما وردت في نصوص من العهد البابلي القديم. ومنشأ هذا المدلول الشائن هو " أن موطن السوباريين كان من بين المصادر المهمة لجلب الرقيق على هيئة أسرى" ، غير أن البابليين ظلوا يطلقون كلمة (سوبارتو) على الآشوريين ومواطنهم، أي العبيد استخفافاً بهم، وأصبحت كلمة (subarum) أو (subrum)^(١) مرادفة لكلمة (عبد) في اللغة الآشورية القديمة.

ومن قبيل العوامل الاجتماعية والنفسيه وربما السياسية ما عرف ب (الملاحن) في الكلام، وهي كلمة مشتقة من (اللحن) بمعنى الفطنة في فهم الكلام ، وذلك أن تريد معنىً خفياً فتورّي عنه ، والموضوع من باب التورية والتعريض خلاف التصريح، ولذلك فهو أدخل الى علم البلاغة التقليدي.

^١ - انظر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٩٨/١ ، ٥١٨ ، ٥١٩.

وكلمة (الملاحن) جمع لـ (مَلْحَن) ، وابن دريد أول من أَلَف رسالة بهذا العنوان وسماها الملاحن، وذكر في أولها الأسباب التي دعتة الى تأليفها قائلاً: " هذا كتاب أَلَفناه لِنَقْزِعَ إِلَيهِ الْمُجْبِرَ الْمُضْطَّهَدَ (المقهور) على اليمين ، المُكْرَهَ عليها، فيعارض بما رسمناه ويضمر خلاف ما يُظْهَرُ ليسلم من عادية الظالم ويتخلص من حَيْفِ الغاشم" (١) ، وقال ابن دريد في سبب تسميه الرسالة : " ... معنى قولنا الملاحن لأن اللحن عند العرب الفِطْنة، ومنه قول النبي (ص) : (لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَلْحَنُ بُحْجَتِهِ مِنْ بَعْضِ) ، أي أفطن لها ، وأغوص عليها، وذلك أن أصل اللحن أن تريد شيئاً فتُورِّي عنه بقول آخر" .

وفي الرسالة أمثلة كثيرة مختلفة، نحتريء منها بما يأتي (٢) :

- "تقول : والله ما رأيتُ فلاناً قَطُّ ولا كَلَمْتُهُ ؛ فمعنى ما رأيتُ، أي ما ضربتُ رِئْتَهُ، ومعنى كَلَمْتُهُ : جرحته" .
- "وتقول : " والله ما بَطَنْتُ فلاناً: أي ما ضربتُ بَطْنَهُ"
- "وتقول: والله ما أَعْلَمْتُ فلاناً ولا أَعْلَمَنِي، أي ما جعلتُهُ أَعْلَمَ، أي ما شَقَقْتُ شَفْتَهُ العليا ... وتقول : والله ما أَخَذْتُ مِنْ فلان حُفًّا ولا تَعْلًا؛ فالحُفَّ : من أخفاف الإبل، والنَّعْلُ: القطعه الغليظة من الأرض" .
- "وتقول : والله ما دخلتُ لفلانٍ بَيْتاً، ولا رأيتُ له بَيْتاً؛ فالبيت: القَبْر" .

١ - الملاحن : ١٣ .

٢ - الملاحن : ٨ ، ٩ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٩ ، ٢٣ .

- "وتقول : والله ما ظلمتُ فلاناً ولا غيره، أي ما سَقَيْتُهُ ظليماً ، والظَّليم: اللبن قبل أن يروب" .
 - "وتقول: والله ما أعرفُ لفلانٍ ليلاً ولا نهاراً؛ فالليل: وَلَدُ الْكَرَّوانِ، والنهار: ولد الحُبَّارى" .
 - "وتقول : والله ما كنتُ قائداً قطُ ، ولا أَصْلَحُ لذلك؛ فالقائد: الجدول يسقي الأرض بطورها (حدودها) " .
 - "وتقول : والله ما رأيتُ سَعْدًا ولا سَعِيدًا ؛ فالسَّعد من سُعود النجم، والسعيد: النهر الذي يسقي الأرض منفرداً بها" .
 - "وتقول : والله ما عرفتُ لفلان نَحْلاً ولا شَجَراً؛ فالنَّحْل: مصدر نَحَلْتُ الشيء أنْخُلُه نَحْلاً، والشجر : من قولهم تشاجر القوم إذا اختلفوا " .
- وتم ظاهرة اجتماعية أخرى تسمى (التجربة الاجتماعية) يستنتج منها أن إدراك الأشياء ولاسيما المادية المحسوسة منها مشروط بهذه التجربة؛ فالشعوب تنظر الى الأصوات والألوان والظواهر الطبيعية انطلاقاً من تجاربها الاجتماعية لها بقدر أهمية تلك الظواهر أو عدم أهميتها لها، ومن أمثلة ذلك عدم تمييز قبائل (النافاهو) في الجنوب الغربي الأمريكي بين اللونين الأخضر والأزرق في لغتها (لأن بيئتهم تجعل التمييز بينهما لا أهمية له)، ويكاد الأعم الأغلب من الأمريكيين يستعملون (ثلج) للدلالة على الثلج الذائب أكثر منه على مسحوق جاف^(١) .

^١ - انظر: دراسة الأنثروبولوجيا : ١٠٣ ، ١٠٤ .

ويدخل العامل الاجتماعي سبباً في تسمية بعض الشعوب والبلدان، ولعل كلمة (آريا) ومشتقاتها من الأمثلة المهمة لذلك، وهي الكلمة التي أطلقت على شعوب انحدرت من الهند الى إيران، ومن ثم أطلقت على أراضٍ جديدة. وفيما يأتي أهم الآراء في بيان معنى هذا المصطلح وما يمكن أن يستنتج منه:

١- يرى فولتز أن كلمة (airyo) في الهندية الأوربية القديمة تعني (النبيل) أو (الارستقراطي) ، فأطلقت على أقوام ومن ثم على أماكن وبلدان. قال : " يبدو أن هذه الكلمة القديمة كانت تمثل مفهوماً اعتبره المتكلمون باللغة الهندية الأوربية بالغ الأهمية، بل سمة جوهرية من سمات هويتهم الذاتية، لأن بعضاً من المنحدرين من سلالتهم وجدوها مناسبة لاستخدامها كاسم لهم: آريان (Aryan)، وللأراضي التي احتلوها. ومن هنا فإن اسمي بلدين من البلاد الحديثة : إيرلنده (Eire) ، و (إيران) ، وبلد آخر قديم (آريا فارتا) ، وهو الجزء الشمالي الغربي من الهند في عصر الفيديين، كلها تعني أرض النبلاء" (١) . واستنتج من ذلك أن الإيرانيين القدماء أطلقوا على أراضيهم الجديدة عبارة (Airyana baejah) ، ومعناها : أرض النبلاء، ومثلها عبارة (آريا فارتا) باللغة الفيدية، أي لغة (الفيدا) كتاب الهندوس المقدس (٢).

١ - الروحانية في أرض النبلاء: ٢٤.

٢ - انظر: الروحانية في أرض النبلاء: ٣٢.

٢- يفيد التحقيق المستفاد من معجم معين أن كلمة (آريا) تعود الى أصل هندي أوروبي، وعلى الأخص الى الهندية الإيرانية أو (الآرية) كما اصطلح عليها بعض علماء اللغة الألمان ، وتتبعي الإشارة أيضاً الى أن كلمة آرون (ārūn) تعني في الفارسية الحديثة صفة حسنة وخصلة حميدة ^(١) ، وربما كانت هذه الكلمة من مشتقات كلمة (آريا).

قال معين : " آريا (āryā) في الهندية الإيرانية (فرع من الهندية الأوربية) تعني : الصديق الوفي ، النجيب. وأطلقت على قوم من الأقوام الهندية الأوربية اختلط بعضهم ببعض في الأزمنة القديمة وانقسموا بعدها على قسمين كبيرين : رحل قسم منهم واستقر في الهند، ورحل الآخر الى إيران واستقر فيها، وسموا أنفسهم (آريا) أو (آيريا) بمعنى : الصديق والوفي، وأطلقوا هذا الاسم أيضاً على نجد إيران. وكلمة (إيران) مشتقة من هذا الاسم. وانقسم هؤلاء القوم في الأزمنة التي تلت ذلك على عدة شعَب ، وذهبت كل شعبة أو طائفة منهم الى مكان أو طرف.

وأطلق بعض العلماء الألمان كلمة (آريا) على الأقوام الهندية الأوربية كلها، وقسموا الأقوام المذكورين آنفاً على ثماني شعَب ، واحدة منها شعبة (الآريين) بالمعنى الأخص أي الهندوإيرانيين، وانقسمت هذه الشعبة أيضاً على ثلاثة أقسام. ذهب قسم منهم الى الهند، وانحدر قسم آخر واستقر في أرض واسعة تسمى اليوم (نجد إيران)، وأطلقوا على الأرض التي حلوا بها

^١ - انظر : فرهنك فارسي معين : ١١٣ .

اسمهم ، أي (آيريان)، واتجه القسم الثالث في العصور التي تلت ذلك من آسيا الوسطى الى أطراف أوربا وانتشروا في أماكن مختلفة^(١) .

ونستنتج مما تقدم ذكره أن كلمة (آريا) من أصل هندي آري، وهو فرع كبير من الهندية الأوروبية، وتعني الكلمة في أصلها: الصديق والوفي والنجيب، وأطلقها الأقوام الذين رحلوا واستقروا في إيران خصوصاً على أنفسهم وعلى الأراضي التي استقروا بها، واشتقت كلمة (إيران) من (آريا) للدلالة على الأرض أو الموطن، ولذلك تسمى إيران في الفارسية (ايران رَمين)، وزمين (Zamin) تعني الأرض والوطن، فيكون المعنى أرض الإيرانيين وموطنهم . وما ذهب إليه فولتر قريب من هذا المعنى.

^١ - رهنك فارسی معین: ٣٩٠ ، ٣٩١.

المبحث السادس

العوامل الإدارية والاقتصادية وعوامل أخرى متنوعة

العوامل الإدارية والاقتصادية

العوامل الإدارية والاقتصادية مكون تنظيمي لأي حضارة من الحضارات القديمة كانت أو حديثة، جديدة أو مستجدة لأن التقنين والتنظيم سمة عملية للحضارة تفرزها نشأة الدولة. ولا يمكن تصور دولة من غير نظم تؤهلها للاستمرار وتحدد معالم التواصل بين الراعي والرعية. ولا تختلف الحضارات في ماهية النظم بل تختلف في كفاءتها؛ فالحكومة التي هي نتيجة من نتائج الدولة لا تصدق عليها هذه التسمية من غير نظام للحكم وأجهزة للتنفيذ ونظم مختلفة لإدارتها؛ فنجد الحضارات تتفق على إيجاد نظام عسكري وإداري وقضائي وخدمي ينسجم مع نظامها السياسي في الحكم.

ومنذ نشأة المدينة في التاريخ الحضاري الموعول في القدم بدأت الأقوام والشعوب مرحلة جديدة في تاريخها، وتحولت الأسر والقبائل الى شعوب تربطها أواصر اللغة والعرق والدين في بقعة جغرافية سميت بعد ذلك بـ(الوطن). وتفيد المعلومات - على سبيل المثال - أن بلاد ما بين النهرين شهدت عسراً قبل ظهور السومريين ومن بعدهم الأكديين ظهرت فيه أسماء بعض المدن والأمكنة^(١). وفي عهد السومريين - وهم من غير الساميين

^١ - انظر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ٦١٩/١.

- أطلقت كلمة إي-كال (= e- gal) بمعنى البيت العظيم على المدينة^(١) ، وينبغي التنبيه على أن هذه الكلمة لها صلة بالكلمة العربية (هَيْكَل) وما يقابلها في أغلب اللغات الساميات الأخرى ما يرجح الأصل السومري لها، وانتقاله الى الأكديّة ومن ثم الى اللغات السامية الأخرى. وفيما يأتي توضيح المراد:

١- جاء في مختار الصحاح^(٢) : "الهَيْكَل : بيت للنصارى ، وهو بيت الأصنام"

٢- وجاء في القاموس المحيط^(٣) : "الهَيْكَل : الضَّخْم من كل شيء... وبيت للنصارى فيه صورة مريم (ع) ، ودَيْرُهُم، والبناء المُشْرِف " .

٣- وجاء في محيط المحيط^(٤) : "الهَيْكَل ... البناء المُشْرِف ، وبيت للنصارى فيه صورة مريم العذراء ، والدَّيْر ، والبَيْعَة (الكنيسة) . والهَيْكَل في الكنيسة الشرقية : موضع في صدر الكنيسة يُقَرَّب فيه القُرْبَان . ج: هياكل " .

١ - انظر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ١/٧٦.

٢ - ص: ٤٢٢.

٣ - ٥٤٧/٣ .

٤ - ص: ٩٥١.

٤- ذكر الأب رفاثيل نخلة أن كلمة هيكل معربة من أصل آرامي :
(hayklā) ^(١) . وأرجح أن الكلمة انتقلت الى العربية من الآرامية،
وأخذتها الآرامية من الأصل السومري عن طريق الأكديّة، إذ وردت
الكلمة بألفاظ متقاربة في الأصول السومرية والأكديّة وأغلب اللغات
السامية الأخرى كما سنلاحظ ذلك.

٥- ذكر دوزي ^(٢) في معجمه من معاني الكلمة في نصوص عربية ما يأتي
: البناء المُشْرِف ، والهيكل في الكنيسة الشرقية موضع في صدر
الكنيسة، وبيعة للروم هيكل عظيم يُقَرَّب فيه القُربان، والمائدة التي يجعل
عليها الكاهن ما يقده بعد نقله من المَذْبَح ^(٣) .

٦- وردت كلمة (هيكل) بمعنى البناء الكبير أو المنزل الكبير في كُلِّ من
:آرامية التوراة : (heykal)، والآرامية : (hikalā) و (hiklā)، والعبرية
(hikāl) ، والتدمرية : (>Hykl) و (>Hkl) ، والآرامية الإمبراطورية
(آرامية الدولة) : (>hikl)، والأكديّة : (ekallu) ، والسومرية : (-é
gal) ^(٤) .

^١ - غرائب اللغة العربية : ٢٠٩.

^٢ - Supplément aux dictionnaires Arabes, 2, 788.

^٣ - المذابح : المحاريب، سميت بذلك للقرايين. الواحد: مَذْبَح . انظر محيط المحيط
: ٣٠٥.

^٤ - انظر : فرنهك تطبيقي : 966 , Gesenius:228 .

وتسمية المدن والبلدان والأقاليم هيأت فيما بعد لمعلومات جغرافية أولية بسيطة ، ومما وصل إلينا خريطة للعالم قديمة اكتشفت في الحفريات التي أجريت في نيبور^(١)، ودلت هذه الخريطة على قدر كبير من الدقة في الرسم وجعلت بلاد ما بين النهرين "في وسط الأرض ويمتد حوالها المحيط أو (النهر المُر) ، وعلى مسافة أبعد تنبسط أراضٍ أخرى ، أرض الشمال المدعوة بـ (البلاد التي لا ترى فيها الشمس) (٢) . والمقصود بالنهر المُر الخليج الفارسي وبحر عمان وبحر العرب وامتدادات المحيط الهندي .

وكانت التجارة قديمة بين الشعوب والأقوام، ويقتضي أن تربط نشأة التجارة بأمريين، أحدهما: نشأة المدن، والآخر : تبادل السلع بين الناس لسد حاجاتهم. ومما لاشك فيه أن التجارة (التبادلية)، أي تبادل السلع أقدم بكثير من البيع والشراء بالنقود، لأن سك العملة لم يظهر إلا بعد تطور كبير حصل للمجتمعات المدنية، أي سكان المدن. ونتيجة لنشأة التجارة اتبعت طرق معينة بين المدن والأقاليم، واتخذت بعض المدن أسماءها من ألفاظ ذات علاقة بالقوافل وسبل التجارة، ويذكر على سبيل المثال اسم

^١ - نيبور (Nippur) : مدينة مقدسة عند السومريين ، تقع في جنوب العراق بين نهري دجلة والفرات ، و "أجرى الأمريكيون تنقيبات في هذا الموقع الكبير منذ سنة (١٨٨٩م) الى سنة (١٩٠٠ م) ، وعلى فترات متقطعة منذ سنة (١٩٤٨م) " . دانيال (كلين) : موسوعة علم الآثار : ٥٥٧.

^٢ - تأريخ الحضارات العام : ١٧٣/١ .

مدينة (حَرَّان)^(١) ، وهي مدينة آرامية ومركز لدويلة صغيرة تدعى (فدان آرام)، واشتق اسمها من مدلول تجاري؛ فالكلمة الأكديّة البابليّة (خرانو) بالخاء أو (حرانو) بالخاء تعني الطريق، وربما سميت حران بذلك لأنها مدينة تقع على طريق القوافل التجارية^(٢) .

وارتبطت أسماء بعض المدن بالأرصفة النهرية المقامة فيها، لأنها تعد وسيلة للتجارة النهرية أيضاً خلافاً للتجارة البرية. وقد تنبه ملوك آشور الى اهمية الأرصفة في المدن التي بنوها أو جددوا بناءها، فأصبحت كلمة (الرصيف) في لغتهم " جزءاً من اسم المدينة" ^(٣) . وبلغت سبل تجديد حدود الأراضي ولاسيما الزراعية منها وتسجيلها في السجلات العقارية ومنح سندات التملك لأصحابها أرقى ما يمكن أن تصل إليه من التنظيم والترتيب وحفظ الحقوق، فقد " شاع في العهد الكيشي استعمال ما يسمى ب(أحجار الحدود) أو أحجار تثبيت حدود الأملاك والعقارات واسمها باللغة الأكديّة كودرو (Kudrru) ... ومع أن الكلمة الدالة على هذا النوع من الوثائق تعني (الحدّ) أو (التحديد) إلا أنها كانت في الواقع بالدرجة الأولى سجلات

^١ - حَرَّان: " مدينة في شمال بلاد ما بين النهرين. ورد ذكرها في النصوص الحثيّة والآشورية والعهد القديم . وكان إلهها الرئيس : (سين) إله القمر" . موسوعة علم الآثار : ٢٤٨ .

^٢ - انظر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٥٤٣/١ ، وحاشيتها.

^٣ - تأريخ الحضارات العام : ١٥٧/١ .

بقطائع (الأراضي الزراعية) ، تسجل فيها حدودها وأوصافها، وتودع عادة في المعابد مع وجود نسخ منها على ألواح الطين تكون في حوزة المالكين. وهي عبارة عن أحجار مخروطية الشكل في الغالب، ويقسم الحجر عادة الى قسمين ، فيشاهد في أعلى الوجه صور منحوتة بالنحت البارز تمثل رموز الآلهة... وينقش في ظهر الحجر النص المطول بذكر اسم المالك صاحب القطيعة ، وتحديد الأرض، والامتيازات الأخرى الممنوحة له ، وأسماء الشهود ، وتذكر لعنات الآلهة المختلفة في ختام النص على من يكسر الحجر أو يبدل نصه" (١) .

ولما كانت النخيل من أشهر الأشجار شيوعاً في مواطن الساميين ولاسيما الشرقيين منهم الذين استوطنوا بلاد ما بين النهرين والجزيرة العربية نلاحظ أن أسماء بعض المدن مستقاة من النخلة وثمرتها، ومنها على سبيل المثال مدينة (تدمر) فهي في أصلها (تتمر) أي مدينة التمر (٢) . وتجاوزت شهرة النخيل بلاد الساميين الى بلاد فارس القديمة؛ فقد ذكر المؤرخ المشهور (سترابون) : " أن أغنية فارسية تعدد نحو (٣٦٠) استعمالاً لشجرة النخيل" (٣) .

١ - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ٥٠٢/١ ، ٥٠٣.

٢ - انظر: تاريخ الحضارات العام : ١٥٦/١.

٣ - تاريخ الحضارات العام : ١٥٦/١.

ومما لا ريب فيه أن للمدن تأثيراً كبيراً في نشأة الحضارات وتطورها وتنوعها عبر التاريخ؛ فالمدينة هي الثمرة الأساسية لنشأة أي حضارة، ولا يمكن أن تنشأ حضارة ما إلا من خلال مدينة تحتضنها وتستوعبها، فالوجه المادي للحضارة هي المدينة ، والمدينة في مفهومها اللغوي هي سُكنى المدن. وتعد (بلخ) في بلاد فارس، و (بابل) عاصمة البابليين في بلاد ما بين النهرين مثالين واضحين لتأثيرهما في نشأة الحضارة الإيرانية. قال بارتولد : " إن خطوة بلخ وبابل عظيمة في تأريخ الحضارة الإيرانية، حتى قيل - وينبغي أن يكون هذا قريباً من الحقيقة على الرغم من البعد الجغرافي - إن لهجة بلخ هي أقرب الى لهجة عاصمة الساسانيين من اللهجات الأخرى " (١) .

والبلدان جزء حقيقي من مظاهر الحضارات ، أو هي بعبارة أكثر دقة واستيعاباً من الأسس التكوينية لها. وذهب (فرناندوبرودويل) الى "أن النجاح الكلي للتقدم الإسلامي المفاجيء وغير القابل للتفسير هو إعادة طبيعية لتأكيد تقليد في الشرق الأدنى بعد مقاطعة إغريقية ورومانية استمرت ألف عام؛ فقد رأى فعلاً أن اللغة العربية هي أضمن برهان مؤكد على أن البلدان جزء حقيقي من الحضارة الإسلامية " (٢)، واستشهد على ذلك بأمور ، منها : الملابس والأطعمة والهندسة المعمارية المحلية والديانة التوحيدية. ويرى بارتولد أن للعرب في إيران وتركستان بعد الفتوح إسهاماً في تقدم حياة المدن

١ - تأريخ الحضارة الإسلامية : ٩٩ .

٢ - إمبراطوريات الكلمة : ١٧٩ .

وتغيير أصولها، وهو رأي أراه معكوساً لأن العرب ولاسيما الشماليين منهم عند اقتحام هذه المدن وإخضاعها الى الدولة الإسلامية كانوا أمة بدوية لاحظّ لها من المدنية إلا النزر القليل، وربما نجد شيئاً من صحة ما زعمه بارتولد بعد استقرار العرب في تلك المدن زمناً طويلاً والأخذ بأسباب الحضارة والمدنية. وفي النص الذي زعم فيه هذا الأمر تخريجات لغوية مجانية لصحة اشتقاقها اللغوي والتأريخي فضلاً عن معناها. قال: "وقد ساعد العرب في إيران وتركستان على تقدم حياة المدن، وساعدوا على تغيير أصول المدن. وكانت مدن هذه البلاد تؤل من قطعة كبيرة تدعى دز (dež) (١)، ومدينة أصلية تدعى (شهرستان) ، ومعنى شهرستان مقر الحكومة، وهو نفس المعنى الذي تدل عليه كلمة (مدينة) التي أخذها العرب عن سوريا. ولم يكن ميدان التجارة داخل المدينة بل كان خارجها بجانب الباب، وتدل على ذلك كلمة (بازار) ومعناها: (عمل بجانب الباب) والتي دخلت اللغات الإيرانية والسامية الحديثة من اللغات الأجنبية" (٢).

وفي النص المذكور آنفاً ملاحظات كما يأتي :

١- ذكر ان العرب المسلمين ساعدوا على تغيير أصول المدن في بلاد إيران وتركستان. وهذا الأمر لم يحصل وإنما دخلوا تلك الأصقاع واستعملوا أسماء مدنهم أو بتغيير طفيف في بعض أصواتها،

١ - دِز (dež) ، أو دِزْ (dez) ، وفي البهلوية (diz) .

٢ - تأريخ الحضارة تالاسلامية: ٦٨.

وأخضعوها الى ما يعرف بالمعرب والدخيل، مثل مدن همدان وقزوين والريّ ونيسابور وسمزقند وبخارى ... الخ .

٢- وذكر أن كلمة شهرستان (Sahrestān) تعني مقر الحكومة، والصواب أنها تعني المدينة ، وهي مركبة من (شهر) بمعنى المدينة، و (استان) لاحقة مكانية، فيكون المعنى المركب موضع المدينة أو مكان المدينة، والكلمة تعود الى أصل بهلوي :شَترَسْتان (šatrastan) كما ورد في القاموس البهلوي ^(١) ، وهو أضبط ، أو شَرسْتان (Shrastān) كما ورد في معجم معين ^(٢) ، وتعني مدينة كبيرة مع توابعها في داخل قلعة أو حصن. وتستعمل الفارسية المعاصرة كلمة (شهرستان) للدلالة على قسم من أقسام التنظيمات الإدارية في المحافظة.

٣- ذهب بارتولد الى أن معنى كلمة (بازار) في الفارسية : (عملٌ بجانب الباب) ، وقال : إنها دخلت في اللغات الإيرانية والسامية الحديثة من اللغات الأجنبية) : يفيد التحقيق أن كلمة بازار في الفارسية : (bāzār) ، وفي البهلوية (vāčar) (Č=ch) تعني السوق التي تباع وتشتري فيها البضائع والأغذية، والزُّفاق المُعطى وعلى جانبيه دكاكين ^(٣) ؛ فالكلمة فارسية أصيلة وليست دخيلة في اللغات الإيرانية والسامية الحديثة من

١ - فرهنگ بهلوی : ٤١٧.

٢ - فرهنگ فارسی معین : ١٤٥٧.

٣ - فرهنگ بهلوی : ٣٧٤.

اللغات الأجنبية التي لم يذكر اسمها. والصحيح المشهور أن لهجات عامية عربية شائعة في العراق والشام ومصر، وربما في أماكن عربية أخرى استعارت هذه الكلمة من الفارسية بمدلولها ، ولم تدخل في العربية الفصيحة ولم تستعمل فيها.

٤- وذكر أن كلمة المدينة أخذها العرب من سوريا، ولم يشر إلى أصل الكلمة المأخوذة من سوريا. وينبغي التعليق على هذه المسألة لأهميتها بما يأتي:

- وردت كلمة (المدينة) في القرآن الكريم في المواضع الآتية ^(١) : التوبة (١٠١ ، ١٢٠) ، والأحزاب (٦٠) ، والمنافقون (٨) ، والأعراف (١٢٣) ، والقصص (١٥ ، ١٨ ، ٢٠) ، ويوسف (٣٠) ، والحجر (٦٧) ، والكهف (١٩ ، ٨٢) ، والنمل (٤٨) ، ويس (٢٠) . ووردت كلمة (المدائن) جمعاً لـ (المدينة) في الأعراف (١١١) والشعراء (٣٦ ، ٥٣) . والمدينة في العربية : (البلدة العظيمة تجمع المنازل والأسواق) ^(٢) . ويرى اللغويون القدامى أنها مشتقة من (مَدَنَ) بالمكان إذا أقام به. قال الرازي : " مَدَنَ بالمكان : أقام به ، وبابه (دَخَلَ) ، ومنه (المَدِينَة) ، وجمعها : مدائن بالهمزة ، ومُدُنٌ ومُدُنٌ مُخَفَّفًا ومُثَقَّلًا " ^(٣) .

١ - انظر : معجم ألفاظ القرآن الكريم : ٤٢٩/٢ .

٢ - معجم ألفاظ القرآن الكريم : ٤٢٩/٢ .

٣ - مختار الصحاح : ٣٧٩ .

وقال الفيومي : "المدينة" المِصر الجامع، ووزنها (فَعِيلَة) لأنها من مَدَن ... والجمع: مُدُنٌ ومَدَائِنٌ" (١) .

واستعملت الكلمة في القرآن الكريم بمعنى مدينة (معينة) (٢) . بحسب اختلاف الروايات. ومن أمثلة ذلك : قوله تعالى : ((وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ - التوبة : ١٠١)) . دلت المدينة في الآية على مدينة الرسول (ص)، أُطلقت عليها بعد هجرة الرسول إليها، واسمها القديم كما هو معروف : يَثْرِب .

- وقوله تعالى (إِنَّ هَذَا مَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا- الأعراف: ١٢٣) ، المدينة في الآية قَصْبَة مِصر في عهد فرعون موسى (ع)

- وقوله تعالى : (وجاء أهل المدينة يَسْتَبْشِرُونَ - الحِجْر : ٢٦٧) المدينة في الآية هي إحدى مدائن قوم لوط ، ويقال هي سَدُوم .
- وقوله تعالى : (فابعثوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ - الكهف : ١٩) ، هي مدينة أصحاب الكهف، ويقال هي (أفسوس) ، وسميت في العهد الإسلامي بـ (طَرُسُوس).

١ - المصباح المنير: ٥٦٦.

٢ - انظر: مهجم ألفاظ القرآن الكريم : ٤٢٩/٢ ، ٤٣٠ .

- وقوله تعالى : (وأما الجِدَارُ فكان لِعُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ - الكهف : ٨٢) . المدينة في الآية هي القرية التي استطعم موسى (ع) والعبد الصالح أهلها، ويقال هي أنطاكية.
 - وقوله تعالى : (وكان في المدينة تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ - النمل : ٤٨) . المدينة هنا هي الحِجْر مدينة ثمود قوم صالح(ع) .
 - وقوله تعالى : (وجاء من أقصى المدينة رَجُلٌ يَسْعَى قال يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ - يس : ٢٠) . المدينة في الآية : أنطاكية فيما يقال .
 - وقوله تعالى : (قالوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ - الأعراف : ١١١) . المدائن: جمع مدينة ، ويراد بها في الآية مدائن مصر التي كانت تحت سلطان فرعون موسى (ع) .
- وأما أصل كلمة (مدينة) ومن أي لغة جاءت فلم يتبين على نحو واضح جلي على الرغم من الإشارات الى أصلها السامي عند بعض الباحثين؛ فقد ذكر جفري: "أن الكلمة ليست من أصل عربي ، وهي كالكلمة العبرية أخذت من الآرامية. وتدل الكلمة الآرامية على الولاية، ثم دلت على المدينة ، ومعناها في السريانية كذلك. ودخلت الكلمة في الفارسية الوسطى (البهلوية) من الأصل الآرامي ، ودلت في الهزوراش على المدينة الكبيرة ذات البرج والسور" (١) .

^١ - وازهای دخیل در قرآن مجید: ٣٦٠ .

وعزاها الأب رفائيل نخلة الى أصل آرامي أيضاً (mdīntā) ^(١). ووردت الكلمة بمعنى البلدة، والبلدة الكبيرة في كُلِّ من الآرامية (medintā)، والسريانية (meditā)، والمندائية (mdintā)، والعبرية (medināh)، وآرامية الدولة (mdynh)، والنَّبْطِيَّة (mdt)، والتدمرية (mdynt)، والهزوراش (M<DYN<) ^(٢)، ويقابلها في البهلوية (Šatrastān). ومما جاء في قاموس الهزوراش ^(٣) : في الهزوراش (M<DYN<) ، وفي الآرامية (medintā) بمعنى مدينة أو مدينة كبيرة، وفي العبرية (medināh) ، وفي المندائية (medinta) ، وفي السريانية (meditā) ، وفي العربية : (مدينة).

ويمكننا أن نستخلص مما تقدم ذكره أن الكلمة على وجه الاحتمال لا ترجيح من أصل آرامي دخلت في بعض اللغات السامية ومنها العربية، ودخلت في الفارسية من الهزوراش (البهلوية)، وإن كنت أكثر ميلاً الى افتراض الأصل السامي المشترك لها لوجودها بألفاظ متقاربة في أغلب اللغات السامية.

ويترتب على قيام الدول في مختلف العصور والحضارات قيام مؤسسات إدارية وسياسية ترسخ قواعدها وتنظم شؤونها وأمورها. وسنكتفي بالدولة

^١ - غرائب اللغة العربية : ٢٠٥ .

^٢ - فرهنك تطبيقي : 833 .

^٣ - محمد جواد مشكور : فرهنك هزوراشهائ بهلوى : ١٤٠ ، ١٤١ .

الإسلامية التي واكبتها الحضارة الإسلامية؛ فقد استعانت في تدبير شؤونها الإدارية في أوائل نشأتها وقيامها على مصطلحات إدارية وتنظيمية غير عربية أهمها الفارسية واليونانية واللاتينية تبعاً للبلدان التي خضعت قبلها الى البيزنطيين والساسانيين ، ثم جرى شيء من التآلف والتبادل انعكس على استعمال المصطلحات الأجنبية بحسب شيوعها في البيئات المختلفة كالعراق والشام ومصر . قال بارتولد: " ونرى مصطلحات مأخوذة من لغات عديدة تستعمل متآلفة معاً في أعمال الخلافة الخاصة بالدولة والإدارة؛ فالمصطلحات المأخوذة من بيزنطة -مثلاً- تستعمل في البلاد التي أخذت من إيران، وتستعمل الكلمات المأخوذة من إيران في الولايات التي كانت لبيزنطة سابقاً" (١) .

ومن المعروف المتداول في مصادر التأريخ الحضاري الإسلامي أن لغة الدواوين، وهي أعلى تنظيم إداري في الدولة الإسلامية يقابله في عصرنا الحديث التنظيم الوزاري كانت بغير العربية بحسب البيئات اللغوية كالفارسية في العراق واليونانية واللاتينية في بلاد الشام والقبطية في مصر . ولم يبدأ استعمال العربية في لغة الدواوين إلا في نهاية القرن الأول الهجري، وحصل ذلك مع سك العملة باللغة العربية^(٢) بعد أن كانت الدولة الإسلامية تستعين بالمسكوكات الفارسية بالنسبة الى الدرهم ، والمسكوكات البيزنطية بالنسبة

١ - تأريخ الحضارة الإسلامية : ٧١.

٢ - انظر تأريخ الحضارة الإسلامية : ٧٠.

الى الدينار، وتذكر الروايات الموثقة أن للإمام الباقر (ع) فضل تعليم كيفية سك العملة الإسلامية.

وفيما يأتي طائفة من المصطلحات في النظم الإسلامية على سبيل الأمثلة:

١- مصطلحات مختصة بالقضاء:

- كاتب القاضي : "من حقه أن يعرف مدلولات الألفاظ العرفية واللغوية، وأن يكون حسن الفهم عن اللافظين من عوامّ الواقفين والمقربين وغيرهم، وأن ينبه كل لافظ على ما لعله يشك في إرادته له" (١) .

- حاجب القاضي: " من حقه الاستئذان على ذوي الحاجات ، ورفع الأمور الى القاضي بحسب ما ذكره الفقهاء " (٢) .

- نقيب القاضي : " ومن حقه تنبيه القاضي على الشهود ، وتنبيه الشهود على القاضي " (٣) .

- أمناء القاضي : "عليهم التحفّظ في أموال الأيتام والغائبين " (٤) .

١ - السبكي : معيد النعم ومبيد النقم : ٦٠ .

٢ - معيد النعم ومبيد النقم : ٦١ .

٣ - معيد النعم ومبيد النقم : ٦٢ .

٤ - معيد النعم ومبيد النقم : ٦١ .

- وكلاء القاضي (١) : هم (المحامون) كما يعرف في عصرنا .
- ٢-التعزير: هو " تأديب على ذنوب لم تُشرع فيها الحدود" (٢) .
- ٣-الحسبة : " هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، ونهي عن المنكر إذا أظهر فعله" (٣) .
- ٤-النقابة على ذوي الأنساب : "هذه النقابة موضوعة على صيانة ذوي الأنساب الشريفة عن ولاية من لا يكافئهم في النسب، ولا يساويهم في الشرف، ليكون عليهم أحبى، وأمره فيهم أمضى" (٤) .
- ٥-البريد : من المصطلحات المختصة بالمواصلات، وأطلق البريد على البغل الذي ينقل به والرسول والمسافة. قال الخوارزمي: "سمي البغل بريداً ، والرسول الذي يركبه بريداً، والمسافة التي بُعدها

١ - معيد النعم ومبيد النقم :٦٢.

٢ - الماوردي : الأحكام السلطانية: ٢٣٦.

٣ - الأحكام السلطانية : ٢٤٠.

٤ - الأحكام السلطانية: ٩٧.

فَرَسْخَان^(١) بَرِيداً، إِذْ كَانَ يُرْتَبُ فِي كُلِّ سِكَّةٍ^(٢) بَغَالٌ، وَبُعْدُ مَا بَيْنَ السَّكَّتَيْنِ فَرَسْخَانٌ بِالتَّقْرِيبِ"^(٣) .

٦- من المصطلحات المختصة بالضرائب والجباية:

- الفَيءُ : "ما يؤخذ من أرض العنوة"^(٤) أي الأرض التي فتحت صلحاً أو حرباً. قال الفيومي: "عنا يعنو عنوة إذا أخذ الشيء قهراً، وكذلك إذا أخذه صلحاً، فهو من الأضداد... وَفُتِحَتْ مَكَّةُ عَنَوَةً"^(٥)

- الخَرَجُ : "ما يؤخذ من أرض الصلح".

- العُشْرُ : "ما يؤخذ من زكاة الأرض التي أسلم أهلها عليها، والتي أحيها المسلمون من الأرضين أو القطائع"^(٦) .

^١ - الفَرَسَخُ : مسافة مقدارها ثلاثة أميال على المشهور. والجمع : فَرَسَخٌ . انظر: المصباح المنير: ٤٦٨.

^٢ - السَّكَّةُ: الزُّقَاقُ، والجمع: سِكَكٌ . انظر: المصباح المنير: ٢٨٢، والزُّقَاقُ : الطريق الضيق نافذاً كان أو غير نافذ . يُذَكَّرُ وَيُؤنَّثُ . جمعه : أَرْقَاقٌ "المعجم الوسيط: ٣٩٧.

^٣ - مفاتيح العلوم : ٨٩ .

^٤ - مفاتيح العلوم : ٨٥ .

^٥ - المصباح المنير : ٤٣٤ .

^٦ - مفاتيح العلوم : ٨٥ .

- المَكْس : " ضريبة تؤخذ من التجار في المَرَاوِد " (١) .
- ٧-البَوَاب: في القرن الثامن الهجري في مصر والشام. قال السبكي:
"وأهل الشام يسمونه (المُعَرَّف) ،وربما قيل (المُقَدَّم) ، وهو رجل
بباب الوالي يكون بالمرصاد للصوصل ، عليه الفحص عن أمرهم
ليكفَّ الخلق شرَّهم " (٢) .
- ٨-كاتب السر : في القرن الثامن الهجري في بلاد مصر والشام . "
وظيفته التوقيع عن الملك والاطلاع على أسرارهِ التي يكاتب بها،
وعنه تصدر التوقيعات (٣) بالولايات والعزل " (٤) .
- ٩-ومن المصطلحات العسكرية في القرن الثامن الهجري في مصر
والشام:
- السِّلْخُدار : " الذي يحمل السلاح (السلاح دار) ، متولي السلاح "
(٥) ، وهي كلمة مركبة من (سِلَاح)العربية ، و (دَار) الفارسية

١ - مفاتيح العلوم : ٨٥ . والمرصد : "طريق الرصد والارتقاب أو موضعه. ج: مراصد

: المعجم الوسيط : ٣٤٩ .

٢ - معيد النعم ومبيد النقم : ٤٦ .

٣ - التوقيعات أو التوقيعات : الأوامر السلطانية المختصرة تُدَيِّل بها الطلبات.

٤ - معيد النعم ومبيد النقم : ٣٠ .

٥ - معيد النعم ومبيد النقم : ٣٤ .

بمعنى صاحب ، ومُؤمِسِك ، ومتولي . وتستعمل في التركية بهذا المدلول أيضاً.

- أمراء الدولة : أي ضباط الجيش . قال السبكي : " عليهم تفقد حال الأجناد وتعليمهم رمي النُّشَاب والمسابقة على الخيل بحيث يعرفون الطَّعان والضَّرْب والحَرْب " (١) .

١٠- إِسْتَدَّار : في القرن الثامن الهجري في مصر والشام أيضاً: "هو من يتكلم في إقطاع الأمير مع الدواوين " (٢) . والمعنى كُتَّاب الدواوين الذين يدونون متعلقات الأمير . والإقطاع : ما يقطعه السلطان أو الأمير وغيرهما من الأرض الزراعية الخراجية . والكلمة مركبة من (إِسْتَدَّ) بمعنى أخذَ بالفارسية ، و(دار) بمعنى المتولي أو صاحب .

١١- ومن المصطلحات الإدارية في القرن الثامن الهجري (الشام ومصر) : (المِهْمُنْدَار) : "اسم لمن يقوم بأمر قُصَاد الملوك ورسلمهم " (٣) . والكلمة مركبة من (مِهْمَان) بمعنى الضيف بالفارسية ، و (دار) بمعنى المتولي، والمعنى المركب هو المتولي شؤون رسل الملوك وقُصَادهم الذين يحلون ضيوفاً على السلطان .

١ - معيد النعم ومبيد النقم : ٤٦ .

٢ - معيد النعم ومبيد النقم : ٢٦ .

٣ - معيد النعم ومبيد النقم : ٣١ .

١٢- الإقطاع : في تعريف الخوارزمي " أن يُقطع السلطان رجلاً أرضاً ... فتصير له رقبتها، وتسمى تلك الأرضون : قُطائع ، واحدها : قَطِيعَة" (١) .

وذهبت بعض الدراسات الى ربط ظهور الكتابة بالكتابة على الطين عند السومريين لإبرام العقود، وترى تلك الدراسات " أن الاستخدام التجاري جاء أولاً؛ فنقش الرموز على الطين بدأ باعتباره بدائل مناسبة لمجموعات من العلاقات المستخدمة في عمليات الجرد وإبرام العقود" (٢) .

ويمكن الاستفادة من هذا الرأي في عقد الصلة ما بين الكتابة والتجارة، غير أن التجارة لم تكن السبب الأساسي في ظهور الكتابة، أو بالتعبير الدقيق اكتشافها واختراعها ووضع الرموز واستعمال نقوشها على الطين، لأن إبرام العقود وما أشبهها سبب من أسباب عديدة لاستعمال الكتابة. وربما كان من الأسباب المتأخرة عن الحاجة الفعلية والعملية للتواصل بين الأفراد والجماعات لشتى الأغراض والدواعي، فضلاً عن الصلة الترابطية بين اللغة والكتابة؛ فالكتابة هي تدوين اللغة أي نقلها من لغة الكلام المنطوق والمسموع الى لغة التدوين والتسجيل.

وكان العاملان الاقتصادي والسياسي من العوامل المهمة، وربما من أهمها في انتشار اللغة الأكديّة وتجاوزها حدود بيئتها الجغرافية والاجتماعية الى

١ - مفاتيح العلوم : ٨٦ .

٢ - إمبراطوريات الكلمة : ٨٩ .

مواطن أخرى^(١) . ومن الأدلة على صلة التجارة باللغة كلمة (فينيق) ذات الأصل اليوناني وإطلاقها على (الفينيقيين) أي الكنعانيين الذين استوطنوا سواحل البحر الأبيض المتوسط؛ فكلمة فينيق أطلقت عموماً على التجار الساميين المتجولين، وهذا وجه من أوجه التسمية لأن معناها الحرفي في اليونانية هو (نخيل التمر) ولكنها ترتبط دلاليّاً بكلمة يونانية أخرى هي (فونيوس) التي تعني اللون الأحمر، ولما كان الفينيقيون يتاجرون بالمنسوجات المصبوغة باللون الأحمر الأرجواني الناصع الحمرة، ويستعملون في صبغ منسوجاتهم أصبغاً متخذة من حيوانات بحرية صدفية فتتيح هذا اللون أطلقت عليهم هذه الكلمة اليونانية. ومنهم من يستدل على ارتباط اللون بالتجارة، ومن ثم إطلاقه على مكان أو قوم بالكلمة الأكديّة (كيناعو) التي تعني اللون الأحمر القاني، ويرى أنها مشتقة من (كناعن) أي كنعان^(٢) .

ويعد سكّ العملة من المسائل اللغوية الحضارية ذات الصلة بالاقتصاد والتجارة، فبعد أن تحولت مقايضة السلع الى مبدأ التعامل بالنقود بيعاً وشراءً أحرزت البشرية تطوراً إيجابياً ملحوظاً في الميدان التجاري لسهولة العملة في التداول وإبرام الصفقات التجارية والبيع نقداً ونسيئة وتحويل المبالغ من مكان الى آخر ... الخ من المعاملات التجارية المختلفة .

١ - انظر: إمبراطوريات الكلمة : ١٠١ .

٢ - إمبراطوريات الكلمة : حاشية ص ١١٤ .

ويعود تأريخ سك العملة وتداول النقود المسكوكة الى أواخر القرن السابع قبل الميلاد على رأي بعض المؤرخين . قال طه باقر: " ... ومما سهل التجارة والصناعة في مدن الإغريق أن الإغريق بدأوا يستعملون النقود المسكوكة منذ القرن السابع ق.م. وقد اقتبس الأيونيون في سواحل آسيا الصغرى طريقة التعامل بالنقود من آسيا الصغرى حيث يظن أن الليديين هم الذين أوجدوا النقود المسكوكة في حدود سنة (٧٠٠) ق.م" (١) .

وكان للعامل التجاري أثر في تغلب لهجة على أخرى، ومثال ذلك لهجة أتيكا، وهي لهجة أثينا التي تمثل الإغريقية الفصحى، إذ تغلبت على اللهجات الإغريقية الأخرى بفضل مينائها التجاري (بيرايوس)، واضطر التجار الى التعامل في هذا الميناء بتلك اللهجة، وخصوصاً في التجارة اليونانية الداخلية(٢) .

وتتبع قدماء اللغويين اللاتينيين الى علاقة اللغة بالتجارة، ومن هؤلاء فارو (ماركوس ترينتس فارو : ١١٦-٢٧ ق.م) ، وهو مفكر وعالم لغوي وسياسي ومحارب روماني ، إذ ذكر في كتابه (اللغة اللاتينية - الكتاب الخامس ص ١٧٧) : " أن الكلمة اللاتينية الدالة على (سِعْر) مشتقة من

١ - مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة : ٥٨٣/٢ .

٢ - انظر : إمبراطوريات الكلمة: ٣٢٦ .

الكلمة الدالة على (خبراء) لأننا في الامور التجارية نحتاج الى خبير لتحديد السعر الصحيح" (١) .

وشهدت شبه القارة الهندية شيوع السنسكريتية فيها واتخاذها لغة دينية وثقافية وحضارية، بيد أنها لم تقتصر على شبه القارة بل أخذت تتوسع في مسارها تجاه شرق آسيا بفضل التجارة البحرية والتبشير بالهندوسية أو البوذية، وانتقلت الى البر الآسيوي الشرقي على طول سواحل جنوب شرق آسيا من سريلانكا وعمت بلداناً كثيرة واتخذت أيضاً لغة للنخبة الثقافية والدينية سواء أكانوا من الهندوس أم من البوذيين، وشملت ما يعرف في الجغرافية الحديثة باسم الهند الصينية، وهي تسمية ذات بُعد حضاري ثقافي أيضاً" صارت بوتقة للتأثيرات الثقافية الهندية والصينية المتنافسة" (٢) .

وبدأت الثقافة الهندية ولاسيما الدينية منها بالتوغل في أندونيسيا في القرن الأول الميلادي بتأثير من التجار الهنود، وانتشرت على نحو تدريجي بين النخبة من المثقفين والطبقات الاجتماعية الأندونيسية العليا، ومن ثم الى باقي الطبقات الاجتماعية الأخرى. قال فيصل السامر: " إن الهجرة الهندوكية (الهندية) الأولى وصلت من الهند الى أندونيسيا في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي. وقد جلب هؤلاء معهم الخط السنسكريتي الذي تحول فيما بعد الى الخط الجاوي القديم (Kawi)، والى الخط الجاوي

١ - أعلام الفكر اللغوي: ٨٨/١ .

٢ - إمبراطوريات الكلمة : ٢٥٧.

الحديث وحروف الأبجدية الأندونيسية الأخرى... وبتأثير التجار الهندوك انتشرت الهندوكية (الهندوستانية) تدريجياً بين الطبقات العليا من الأندونيسيين، ومن ثم بين الطبقات العامة في أرجاء البلاد" ، وخلص الى نتيجة مفادها أن الحضارة الهندية " عاشت وازدهرت في المجتمع الأندونيسي قروناً عدة وأدت الى قيام حضارة أندونيسية هندوكية خاصة في (جاوة الشرقية) و (جزيرة بالي)" (١) .

وعرفت الصين أول إصلاحات لها في تأريخها القديم ، وخصوصاً في مجالات اللغة والكتابة والقوانين العامة وتوحيد الأوزان والمقاييس والمكايل إذ عمد أول إمبراطور صيني وهو (شي هوانغ دي) الذي حكم أحد عشر سنة (٢٢١-٢١٠ ق.م) الى توحيد "الحروف الصينية .. وإدخال القوانين العامة والأوزان والمقاييس والمكايل، وفرض اللغة الفصحى المحلية في أقصى الغرب" (٢) . وهذه الحروف على قسمين ، أحدهما: يسمى (جوناشو) ، وتعتمد على الصور الرمزية ، ولها نماذج في (النصوص المزخرفة والأختام الرسمية) ، والآخر : يسمى (ليشو) أي الكتابة الدينية التي أخذ بها بعد إمبراطورية (هان) ، وصنفت في قاموس وأصبحت أساس الكتاب الصينية التي تسمى (كاشو) .

١ - الأصول التاريخية للحضارة العربية الاسلامية في الشرق الأقصى : ٦٠ .

٢ - إمبراطوريات الكلمة : ٢٠٢ .

وامتدت اللغة العربية بفعل التجارة ولاسيما البحرية الى سواحل المحيط الهندي "من موزمبيق الى مالابار وكورماندل في جنوب الهند" (١) . وتركت العربية أيضاً آثارها من حيث استعارة بعض الألفاظ التجارية ولعوامل تجارية أيضاً في بعض اللغات الأوروبية، ومنها الروسية التي يذهب الظن الى أنها كانت شبه منعزلة - وهي ليست كذلك - لبعدها وترامي أطرافها. ومن هذه الألفاظ كلمة (tarif)، فهي مستعملة في اللغات الأوروبية ومنها اللغة الروسية، ويبدو أن الكلمة محرفة عن كلمة (تعريف) العربية كما يقول بارتولد (٢) ، والأوجه أن تكون محرفة عن كلمة (التعريف) ومدلولها التجاري في العربية المعاصرة. والتعريف كما أقرها مجمع اللغة العربية في القاهرة : " قائمة تُحدّد أثمان السِّلَع وأجور العمل أو رسوم النقل " (٣) . وتعد اللغة الانكليزية من أكثر اللغات الأوروبية انتشاراً في العالم الحديث، ودخلت في مناهج التعليم عند أغلب دول العالم، وهي اللغة الأساسية في المجال السياسي والدبلوماسي الدولي. ويبدو من خلال تأريخها الحديث أنها انتشرت لعدة عوامل، منها العامل التجاري. قال اوستلر : " التجارة تعتبر

١ - إمبراطوريات الكلمة : ١٦٠.

٢ - انظر : تأريخ الحضارة الإسلامية : ٨٩.

٣ - المعجم الوسيط : ٦٠١.

العامل الأول الذي وضع الإنكليزية على طريق تحولها الى لغة عالمية" (١)

وظهرت لغة إنكليزية مختلطة بغيرها من اللغات لأسباب تجارية أيضاً، منها على سبيل المثال اختلاط الإنكليزية بالهندية ، لأن الهند كانت من أكبر مستعمرات بريطانيا ومن أكثرها تداولاً وتبادلاً ونفعاً تجارياً للإنكليز . ومنها أيضاً الإنكليزية المختلطة بالصينية ، ونشأت بفعل التبادل التجاري، وهي لغة تعتمد أساساً على " قاعدة نحوية صينية، ومفردات انكليزية ينطق بها على الطريقة الصينية" (٢) ، ومن أهم أمثلتها كلمة (pidgin) التي تعني اللغة الخليطة؛ فهي تحريف للكلمة الإنكليزية (business) (٣) . وتقتصر هذه اللغة الخليطة على الأعمال التجارية فقط .

والعلاقات الاقتصادية لها أثرها البالغ من حيث دفع الناس الى التغاضي عن شعورهم القومي واعتزازهم بلغتهم فاستعملوا لغات أخرى ترويحاً للأعمال التجارية، وخصوصاً في مجال البيع والشراء . وأشار كالفي الى هذه المسألة بقوله : " أن نلقي نظرة خاطفة على اللافتات التجارية في مدينة كمدينة باريس، وأن نقارن ما نراه في حيّ تجاري غني كثير السّياح كشارع (الأوبرا)

١ - إمبراطوريات الكلمة : ١٦٠ .

٢ - حرب اللغات والسياسات اللغوية: ٢٦٩ .

٣ - (business) تعني في الإنكليزية: العمل والمهمة، حقلها الدلالي ضمن حقل العمل والعمالة، وبذلك يفهم وجه التحريف المشار إليه في اللغة الخليطة.

حيث اللافتات باليابانية والإنكليزية، وما نراه في حيّ للعمال المهاجرين كحيّ (بلفيل) حيث اللافتات بالعربية والصينية والعبرية. إن الشعور الوطني الذي يدفع ببعض الناس الى رفض الكتابات باللغة الأجنبية يجد مقابلاً له في العلاقات الاقتصادية التي تدفع بعضهم الآخر لإشهار أسماء محالهم بلغة الزبون المحتمل" (١) .

عوامل متنوعة

هناك عوامل متنوعة غير ما تقدم ذكره تربط اللغة بالحضارة ومظاهرها المختلفة. ونكتفي بسرّد بعض الأمثلة البيّنة كما يأتي :

١- عوامل نفسية: وهي عوامل ذات صلة بالإنسان من حيث ما تتركه بعض الألفاظ في نفسه من معانٍ يترتب عليها تصور معين لتلك الألفاظ سلباً أو إيجاباً ما يؤدي الى سلوك قد يكون مشخّصاً أو غير مشخّص؛ فالنفس الإنسانية بحر متلاطم وغور عميق لا يُبلغ مداه ، ولم يكتشف العلم الحديث من مجاهلها إلا النزر القليل. وثمة ألفاظ يتجنبها الإنسان خوفاً من معانيها، وهي الألفاظ التي تبحث في مجال ما يعرف باللامساس (taboo) (٢) كألفاظ بعض الحيوانات المفترسة، وألفاظ الموت والمرض والدواهي والآفات وكل ما يثير في نفس الإنسان من

١ - حرب اللغات والسياسات اللغوية: ٢٦٩.

٢ - (taboo) مصطلح في علم اللغة الحديث يعني " الكلام المُحرّم ، كلمات أو عبارات مُحَرّمة أو مُحَرّجة" معجم مصطلحات علم اللغة الحديث: ٩٣ .

الخوف والفرع. وتختلف الشعوب والأمم منذ فجر البشرية بردة فعلها السلوكي باختلاف الألفاظ ومعانيها ولاسيما المعاني الهامشية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالجانب النفسي. واتجه البشر في مختلف اللغات والثقافات الى الاستعاضة مما يخيفهم من الكلمات ذات الوقع النفسي السلبي بكلمات أخرى ذات وقع إيجابي، وأغلب الكلمات التي من هذا القبيل تكون عرضة للتغير والتبدل أسرع من غيرها، وقد يهمل بعضها ويطويه نسيان الاستعمال ويبقى مدوناً في بطون المعجمات. قال إبراهيم أنيس موضعاً هذا المعنى : " ... ومن أوضح الألفاظ التي نستبين منها الضعف الإنساني تلك التي تتصل من قريب أو بعيد بالموت والأمراض، أو بالأشباح والعالم الروحي؛ فهي ألفاظ تثير الخوف والهلع في نفوس البشر فينفرون من سماعها ويتقادون ذكرها فراراً مما تبعثه في الأذهان من كوارث أو مصائب أو آلام... وتتعرض الألفاظ التي تعبر عن هذه النواحي الى التغير الدائم والتطور السريع؛ فمنها ما يندثر غير تارك بعده أثراً، ومنها ما ينزوي ويصبح نادر الاستعمال، وفي كلتا الحالتين نرى الناس يستعيضون عن تلك الألفاظ بأخرى تمت إليها بسبب من الأسباب ، وتعبر عن نفس الدلالات في أناة ورفق لا يفزع منها السامع أو يتشاءم لأنها تغطي الدلالة بغلالة رقيقة تقلل من وضوحها وتحذ من تأثيرها في الأذهان " (١) . ومن تلك الألفاظ - على

١ - دلالة الألفاظ : ١٤٢ .

سبيل المثال - كلمة (هلاك) في العربية ، ومن معانيها الموت والدخول في جهنم، وهي من الألفاظ السامية المشتركة يجمعها معنى عام هو (الذهاب). وبقيت على هذا المعنى في العبرية، وأما في العربية فبقيت مستعملة بمعنى الموت في سياق التهكم والتوبيخ والعداء والكراهية وسوء العاقبة كما في الاستعمال القرآني . وحلت محلها لكراحتها وكراهة من تطلق عليه ألفاظ أخرى مثل (مات) و (توفّي) ، وهما من الألفاظ القرآنية ذات الوقع النفسي المناسب في حالات مصيبة الموت. ومن الألفاظ أيضاً : (فاضت نفسه) ، و (فاضت روحه) ، و (فاض) ، و (أدركه الأجل) ، و (وافته المنيّة) ... الخ .

وقد تزول من الاستعمال اللغوي ألفاظ ذات دلالة نفسية سيئة أو قبيحة وتحل محلها ألفاظ أخرى تتأى بقدر الإمكان عن تلك الدلالات. ويعتمد ذلك على العرف الاجتماعي وما تتيحه اللغة من التعبير عن حالات مختلفة ومتباينة ذات صلة بالأديان والعقائد والعادات والتقاليد الاجتماعية ... الخ . وهذا الأمر أيضاً باب من أبواب (اللامساس) والتغير اللغوي يسمى بـ(انحطاط الدلالة). قال إبراهيم أنيس: " ولعل من أوضح الأسباب في ابتذال بعض الألفاظ تلك التي تتصل بالناحية النفسية، وذلك كأن يكون اللفظ قبيح الدلالة، أو يتصل بالقذارة والدنس ، أو يرتبط بالغريزة الجنسية؛ فهنا نلاحظ أن كل اللغات تفقد بعضاً من ألفاظها التي تعبر عن هذه

النواحي؛ فتتدثر تلك الألفاظ أو تنزوي ويحل محلها لفظ آخر أقل وضوحاً في دلالاته وأكثر غموضاً أو تغمية" (١) .

وقد تستعمل صيغ معينة شرحاً وتوضيحاً لحادثة أو واقعة تؤثر في النفس تأثيراً بالغاً يصعب فهمها وتوضيحها، ويعجز الإنسان عن التعبير عنها بألفاظ وعبارات محددة فيلجأ الى عبارات أخرى محاولاً قدر الإمكان تفسير ما ألم به لأن خلجات النفس بئر عميقة مظلمة تكتنفها دهاليز كثيرة ينفث بعضنا على بعض من غير الوصول الى نهاية، أو قد تغلق فيصعب على المرء فهم ما يدور في نفسه وتفسير ذلك لنفسه وللآخرين. ويحصل هذا الأمر لكثير من الناس، وقد يحصل لأكثر الناس تأملاً وتعمقاً في الإنسان والحياة. قال لوبون : " ... قد تبلغ الألفاظ في فعلها مبلغاً يجعلها تؤثر أحياناً في أكثر الرجال تأملاً. وعندما تكون النفس إزاء حادثة يتعذر اكتنافها فإنها تكتفي بإيجاد صيغة ما، وقلماء جهل العلماء أسرار الحياة وعجزوا عن بيان الكيفية التي تتطور بها ذوات الحياة واكتفوا بصيغ تقوم مقام التفسير والإيضاح" (٢) .

ولبعض الألفاظ من قوة التأثير والقهر والغلبة ما يؤدي الى حروب ونزاع إقليمي ودولي وقيام الثورات والانقلابات العسكرية والعصيان وتبدل بعض

١ - دلالة الألفاظ : ١٤٠ .

٢ - الآراء والمعتقدات : ٩١ .

المفاهيم الأساسية في المجتمعات والتغيير في المبادئ والمُثل والعادات والتقاليد والأديان ... الخ.

وخلاصة الكلام أن للكلمة وقعاً أشد من وقع السيف كما يقال ولها تأثير يشبه السحر في كثير من مواطن الخلل في المجتمعات على مستوى الأفراد والجماعات .

وقد صدق غوستاف لوبون حينما قال : " ... وسلطان الألفاظ مرتبط في الصور التي يثيرها، وهو مستقل عن معناها الحقيقي، ومما يحدث أحياناً أن يكون للألفاظ ذات التعريف الرديء أكبر تأثير، ومن تلك الكلمات: الديمقراطية، والاشتراكية، والمساواة ، والحرية ، وما إليها من الألفاظ التي بلغ معناها من الغموض ما لا يكفي لتعيينه مجلدات ضخمة، ومع ذلك تجد لمقاطع هذه الكلمات القصيرة قدرة سحرية كما لو كانت تلك المقاطع تنطوي على حلّ جميع المُعضلات وتلخّص مختلف الرغبات اللا شعورية وأمل تحقيقها" (١) . وأكد لوبون حاجة الإنسان الى تفسير الأشياء وتوضيحها بمعاني الألفاظ الدالة عليها، وربط ذلك بالآراء والمعتقدات؛ فالحاجة ملازمة للفرد والجماعة منذ الولادة والنشأة ومراحل الحياة المتصاعدة. قال موضحاً هذا المعنى: " الاحتياج الى التفسير كالاحتياج الى الاعتقاد يلزم الإنسان من المهد الى اللحد، وقد ساعد على تكوين الآلهة، ويساعد على ظهور عدد غير قليل من الآراء؛ فأبسط الأجوبة

١ - روح الجماعات : ٩٦.

تكفيه، وهذه السهولة هي مصدر كثير من الأغلاط. وبما أن روح البشر مولعة بالقضايا القاطعة فإنها تحافظ على آرائها الباطلة الصادرة عن الاحتياج الى التفسير زمناً طويلاً، معتبرة كل من يحارب هذه الآراء عدواً مقلقاً للراحة. والمحذور الأساسي للآراء القائمة على تفاسير باطلة هو أن الإنسان بعد أن يعدها حازمة لا يسعى للبحث عن غيرها، فقد أوجب جهلنا جهل أنفسنا تأخر العلوم قروناً كثيرة" (١) .

ومن الألفاظ ما يثير صوراً نفسية عند الأفراد قد تعم الجماعة أيضاً؛ فهي "توقظ في المرء صوراً نفسية، ولكن الصور المرسومة أجنب للإنسان" (٢)، ويظهر هذا الأمر جلياً في الإعلانات المصورة المستعملة في الدعايات الانتخابية البرلمانية ومدى تأثيرها على الناخبين.

وفي تصنيفه العقلي والنفسي للألفاظ فرق لوبون بين دلالاتها على المشاعر ودلالاتها العقلية، وقال في هذه المسألة : " ... ومن صفات المشاعر كونها معلومة من قبل صاحبها مع أنه يصعب تعريفها، وإذا عبّر عنها فبعبارات عقلية؛ فبالعقل نعرف، وبالمشاعر نشعر، ولا يمكن الإعراب عن المعرفة والشعور بلسان واحد ، نعم قد استطاع العقل أن يجد له لساناً متقناً مُحْكماً ، ولكن لسان المشاعر لا يزال مبهماً غير صريح" (٣) .

١ - الآراء والمعتقدات : ٩٠ .

٢ - الآراء والمعتقدات : ٩١ .

٣ - الآراء والمعتقدات : ٣١ .

٢- **عوامل تاريخية :** يمكن أن توصف الصلة بين اللغة والتاريخ بأنها صلة ترابطية تفسيرية في كثير من القضايا والمسائل الحضارية واللغوية، وقد عبّر أحد الباحثين عن هذه الصلة بقوله: " هذا التفاعل المتداخل فيما بين اللغات هو جانب من التاريخ طال إهماله أكثر من اللزوم " (١) . ولكل أمة تاريخها اللغوي ولاسيما الأمم التي قطعت أشواطاً في التطور الحضاري، وهذا التاريخ له تأثيره اللغوي الكبير في حاضر الأمة ومستقبلها. قال باي : " ... قد لا يستحق التنبيه منا على أن ننصّ على أن التاريخ الماضي يحمل نفوذاً هائلاً على الحالة اللغوية للدول الحديثة... وأن معرفة تأريخ الأمة الماضي سوف يعطي - غالباً- فهماً ثاقباً للحقائق والاتجاهات اللغوية في الحاضر والمستقبل"(٢) .

وبناء على هذه الرؤية انبثق منهج جديد في اللغويات الحديثة أطلق عليه (علم اللغة التاريخي) ، وأفادت منه مختلف المدارس اللغوية في البحث والدرس وتصنيف المعجمات. وأساس هذا المنهج التاريخي يعتمد على دراسة اللغة عبر مراحلها التاريخية، إذ لا يقتصر على مرحلة دون أخرى، ولذلك وصف بأنه منهج (متحرك) .

ولما كانت اللغة عنصراً أساسياً في الحضارة ولاسيما جوانبها الثقافية فمن الصواب أن ينظر الى الأسباب الكبرى في تطور الأمة على أنها أسباب

١ - إمبراطوريات الكلمة: ٢١.

٢ - أسس علم اللغة : ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

مشتركة مع الأمم الأخرى المناظرة لها؛ فالتأريخ القومي للولايات المتحدة وبريطانيا - مثلاً - لا يمكن فك ارتباطه بالتأريخ القومي للأمم الأوروبية الأخرى لأن الحوادث التي غيرت مجرى التأريخ هي حوادث مشتركة وتأثيرها العام واحد ولا تختلف إلا من حيث الظهور والانتقال، وتبعاً لذلك تكتسب صفة (الشؤون المحلية) في كل بلد أوروبي وفي الولايات المتحدة. وقد علق على هذه المسألة بقوة المؤرخ البريطاني الكبير (توينبي) فقال: " تُرى ما الحوادث التي غيرت مجرى التأريخ في التأريخ القومي للولايات المتحدة والمملكة المتحدة؟ إنني إذا وليت وجهي عن الحاضر شطر الماضي قلت : هي الحربان العالميتان ، والثورة الصناعية ، ورحلات الكشف الغربية ، والنهضة الأوروبية ، واعتناق المسيحية. وإنني أتحدى أي إنسان أن يحدثني عن تأريخ الولايات المتحدة أو المملكة المتحدة من دون أن يجعل هذه الحوادث على أنها شؤون أمريكية محلية أو شؤون إنكليزية"^(١).

وتكتسب بعض أسماء الأعلام قوة في التعبير وتأثيراً في النفوس لأسباب تأريخيه كأسماء الأبطال والقادة والأدباء والعلماء والأنبياء، وحينما تنتقل الأسماء الاعتيادية للناس الى أسماء أعلام تفقد إحياءها الدلالي وتصبح أسماءً (شديدة العُقم في دلالتها) بخلاف ما يحصل لأسماء الأعلام ذوي

^١ - الحضارة في الميزان : ٢٠٨ .

الشهرة حينما تنتقل الى أسماء اعتيادية يطلقها الناس على أولادهم مثلاً، إذ تكتسب تلك الأسماء قوة في الدلالة والإيحاء مصدرها دلالة اسم العلم^(١) .
وأما من حيث الشيوخ والاستعمال فإن " تحول الكلمات من نوع الى نوع آخر أمر كثير الحدوث في الاتجاهين؛ فهناك عدد كبير من أسماء الألقاب لا يزال يوجد لكل واحد منها صُنُو بين الأسماء الاعتيادية نحو : النجّار والحدّاد والجزّار، وإن عكس ذلك وهو استعمال الأسماء الأعلام أسماءً اعتيادية كثير شائع أيضاً^(٢) .

٣- **عوامل عسكرية:** من التنظيمات العسكرية تقسيم وحدات الجند والأمراء والقادة العسكريين ، وذكر بلوتارخ - وهو من المصادر الموثقة المعاصرة للإمبراطورية نصّاً يتضمن التقسيمات العسكرية الرومانية منذ تأسيس روما وزى الجنود وقادتهم .

فقال : " ... قسم رومولوس (مؤسس روما التي أضحت فيما بعد عاصمة للإمبراطورية) قواته الى سرايا، الواحدة منها تشتمل على مائة رجل. وكان أمر السريّة يحمل قُطْباً^(٣) خشبياً شُدّت فوقه حُرْمة من العُشب الصغير ...

١ - انظر: دور الكلمة في اللغة : ٦٩ ، .

٢ - دور الكلمة في اللغة : ٦٧ .

٣ - القُطْب : نَصْل السَّهْم، وجمعه أَقْطَاب . انظر : المعجم الوسيط : ٧٥٠ .

واللاتين يطلقون على هذه الحُرْم مانيبولي (manipuli)، ومن هذا جاءت تسميتهم مانيبولارس (manipulares) لقادة جيوشهم" (١) .

وانتقلت التقسيمات العسكرية الرومانية بعد تطورها واستقرارها الى الدول والإمبراطوريات التي تأثرت بها، ومنها الإمبراطورية الإسلامية. وأشار ديمومبين الى تنظيم الجيش الإسلامي على نحو ثابت، فقال : " ... ومنذ بدء تنظيم الجيش بشكل ثابت قُسم الجنود الى جماعات على الطريقة الرومانية في عشرات ومئات وألوف وعشرات الألوف؛ وقد استرجع الأتراك هذا التقسيم كما فعل المماليك أيضاً وسلاطين مراكش وغيرهم. واستعملت الألفاظ القديمة لتلقيب ضباط الوحدات بادئة بأصغر رتبة : عريف، ثم نقيب ، ثم خليفة، ثم قائد، ثم أمير" (٢) .

وفي المعجم العربي نصوص تشير الى تقسيم روماني للجيش، منها : البَطْرِيق. قال الفيروز آبادي: " البَطْرِيق - ككِبْرِيت - : القائد من قُود الروم تحت يده عَشْرَةُ آلاف رجل ، ثم الطَّرْخان على خمسة آلاف ، ثم القَوْمَس على مئتين" (٣) .

١ - السير : ٨٠/١ .

٢ - النظم الإسلامية : ١٥٨ .

٣ - القاموس المحيط : ٢٤٦/٣ .

ويرى بطرس البستاني أن كلمة بطريق الدالة على قائد من قواد الرومان معربة من (بِثْرِيُيون) باللاتينية (١) .

ومن أسماء الفرق العسكرية (القَوَزاق) في روسيا، والأُهْلان (uhlans) في بروسيا، ويرى توينبي أن معنى القوزاق اللغوي لا الاصطلاحي هو (الحقار)، وقد أطلقها الروس على فرسانهم المقاتلين من النخبة، وهي من أصل تركي، وأطلقت كلمة الأهلان في بروسيا على المعنى نفسه ، وهي من أصل تركي أيضاً: أغلان (oghlan) ، ومعناها في الأصل : الولد (٢).

٤- **عوامل لغوية** : ومنها دخول الصينيين في جنوب شرق آسيا وتأثيرهم اللغوي فيها، ومنها السنسكريتية، وبحسب ما يراه أوستلر : "سنسكريت (سمسكرتا) : (المؤلفة) أو (المُرْكبة) : وهو اصطلاح عن اللغة كما هي مصاغة في كتب القواعد النحوية ، بعكس اللهجات العامية المعروفة باسم (براكريتس - براكرتا) أي الطبيعة ، وهو اصطلاح يميزها من الشكل القديم أحياناً: الفيدي" (٣) .

٥- **عوامل جغرافية**، ومنها : أهمية البحر وما حمله من لغات الى جزر الفلبين ومدغشقر، والى نيوزيلاندة، وشواطئ البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي. واختصر توينبي ذلك كله مبيناً أهمية البحر وأثره

١ - انظر : محيط المحيط : ٤٣ .

٢ - الحضارة في الميزان : ١٣٩ ، ١٤٠ .

٣ - إمبراطوريات الكلمة : ٢٥٣ .

في انتقال اللغات قائلًا: "إن البحر قد حمل لغات الملايو الى جزر الفلبين في اتجاه شمالي شرقي، وإلى مدغشقر في اتجاه جنوبي غربي، وحمل البحر كذلك اللغة البولينيزية الى كل جزر أوقيانوسية، أي أمكنة بعيدة عن القارة... مثل نيوزيلاندة. وكان البحر المتوسط في زمن مضى عاملاً في نشر اللغات البونية (الفينيقية) واليونانية واللاتينية في شواطئه. ونقل المحيط الأطلسي اللغات الإسبانية والبرتغالية والإنكليزية والفرنسية من غرب أوربا الى الأمريكتين، ونقلت السهوب اللغات الى أماكن بعيدة على نحو ما فعل البحر، واللغات الهندية الأوروبية واللغات التركية فيما بعد اجتازت السهوب الأوراسية وانتشرت وراء شواطئها في اتجاهات متضادة. وقد انتقلت اللغة العربية من الجزيرة العربية الى شواطئ المحيط الأطلسي عبر سهوب شمال إفريقية"^(١).

٦- عوامل ذات صلة بالنقل ووسائطه ، ونكتفي بالإشارة الى أهمية الخيل واستعمالها عبر التاريخ في وادي الرافدين ، وننقل نصاً لطفه باقر بيّن فيه تأريخ استعمال الخيول في وادي الرافدين وما يحيطها ويقرب منها من الأقطار والبلدان. قال " الكشيون هم الذين أدخلوا استعمال الخيل في بلاد وادي الرافدين على مقياس واسع ... ويرجح أن الكشيّين اقتبسوا استعمال الخيل من الحثيين في آسيا الصغرى، ومن الحوريين أيضاً. أما ما قبل العهد الكشي فلم تكن الخيول شائعة الاستعمال في العراق،

^١ -تأريخ البشرية : ٥٧/١.

بل اقتصر ذلك على أمثلة قليلة وردت في النصوص المسمارية ،
ولاسيما من عهد سلالة أور الثالثة (٢١١٢ - ٢٠٠٤ ق.م) ، وقد دُعيت
في هذه النصوص بالمصطلح السومري أنشو - كُرّا (Anshu-kur-
Ra) أي (جِمار الجبل) أو (حمار البلد الأجنبي) ، ويرادف ذلك في
اللغة الأكديّة سِيسو (SîSû) . وذكرت الخيول باسمها الأكدي في
رسائل مدينة (ماري) الشهيرة (القرنان التاسع عشر والثامن عشر
ق.م)"^(١) .

^١ - مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : ١/٥٥١ ، ٥٥٢ .

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
١	مقدمة
٣	المدخل: علم اللغة الحضاري: الأصول والمنهاج
٦٣	المبحث الأول : العوامل الثقافية
١٦٥	المبحث الثاني: الرمز والأسطورة
٢٦٧	المبحث الثالث: صراع اللغات
٣١٢	المبحث الرابع : العوامل السياسية
٣٨١	المبحث الخامس : العوامل الدينية والاجتماعية : -العوامل الدينية -العوامل الاجتماعية
٤٧٧	المبحث السادس : العوامل الادارية والاقتصادية وعوامل متنوعة : -العوامل الإدارية والاقتصادية -عوامل متنوعة

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .

١- إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة
١٩٧٢م.

٢- إبراهيم أنيس : من أسرار اللغة - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة
١٩٥٨م.

٣- ابن خلف تبريزي (محمد حسين متخلص به برهان) :
برهان قاطع - مصحح محمد عباسي - مؤسسه مطبوعات فريدون
علمي - تهران ١٣٤٤ هـ. ش .

٤- ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن) :
الملاحن - صححه وعلّق عليه وذيله بذيل أبو اسحاق إبراهيم
اطفيش الجزائري - المطبعة السلفية - القاهرة ١٣٤٧ هـ.

٥- ابن منظور (جمال الدين محمد بن مُكْرَم) :
لسان العرب - المطبعة الكبرى الأميرية - بولاق مصر ١٣٠٨ هـ
٦- ابن النديم (أبو الفرج محمد بن اسحاق) :

كتاب الفهرست - تحقيق رضا تجدد - طهران ١٣٥٠ هـ. ش -
١٩٧١م.

٧- الآبي (أشرف الدين صاعد البريدي) :

- الحدود والحقائق في شرح الألفاظ المصطلحة بين المتكلمين من الإمامية - تحقيق حسين علي محفوظ - مطبعة المعارف - بغداد ١٩٧٠ م .
- ٨- أحمد مختار عمر : علم الدلالة - مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع - الكويت ١٩٨٢ م .
- ٩- الأحمـد نكري (القاضي عبد النبي بن عبد الرسول) :
جامع العلوم في اصطلاحات الفنون ، الملقب بـ (دستور العلماء)
- دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد دكن الهند ١٣٢٩هـ .
- ١٠- أـرويل (جورج) : (١٩٨٤) - ترجمة دار النشر - دار الخلود للنشر والتوزيع ، والعربية للنشر والتوزيع - القاهرة ٢٠١٧ م .
- ١١- أـرويل (جورج) : السياسة واللغة الإنكليزية الحديثة (مقال)
- ترجمة عدي الزعبي - جريدة الجمهورية العراقية (الجمهورية نت) .
- ١٢- أـستلر (نيقولاس) : إمبراطوريات الكلمة (تأريخ اللغات في العالم) - ترجمة محمد توفيق البجيرمي - دار الكتاب العربي - بيروت ٢٠١١ م .
- ١٣- أولمان (ستيفن) : دور الكلمة في اللغة - ترجمة كمال محمد بشر - المطبعة العثمانية - القاهرة ١٩٧٢ م .

- ١٤- إيمار (أندريه) ، و (أوبوايه) جانين : تأريخ الحضارات العام (الشرق واليونان القديمة) - ترجمة فريد م. داغر ، وفؤاد ج. أبو ربحان - عوידات للنشر والطباعة - بيروت ٢٠٠٦ م .
- ١٥- بارتولد (ف) : تأريخ الحضارة الإسلامية - ترجمة حمزة طاهر - منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية - دمشق ٢٠٠٤ م.
- ١٦- باي (ماريو) : أسس علم اللغة - ترجمة أحمد مختار عمر - منشورات جامعة طرابلس (كلية التربية) - طرابلس (ليبيا) ١٩٧٣ م.
- ١٧- باي (ماريو) : لغات البشر (أصولها ، وطبيعتها ، تطورها) - ترجمة صلاح العربي - فرانكلين للطباعة والنشر (القاهرة - نيويورك) ١٩٧١ م.
- ١٨- برويز ناتل خانلري: تاريخ زبان فارسي- انتشارات بنياد فرهنگ ايران- تهران ١٣٣٩ ه.ش.
- ١٩- بطرس البستاني : محيط المحيط - مكتبة لبنان (ناشرون) - بيروت ١٩٩٨ م.
- ٢٠- بلوتارخ : السير - ترجمة جرجيس فتح الله - دار آراس للطباعة والنشر ، ومنشورات الجمل - بيروت - بغداد ٢٠١٢ م.

- ٢١- بهرام فره وشی : فرهنگ بهلوی - انتشارات بنیاد فرهنگ ایران - تهران ١٣٤٦ ش.هـ.
- ٢٢- بونت (بیار) ، وإیزار (میشال) : معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا - ترجمة مصباح الصمد - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع (مجد) - بيروت ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
- ٢٣- بيلتو (بيرتي .ج) : دراسة الأنثروبولوجيا: المفهوم والتأريخ - ترجمة كاظم سعد الدين - بيت الحكمة (سلسلة كتب ثقافية شهرية) - بغداد ٢٠١٠ م.
- ٢٤- تايلر (م) : الفلسفة اليونانية (مقدمة) - ترجمة عبد المجيد عبد الرحيم - مراجعة وتقديم ماهر كامل - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥٨ م.
- ٢٥- تقي زاده آرمکی : العولمة وأثرها في الهوية والثقافة الإيرانية - ترجمة علي طاهر الحمود - بيت الحكمة - بغداد ٢٠١٢ م.
- ٢٦- توينبي (أرنولد) : الحضارة في الميزان - ترجمة أمين محمود الشريف - منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية - دمشق ٢٠٠٦ م.
- ٢٧- ثروت عكاشة : المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية - نشر مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر - بيروت د.ت.

- ٢٨- جبران مسعود : الرائد (معجم لغوي معاصر) - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٤م.
- ٢٩- جفري (آرتور) : وازه های دخیل در قرآن مجید - ترجمة فريدون بدره أي - انتشارات توس - تهران ١٣٨٥ ه.ش.
- ٣٠- جورج كدر : معجم آلهة العرب قبل الإسلام - دار الساقی - بيروت ٢٠١٣م.
- ٣١- جوزيف (جون -E) ، وُلْف (نايجل) ، وتيلر (تولبت -J) : أعلام الفكر اللغوي- ترجمة أحمد شاکر الکلابي - دار الکتاب الجديد - بيروت ٢٠٠٥م.
- ٣٢- حسن عميد : فرهنگ عميد - سازمان انتشارات جاويدان - تهران ١٣٥٤ ه.ش.
- ٣٣- خليل أحمد خليل : معجم الرموز - دار الفكر اللبناني ١٩٩٥م.
- ٣٤- خليل أحمد خليل : معجم المصطلحات الدينية - دار الفكر اللبناني - بيروت ١٩٩٥م.
- ٣٥- الخوارزمي (محمد بن أحمد بن يوسف) : مفاتيح العلوم - تحقيق إبراهيم الأبياري- دار الکتاب العربي - بيروت ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

- ٣٦- دانيال (كلين ، ي) المحرر الاستشاري ونخبة من الباحثين
: موسوعة علم الآثار - ترجمة ليون يوسف - وزارة الثقافة والإعلام
(سلسلة دار المأمون) - بغداد ١٩٩٠ م.
- ٣٧- دي سوسير (فرديناند) : علم اللغة العام - ترجمة يؤئيل
يوسف عزيز- دار آفاق عربية - بغداد ١٩٧٨ م.
- ٣٨- ديمومبين (موريس . غ) : النظم الإسلامية (بحث في
مؤسسات الدولة-الدين - المجتمع) - ترجمة فيصل السامر
وصالح الشماع- نشر المركز الأكاديمي للأبحاث (العراق - كندا)
- بيروت ٢٠١٦ م.
- ٣٩- الرازي (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر) :
مختار الصحاح - عني به محمد نبيل طريفي - دار صادر -
بيروت ٢٠٠٨ م.
- ٤٠- الراغب الأصبهاني (الحسين بن محمد) :
المفردات في غريب القرآن - أعده للنشر محمد أحمد خلف الله -
مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة ١٩٧٠ م.
- ٤١- راندال (جون هرمان) : تكوين العقل الحديث - ترجمة جورج
طعمة- نشر دار الثقافة في بيروت بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين
للطباعة والنشر . ج(١) بيروت د.ت ، ج(٢) بيروت ١٩٦٦ م.

- ٤٢- رفائيل نخلة اليسوعي : غرائب اللغة العربية - المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٦٠م.
- ٤٣- رمضان عبد التواب : المدخل الى علم اللغة العربية ومناهج البحث اللغوي - مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٨٥م.
- ٤٤- الزيدي (القاسم بن محمد بن علي) : كتاب الأساس لعقائد الأكياس - تحقيق الأبير نصري نادر - دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت ١٩٨٠م.
- ٤٥- سامي عياد حنا : معجم اللسانيات الحديثة- مكتبة لبنان (ناشرون) - بيروت ١٩٩٧م.
- ٤٦- السبكي (تاج الدين عبد الوهاب) : معيد النعم ومبيد النعم - دار الحداثة - بيروت ١٩٨٥م.
- ٤٧- سبيريدو فيتش (شيريپ) : حكومة العالم الخفية - ترجمة الحسيني معدي - دار الخلود للنشر والتوزيع - القاهرة ٢٠١٢م.
- ٤٨- سومر (دو بونت) : الآراميون - ترجمة الأب ألبير أبونا- دار الوراق للنشر المحدودة - بغداد ٢٠٠٧م.
- ٤٩- شابيرو (ماكس .أس) ، وهندريكس (رودا .أ) : معجم الأساطير - ترجمة حنا عبود - دار علاء الدين - دمشق ٢٠٠٨م.
- ٥٠- (شاخت) و (بوزورث) : تراث الإسلام - ترجمة محمد زهير السمهوري- سلسلة عالم المعرفة - الكويت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

- ٥١- الشجري (الإمام المرشد بالله يحيى بن الحسين) : كتاب
الأمالي الشهيرة بالأمالي الخميسية ، وهو من كتب الزيدية - مطبعة
الفجالة - القاهرة ١٣٧٦هـ.
- ٥٢- طه باقر : مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة - دار
الوراق - بغداد ٢٠١١م.
- ٥٣- الطوسي (نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن) :
قواعد العقائد - تحقيق علي الرباني الكلبيكاني - نشر لجنة إدارة
الحوزة العلمية - قم ١٤١٦هـ.
- ٥٤- عبد المنعم الحفني : معجم مصطلحات الصوفية - دار
المسيرة - بيروت ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- ٥٥- علي عبد الواحد وافي: علم اللغة - دار نهضة مصر -
القاهرة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
- ٥٦- فندريس (جوزيف) : اللغة - ترجمة عبد الحميد الدواخلي
ومحمد القصاص - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة د.ت.
- ٥٧- فولتز (ريتشارد .سي) : الروحانية في أرض النبلاء -
ترجمة بسام شيحا - الدار العربية للعلوم (ناشرون) - بيروت
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

- ٥٨- الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب) - قدّم له
وعلق حواشيه الشيخ أبو الوفا نصر الهوريني - دار الكتب العلمية
- بيروت ٢٠٠٧م.
- ٥٩- فيصل السامر : الأصول التاريخية للحضارة العربية
الإسلامية في الشرق الأقصى - وزارة الثقافة والإعلام (دار الشؤون
الثقافية) - بغداد ١٩٨٦م.
- ٦٠- الفيومي (أحمد بن محمد بن علي المُفْري) :
المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي - نشر المكتبة
العلمية - بيروت د.ت.
- ٦١- كالفني (لويس جان) : حرب اللغات والسياسات اللغوية -
ترجمة حسن حمزة - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت
٢٠٠٨م.
- ٦٢- كلباسي (ايران) : فارسي ايران وتاجيكستان (يك بررسي
مقابله اي) - وزارت امور خارجه - مؤسسة جاب وانتشارات -
تهران ١٣٧٤ ه.ش.
- ٦٣- كلوكهون (كلايد) : الأنثروبولوجي الحضاري ، استعمالات
جديدة للبرابرة - (مجموع آفاق المعرفة) - ترجمة شاكر مصطفى
سليم - مؤسسة فرنكلين المساهمة - بغداد - نيويورك ١٩٦٢م -
منشوات دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦٢م.

- ٦٤- كونتينو (جورج) : الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور -
ترجمة سليم طه التكريتي ، وبرهان التكريتي - (سلسلة الكتب
المتجمة) وزارة الثقافة والإعلام - بغداد ١٩٧٩م.
- ٦٥- كوندرا توف (أ) : أصوات وإشارات - ترجمة أدور يوحنا -
وزارة الثقافة والإعلام (سلسلة الكتب المتجمة) - بغداد ١٣٩٠ هـ
- ١٩٧١م.
- ٦٦- لتشنر (فرانك) ، وبولي (جون) : العولمة : الطوفان أم الإنقاذ
(الجوانب الثقافية والسياسية) - ترجمة فاضل جتكر - مركز
دراسات الوحدة العربية - بيروت ٢٠٠٤م.
- ٦٧- لوبون (غوستاف) : الآراء والمعتقدات - ترجمة محمد عادل
زعيتر - عني بنشره إلياس أنطوان إلياس صاحب المطبعة
العصرية - القاهرة د.ت.
- ٦٨- لوبون (غوستاف) : روح الجماعات - ترجمة عادل زعيتر
- دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٥٥م.
- ٦٩- لوبون (غوستاف) : السنن النفسية لتطور الأمم - ترجمة
عادل زعيتر - دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٥٧ م.
- ٧٠- لوتز (جون) : علم اللغة (الصورة تخلق الإنسان) - ترجمة
صفاء خلوصي (مجموعة آفاق المعرفة) - مؤسسة فرنكلين

- المساهمة للطباعة والنشر (بغداد - نيويورك ١٩٦٢) - منشورات
دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦٢ م.
- ٧١- الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد):
الأحكام السلطانية والولايات الدينية - مطبعة مصطفى البابي
الحلي وأولاده - القاهرة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.
- ٧٢- مجمع اللغة العربية في القاهرة : معجم ألفاظ القرآن الكريم
- الهيئة العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٣ م.
- ٧٣- مجمع اللغة العربية في القاهرة : المعجم الوسيط - أخرجه
إبراهيم مصطفى وآخرون - نشر دار إحياء التراث العربي عن
طبعة القاهرة - د. ت.
- ٧٤- مجموعة من المؤلفين : معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا -
بإشراف بياربونت وميشال إيزار - ترجمة مصباح الصمد -
المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع (مجد) - بيروت
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
- ٧٥- محمد جواد مشكور : فرهنگ تطبیقی عربی بازبانهای سامی
وایرانی (المعجم المقارن بين العربية والفارسية واللغات السامية) -
انتشارات بنیاد فرهنگ ایران - تهران ١٣٨٧ هـ. ش.
- ٧٦- محمد جواد مشكور : هزوارش های بهلوی - انتشارات بنیاد
فرهنگ ایران - تهران ١٣٤٦ هـ. ش.

- ٧٧- محمد رضا المظفر : عقائد الإمامية - نشر دار الغدير -
بيروت ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.
- ٧٨- محمد علي الخولي : معجم علم اللغة النظري - مكتبة لبنان
- بيروت ١٩٨٢ م.
- ٧٩- محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
- دار الشعب - القاهرة د.ت.
- ٨٠- محمد معين : فرهنك فارسي معين - تهران ١٣٨٢ هـ.ش.
- ٨١- محمود السعران : علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي) - دار
النهضة العربية - بيروت د.ت.
- ٨٢- محمود فهمي حجازي : اللغة العربية عبر القرون - دار
الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٧٨ م.
- ٨٣- موسكاتي (سبتيانو) : الحضارات السامية القديمة - ترجمة
الدكتور سيد يعقوب بكر - دار الكتاب العربي - القاهرة د.ت.
- ٨٤- موسكاتي (سبتيانو) وآخرون : فقه اللغات السامية المقارن -
ترجمة عبد الجبار المطلبي ومهدي المخزومي - بيروت ١٩٨٥ م.
- ٨٥- ميشال زكريا : الألسنية (علم اللغة الحديث) : المبادئ
والأعلام - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت
١٩٨٠ م.

- ٨٦- نايف خرما : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة -
سلسلة عالم المعرفة - الكويت ١٩٧٨م.
- ٨٧- نخبة من اللغويين العرب : معجم مصطلحات علم اللغة
الحديث - مكتبة لبنان - بيروت ١٩٨٣م.
- ٨٨- نور الدين خليل : قاموس الأديان الكبرى الثلاثة (اليهودية
- المسيحية- الإسلام) - مؤسسة حورس الدولية - مصر
الإسكندرية ٢٠١٠م.
- ٨٩- نوري جعفر : اللغة والفكر - مكتبة التومي - الرباط
١٩٧١م.
- ٩٠- هارمان (هارالد) : تأريخ اللغات ومستقبلها - ترجمة سامي
شمعون - المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث - دولة قطر -
الدوحة ٢٠٠٦م.
- ٩١- هدرن (د) : علم اللغة الاجتماعي - ترجمة محمود عبد
الغني عياد - دار الشؤون الثقافية العامة (وزارة الثقافة والاعلام)
- سلسلة المائة كتاب - بغداد ١٩٨٧م.
- ٩٢- هونتغتون (صموئيل) : صدام الحضارات وإعادة بناء النظام
العالمي- ترجمة عبيد أبو شهيو ومحمود محمد خلف- الدار
الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان - ليبيا ١٤٢٩ هـ - ١٩٩٩م.

- ٩٣- ياكوبسون (رومان) : الاتجاهات الأساسية في علم اللغة -
ترجمة علي حاكم صالح وحسن ناظم - المركز الثقافي العربي -
الدار البيضاء (المغرب) ، بيروت (لبنان) ٢٠٠٢ م .
- 94- Crystal , (David) , Linguistics , London 1973.
- 95- Dozy , R, Supplément aux Dictionnaire as Arabes
- (تكملة المعاجم العربية) طبع أوربا - هولندا ١٨٨١ - طبعة
مصورة بالأوفسيت - مكتبة لبنان - بيروت ١٩٦٨ م.
- 96-T.S. (Eliot) , Notes to wards the definition of
coulture.
- 97-Fraenkel , Sigmund , Die aramäishen fremd wörter
im Arabischen , Leiden , 1886.
- 98-Franklin , C. Southworth , C. J. Daswan,
foundation of linguistics – New York , 1974.
- 99-Jeffery , (A) , The foreign vocabulary of the Qur'an
, orental institute , Baroda 1938.
- 100- F.R. (Palmer) Semantics a new outline ,
London 1977.
- 101- Ullmann, Stephen , Semantics , An
introduction to the science of meaning , New York
1962.